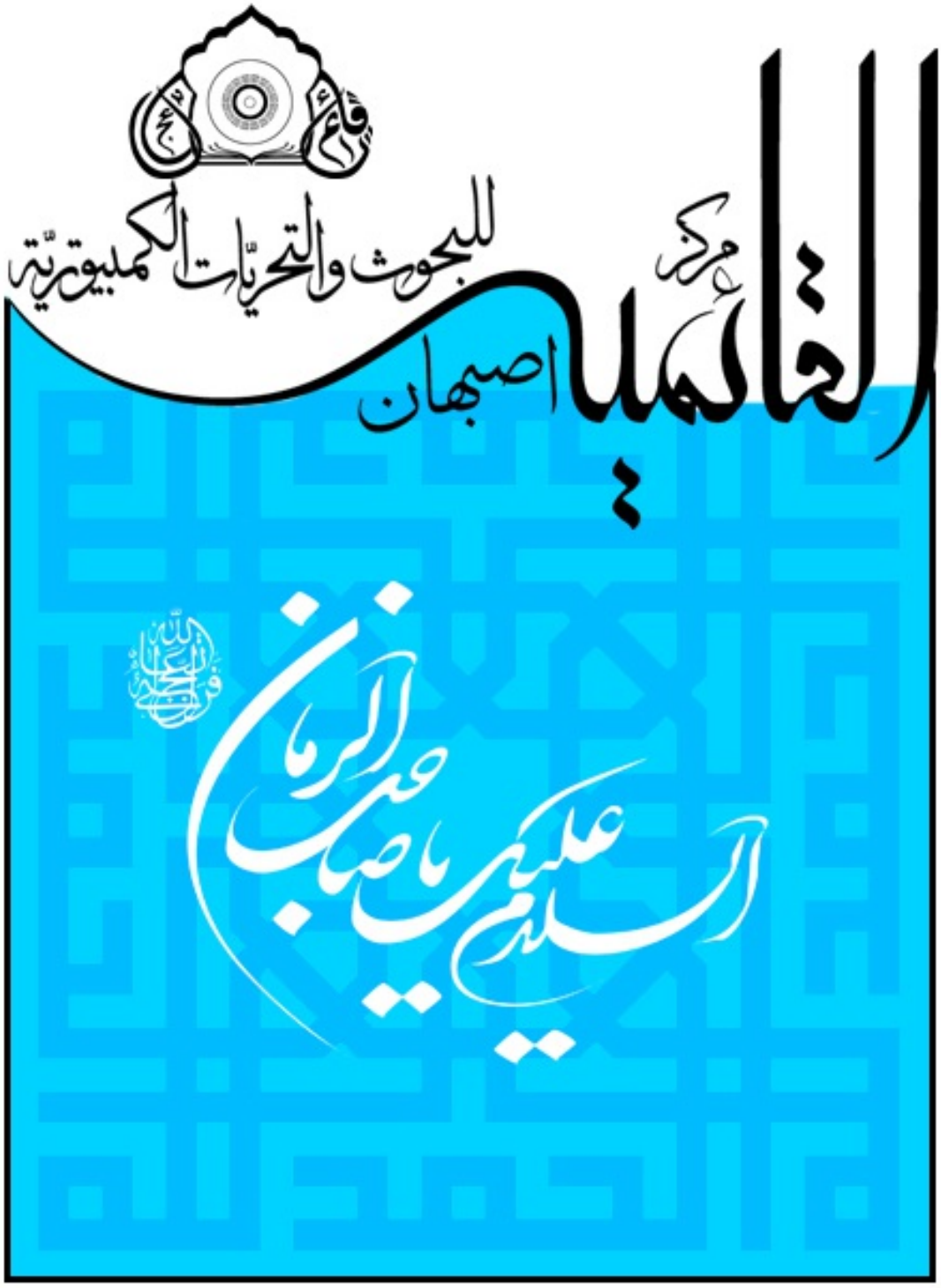

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الدكتور عبد المنعم النمر

الإعجاز في الإفعال

عالم الكتب
بيروت

مكتبة الكليات الأزهرية
القاهرة

جلد (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

الازهر فى الف عام

كاتب:

خفاجى، محمد عبدالمنعم

نشرت فى الطباعة:

عالم الكتب

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الازهر فی الف عام المجلد ۳ ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
الباب السابع ----- ۱۵
حول الأزهر و رسالته ----- ۱۵
- ۱- ----- ۱۵
- ۲- رسالة الأزهر فی رأی المراغی: ----- ۱۶
- ۳- ----- ۱۷
- ۴- ----- ۱۸
- ۶- ----- ۱۹
- ۷- ----- ۲۳
- ۸- ----- ۲۵
- ۹- ----- ۲۷
- ۱۰- ----- ۲۷
- ۱۱- ----- ۳۰
- ۱۲- ----- ۳۰
- ۱۳- ----- ۳۲
- ۱۴- ----- ۳۵
الأزهری و واجبه الدینی و الروحی ----- ۳۹
الأزهری کما ینبغی أن یکون ----- ۴۰
حول رسالة الأزهر ----- ۴۱
رسالة الأزهر فی النصف الثانی من القرن العشرین ----- ۴۵
- ۱- ----- ۴۵

- ۲- ۴۵
- ۲- ۴۶
الباب الثامن ۴۷
آراء للأزهر فی مشکلاتنا الفکریة ۴۷
- ۱- ۴۷
- ۲- ۴۸
- ۳- ۵۱
- ۴- ۵۱
- ۵- ۵۳
- ۶- ۵۳
- ۷- ۵۵
- ۸- ۵۵
- ۹- فکرة توحید التعلیم: ۶۲
- ۱۰- ۶۲
الباب التاسع ۶۳
ألوان ثقافیة فی حیاة الأزهر العلمیّة ۶۳
- ۱- ۶۳
- ۲- ۶۴
- ۳- ۶۶
- ۴- ۶۹
- ۵- ۷۰
من صحائف الذکری ۷۳
شعلة لا تنطفیء ۷۴
علماء من الأزهر القدیم و الحدیث ۷۵

- ۱- ۷۵
- ۲- ۷۷
أموال المسلمين الموقوفة على الأزهر ۷۹
بعض آراء فی الإصلاح ۷۹
الأزهر و الذكريات القوميۀ ۸۰
الأزهر و معارک التحرير الأولى ۸۳
اشارۀ ۸۳
إعلان الجهاد: ۸۴
بين الأزهر و نابليون: ۸۴
محاكمۀ العلماء الثائرين: ۸۵
بين الأزهر و الجنرال كليبر: ۸۵
مصرع الجنرال كليبر: ۸۶
الأزهر يحرض على قتال الحملۀ الإنجليزيۀ الأولى: ۸۶
إنتاج الأزهر العلمی فی العصر الحديث ۸۷
اشارۀ ۸۷
كليۀ اللغۀ العربيۀ تنشیء صحافۀ أزهريۀ ۸۷
الأزهر و رسالۀ الإسلام ۸۸
الباب العاشر ۸۹
شخصيّات أزهريّۀ معاصرۀ ۸۹
الشيخ محمد عرفۀ ۸۹
الشيخ على محفوظ ۹۳
الشيخ صالح شرف ۹۴
الشيخ محمد محيی الدين عبد الحميد ۹۵
الشيخ شلتوت ۹۶

الشیخ محمد کامل حسن ---- ۹۶
الشیخ حسین خفاجی ---- ۹۷
الشیخ عبد المتعال الصعیدی ---- ۹۷
السید حسن القایاتی ---- ۱۰۰
الشیخ محمد الأسمر ---- ۱۰۳
هیئات التدریس فی کلیات الجامعة الأزهریة ---- ۱۰۷
اشارة ---- ۱۰۷
فی کلیة أصول الدین ---- ۱۰۷
فی کلیة اللغة العربیة ---- ۱۰۸
فی کلیة الشریعة ---- ۱۰۹
أهداف الأزهر الجامعی ---- ۱۱۰
اشارة ---- ۱۱۰
الاختصاصات الإداریة: ---- ۱۱۰
الاختصاصات الدراسیة: ---- ۱۱۰
الاختصاصات العلمیة: ---- ۱۱۱
الباب الحادی عشر ---- ۱۱۱
من تاریخ الأزهر الأزهر جامعا و جامعة ---- ۱۱۱
- ۱- ---- ۱۱۱
- ۲- ---- ۱۱۲
- ۴- ---- ۱۱۳
- ۵- ---- ۱۱۴
- ۶- ---- ۱۱۵
الجامع الأزهر ---- ۱۱۵
اشارة ---- ۱۱۵

تاریخ إنشائه ---- ۱۱۶
و الغرض منه ---- ۱۱۶
أول درس فیه ---- ۱۱۶
ابن کلس ---- ۱۱۷
دار العلم أو دار الحکمة ---- ۱۱۷
فی عهد الدولة الأیوبیة ---- ۱۱۸
فی أیام الممالیک ---- ۱۱۸
فی عهد الأتراک ---- ۱۱۸
و حین جاءت الحملة الفرنسیة ---- ۱۱۹
فی عهد محمد علی ---- ۱۱۹
مشیخة الشیخ المراغی ---- ۱۲۰
بین الأزهر و جامعة القرویین ---- ۱۲۲
بین الزیتونة و الأزهر ---- ۱۲۶
الباب الثانی عشر ---- ۱۳۷
شخصیّات .. و مواقف ---- ۱۳۷
ابن السّبکی ---- ۱۳۸
الشیخ محمد الحفنی شیخ الأزهر ---- ۱۴۰
أزهریون خالدون ---- ۱۴۳
اشارة ---- ۱۴۳
الشیخ الدردیر یقود ثورة: ---- ۱۴۴
الشیخ عباس و وقف المغاربة: ---- ۱۴۴
الشیخ السادات یقود الثورة: ---- ۱۴۵
و یخاف منه الأتراک أیضا: ---- ۱۴۶
الأزهری الشیخ سلیمان الجوسقی ---- ۱۴۶

رفاعة رافع الطهطاوی ----- ۱۴۹
صورة عن الامام الشیخ محمد عبده ----- ۱۵۱
نسبه و مولده و نشأته: ----- ۱۵۱
ثقافته و أساتذته: ----- ۱۵۱
بیئته و أثرها فی حیاته: ----- ۱۵۲
تقلبه فی مناصب الدولة: ----- ۱۵۲
وطنیته و دعوته للحریة السیاسیة و الفکریة: ----- ۱۵۲
إصلاحاته و آراؤه. و الصراع بینه و بین علماء عصره: ----- ۱۵۳
مؤلفاته العلمیة و الأدبیة: ----- ۱۵۴
دفاع الشیخ عن الإسلام، و تفنید مزاعم المبشرین: ----- ۱۵۶
الشیخ مصطفی عبد الرازق ۱۸۸۵- ۱۵ فبراير ۱۹۴۷ ----- ۱۵۶
الأزهری یرد علی اسماعیل باشا ----- ۱۵۸
مفتی .. قبرص! ----- ۱۶۰
مسیرة الألف عام مجلة الاذاعة المصریّة ۲۵/ ۱۱/ ۱۹۷۲ ----- ۱۶۰
و فی رسالة الدکتوراه عن دور الأزهر فی الحیاة المصریة أثناء الحملة الفرنسیة التی کتبها د. مصطفی رمضان ----- ۱۶۱
حوار بین العلماء و الوالی ----- ۱۶۲
الأزهر أکسفورد الشرق ----- ۱۶۳
الأزهر و أثره فی الحیاة الإنسانیة ----- ۱۶۷
قرارات لمؤتمر البحوث الإسلامیّة ----- ۱۶۹
قصّة الأزهر الجامعی بعد عشرین عاما ----- ۱۷۰
الأزهر حصن العربیة ----- ۱۷۲
الأزهر من بعید .. و من قریب ----- ۱۸۰
الأزهر الخالد ----- ۱۸۱
اشارة ----- ۱۸۱

من تاریخ الأزهر: ۱۸۱
فضل الأزهر علی العلوم و الآداب: ۱۸۲
أثر الأزهر فی التوجیه الدینی: ۱۸۳
مکانة الأزهر فی العالم الإسلامی: ۱۸۳
مواقف خالدة للأزهر: ۱۸۳
الأزهر و التجدید: ۱۸۴
الأزهر الخالد ۱۸۵
الدکتور طه حسین و الازهر ۱۸۶
الأزهر فی القرن العشرین ۱۸۷
الشیخ محمد عبد اللطیف السبکی ۱۹۰
نشاط أزهری ۱۹۱
المرأة فی الأزهر ۱۹۳
عمید الأدب العربی فی الأزهر ۱۹۳
اشارة ۱۹۳
و قال الأستاذ الأکبر للدکتور طه حسین ۱۹۴
ثم التفت الأستاذ الأکبر إلی الدکتور طه حسین و قال: ۱۹۴
محمد عبد المنعم خفاجی - أدیبا- ۱۹۶
- ۱- ۱۹۶
- ۲- ۱۹۶
- ۳- ۱۹۸
- ۴- ۱۹۸
- ۵- ۱۹۹
- ۶- ۲۰۰
- ۷- ۲۰۰

- ۸- ----- ۲۰۱
- ۹- ----- ۲۰۳
- ۱۰- ----- ۲۰۵
لو أن للدين رجالا ----- ۲۰۵
اشارة ----- ۲۰۶
تحرير النفس: ----- ۲۰۶
تنمية الذات: ----- ۲۰۶
۳و غاية هذه التربية: ----- ۲۰۶
اشارة ----- ۲۰۶
تكوين الأمة: ----- ۲۰۷
تحقيق السلام: ----- ۲۰۷
الشيخ محمود شلتوت ----- ۲۰۸
أعلام معاصرون ----- ۲۰۹
الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد رائد مدرسة التحقيق العلمى ----- ۲۰۹
الشيخ عبد السميع شبانة ----- ۲۱۱
الشيخ محمد الطنطاوى ----- ۲۱۱
الشيخ عبد الجليل عيسى ----- ۲۱۳
الشيخ سعاد جلال ----- ۲۱۴
الدكتور أحمد الشرباصى ----- ۲۱۵
اشارة ----- ۲۱۵
كتب إلىّ عام ۱۹۵۸ من دمشق يقول: ----- ۲۱۷
الدكتور الخفاجى- محمد عبد المنعم خفاجى- عالما- ----- ۲۲۱
اشارة ----- ۲۲۱
و يقول عنه الدكتور أحمد زكى أبو شادى رائد مدرسة أبو للو: ----- ۲۲۴

و یقول عنه الأستاذ روکس العزیزی: ۲۲۵
و قال الناقد مصطفی السحرتی فی الخفاجی : ۲۲۵
و قال عنه الدکتور سعاد جلال الأستاذ بجامعة الأزهر: ۲۲۵
و قال الدکتور عبد المنعم النمر فیه: ۲۲۵
و قال عنه الأدیب الحجازی الکبیر الأستاذ عبد الله الجبار: ۲۲۵
و قال الأدیب الحجازی الکبیر أحمد عبد الغفور عطار : ۲۲۵
و قال فیه الشاعر الکبیر محمود غنیم: ۲۲۶
و قال فیه الشاعر الکبیر الدکتور حسن جاد: ۲۲۶
و قال فیه الشاعر کامل أمین: ۲۲۷
و قالت فیه الشاعرة جلیلة رضا: ۲۲۷
و قال الشاعر محمود الماحی فیه: ۲۲۷
و قال عنه الشاعر أحمد أبو المجد عیسی: ۲۲۷
و قال عنه الشاعر إبراهیم شعراوی: ۲۲۸
أبو الجامعات فی الشرق و الغرب قلعة حضاریة فی تاریخ مصر الإسلامیة ۲۲۸
ترجمة القرآن الکریم ۲۳۲
الشیخ المراغی ۲۳۳
شیخ جامعة الأزهر الحالی الدکتور محمد السعدی عوض فرهود ۲۳۵
اشارة ۲۳۵
نشاطه: ۲۳۶
مؤلفاته: ۲۳۶
اشارة ۲۳۶
- فی البیان القرآنی ۲۳۶
- فی الدراسات الأدبیة ۲۳۶
- فی الدراسات النقدیة ۲۳۷

- فی الدراسات البلاغیة ----- ۲۳۷
- فی الدراسات اللغویة ----- ۲۳۷
الإمام نافع الخفاجی الکبیر ۱۲۵۰ ه- ۱۸۳۴ م- ۱۳۳۰ ه- ۱۹۱۲ م ----- ۲۳۷
اشارة ----- ۲۳۷
مؤلفاته: ----- ۲۴۰
أما الکتب الموجودة لدی من مؤلفاته فهی: ----- ۲۴۱
جملة مؤلفات الخفاجی المخطوطة الموجودة فی مکتبتی: ----- ۲۴۳
کتب مفقودة لنافع الخفاجی: ----- ۲۴۴
صور من شعره ----- ۲۴۶
نافع الخفاجی حفید العلامة نافع الخفاجی الکبیر ----- ۲۴۸
اشارة ----- ۲۴۸
شاعریته: ----- ۲۴۸
شخصیته: ----- ۲۴۹
شعره: ----- ۲۴۹
کلمة أخیرة: ----- ۲۵۲
الأزهر فی صور ----- ۲۵۳
الفهرس ----- ۲۵۴
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۵۶

الازهر فی الف عام المجلد ۳

اشارة

نام کتاب: الأزهر فی ألف عام

نویسنده: خفاجی، محمد عبدالمنعم

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۳

ناشر: عالم الکتب

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۸ ه. ق

نوبت چاپ: دوم

الباب السابع

حول الأزهر و رسالته

-۱-

کانت الغفوة الکبری التی أصابت العالم الإسلامی فی القرون الوسطی ذات أثر بعید فی حیاته السیاسیة و العقلیة و الاجتماعیة فی القرن التاسع عشر.

لم یبعد المسلمون هذه الحقبة الطویلة کثیرا عن تقالید الشرق، و إنما جافوا روح الإسلام، و جهلوا مبادئه و أهدافه، و وقفوا أمام تیار النهضة الغربیة جاهلین عاجزین أذلاء. و بادرهم المستعمرون بتحطیم ما بقی فی أجسامهم من منعة، و فی قلوبهم من إیمان، و فی أرواحهم من عزة و مثل علیا ... و کانت الأحداث الکبری التی هزت العالم الإسلامی هزا عنیفا داعیة للمفکرین و المصلحین أن یجاهدوا فی سبیل البعث و الإحیاء و تجدید الحیاة و الأمل فی نفوس المسلمین. و اقترن ذلک بدعوات جریئة للإصلاح، انبعثت من رجال الدین حینا، و من غیرهم حینا آخر. من أمثال محمد بن عبد الوهاب م ۱۲۰۶ ه، و السید أحمد خان الهندی ۱۸۹۸ م، و السید أمیر علی، و الکواکبی ۱۹۰۲ م، و جمال الدین الأفغانی ۱۸۹۷ م، و محمد عبده ۱۹۰۵ م، و سواهم من دعاة الإصلاح، و حملة رسالته.

کان السید جمال الدین الأفغانی یرید تحریر الشعوب الإسلامیة من

العبودیة و الاستعمار، و تکوین حکومة إسلامیة موحدة تهتدی بهدی الإسلام، و بعث الروح القومی فی الشرق عن طریق الإصلاح الدینی العام .. و کان محمد عبده یرید النهوض بالشرق الإسلامی سیاسیا عن طریق النهضة الثقافیة به، و یری أن الإسلام هو السبیل لتمهید حرکة الإصلاح و تغذیتها، و أنه هو و العقل و العلم إخوة، و لذلک دأب علی الدعوة إلی تصحیح العقیدة، و إذاعة رسالة الإسلام، و إیقاظ الشعور العام بإیقاظ الروح الدینی .. و خفتت بعد محمد عبده دعوة الإصلاح فی الشرق، و إن لمعت جذوتها حینا فی أفکار الشیخ مصطفی المراغی، رحمه اللّه، الذی کان یعمل للنهوض بالأزهر الحدیث حتی یصل إلی مستوی الجامعات الکبری فی الشرق و الغرب .. کما أضاءت الشعلة حینا آخر فی آراء الشیخ مصطفی عبد الرازق و حمروش و عبد المجید سلیم، الذین کانوا

يحرصون على إحياء التعارف و التعاون بين المسلمين عامة. و لكن هذه الآثار لم تكن على جانب خطير من الأهمية فى الإصلاح الدينى فى الشعوب الإسلامية فى القرن العشرين.

- ۲- رسالة الأزهر فى رأى المراغى:

رسالة الأزهر عنده هى حمل رسالة الإسلام .. و متى عرفت رسالته عرفت رسالة الأزهر. و الإسلام دين جاء لتهذيب البشر و رفع مستوى الإنسانية و السمو بالنفوس إلى أرفع درجات العزة و الكرامة، طوح الإسلام بالوسطاء بين الناس و ربهم، و وصل بين العبد و ربه، و لم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى، و قد العلم و العلماء، و قرر فى غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات، و ما قرره فى ذلك هو منتهى ما سمت إليه الحكمة، و وصل إليه العقل، و فرض عبادات كلها ترجع إلى تهذيب النفس

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷

و تلطيف الوجدان، و إبان أصول الأخلاق، و قرر التمتع بالطيبات و لم يحرم إلا الخبائث، و وضع حدودا تحد من طغيان النفوس و نزوات الشهوات، و وضع أصول النظم الاجتماعية و أصول القوانين: قواعد كلها لخير البشر و سعادة المجتمع الإنسانى .. هذه صورة مصغرة جدا للدين الإسلامى، و شرح قواعده و أسراره، و متى أدى الأزهر هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيبا عظيما من السعادة و الخير للجمعية الإنسانية. و فى القرآن الكريم حث شديد على العلم، و على معرفة اللّه و على تدبر ما فى الكون، و ليس هناك علم يخرج موضوعه عن الخالق و المخلوق. فالدين الإسلامى يحث على تعلم جميع المعارف الحقة. و ليس فى المعارف الصحيحة المستقرة شىء يمكن أن يناقض أصول الدين و يهدمها، نعم قد توجد معارف تناقض ما وضعه العلماء فى شرح القرآن و الحديث و الفقه و غير ذلك، و لكنا لا نهتم لهذا. فليسر العلم فى طريقه، و لنصحح معارف الماضين، و لكن على شريطة أن يكون ما يخالف معارفنا من العلم البرهانى المستقر، و لم يقصد من هذا أن يكون الأزهر مدرسة طب أو هندسة، أو كلية للكيمياء أو ما يشبه هذا: و لكنه يعنى أن هناك علوما و معارف لها صلة وثيقة بالدين، تعين على فهمه، و تبرهن على صحته، و يدفع بها عنه الشبهات. فهذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الدينى أو يتعلم منها القدر الضرورى لما يوجه إليه.

و قد تغيرت فى العالم طرق عرض السلع التجارية، و أصبح الإعلان عنها ضروريا لنشرها و ترغيب الناس فيها. و لديكم الحوانيت القديمة و مخازن التجارة الحديثة، فقارنوا بينها تدركوا ما فى طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس إليها، و ما فى طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر النفس منها. و قد توجد فى الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفا و أكثر قيمة و أمتن مادة، و مع ذلك فهى فى كساد، و كما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم، و أحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة فى العلم، و تنفى عنه الملل و السأم، حدثت هذه الطرق فى إلقاء

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۸

الدروس و المحاضرات، و حدثت فى تأليف الكتب أيضا، و هذا المثل ينطبق علينا، ففى جميع الكتب التى تدرس فى الأزهر، و فى جميع العلوم التى تدرس فى الأزهر، أعلاق نفيسة لا تحتاج إلا إلى تغيير طريقة العرض فى الدرس و التأليف، و فى الفقه الإسلامى نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون، و فى الفقه الإسلامى آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج، و هى تحقق العدالة فى أكمل صورها. و لكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال و الحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم.

على الأزهر أن يسهل فهم علومه على الناس، و أن ييسر لهم هذه المعارف، و أن يعرضها عرضا حديثا جذابا مشوقا، و مسألة أخرى يجب أن يعنى الأزهر بها: هى تطهير الدين الإسلامى من البدع، و ما أضيف إليه بسبب الجهل بأسراره و مقاصده، فهناك آراء منثورة فى كتب المذاهب و فى غير كتب المذاهب يحسن سترها ضنا بكرامة الفقه و الدين.

من الواجب أن يعترف بأن المذاهب الإسلامية جملة تغنى عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت من قبل متى تخير العلماء منها، و

أذكر قصة طريفة تجدونها فی كتاب الولاة و القضاة للكندی: «كان فی مصر قاض شافعی المذهب فی عصر الإمام الطحاوی. و كان يتخير لأحكامه ما يرى أنه محقق للعدل من آراء الأئمة و لا يتقيد بمذهب. و كان مرضی الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه فی دينه و خلقه، سأل ذلك القاضی الإمام الطحاوی عن رأيه فی واقعة من الوقعات. فقال الطحاوی: أتسألنی عن رأيی أم عن رأی أبی حنيفة؟ قال القاضی: و لم هذا السؤال؟ قال الطحاوی: ظننتك تحسبنی مقلدا. فقال القاضی: ما يقلد إلا عصبی أو غبی؟»، فتخير الأحكام نوع من الاجتهاد، و لكنه الاجتهاد الذی لم يغلق الناس أبوابه، فإصلاح التعليم فی الأزهر واجب اجتماعی لإصلاح الأمم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹

الإسلامية علی مختلف أقطارها و أجناسها، و علی كل مسلم أن يساهم فيه إذا استطاع إلی ذلك سبيلا، و أن نرجو اللّه سبحانه أن يوفق العلماء و طلاب العلم إلی الإخلاص فی ذلك إخلاصا للّه و لرسوله و للمؤمنين و للدين الحق الذی وعد اللّه أن يظهره علی الدين كله، و جعله هداية عامة لجميع البشر .. و نصيحة أقدمها إلی العلماء و طلاب العلم فی الأزهر راجيا تدبرها، و هی احترام حرية الرأی، و التحرج من الاتهام بالزندقة و الكفر، و لا نطالب بشیء يعد بدعة، و لا نحدث فی الدين حدثا بهذه النصيحة، فهی موافقة للقواعد التی وضعها سلف الأمة رضی اللّه عنهم. و ترونها مبسوطة واضحة فی كتب الأصول و فی جميع كتب الإمام الغزالی، و حاصلها- علی ما أذكر- أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضرورری منها كالصلاة و الزكاة و حرمة الزنا و شرب الخمر و قتل النفس و الربا، أما إنكار أن الإجماع حجة، و خبر الواحد حجة، و القياس حجة، فلا يوجب الكفر، و ما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إثم فی إنكاره مطلقا، علی شرط أن يكون الإنكار غير مصادم لنص أو إجماع.

علی هذا أجمع الصحابة رضی اللّه عنهم، و أجمع عليه الأئمة، و لم يعرف أن بعضهم أثم بعضا، و علی الجملة فما دام المسلم فی دائرة القرآن لا يكذب شيئا منه، و لا يكذب ما صح عن رسوله صلی اللّه عليه و سلم بطريق قاطعة، فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه بالكفر .. عرضنا لهذه النصيحة لأنها تسهل علی أهل الأزهر معاشرة الناس، و العمل بها يمّكن من نشر الدعوة و من الجدل بطرقه المقبولة، و العمل علی خلافها منفر يحدث الشقاق و يورث العداوة.

و إذا كانت مهمة الأزهر حمل رسالة الإسلام للعالم، فمن أول واجب علی أهله أن يعدوا أنفسهم لتعلم اللغات، لغات الأمم الإسلامية و غير الأمم الإسلامية، و اللّه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم، فليحقق الأزهر القدوة، و ليرسل إلی الناس رسلا يفقهونهم فی دينهم بلسانهم .. و قد عنی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰

المراغی بهذه المسألة كما عنی بتثقيف إخواننا الذين أسماهم القانون «أغرابا»، فإن لهم من الحقوق و الحرية فی هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد، و نرجو أن يفكروا طويلا فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية و الإرشاد و إسعاد المجتمع.

-۳-

و كان الشيخ عبد المجيد سليم يری و هو فی أول مشيخته الأولی اقتران الإصلاح الدينی فی العالم الإسلامی بإصلاح الأزهر الشريف. و مهمة الأزهر فی رأيه جد خطيرة، فهی تشتمل: «تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم و لغة كتابهم، تعليما قويا مثمرا، يجعلهم حملة للشريعة، أئمة فی الدين و اللغة، حفّاظا حرّاسا لكتاب اللّه و سنة رسوله و تراث السلف الصالح و القيام بما أوجبه اللّه علی الأمة من تبليغ دعوته، و إقامة حجته، و نشر دينه ... فعلی رعاية هذين الجانبين يجب أن تقوم خطة الإصلاح فی الأزهر، و أن يعمل العاملون علی تحقيق آمال الأمة فيه ».

و وسائل إصلاح هذه الجامعة الإسلامية العتيدة تتلخص فی رأيه فيما يلی:

۱- مراجعة الكتب الدراسية، و إبقاء الصالح منها، و اختيار لون جديد يوجه الطلاب توجيها حسنا إلی العلم النافع من أقرب طريق و

أیسره.

۲- تشجیع حرکة التألیف و التجدید عن طریق الجوائز العلمیة و غیرها حتی یتصل حبل العلم ... و توجیه العلماء إلی وضع بحوث فی الفقه و التشریع تسایر الروح العلمی الحاضر.

۳- إعداد جیل قوی من أبناء الأزهر یستطیع أن یحمل الرسالة، فإن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱

الأمة تریـد من الأزهر أن یخرج لها علماء فی الـدین و الشـریعة و اللغة و سائر العلوم العقلیة و الاجتماعیة المتصـلة بها، علی أن یکون هؤلاء العلماء مزودین مع هذا بقدر صالح من العلوم الأخری التی تفیدهم فی مجتمعهم ثقافة عامة، و فی هذا یقول أیضا موجها کلمته إلی الأزهریین: نصـیحتی إلیکم أن تعلموا أنکم مجنـدون فی سبیل اللّه، فأقبلوا علی دراسـتکم، و تجملوا بالفضـیلة بینکم و بین الناس، لتحقیق آمال الأمة فیکم، و إعلاء کلمة الدین و العلم بکم .

۴- تشـجیع حرکة البعوث العلمیة التی یرسلها الأزهر إلی جامعات أوروبا للتزود من شتی الثقات .. و لا بدع فإن العلم رحم «بین الناس کافة» کما یقول الأستاذ سلیم لعلماء جامعات أوروبا الذین زاروا مکتبه فی زیارتهم للأزهر الشریف.

۵- تنظیم هـذه الجامعـة الکبری تنظیمـا یتفق مع خطر رسالتهـا، و یساعـدها علی أداء هـذه الرسالـة، بإنشـاء مکتبـة کبری، و دار کبیرة للطباعة، و إکمال مبانی الأزهر الجامعی، تمهیدا للاحتفال بعیده الألفی، إلی غیر ذلک من وسائل الإصلاح:

أما مهمة الأزهر فی سبیل الإصلاح الدینی فی مصر و الشرق الإسلامی فتتلخص فیما یلی:

۱- العنایة بإصـلاح حالة الأسـر بإصلاح شئونها، و دعم کیانها، عن طریق بحث التشریعات اللازمة لها: فی الزواج، و الطلاق، و النفقة، و الحضانة، و الولایة، و ما إلیها .

۲- نشر الدین و الثقافة فی کل ناحیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲

۳- إرسال البعوث الأزهریة إلی شتی أرجاء البلاد الإسلامیة لدراسة أحوالها و تهذیب أبنائها.

۴- تشجیع البعوث الوافدة علی الأزهر، و بناء دار کبری لإقامتهم، و رعایة شئونهم العلمیة و الخلقیة و الدینیة.

۵- ربط الأزهر بشتی الجامعات الشرقیة، و إنشاء مراکز ثقافیة له فی عواصم البلاد الإسلامیة.

و أما مهمة الأزهر فی الدعوة إلی الدین فی العالم، فهی کما یری تشمل ما یأتی:

۱- توجیه العلماء إلی وضع مؤلفات باللغات الأجنبیة، لبیان حقیقة الإسلام و مزایاه.

۲- إنشاء إدارة للدعایة الإسلامیة، تتولی توجیه الناس إلی الإسلام و مبادئه الخالدة.

۳- ترجمة تفسیر القرآن الکریم إلی اللغات الأجنبیة.

-۴-

و یری الأسـتاذ الأکبر الشـیخ إبراهیم حمروش أن رسالـة الأزهر تقوم علی دعامـة التوجیه العلمی لنظم الدراسـة فیه، لتکوین جیل قوی کفء من أبنائه یتحلی بصفات العلماء، و مواهب و أخلاق رجال الدین، دون نظرة إلی الکثرة و العدد، و أن هذا الجیل القوی یستطیع أن یؤدی رسالـة الأزهر العلمیـة و الدینیة فی مصـر و الشـرق الإسـلامی، و قد بدأ الشـیخ فی مشـیخته بالتفکیر فی طبع رسائل للتعریف بالدین بشتی اللغات، و بفتح القاعة الکبری للأزهر لمحاضرات علمیة و توجیهیة یلقیها کبار شیوخ الأزهر.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۳

و قد نشـر الأسـتاذ الکبیر الشیخ محمد عرفة عضو جماعة کبار العلماء کتابا عنوانه «رسالة الأزهر فی القرن العشرین»، ذهب فیه إلی أن

رسالة الأزهر هی أن یفهم الناس الدین علی وجهه و أن ننقیه من التفسیرات الخاطئة التی دخلت علیه، و فوق ذلک علیه أن یعنی بأخلاق الأمة و تقالیدها.

و قد أخذ الأستاذ علی الأزهر أن التعلیم فی الأزهر لم یعن بالخلق کما یجب، و أن الإقبال علی العلم بین جدرانه أصبح ضعیفا، و أن المادیة قد دخلت فیه و أفسدت الکثیر من حیاته.

و إبان أن ثقة الأمة فی الأزهر تضعف شیئا لعوامل کثیرة: منها قلة الإنتاج العلمی فی محیطه، و انقلاب الأزهریین إلی موظفین لا غیر، و ضعف نفسیة الأزهری و ثقافته و أفق تفکیره، و عدم وجود بیئة صالحة فی وسط الأزهر.

کما ترجع إلی الفساد الذی استشری فی الأزهر من الناحیة الإداریة و غیرها، و إلی بعد الأزهر عن الحیاة العامة، و إلی عدم انتظام الأمور فیه فی الکثیر، و انعدام تنفیذ قوانین الأزهر، و عدم أخذ الأمور بالحزم، و السیاسة الحزبیة التی تفسد علی الأزهر کل شیء، و تدخل فی وسطه للهدم و التدمیر.

-۶-

و فی عام ۱۳۶۲ ه- ۱۹۴۴ ألقی الأستاذ محمود شلتوت عضو جماعة کبار العلماء محاضرة فی دار کلیة الشریعة عنوانها «السیاسة التوجیهیة العلمیة فی الأزهر» تتصل برسالة الأزهر، و جاء فیها:

الغرض من الجامع الأزهر، کما جاء فی المادة الأولی من القانون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۴

رقم ۲۶ لسنة ۱۹۳۶ بإعادة تنظیم الجامع الأزهر، و هو آخر تعدیل لهذا التنظیم:-

۱- القیام علی حفظ الشریعة الغراء: أصولها، و فروعها، و اللغة العربیة، و علی نشرهما.

۲- تخریج علماء یوکل إلیهم تعلیم علوم الدین و اللغة فی مختلف المعاهد و المدارس و یلون الوظائف الشرعیة فی الدولة.

و هذا هو الغرض من الجامع الأزهر، لا من تاریخ هذا القانون فقط، و لا من تاریخ أول قانون وضع لتنظیم الأزهر، و لکنه غرضه من یوم أن انسلخت عن الأزهر الصبغة الشیعیة التی أنشیء لترکیزها و تنمیتها و القضاء بها علی المذاهب الأخری. من یوم أن تولی الظاهر بیبرس ملک مصر سنة ۶۵۸ هجریة، و أعاد إلی الأزهر حیاته العلمیة التی أبطلها صلاح الدین الأیوبی عملا منه علی إزالة کل أثر للفاطمیین، فمن ذلک الحین- فقط- تبتدیء حیاة الأزهر العلمیة التی لا تتقید برأی و لا مذهب، و لا تقتصر علی علم من العلوم، فقد درست فیه جمیع العلوم الشرعیة علی اختلاف المذاهب و الأصول، و درست فیه علوم اللغة العربیة بجمیع مذاهبها و آرائها، و درست فیه آراء علماء العقیدة لا فرق بین فرقة و فرقة، کما درس فیه کثیر من العلوم الریاضیة و العقلیة، مما رأی سلفنا أن له نفعا فی تکوین الفکرة الإسلامیة، و خدمة الشریعة و العقلیة، مما رأی سلفنا أن له نفعا فی تکوین الفکرة الإسلامیة، و خدمة الشریعة و اللغة، کان هذا هو الغرض من الجامع الأزهر منذ ذلک الحین، و لم یکن موزعا علی طلاب العلم بحیث یختص کل فریق منهم بناحیة معینة علی نحو ما نری الیوم، بل کان جمیع طلابه ینهلون من جمیع علومه، لا اختصاص لأحد بعلم، إلا ما کان عن طریق الاستعداد الفطری، و المیل النفسی، و قد مرت بالأزهر أطوار مختلفة، کان فیها بین الصحة و المرض، و التقدم و التأخر، و النهوض

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵

و التقاعد، و الإنتاج و العقم، و لسنا بصدد الکلام عن هذه الأطوار التی طواها التاریخ بما لها أو علیها، و لکن مما یهمنا فی هذا الحدیث، أن نعرف أن هذه الأطوار ختمت بعهد تجمعت فیه علل ماض طویل، و أخذت تعمل عملها فی صرف الأزهر عن التفکیر و الإنتاج، و عن کل نافع من العلوم العقلیة و الکونیة، و انتهت مظاهر العلم و التفکیر فیه إلی أن تغلبت المبادیء الآتیة:

۱- تغلبت العنایة بالمناقشات اللفظیة، و تتبع کلمات المؤلفین فی المصنفات و الشروح و الحواشی و التقاریر علی الروح العلمیة

الموضوعیة التی من شأنها أن تخدم الفکرة، بقطع النظر عما یتصل بها من لفظ و عبارات.

۲- تغلبت روح التقدیس للآراء و الأفهام التی دونها السابقون، و السمو بها علی مستوی النقد، و عدم الاکتراث بما قد یظهر من آراء جدیدة، و لو کان لها من السداد و القوة ما لها.

۳- تغلبت نزعة الإشتغال بالفروض و الاحتمالات العقلیة التی لا تقع و ما یتصل بها من أحکام، فتراهم یقولون: لو طلقها نصف تطلیقة أو ربع تطلیقة، و لو قال لها أنت طالق إن شئت، فقالت له: شئت إن شئت، و تراهم یقولون: لو تزوج جنیة، فالحکم فی النسب و المیراث کذا ...

و لقد أکثروا من هذا فی العبادات و المعاملات، و أنفقوا فیه من الوقت و التفکیر ما کان جدیرا بهم أن یدخروه للنافع المفید، و وصل الأمر فی ذلک إلی أن الکمال بن الهمام و هو من أفذاذ علماء القرن التاسع یقول: و من مسائل قبل و بعد ما قیل منظوما.

رجل علق الطلاق بشهرقبل ما بعد قبله رمضان

ثم یندفع فی تخریج هذا الفرض و بیان حکمه، ثم یأتی بعده ابن نجیم الحنفی- صاحب البحر و الأشباه- فیتولی الشرح و البیان و التکمیل

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۶

و یقول: «إن هذا البیت یمکن إنشاده علی ثمانیة أوجه، الخ.

و یشارکه فی ذلک علماء عصره ثم یأتی من بعدهم ابن عابدین من علماء القرن الثالث عشر فیضع رسالة فی هذا الفرض تحت عنوان «إتحاف الذکی النبیه، بجواب ما یقول الفقیه»، یشرح فیها أبیاتا أولها:

ما یقول الفقیه أیده الله ما و لا زال عنده الاحسان

فی فتی علق الطلاق بشهرقبل ما بعده قبله رمضان

و یورد فی الرسالة آراء جمیع من تقدمه من العلماء فی الشرح و الحکم، و لا بد أن یجعل الجواب نظما کالسؤال، و هکذا اشتغل المتأخرون بمثل هذه الفروض و أعرضوا بها عن تنمیة الفقه العملی الذی یحتاج إلیه الناس فی معاملاتهم و قضیتهم.

۴- تغلبت نزعة الاشتغال باختراع الحیل التی یتخلص بها من الحکم الشرعی، و لقد تناولت هذه الحیل کثیرا من أبواب الفقه، و لم تقف عند الحد الذی أثر عن الأئمة من جعلها وسیلة للتخلص من ضرر أو مکروه، بل افترضوا حیلا یسقطون بها الواجبات، و یفسدون بها الالتزامات، فتجد حیلا لإسقاط الزکاة و حیلا لإسقاط حق الشفعة، و حیلا لإسقاط عدة المطلقة، و حیلا لإسقاط الحدود .. و هکذا مما لا یتفق و مقاصد الشریعة- و لقد أطنب ابن القیم أحد أفذاذ علماء القرن الثامن فی کتابیه «أعلام الموقعین، و إغاثة اللهفان من مصائد الشیطان» فی الرد علی فکرة الاحتیال علی هذا النحو، و بین أنها مضادة لروح التشریع، و قال: «إن المتأخرین أحدثوا حیلا لم یصح القول بها عن أحد من الأئمة، و نسبوها إلیهم و هم مخطئون»، و إذا علمنا أن العنایة بالاحتیال الفقهی وصل أمرها إلی أن جعلوه فنا من کتبهم، و بابا من أبوابها، لأخذ منا العجب مأخذه، فهذا ابن نجیم من علماء القرن العاشر یضع عنوانا فی کتابه (الأشباه و النظائر) فیقول «الفن الخامس من الأشباه و النظائر و هو فن الجبل».

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷

۵- تغلبت روح التعصب المذهبی الشدید، حتی وصل الأمر فی ذلک بین أتباع الأئمة إلی المناقشة فی صحة الاقتداء بالمخالف فی المذهب، و أخذت هذه المسألة فی کل مذهب مجالا واسعا فی البحث و التفریع، و وصل الأمر أیضا إلی البحث عن حکم التزوج من الشافعیة، فتری الکمال بن الهمام و هو فی الکلام علی حکم التزوج بالوثنیات ینقل عن أحد علماء الحنفیة: أنه لا تجوز المناکحة بین أهل السنة و الاعتزال، ثم یقول بعد هذا النقل: «و مقتضاه منع مناکحة الشافعیة»، و اختلف فیها هکذا: قیل یجوز، و قیل یتزوج بنتهم و لا- یزوجهم بنته». و تری أثر هذه النزعة فی حکم الحاکم بحل متروک التسمیة عمدا، و فی حکم العقد الذی یشترط فیه بعض

المـذاهب ما لا يشترط البعض الآخر .. و هكـذا وصل التعصب المذهبى إلى مثل هذا الحد، و صارت المذاهب بين المسـلمين- و بين أبناء الأزهر- أديانا يتقاتل أهلها، و يضـلل بعضهم بعضا، و هى لا تخرج عن أنها آراء و أفهام حذر أئمتها الأولون من تقليدها و العمل بها دون الاطمئنان إليها بمعرفة الحجة و البرهان.

۶- تغلبت الفكرة القائلة بتحريم تقليد غير المذاهب الأربعة، فحجروا واسعا، و منعوا رحمة اختص اللّه بها هذه الأمة، و لقد ظهرت هذه الفكرة على وجه أوضح منذ عهد قريب، يوم وضع الأستاذ الشيخ المراغى، مشروع الزواج و الطلاق، فقام ثلاثة من علماء الأزهر بعمل مـذكرة تناهض هـذا المشـروع، و تبنى مناهضـتها على أنه لا يجوز تقليد غير المذاهب الأربعة فكتب المراغى مذكرة قيمة، لها خطرها فى التوجيه الفقهى و التشـريعى، بين فيهـا كثيرا من مسائـل الاجتهـاد و التقليـد، كمـا بين آراء العلماء فى تأثر الفقه بالعرف و العادة، و يجـدر بنا فى هـذا المقام أن نعلم أن العلماء الـذين تناولوا هذه المسألة قديما و اسـتساغوا أن يحكموا بمنع تقليد غير الأربعة لم ينظروا إلى خصوصـية فى ذات المذاهب الاربعة، و إنما جعلوا مناط التقليد على وجه العموم الثقة بالمذهب الذى يقلد، و اطمئنان النفس إلى صحة النقل

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۸

عنه، فمن ثبت عنـده رأى من آراء الأئمـة أو الصـحابة جـاز له تقليـده و العمـل بمقتضـاه، لاـ فرق بين إمـام و إمام، و لا بين الأربعـة و غيرهم، و لهـذا يقول الشـيخ عز الـدين بن عبد السـلام «لا خلاف بين الفريقين فى الحقيقة، بل إن تحقق ثبوت مذهب عن واحد منهم جاز تقليده، وفاقا، و إلا فلا»، و يقول أيضا «إذا صح عن بعض الصحابة مذهب فى حكم من الأحكام لم تجز مخالفته إلا بدليل أوضح من دليله»، و من هنا يقول القرافى: «انعقد الإجماع على أن من أسـلم فله أن يقلد من شاء من العلماء بغير حجر، و أجمع الصـحابة على أن من اسـتفتى أبا بكر و عمر فله أن يسـتفتى أبا هريرة و معاذ بن جبل و غيرهما، و يعمل بقولهما من غير نكير، فمن ادعى دفع هـذين الإجماعين فعليه الـدليل» أه، هـذا هو أصل الفكرة فانظروا كيف حرفت و جعل التقليـد خاصا بالمـذاهب الأربعة، بل جعل واجبا يذكر تبيين ما يجب على المكلف أن يدين به و يعتقده، فيقول بعض المؤلفين فى منظومته: «و واجب تقليد حبر منهم».

ورث الأزهر أيضا فكرة أن من قلـد إماما من الأئمـة الأربعة فليس له أن يحيد عنه، بل يجب عليه أن يلتزمه بدون حجة و لا بحث وراء دليل، و لا يصـح أن يقلـد غيره و لو فى غير ما قلـده فيه، و مـذكرة الثلاثـة التى أشـرنا إليها قد تأثرت بهذه الفكرة أيضا؛ فأوجبت على القاضـى أن يحكـم بمـذهبه، و حظرت عليه أن يحكم بغيره، و ذلـك على الرغم من أن علمـاء الأـصول يقولـون فى هـذه المسألـة «و الأصـح أنه لا يلزم، إذ لا واجب إلا ما أوجبه اللّه و رسوله، و لم يوجب اللّه و لا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده فى دينه و فى كل ما يأتى و يذر دون غيره».

ورث الأزهر أيضا القول بحرمـة تتبع رخص المذاهب حتى جعلوا عدم تتبع ذلك شـرطا فى صـحة تقليد غير الإمام، و صاحب التحرير يقول أيضا فى هذه المسألة: «و لا يمنع منه مانع شرعى» إذ للإنسان أن يسلك الأخف

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۹

عليه إذا كـان له إليه سبيـل، و لاـ أدرى مـا يمنع هـذا من العقـل و السـمع، و كون الإنسان يتبع ما هو أخف على نفسه من قول مجتهد مسوغ له الاجتهاد، ما علمت من الشرع ذمه عليه، و كان صلى اللّه عليه و سلم يحب ما يخف على أمته».

و ورث الأزهر فكرة كان لها أثر خطير فى انحرافه عن سبيل التفكير الصـحيح و تقـدير الآراء بقيمتها العلميـة: هى خطة المعاداة لطائفة من العلمـاء نضـجت عقـولهم و أدركـوا أسـرار الشـريعة، و خـالفوا النـاس فى كـثير ممـا درجـوا عليه، و تحرروا من الإغلال الـتى قيد المقلـدون بهـا أنفسـهم، حكم الأـزهر عليهم بأحكام جائرة، و شـككك فى تـدينهم و إخلاصـهم و آرائهم، و شوهوا فى الكتب و على ألسـنة الدعاة بغير حق، و جعل ذلك سبيلا إلى رفض العمل بآرائهم، و عدم الاعتداد بأفكارهم فصـرفت الأنظار عنهم، و صـرنا نسـمع من أسباب رفض الرأى: هذا رأى ابن تيمية، و ابن تيمية ضال مضل، و هذا قول ابن القيم تلميذه، كما يقال: هذا رأى الزمخشرى و هو

معتزلی، أو ابن رشد و هو فیلسوف ... و هکذا، کأن هؤلاء لیسوا من أهل العلم، و لا من رجال البحث أو کأن الحق وقف علی طائفة من الناس لا یعدوها ..

و أخیرا ورث الأزهر فی ذلک العهد: القول بتحریم الاشتغال بالعلوم العقلیة و الریاضیة و أخذ یحارب المشتغلین بها جیلا من الزمن، و لعل من الطریق فی ذلک أن نشیر إلی الاستفتاء الذی تقدم به بعض الناس إلی الشیخ الانبابی شیخ الجامع الأزهر، و إلی مفتی الدیار المصریة الشیخ محمد البنا سنة ۱۳۰۵ ه یسألون فیه: هل یجوز تعلم المسلمین للعلوم الریاضیة، مثل الهندسة و الحساب و الهیئة و الطبیعیات و غیرها من سائر المعارف؟ و هل یجوز قراءتها کما تقرأ العلوم الآلیة من نحو و غیره فی الجامع الأزهر؟

هذه هی الترکة المثقلة التی خلقتها العصور المظلمة، و احتملها الأزهر فی طور مرضه الشدید کعقائد دینیة، و واجبات یری أن یتمسک بها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰

و أن یذود عنها، و أن یرمی خارج محیطه بمن یفکر فی التحلل منها، و لقد کانت النتیجة الحتمیة لهذا المیراث الثقیل أن وقفت حرکة التفکیر العلمی فی الأزهر، و حرم نفسه لذة البحث و النقد، و انحصرت مظاهر التبریز و النبوغ فیه فی القدرة علی حل المشاکل اللفظیة فی المتون و الشروح و الحواشی- التی تعود علی العلم بکبیر فائدة، و بهذا انقطعت علاقة الأزهر بالأمة فی تفکیره و علومه و تشریعه، و أصبحت النظرات المتبادلة بینهما کالنظرات المتبادلة بین طائفتین ضاقت کل منهما ذرعا بصاحبتها، و أخذت تتربص بها الأحداث و الدوائر.

ظل الأزهر کذلک حتی هیأ اللّه له- علی سنة اللّه سبحانه: من عدم إخلاء الأمم ممن یعرف الحق و یدعو إلیه- واحدا من أبنائه لا ینسی التاریخ فضله، هو الاستاذ الإمام المصلح له الشیخ محمد عبده رحمه اللّه و رضی عنه. صاح بالأزهر صیحة أیقظته من نومه، و نبهته بعض الشیء إلی واجبه، و کانت مبادئه و أفکاره بمثابة شعاع انبثق فی أفق الأزهر، انتفع به من انتفع، و أزور عنه من أزور، و لکنه مع ما قوبل به من محاولات متعددة لإطفائه، ظل قویا وهاجا یجذب إلیه أنظار المؤمنین، و ینفذ إلی بصائر المخلصین، و یعلو و یتسع أنفه شیئا بعد شیء. و منذ ذلک الحین اتجهت الأنظار إلی وضع نظم من شأنها أن تمکن الأزهر من الانتفاع بهذا النور، و السیر علی هداه حتی یقوم برسالته، و یصل إلی غرضه المنشود، فوضعت نظم متلاحقة متشابهة ضمت إلی العلوم الشرعیة و العربیة کثیرا من العلوم العقلیة و الریاضیة فاتسع لها صدر الأزهر، و هضمتها عقلیته الجدیدة.

و الأزهر الآن فی کلیاته و معاهده و القضاء الشرعی و الإفتاء، و الوعظ و الإرشاد فی المساجد و غیرها، کل أولئک ینتفعون بطائفة کبیرة من العلماء الذین تخرجوا فی ظلال هذه النظم، لهم أثر واضح فی حیاة الأمة من جمیع نواحیها، و استمر الأزهر کذلک إلی أن تولی مشیخة الأزهر للمرة الأولی الشیخ محمد مصطفی المراغی، و هو من أبناء الأزهر الذین عرفوا تاریخه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱

و أدرکوا علله و أمراضه، و هو إلی جانب ذلک تلمیذ بروحه و علمه و عقله و تفکیره للأستاذ الإمام عبده، فوضع مذکرته التی تصف علل الأزهر و أداواءه و تصف الدواء الناجح لهذه العلل.

«و لکن العلماء فی القرون الأخیرة استکانوا إلی الراحة، و ظنوا أن لا مطمع لهم فی الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه، و رضوا بالتقلید، و عکفوا علی کتب لا یوجد فیها روح العلم، و ابتعدوا عن الناس فجهلوا الحیاة و جهلهم الناس، و جهلوا طرق التفکیر الحدیثة، و طرق البحث الحدیث، و جهلوا ما جد فی الحیاة من علم و ما جد فیها من مذاهب و آراء، فأعرض الناس عنهم، و نقموا هم علی الناس، فلم یؤدوا الواجب الدینی الذی خصصوا أنفسهم له، و أصبح الإسلام بلا حملة، و بلا دعاة بالمعنی الذی یتطلبه الدین». و یقول فی شأن النظم المتقدمة: «و إنی أقرر مع الأسف أن کل الجهود التی بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرین سنة لم تعد بفائدة تذکر فی إصلاح التعلیم، و أقرر أن نتائج الأزهر و المعاهد تؤلم کل غیور علی أمته و علی دینه، و قد صار من الحتم لحمایة الدین، لا لحمایة الأزهر، أن یغیر

التعلیم فی المعاهد، و أن تکون الخطوة إلی هذا جریئة، یقصد بها وجه اللّه تعالی، فلا یبالی بما تحدثه من ضجة و صراخ، فقد قرنت کل الإصلاحات العظیمة فی العالم بمثل هذه الضجة».

و یقول فی وصف الکتب: «هی کتب معقدة لها طریقة خاصة فی التألیف، لا یفهمها کل من یعرف اللغة العربیة، و إنما یفهمها من مارسها و مرن علی فهمها، و عرف إصلاح مؤلفتها». و یقول فیما یختص بدراسة الفقه:

«یجب أن یدرس الفقه الإسلامی دراسة حرة خالیة من التعصب لمذهب، و أن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، و أن تکون الغایة من هذه الدراسة عدم المساس بالأحکام المنصوص علیها فی الکتاب و السنة، و الأحکام المجمع علیها، و النظر فی الأحکام الاجتهادیة لجعلها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۲

ملائمة للعصور و الأمکنة و العرف و أمزجة الأمم المختلفة، کما کان یفعل السلف من الفقهاء». و یقول فیما یختص بدراسة التفسیر و الحدیث:

«یجب أن یدرس القرآن دراسة جیدة، و أن تدرس السنة دراسة جیدة، و أن یفهمها علی وفق ما تتطلبه اللغة العربیة، و علی وفق قواعد العلم الصحیحة، و أن یبتعد فی تفسیرهما عن کل ما أظهر العلم بطلانه، و عن کل ما لا یتفق و قواعد اللغة العربیة».

هذه هی مذکرة المراغی التی جعلها دستوره فی الإصلاح، و التی علقت علیه الأمة من أجلها آمالها فی إعلاء شأن الدین و انهاض أهله، و قد رأی تنفیذا لأغراض هذه المذکرة الإصلاحیة، توزیع التعلیم العالی فی الأزهر علی شعب ثلاث: شعبة للتفسیر و التوحید و تعرف باسم کلیة أصول الدین، و شعبة للغة العربیة و تعرف باسم کلیة اللغة العربیة، و شعبة للفقه و الأصول و تعرف باسم کلیة الشریعة. تنوع التعلیم العالی إلی هذه الکلیات الثلاث، و وضعت مناهج لکل کلیة تبین علومها الأساسیة و الإضافیة، و جعل وراء ذلک تخصصات «و إجازات» موزعة علی هذه الکلیات الثلاث.

-۷-

و یری الدکتور محمد عبد الله دراز: أن أبدع طابع تمتاز به الجامعة الأزهریة، لیس هو أنها قد جمعت فی تعلیمها بین هذین العنصرین الروحی و الزمنی، اللذین نراهما منفصلین فی سائر الجامعات، بل میزتها الکبری هی أن المیدان الذی تتدفق فیه حیوتها یتجاوز کل حدود التعلیم و التثقیف، و یرتقی إلی دور من أهم الأدوار فی توجیه حیاة الجماعة. إن رسالة الأزهر علی الجملة، إنما هی امتداد لرسالة الإسلام، ألا و إن الإسلام لیس مجموعة مبادیء نظریة تغرس فی الأذهان فحسب، و إنما هو قوة دافعة خلاقة، غایتها أن تنظم السلوک الإنسانی تنظیما فعلیا، طبقا لاسمی المثل و أسلسها قیادا علی التنفیذ العملی. فلیس یکفیه إذا أن یبین هذه المبادیء

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳

دون أن یسهر علی تطبیقها ... و هذا التطبیق لا یخص سلوک الفرد فی نفسه، أو فی أماکن عبادته و کفی، لأن قانون الإسلام، الذی هو موضوع التطبیق، لا یعرف هذا الفصل بین الدین و شئون الحیاة، بل إن قواعده العملیة تمتد إلی جمیع میادین النشاط الاقتصادی و الأخلاقی، فی حیاة الفرد، و الأسرة. و الأمة، بل فی حیاة الجماعة الإنسانیة کلها.

و قد عنی الأزهر- إلی جانب تکوینه لأسرة التدریس- بتخریج جماعة من المصلحین الاجتماعیین، لیکونوا فی صلة دائمة بالشعب، و یتجهوا إلیه بإرشاداتهم فی کل مناسبة. و لدی الأزهر منهم الآن أکثر من ۲۵۰ واعظا، موزعون توزیعا متناسبا بین العاصمة و سائر الأقالیم، و إن «العدالة» و «الأمن» لمدینان أعظم الدین لجمیل نصائحهم التی یوجهونها إلی الجماهیر، و إلی الأسوة الحسنة التی یقدمونها لهم فی سیرتهم الشخصیة، و إلی طرق الإصلاح التی یمهدونها لهم فی المنازعات، کما تشهد بذلک السجلات الرسمیة. و فی الوقت نفسه نجد فی الأزهر لجنة دائمة من العلماء تتلقی المکاتبات من کل سائل، عما أشکل علیه من أحوال السلوک و شئون

المعاملات، و تجیبه بما یزل شبهته، و ینیر له السبیل السوی.

و من وراء ذلک کله- و فوق کل هذه الخدمات الجلیلة- یتمتع الأزهر بسلطة معنویة أکثر عمقا، و أبعد حدودا، یستعملها فی توجیه المجتمع الإسلامی، لا فی مصر وحدها، بل فی سائر البلاد الإسلامیة. و هاهنا أیضا لا تعوزنا الشواهد لإبراز هذه الحقیقة. فلقد أتی علی عرش مصر لحظة من الزمن، فی سنة ۱۸۰۵ م، کان فیها یبدو مترددا بین «خورشید» و «محمد علی». فکان الثقل الذی وضعه نفوذ الأزهر هو الذی رجح کفة المیزان فی جانب محمد علی، و وضع الباب العالی أمام الأمر الواقع فی اختیاره والیا علی مصر. و فی سنة ۱۹۱۹ کان الأزهر هو المنبر الذی ارتفع منه أقوی صوت فی المطالبة بإلغاء الحمایة الانجلیزیة، و کان حرم الأزهر هو المهد الذی ولدت فیه الوحدة التی لا تنفصم عراها بین أقباط مصر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴

و مسلمیها، لاحباط الدسائس البریطانیة التی حیکت للتفریق بین العنصرین: أما نفوذ الأزهر فی الأقطار الإسلامیة فلیس من نوع ذلک النفوذ الغامض البعید، الذی یتمتع به الأزهر بفضل مهابة اسمه و جلال مرکزه فحسب، بل إن له فی تحقیقه وسائل حیة، و أدوات ناطقة. نعم، أ لیس للأزهر ممثلوه فی أقطار الإسلام، و لتلک الأقطار ممثلوها فیه؟ أو لیس هؤلاء الممثلون من الجانبین هم حلقة الاتصال المتبادل الذی یحفظ و ینمی هذه العلاقات الوثیقة بین الطرفین فی مختلف النواحی الثقافیة و الأدبیة و الروحیة؟

فأما من أحد الجانبین، فإن الدولة الإسلامیة لا تفتأ تلتمس من الأزهر فی کل عام، عددا من علمائه لیبصروا شعوبها بحقائق الإسلام، أو لیکونوا أعضاء فی هیئات التدریس فی جامعاتها و معاهدها، و لا یسع الأزهر إلا أن یرحب دائما بندائهم فلا یرد لهم ملتمسا. و قد بلغ الآن عدد المندوبین من علماء الأزهر فی خارج القطر ۱۲۵ مدرسا فی الأقطار الممتدة من جزائر الفیلیبین إلی مملکة لیبیا. بل إن الدول الغربیة قد أفادت من نظام الانتداب المذکور، سواء لتغذیة جامعاتها، أو لإدارة مراکز الإسلام الثقافیة فیها. و ما نحن أولاء نری من أساتذة الأزهر مندوبین بالفعل فی «لوندره» و «واشنطن» و «سان فرانسیسکو» و قد نری قریبا وصول هذا المدد إلی «باریس» أیضا ...

و نعود إلی الأقطار الإسلامیة فنقول: إن صلتها الوثیقة بالأزهر تقوم- من جهة أخری- علی تلک الألوف من شباب المتعلمین الوافدین منها، و الذین یتبناهم الأزهر فیطبعهم بطابعه، و یصنعهم علی طرازه. و إن الحفاوة التی یقدمها لهم لمفعمة بأنواع الکرم و الضیافة. فهو یؤویهم بالمجان، و یمنح کلا منهم شهریا مقدارا من المال کافیا لمعیشته، و علی الرغم من زیادة عددهم عاما بعد عام، فإن هذه المرتبات یجدونها مکفولة لهم علی الدوام، کما أن الجامعة تهیء لهم فی أثناء العام رحلات مدرسیة بالمجان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵

إلی الأماکن الأثریة و معالم السیاحة، و تعد لهم فی الصیف مقاما هادئا علی شواطیء البحر فی الأسکندریة. و فی نهایة دراستهم تمنحهم شهادات ینتفعون بها عند عودتهم، لا- فی التدریس فحسب، بل فی مختلف المناصب فی بلادهم. و لقد بلغ عدد هؤلاء الضیوف فی هذا العام اکثر من ثلاثة آلاف طالب، هم سفراء الأزهر غدا إلی بلادهم. فإذا سارت الأمور علی هذا المنوال لم تمض بضع عشرات من السنین حتی یکون الأزهر قد جعل من جمیع الشعوب الإسلامیة أمة واحدة متجانسة فی ثقافتها، کما هی متجانسة فی عقیدتها و آدابها.

علی أن الرسالة الحقیقة للأزهر لن تتحقق علی وجهها الأکمل إلا إذا تجاوزت حدودها الإقلیمیة فی الشرق الإسلامی، و أسمعت صوتها من وراء تلک الحدود.

نعم إننا الیوم- و قد تنازعت العالم قوی متناحرة، و آراء متنافرة، قد عجزت أطرافها أن تلتقی عند حد وسط یوفق بینها. و قد أخذت فی صراعها تسرع بنا الخطا نحو الکارثة الکبری- أقول إننا الیوم لفی أمس الحاجة إلی قوة ثالثة تتسم بطابع التعادل و التوازن، لا عن طریق التلفیق بین عناصر متناکرة، بل عن طریق وحدة طبیعیة متماسکة یتألف فیها عنصر المادة و الروح، و تتساند فیها مطامح المنفعة و عواطف الإیثار، و تتعانق فیها حریة الفرد و سلطان الدولة، و تندرج بها المصالح القومیة فی نطاق الرحمة الإنسانیة العالمیة، و بالجملة

فإننا اليوم فی أشد الحاجة إلی تلك الحكمة الشرقية الإسلامية التی يعد الأزهر خير ممثل لآدابها، و يوم يتمكن الأزهر من أن يصوغ هذه السياسة الرشيدة فی أسلوب واضح سائغ محدد، و يتيسر له من الوسائل ما ينشر به هذه المبادیء فی الميدان العالمی، و يبدی فيه المعسكران المتصارعان فی الوقت نفسه من حسن النية و قوة العزيمة ما يجعلهما يصغيان إلی ندائه الحكيم، يومئذ يكون لنا أن نتحدث بحق و صدق

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶

عن «السلام الشامل» و «الأمن العالمی الكامل» لا حلما من نسيج الأوهام، و لكن حقيقة حية صالحة للبقاء.

-۸-

و يری مصطفی صادق الرافعی أن أول شیء فی رسالة الأزهر فی القرن العشرين عنده، أن يكون أهله قوة إلهية معدة للنصر، مهيأة للنضال، مسددة للإصابة، مقدرة فی طبيعتها أحسن تقدير، تشعر الناس بالاطمئنان إلی عملها، و توحی إلی كل من يراها الإيمان الثابت بمعناها، و لن يأتی لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلی طبيعتهم الصحية، فلا يكون العلم تحرفا و لا مهنة، و لا يكون فی أوراق الكتب خيال ... بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية فی المادة لا مأمورة منهية بها و يرتفع كل منهم بنفسه، فيكون مقرر خلق فی الحياة قبل أن يكون معلم علم، لينبث منهم مغناطيس النبوة يجذب النفوس بهم أقوی مما يجذبها ضلالات العصر، فما يحتاج الناس فی هذا الزمن إلی العالم- و إن الكتب و العلوم لتملأ الدنيا- و إنما يحتاجون إلی ضمير العالم، و قد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير، مع أن الإسلام فی حقيقته ليس شيئا إلا قانون هذا الضمير، إذ هو دين قائم علی أن اللّه لا ينظر من الإنسان إلی صورته و لكن إلی عمله، فأول ما ينبغی أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر أهله.

و الناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم، و بقانون آخر هو قانون القرن العشرين ... فهم من ثم فی أشد الحاجة إلی أن يجدوا بينهم المتسلط علی المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوی الدنيئة مغلوبة، ثم ليجدوا فی هذا الإنسان أساس القدوة و الاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين: قوة التعليم و قوة التحويل .. هذا هو سر الإسلام الأول الذی نفذ به من أمة إلی أمة و لم يقم له شیء يصده إذ كان ينفذ فی الطبيعة الإنسانية نفسها.

و من أخص واجبات الأزهر فی هذا القرن العشرين أن يعمل أول شیء

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷

لإقرار معنی الإسلام الصحيح فی المسلمين أنفسهم، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير ... و ما منهم إلا من هو فی حاجة إلی تجديد الإسلام. و الحكومات الإسلامية عاجزة فی هذا، بل هی من أسباب هذا الشر لأن لها وجودا سياسيا و وجودا مدنيا، أما الأزهر فهو وحده الذی يصلح لإتمام نقص الحكومة فی هذا الباب، و هو وحده الذی يسعه ما تعجز عنه، و أسباب نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية، و كانت فيه عند المسلمين بقية الوحی علی الأرض، ثم كان هو صورة المزاج النفسی الإسلامی المحض، بيد أنه فرط فی واجب هذه الزعامة و فقد القوة التی كان يحكم بها و هی قوة المثل لأعلی التی كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة، إنسانا تتخيره المعانی الإنسانية تظهر فيه بأسلوب عملی فيكون فی قومه ضربا من التربية و التعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه، و العقيدة فی سواد الناس بغير هذا المثل الأعلی هی أول مغلوب فی صراع قوة الحياة .. لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلی علماء الأزهر، و لذلك فهم يتبعونهم و يتأنسون بهم و يمنحونهم الطاعة و ينزلون علی حكمهم و يلتمسون فی سيرتهم التفسير لمشكلات النفس و يعرفون بهم معنی صغر الدنيا و معنی كبر الأعمال العظيمة، و كان غنی العالم الدينی شيئا غير المال بل شيئا أعظم من المال إذ كان يجد حقيقة الغنی فی إجلال الناس لفقره كأنه ملك لا فقير، و كان زهده قوة حاكمة فيها الصلابة و الشدة و الهيبة و السمو و فيها كل سلطان الخير و الشر لأن فيها كل النزعات

الاستقلالیة، و یکاد الزهد الصحیح یکون هو وحده القوة التی تجعل علماء الدین حقائق مؤثرة عاملة فی حیاة الناس أغنیائهم و فقرائهم، لا- حقائق متروکة لنفسها یوحش الناس منها أنها متروکة لنفسها، و علماء الأزهر فی الحقیقة هم قوانین نفسیة نافذة علی الشعب، و عملهم أرد علی الناس من قوانین الحکومة، بل هم التصحیح لهذه القوانین إذا جرت الأمور علی عللها و أسبابها، فیجب علیهم أن یحققوا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸

وجودهم و أن یتناولوا الأمة من ناحیة قلوبها و أرواحها، و أن یعدوا تلامیذهم فی الأزهر کما یعدون القوانین الدقیقة لا طلابا یرتزقون بالعلم. أین صوت الأزهر و عمله فی هذه الحیاة المائجة بما فی السطح و ما فی القاع ... و أین وحی هذه القوة التی میثاقها أن تجعل النبوة کأنها شیء واقع فی الحیاة العصریة لا خبر تاریخی فیها.؟ لقد أصبح إیمان المسلمین کأنه عادة الإیمان لا الإیمان نفسه، و رجع الإسلام فی کتبه الفقهیة و کأنه أدیان مختلفة متناقضة لا دین واحد. فرسالة الأزهر أن یجدد عمل النبوة فی الشعب، و ان ینقی عمل التاریخ فی الکتب، و أن یبطل عمل الوثنیة فی العادات، و أن یعطی الأمة دینها الواضح السمح المیسر و قانونها العملی الذی فیه سعادتها و قوتها، و لا وسیلة إلی ذلک إلا أن یکون الأزهر جریئا فی قیادة الحرکة الروحیة الإسلامیة، جریئا فی عمله لهذه القیادة، آخذا بأسباب هذا العمل، ملحا فی طلب هذه الأسباب. مصرا علی هذا الطلب. و کل هذا یکون عبثا إن لم یکن رجال الأزهر و طلبته أمثلة من الأمثلة القویة فی الدین و الخلق و الصلابة لتبدأ الحالة النفسیة فیهم، فإنها إن بدأت لا تقف، و المثل الأعلی حاکم بطبیعته علی الإنسانیة مطاع بحکمه فیها. محبوب بطاعتها له. و المادة المطهرة للدین و الأخلاق لا تجدها الأمة إلا فی الأزهر، فعلی الأزهر أن یثبت أن فیه تلک المادة بإظهار عملها لا بإلصاق الورقة المکتوب فیها الاسم علی الزجاجة .. و من ثم یکون واجب الأزهر أن یطلب الإشراف علی التعلیم الإسلامی فی المدارس و أن یدفع الحرکة الدینیة دفعا بوسائل مختلفة: أولها أن یحمل وزارة المعارف علی إقامة فرض الصلاة فی جمیع مدارسها، و أن یقود مدرسة حریة الفکر .. و الأمة الإسلامیة کلها تشد رأی الأزهر فی هذا. و إذا نحن استخرجنا التفسیر العملی لهذه الآیة الکریمة: «ادْعُ إِلی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» دلتنا الآیة بنفسها علی کل تلک الوسائل، فما الحکمة هنا إلا السیاسة الاجتماعیة فی العمل. و لیست الموعظة الحسنة إلا الطریقة النفسیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۹

فی الدعوة، العلماء ورثة الأنبیاء. و لیس النبی من الأنبیاء إلا تاریخ شدائد و محن، و مجاهدة فی هدایة الناس، و مراغمة للوجود الفاسد، و مکابدة التصحیح للحالة النفسیة للأمة. فهذا کله هو الذی یورث عن الأنبیاء لا العلم و تعلیمه فقط.

و إذا قامت رسالة الأزهر علی هذه الحقائق، و أصبح وجوده هو المعنی المتمم للحکومة المعاون لها فی ضبط الحیاة النفسیة للشعب و حیاطتها و أمنها و رفاهتها و استقرارها- اتجهت طبیعته إلی أداء رسالته الکبری للقرن العشرین بعد أن یکون قد حقق الذرائع إلی هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد و تنقیة التاریخ الفقهی و تهذیب الروح الإسلامی و السمو به عن المعانی الکلامیة الجدلیة السخیفة، ثم استخرج أسرار القرآن الکریم المکتنة فیه لهذه العصور العلمیة الأخیرة، و بعد أن یکون قد اجتمعت فیه القوة التی تمسک الإسلام علی سنته بین القدیم و الجدید، لا ینکره هذا و لا بغیره ذاک، و بعد أن یکون الأزهر قد استفاض علی العالم العربی بکتبه و دعاته و مبعوثیه من حاملی علمه و رسل إلهامه.

أما تلک الرسالة الکبری فهی بث الدعوة الإسلامیة فی أوروبا و أمریکا و الیابان، بلغات الأوروبیین و الأمریکیین و الیابانیین فی ألسنة أزهریة مرهفة مصقولة لها بیان الأدب و دقة العلم و إحاطة الفلسفة، و إلهام الشعر، و بصیرة الحکمة، و قدرة السیاسة، ألسنة أزهریة لا یوجد الآن منها لسان واحد فی الأزهر، و لکنها لن توجد إلا فی الأزهر، و لا قیمة لرسالته فی القرن العشرین إذا هو لم یوجدها فتکون المتکلمة عنه و الحاملة لرسالته، و ما هذه البعثات التی قرر الأزهر ابتعاثها إلی أوروبا إلا أول تاریخ تلک الألسنة.

أنا مستیقن أن فیلسوف الإسلام الذی سینتشر الدین علی یده فی أوروبا و أمریکا لن یخرج إلا من الأزهر، و ما کان الأستاذ الإمام

الشیخ محمد عبده رحمه اللّه إلا أول التطور المنتهی إلی هذه الغایة، و سیکون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰

عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلک الأمم من آداب الإسلام و أعماله ثم مخاطبة الأمم بأفکارها و عواطفها و الإفضاء من ذلک إلی ضمیرها الاجتماعی فإن أول الدین هناک أسلوبه الذی یظهر به.

هذه هی رسالة الأزهر فی القرن العشرین یتحقق بوسائلها من الآن، و من وسائلها أن یعالن بها لتکون موثقا علیه، و یحسن بالأزهر فی سبیل ذلک أن یضم إلیه کل مفکر إسلامی ذی إلهام أو بحث دقیق أو إحاطة شاملة، فتکون له ألقاب علمیة یمنحهم إیاها و إن لم یتخرجوا فیه، ثم یستعین بعلمهم و إلهامهم و آرائهم، و بهذه الالقاب یمتد الأزهر إلی حدود فکریة بعیدة و یصبح أوسع فی أثره علی الحیاة الإسلامیة و یحقق لنفسه المعنی الجامعی، و فی تلک السبیل یجب علی الأزهر أن یختار أیاما فی کل سنة یجمع فیها من المسلمین (قرش الإسلام) لیجد مادة النفقة الواسعة فی نشر دین اللّه. و لیس علی الأرض مسلم و لا مسلمة لا یبسط یده، فما یحتاج هذا التدبیر لأکثر من إقراره و تنظیمه و إعلانه فی الأمم الإسلامیة و مواسمها الکبری و خاصة موسم الحج.

-۹-

و نشر العقاد کلمة عام ۱۹۴۷ عن الأزهر و إصلاح و رسالته قال فیها:

خیر ما یطلب للأزهر هو أن یزداد نصیبه من الجامعیة العلمیة، و أن یزدان نصیبه من المشارکة فی الأعمال الدنیویة، و أن یحال بینه و بین العزلة و الانقطاع، و نحن من المؤمنین بماضی الأزهر العظیم، و لکننا أشد إیمانا بمستقبله بنا بماضیه، لأن وظیفته فی الماضی کانت وظیفة واحدة لا منازع فیها، أما وظیفته فی المستقبل فوظیفتان ینهض بهما فیکون له شأنان متعادلان فی حکمة الإسلام و حکمة العلم الذی یعمل به المسلمون و غیر المسلمین، فالجامع الأزهر أحق مکان بأن یحیی الفلسفة القدیمة التی عاشت فیه وحده یوم ماتت فی جوانب الدنیا بأسرها، و من إحیاء هذه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱

الفلسفة أن یزاوج بینها و بین مستحدثات التفکیر فی کل عصر و بین کل قبیل، و الجامع الأزهر أحق مکان بتوسیع المنطق الذی تمکنت فیه أسسه و تهیأت لما یضاف إلی هذه الأسس من أرکان جدیدة، فی مذاهب المناطقة المحدثین، و الجامع الأزهر أحق مکان بأن یعرض العقیدة الإسلامیة المستنیرة علی أهل المشرق و المغرب لأنه أقدر علی هذه الرسالة من الآحاد أو الجماعات التی تصدت لها فی غیر مصر من الأقطار الإسلامیة، و الجامع الأزهر أحق مکان بأن یقصده الصینی من أقصی الشرق کما یقصده «الفندلاندی» من أقصی الشمال، أو یقصده الزنجباری من أقصی الجنوب لأنهم یتعلمون فیه ما لا یجدونه فی غیره من الجامعات المعصورة علی العلوم الطبیعیة. و الجامع الأزهر أحق مکان بأن یتدارک عیب العصر الحاضر و هو العیب الجسام الذی یتمثل فی العزل بین عالم العقل و عالم الروح.

فیتعلم فیه الرجل و هو مؤمن و یؤمن فیه و هو عالم، و یحسن قیادة المتدینین المتعلمین، و نحن کبیر و الرجاء فی إنجاز هذه المهمة العظمی بعد أن صارت مشیخة الأزهر إلی أستاذ الفلسفة الإسلامیة علی أحدث المناهج العصریة، فإنه أقدر الناس علی أن یحقق للجامع الأزهر وظیفتیه فی ثقافة العقل و ثقافة الروح، و أعوانه من الأزهریین غیر قلیلین.

-۱۰-

و یقول الاستاذ مصطفی حبیب من کلمة له ألقاها فی المؤتمر الثقافی العربی عام ۱۹۵۰، و قد کان من المندوبین فیه عن الأزهر: الاتجاهات التعلیمیة السائدة فی الأزهر الآن هی:

۱- العمل على تعميم التعليم الـدينى فى البلاد بافتتاح المعاهـد الدينيـة فى جميع العواصم و المراكز الكبيرة، و تيسير هـذا التعليم على النـاس بمتابعـة مـا جرى عليه عرف الأزهر من قـديم، من مجانيـة التعليم الـدينى، و تشـجيع الطلاب بتقرير مكافآت ماديـة تعينهم على مواصلة الدرس، و قد قطع الأزهر فى هذا الاتجاه شوطا بعيدا فافتتح فى السنوات الأخيرة خمسة معاهد،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲

هى: قنا و سوهاج و المنيا و المنصورة و سمنود، و أعان على أن تنشر المعاهد الحرة فى البلاد بما قدمه لها من العون العلمى و المادى. فقـد تعهد الأزهر بتزويد كل معهد حر بالمدرسين على حساب ميزانيته فضـلا عن تقرير إعانة استيفاء لكل معهد، مما حفز على انتشار التعليم الدينى فى البلاد و إنشاء المعاهد الحرة.

۲- تشـجيع التعاون الثقافى بين الأزهر و المعاهـد الإسـلامية فى البلاد الإسـلامية جميعها، ليوحـد بين ثقافـة أبناء هذه الشـعوب و ثقافة الأـزهر، و ليعـاون على إيجاد رأى عام إسـلامى موحـد، و ليـدخل على هـذه المـدارس الأنظمـة الإصـلاحية التى قام بتجربتها الأزهر، ليساهم بنصـيب فى الرقى الفكرى و العلمى للشـعوب العربية و الإسـلامية، و للأزهر الآن فى جميع البلاد الإسـلامية و العربية مدرسون من خيرة أبنـائه المتـأثرين بالأفكـار الحديثـة يبثون تعـاليم الأـزهر و رسـالته الإصـلاحية فى نجـد و الحجاز و سوريا و لبنان و العراق و الكويت و أسمرة، و يساهم الأزهر بنصيب كبير فى تمويل هذه الحركة العلمية، إيمانا منه بفائدتها لمصر و العالم الإسلامى كله.

۳- نشـر الثقافـة الإسـلامية فى البلاـد المتخلفـة علميا و التى هى فى مسـيس الحاجـة إلى التنوير فى شـئون دينها، و الأزهر معنى بهـذه الناحيـة أشـد العنايـة، و قـد وجه مبعوثين من رجـاله لدراسـة أحوال المناطق الأفريقيـة فى جنوب السودان و أوغنـدة و أرتيريا و شـرق أفريقيا، و قد وضعت تقارير مفصلة عن أوجه المساعدة المثمرة لهذه الجهات، و أرسل الأزهر فعلا بعثة علمية إلى أرتيريا وجوبا، و هو بسبيله إلى إرسال بعثات جديدة إلى الصومال و نيجيريا و أوغندة و شرق أفريقيا.

۴- العناية بنشـر الإسـلام و تعاليمه الصحيحة فى جميع البلاد، و إيجاد صلة قوية و رابطة متينة بين المسلمين فى كافة أقطار الأرض عن طريق التبادل الثقافى، و إنشاء مراكز إسلامية تزود بالمكتبات و العلماء الباحثين و الوعاظ

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۳

لسد حاجات الناس فى هذه البلاد الى الثقافة الإسـلامية، و يسـير الأزهر فى هذا الاتجاه بخطى حثيثة، و أسـتطيع القول بأن الأزهر اليوم متصل بجميع الهيئات العلميـة و الإسـلامية فى أوروبا و أمريكا و آسـيا، و له مكتب ثقافى فى لندن، و آخر فى الباكسـتان، و ثالث فى الفلبين، و هو يـدرس اليوم مشـروعات متعـددة لإنشاء مكاتب أخرى فى الولايات المتحـدة و الأرجنتين و الملايو و أندونيسـيا، و لكنه على أية حال لم يحقق بعد كل ما يرجوه من التوسع فى هذه الناحية لأنها تحتاج إلى المال و الرجال:

۵- العنايـة بالبعوث الإسـلامية الوافدة الى الأزهر من كل بقاع الأرض و تعليمها و تثقيفا دينيا و علميا، ليكونوا هذاة لقومهم يرشدونهم إذا رجعوا إليهم، و لاـ يـدخر الأـزهر وسـعا فى هـذا السبيل، فهو يشـجع الطلاب الراغبين على الوفود، كما يحض الهيئات الإسـلامية و الحكومات الإسـلامية على إرسال أبنائها إلى الأزهر، و هو يعد لهؤلاء الطلاب أماكن صـحية للسكن، و يمدهم بمعونة مادية تيسر لهم طلب العلم و تعينهم على الحياة فى مصـر. و فى الأزهر الآن ألفان من طلاب البعوث الإسـلامية يمثلون كافة البلاد الإسلامية. و قد أعد لهم الأزهر دراسات خاصة تعينهم على معرفة اللغة العربية معرفة تؤهلهم للاندماج فى سلك الدراسة مع إخوانهم المصريين.

و قـد بلغت البعـوث الإسـلامية اليوم حـدا لم تبلغه فى عصور الأـزهر الذهبيـة فى القرن الثـامن الهجرى حين سـقطت بغـداد و فر أبنـاء المسـلمين إلى الأزهر بـدينهم. فقد كان تعدادهم حينذاك كما روى المقريزى ۷۵۰ طالبا. و كان هذا يعتبر رقما قياسـيا، أما اليوم فهم يربون على الألفين، و الباب ما يزال مفتوحا على مصاريعه لتقبل كل من يريد العلم و التفقه فيه. فالأزهر لا يرد عن رحابة طالب علم.

۶- إعداد بيئة من العلماء النابغين فى علوم الدين إعدادا يؤهلهم لنشر الدعوة الإسلامية و الثقافة الإسلامية فى البلاد التى تتكلم باللغات الأجنبية بتمكينهم من الدراسة فى الجامعات الأوروبية، ليتصلوا بالحياة العقلية فى

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴

الغرب، و یجیدوا اللغات الأجنبیة کتابة و خطابة، و یکونوا مزاجا جدیدا من الدراسة یلائم، حاجة العصر، و یسد حاجات البلاد الإسلامیة الناطقة باللغات الأجنبیة الی مدرسین و أساتذة. و قد أدرک الأزهر قیمة هذا العمل العظیم فأرسل بعثة مکونة من عشرة من خیرة أبنائه إلی بریطانیا لیدرسوا فی جامعاتها، و ما یزال الأزهر فی حاجة إلی المزید من هذه البعثات لیکثر بین أساتذته و مدرسیه من یجمعون بین الثقافتین الأزهریة و الغربیة، لیکونوا فی المستقبل القریب نواة لهیئة التدریس الجامعیة.

۷- یتجه الأزهر منذ سنوات إلی التخلص من الکتب التقلیدیة القدیمة فی الدراسة، و تشجیع الأساتذة علی تألیف کتب جدیدة تتناسب مع العصر الحدیث فی حسن العرض و التبویب، لیسهل علی الناس الاطلاع علیها، لأن الکتب القدیمة علی وضعها الحالی کتب معقدة لها طریقة خاصة فی التألیف لا یفهمها إلا من مارسها و مرن علی فهمها ... و قد بدأ الأزهریون یکتبون و یؤلفون، و لکنهم لم یحققوا بعد الآمال المعقودة علیهم، إذ لا یزال فی أعناقهم للعالم الإسلامی و أبناء هذا الجیل دین یجب أن یوفوه: هو تبسیط الحقائق العلمیة و تقریبها إلی الأذهان، و تشویق الناس للاطلاع علی ما فی الدین الإسلامی و التشریع الإسلامی من کنوز فی المعرفة.

۸- یدرس الأزهر الآن الفقه الإسلامی دراسة خالیة من التعصب لمذهب بعینه، بل و یدرس المقارنات بین المذاهب، و قد أتاحت هذه الروح التی تسود الأزهر الآن النظر فی الأحکام الاجتهادیة لجعلها ملائمة للعصر و العرف و تطور الأمم و الشعوب، و استنباط الأحکام التی تتمشی مع سیر الزمن. و قد أصبح بفضل هذه الروح فی الأزهر جماعة من أفاضل العلماء تعمل علی تزوید رجال التشریع بالأحکام الاجتهادیة من کافة الأئمة غیر مقیدین بمذهب بعینه أو إمام بعینه. و قد صدرت القوانین الأخیرة فی أحکام الوقف و الوصیة بعد دراسة حرة لجمیع الآراء، و أخذت الأحکام من جمیع المذاهب و من آراء الأئمة و المجتهدین بما یلائم مصلحة الأئمة و یسد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۵

حاجات الجیل. و تلک خطوة جریئة إن أغضبت المتزمتین، فقد أرضت اللّه و رسوله. و یتجه الأزهر فی هذه الأیام إلی إنشاء معهد للفقه المقارن یقوم علی هذه الدراسات الحرة و ینمیها، لینتفع العالم بآثار الاجتهاد، مما یحفز العقل البشری علی التقدم لخدمة الإنسانیة.

۹- یعنی الأزهر بإحیاء کتب السنة و جمعها فی کتاب واحد حسن التبویب، تیسیرا للسنة علی الراغبین فی الاطلاع علیها. و تقوم بالأزهر الآن لجنة برئاسة الأستاذ الأکبر شیخ الجامع الأزهر للعمل علی إخراج هذا المشروع.

۱۰- یعنی الأزهر أشد العنایة بدراسة اللغة العربیة و النهوض بأسالیبها التعلیمیة و إبراز کنوزها للناس. و قد نهض بکلیة اللغة العربیة نهضة کبیرة أصبحت بفضلها تنافس معاهد اللغة العربیة فی مصر منافسة قویة، أفادت العلم و اللغة فی مصر و الشرق. و ها هم أولاء أبناء کلیة اللغة العربیة منبثون فی جمیع المدارس و المعاهد الأزهریة و الحکومیة یؤدون رسالة الأزهر فی خدمة اللغة و النهوض بها علی نمط یثیر الإعجاب و التقدیر من الجمیع.

۱۱- عمل الأزهر جادا علی تقریر تعلیم الدین فی المدارس الحکومیة و جعله مادة أساسیة، لینشأ ناشیء الفتیان منا علی التمسک بأحکام الدین و الرعایة لفضائله، إیمانا منه بأن ما ینطبع فی نفس الطفل منذ نعومة أظافره من إیمان و تدین، لا یمکن أن تؤثر فیه الأیام، بل یظل أساسا صالحا یوجه رجال المستقبل الی الخیر، و یحفزهم علی البر بأنفسهم و أهلیهم و أوطانهم. و قد نجح الأزهر بتقریر دراسة الدین بالمدارس.

۱۲- یعنی الأزهر بإحیاء الشعور الدینی، و تنمیة روح التدین بین الطبقات الکادحة من العمال و الفلاحین، و تنویرهم فی شئون دینهم، و تعریفهم بفضائله، لتتقوی فیهم روح المحبة و التآلف و یبعد عن صفوفهم المبادیء المنحرفة التی تتنافی مع الدین و الخلق. و ینبث الیوم عشرات

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶

الوعاظ من أبنائه فی صفوف الشعب یخاطبونه بالأسلوب القریب إلی نفسه، و یعالجونه علاجا نفسیا یقوی عزائمه و یثبت إیمانه.

۱۳- یعنی الأزهر عنایة جدیة بوعظ السیدات و تعلیمهن شئون دینهن، لیکن خیر مربیات لأبنائهن، و لیغرس فی نفوسهن منذ الحداثة الإیمان باللّه و حب الوطن، و هو یعقد لذلک مئات الدروس کل یوم من أقصی الصعید إلی القاهرة، و من القاهرة إلی البحر الأبیض المتوسط، للوعظ و الإرشاد و التعلیم.

و فی نفوس رجال الأزهر مشروع لإنشاء معهد لتعلیم البنات و السیدات العلوم الدینیة و العربیة، إحیاء لسنن السلف الصالح من العنایة بتثقیف السیدات و إتاحة الفرصة لهن لیتفقهن فی الدین، نرجو أن یتحقق فی القریب العاجل. و لیس تعلیم السیدات بالأزهر بجدید، فقد سبق الأزهر العالم کله منذ إنشائه حین کانت تعقد فیه دروس خاصة للسیدات، و کان بعضهن یحضرن الدروس العامة لیتفقهن فی الدین کالرجال سواء بسواء.

هذه بعض جهود الأزهر فی ربع قرن، و هذه هی خطواته بعد الإصلاح، و هی إن لم تکن أوفت علی الغایة فقد جاوزت البدایة القلقة، و ثبتت أقدام الإصلاح. و الأزهر بعد یسیر بخطی جبارة، و ما هی إلا عشیة أو ضحاها حتی یجمع فیها أنفاسه بعد هذا الجهد الشاق إلا و یستبق الزمن و یقفز إلی الطلیعة یقود البلاد کعهده فی الثقافة و اللغة و علوم الدین، و یهیء للمجتمع الإسلامی کله حیاة طیبة نافعة تسلکه مع أمم الأرض فی الرقی و الحضارة.

-۱۱-

و قد ألقی الشیخ عباس الجمل فی أبریل عام ۱۹۳۶ محاضرة موضوعها رسالة الأزهر، کان خلاصتها أن الأزهر إنما قام لنشر فقه الشیعة و عقائدهم و مبادئهم الدینیة و السیاسیة. و أن الفرنسیین حین دخلوا مصر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۷

اتخذوا شیوخ الأزهر صنائع للدعایة لهم، و لکن الذی جنی ثمرة ذلک هو محمد علی لا الفرنسیون. ثم ذکر أن الأزهر أدی رسالته العلمیة فی القرن التاسع عشر أداء مناسبا، و کانت زعامة الأدب العربی فی الکتابة و الخطابة إلی ابن من أبنائه هو محمد عبده، ثم سعد زغلول .. و لکن الأزهر لم یظفر بأن ینال من زعامة الشعر شیئا .. و قد رفض الأزهر ما طلبه منه الخدیوی إسماعیل من تشریع قوانین مستمدة من الشریعة الإسلامیة لتکون قوانین للمحاکم الأهلیة، فرجع الخدیوی و حکومته الی القوانین الفرنسیة تأخذ منها ما تشاء، و بذلک تحمل الأزهر هذا الإثم الشدید، و لکنه عاد فقدم للمحاکم الشرعیة قوانین و قضاة.

و فی قوانین الأزهر الأخیرة ما یرشد إلی رسالة الأزهر، فهو المعهد الدینی العلمی الإسلامی الأکبر، و الغرض منه القیام علی حفظ الشریعة الإسلامیة الغراء و أصولها و فروعها و اللغة العربیة، و علی نشرها تخریج من یوکل إلیهم تعلیم علوم الدین و اللغة و یلون وظائف الدولة الشرعیة ..

و استطرد من ذلک إلی أن الأزهر أمامه طریق شائک و لیل مظلم، و أنه لا یستطیع بحالته أن یسیر لأداء رسالته، و طلب أن یرتفع الأزهر بأئمته و علمائه و مفتیه، و أن یجتهد الأزهر فیصلح ما فسد فیه، و یسیر لأداء رسالته الصحیحة، رسالة الهدی و الإصلاح.

-۱۲-

و فی عام ۱۹۳۶ أعلن علی ماهر عن عدة مسابقات تمنح الحکومة فیها مکافات سخیة للفائزین، و کان من موضوعات هذه المسابقة «رسالة الأزهر فی القرن العشرین» و قد فاز بالجائزة الأولی فیها الأستاذ أحمد خاکی. و قد ذهب هذا الباحث فیما ذهب إلیه إلی أن تاریخ الأزهر یتصل اتصالا وثیقا بالحرکات الفکریة التی قامت فی مصر منذ السنة التی أنشیء فیها، و یتمثل فیه من ناحیة أخری

مبادیء الإسلام و ما کان لها من سلطان، لأن الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸

معهد دینی کانت رسالته دائما رسالة الإسلام، و کانت لشیوخه الزعامة الفکریة فی القدیم، حتی أن بونابرت لما دخل مصر و وجد للأزهر الزعامة الدینیة و الاجتماعیة و السیاسیة تقرب إلی شیوخه، و جعل أعضاء «الدیوان» الذی أنشأه منه، و هذا اعتراف بسلطان الأزهر علی الشعب.

و وسط الزوابع السیاسیة التی تلت عصر نابلیون و سبقت ولایة محمد علی قام الأزهریون یثبتون حق الشعب و یؤیدون ما یذهبون إلیه بنصوص من الدین الحنیف، و لقد کان للسید عمر مکرم نقیب الأشراف حینئذ المکانة الأولی بین ممثلی الشعب، و کان الشعب غاضبا علی خورشید باشا راغبا فی تولیة محمد علی، و فی تاریخ الجبرتی نقاش بین السید عمر مکرم و بین عمر بک أحد أنصار خورشید، فقد کان عمر یذکره بالآیة الکریمة أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فلم یکن من السید عمر إلا أن قال: «أولو الأمر العلماء و حملة الشریعة و السلطان العادل»، ألسنا نحس فی ذلک الرد وحده تلک القوة الولیدة التی شعر بها زعماء الأزهر و ألسنا نستطیع أن ندرک دهاء محمد علی حینما اجتذب الشیوخ إلی جانبه فتغلب علی القوی التی کانت تنافسه؟ و سلطان هؤلاء الأزهریین هو الذی ظاهره علی الممالیک و هو الذی أرغم الخلیفة علی أن یعترف بولایته، کانت هذه إذن سابقة للأزهر أعلنت من مکانه فظل زعیما للجماعة المصریة بعد ذلک. و ما برح الأزهر یساير الحرکة الفکریة فی مصر حتی تمخض فی أواخر القرن التاسع عشر عن حرکة شاملة من حرکات الإصلاح توجهت ضد العناصر الدخیلة التی مشت بالسوء فی أمم الشرق، و قد رفع هذه الحرکة جمال الدین الأفغانی و الشیخ محمد عبده، و لعل خیر ما یذکر من أیادی الاستاذ الإمام أنه خرج الی فلاسفة الغرب یرد الحجة بالحجة و یقرع البرهان بالبرهان، و لم یکن الجدل الذی نشب بینه و بین هانوتو إلا ناحیة من الصراع الفکری بین الشرق و الغرب، و کان المؤرخ الفرنسی یفتعل الذرائع و المسوغات التی تحلل ما اقترفته السیاسة المادیة التی استحلت لنفسها کل

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹

ما تحرمه الشرائع و القوانین، و لم یکن الإمام المصری فی ردوده إلا مدافعا عن أصول الإسلام الأولی یلحق البینة بالبینة یمیز بین ما هو من صلب الدین و بین ما هو دخیل علی الدین علی أن ذلک الکفاح الذی تولاه الأستاذ الإمام و الذی خلق بعد ذلک مدرسة بأسرها من مدارس الفکر لم یزل حتی أصاب ساعدا قویا فی أفراد من المتخرجین فی الأزهر ثاروا علی حکومة الدخلاء، و اتصلوا بالجیش آملین أن یحققوا بعض مثلهم العلیا، فکانت الثورة التی اتصلت باسم عرابی باشا، و قد نجح التفکیر الأزهری فی هذه المرة إلی ثورة عسکریة لم تکن موفقة لأنها لم تکن من طبیعة الأزهر، و عرابی نفسه کان أزهریا لکنه لم یکن بالأزهری الرشید، و قد جمعت هذه الثورة العسکریة إلی العناصر الواهیة التی أنهکتها کثیرا من العناصر السامیة التی خلقت فی مصر أثرا بلیغا، و کانت علی الرغم مما انتابها من وهن نهضة قومیة ما زالت تنمو حتی کانت شاملة بعد الحرب الکبری، و لسنا ننسی أن الأزهر کان محطا لرکاب هذه النهضة، فالأزهر کان مرکزا للزعامة فی أوائل القرن التاسع عشر و قد ظل مصدر للزعماء حتی بدایة القرن العشرین، و قد ظهرت قوة الأزهر فی الحالات التی احتکت بها مصر بالدخلاء الأجانب، ظهرت تلک القوة أمام الفرنسیین بزعامة السید عمر مکرم، ثم انتظمت فی جسم الأمة حتی وضحت مرة أخری بزعامة الشیخ محمد عبده، و کانت موجهة فی هذه المرة إلی الذین بسطوا أقلامهم فی الدین من الفلاسفة و المؤرخین الأجانب، ثم کان لها بعد ذلک وجه قومی بدأ بقیادة عرابی و انتهی سلمیا بزعامة سعد زغلول، و قد حاولت الحرکة الأولی أن تتخلص من دخلاء الشرکس، و حاولت الثانیة أن تستقل عن کل أجنبی:

لقد رأینا کیف کان الأزهر مصدرا للزعامة و الکفاح، و قد رأینا کیف استعان الفکر المصری فی کفاحه السیاسی و الدینی و الاجتماعی بسلطان الأزهر فقضی علی المبادیء الخربة التی تربصت بالشرق الدوائر، و قد تزعم شیوخ الأزهر المصریین لأن هؤلاء کانوا یستوحونهم الشعور الدینی و کان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰

یتمثل فی خلقهم و إرشادهم تلک القوی الحیة التی نماها الإسلام و قواها فإن نحن أردنا أن نضرب بسهم فی سبیل التقدم وجب علینا أن نرجع إلی أصول الإسلام الأولی فنحی تراثه و تلک الرجعة إلی دیننا الحنیف هی من رسالة الأزهر لحمتها و سداها، و جدیر بالأزهر إذا أراد إحیاء لذلک المجد الأثیل أن یعود سیرته الأولی من حیث الکفاح و الزعامة و أن تتمثل فیه کل المثل العلیا التی بسطنا القلیل منها فیما تقدم، و بذلک یستطیع أن یلهم الناس دینهم خالصا نقیا، بل خلیق به بعد ذلک- إذا أراد أن یکون فی الرأس- أن یتصل أتصالا وثیقا بالحرکات الاجتماعیة التی تدب بین المصریین و قد بینا کیف کانت رسالة الأزهر دائما مزدوجة، فهی دینیة من ناحیة و اجتماعیة من ناحیة أخری ذلک بأن الإسلام کما أسلفنا دین یجمع بین العقائد و الشرائع یسعی لخیر الجماعة فی شتی الصور و یؤلف بین خلق الفرد خاصة و بین الأمة بوجه عام، لقد کان اهتمام الأزهر بالحرکات الاجتماعیة فی مصر وحد به علیها أساسا لزعامته التی ظل الجمیع یعترفون بها حتی أواخر القرن التاسع عشر و فی الیوم الذی یعتزل الأزهر فیه الحیاة العامة یضحی من سلطانه الذی کفله الدین نفسه و الذی عنا له المصریون خلال الأحداث التی اکتظ بها تاریخهم الطویل الحافل، و یعتزل الأزهر الحیاة العامة إذا هو اطمأن إلی القیود التی تعوق التقدم فإن ذلک لا یتفق مع روح الإسلام نفسه و مصر- ککل جزء من أجزاء الأرض- ما زالت تنشد الإیمان و الخیر و الحریة لکل المصریین إذ یتشبثون بتلک المبادیء یتلفتون ذات الیمین و ذات الیسار یریدون أن یجدوا ملجأ فیطمئنوا إلیه و یعتصموا به.

فجدیر بالأزهر إذا أن یساهم فی کل نواحی الحیاة المصریة و أن یکون- کما کان فی القرن التاسع عشر- قوة دافعة تستمد من قوة الدین و الحق، إن زعامة الأزهر لنواحی النشاط فی مصر سوف تنتج خیرا شاملا، ذلک لأن التقدم المادی ینتهی دائما بکفاح یخلو من المثل الأعلی، و کل کفاح یخلو من المثل الأعلی یؤدی حتما إلی الفناء کالنار تأکل نفسها، و قد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱

تقنعنا نظرة عجلی إلی تاریخ أوروبا بکل ذلک فقد تناست ممالکها فی تنازعها کل المثل العلیا التی جاء بها دینها و هی لا تزال تتناساها إلی الیوم فی نزاعها مع القارات الأخری.

و قد کفل الإسلام الحریة بما رفع من مقام الإنسان و النظام بما أتی من أحکام الشرع و جعل طاعة اللّه و رسوله و أولی الأمر واجبات نقوم بها و نحن راضون، و بذل النصح لأولی الأمر بأن یترفقوا بالناس، ثم أنه قد جعل الناس کلهم إخوة فکان خیر الناس عند اللّه أتقاهم فضمن بذلک حق العامة أمام الخاصة، کل هذا أتی به الإسلام و نزله مبادیء دستوریة یستطیع الفقهاء أن یلائموا بینها فی بیئاتهم و بذلک کفل للإنسان أن یتقدم دائما. و لسنا نری تقدما أرشد من هذا الذی یقوم علی مثل المبادیء، علی أن التوفیق بینها أجمعین کان دائما أس التقدم عند دول الإسلام. یقول النفسیون: إن الإنسان لا یبلغ حدا من الکمال إلا إذا وازن بین القوی و الملکات التی یکسبها، و قد ذهب الی ذلک أفلاطون و قال مثل ذلک قوم آخرون قبل أن یدرس علم النفس، لکن التوازن بین قوی الإنسان و ملکاته أصبح حقیقة علمیة فی العصر الحدیث و ینشأ کثیر من أنواع الجنون إذا اختل هذا التوازن بل نحسب أن الانسجام محبب إلی النفس من الوجهة الجمالیة و قد حاول کثیر من الفلاسفة- و قد کانوا موفقین- أن یبحثوا فی مثل هذا التوازن فی المجتمع و یحدث جنون الفرد إذا هو أفرط فی الأخذ بفکرة من الأفکار أو خیال من الخیالات و کذلک یحدث جنون الجماعة إذا هی أخذت بمبدأ واحد تمادت فیه- مهما کان هذا المبدأ سلیما، و ما نظن إلا أن الإسلام کفیل بأن یؤلف بین کل تلک المبادیء فیرسل الانسجام فیها إرسالا.

ثم خلص من تلک الی أن رسالة الأزهر هی نشر رسالة التقدم الروحی و الفکری و الاجتماعی فی البلاد الإسلامیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲

و یقول الدکتور حسین الهمدانی الباکستانی حول رسالة الأزهر:

حفلت البلاد الإسلامیة منذ انبثق فجر الإسلام بدور العلم و معاهد العرفان فی وقت کانت ظلمات الجهل تجثم فیه فوق ربوع العالم العربی، و مع أن هذه الدرر کانت تتسم بطابع خاص هو الطابع الإسلامی فإنها کانت تتوسم فی نظامها و اتجاهاتها الحرص علی توفیر أسباب الطمأنینة فی نفوس طلاب العلم و توثیق الصلة بینهم و بین أساتذتهم و إشاعة تلک الروح الجامعیة التی یجب توافرها فی معاهد العلم العلیا مثل ما یشاهده المرء الآن فی أعرق الجامعات العربیة. و یلوح أنه لم یکن ثمة مناص من أن تغدوا المساجد و الجوامع مقرا لنشر المعرفة کما کانت و ما زالت مصدرا لبث الهدایة و الرشد فی نفوس الناس فی الوقت ذاته. و لم یکن هناک تعارض فی اضطلاعها بالمهمتین، فإن الدین الإسلامی الذی یأمر بالتسامح و المساواة و یحث علی طلب المعرفة و لو اقتضی الأمر الاغتراب فی مشارق الأرض و مغاربها ما کان لیجد خیرا من المساجد بجوها القدسی لغرس العلم و المعرفة فی نفوس المسلمین، بل إن اختیار المساجد لهذا الغرض یحمل فی طیاته الإقرار بقداسة العلم و وجوب تطهیره من حمأة الأغراض الدنیویة و البعد به عن کل جو ینحرف به عن قدسیته. و قد ظهر فی الإسلام معاهد علمیة عظیمة القدر رفیعة الاسم، و کان الحکام یتنافسون فی إنشائها، فأنشیء الأزهر فی عام ۳۶۱ ه (۹۷۱ م) و أنشئت الکلیة النظامیة فی عام ۴۵۹ ه (۱۰۶۶ م)، و أنشئت الصالحیة فی القدس عام ۵۸۳ ه (۱۱۸۷ م). و کان الغرض من إنشاء هذه المعاهد هی و غیرها بادیء الأمر- و باستثناء المستنصریة- هو تدریس المذاهب الدینیة و الدعوة لها، فأنشیء الأزهر لتدعیم المذهب الشیعی فی مصر بعد فتحها علی ید الفاطمیین.

و أنشئت النظامیة هی و الصلاحیة لدعم المذهب الشافعی بینما أنشئت المستنصریة لتدریس المذاهب الأربعة و کان بها کلیة لتدریس الطب و أخری

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳

لتدریس الریاضیات و اللغات و قد اختفت هذه المعاهد العظیمة و اندثرت و عفا علیها الدهر فیما عدا الأزهر الذی ظل راسخا کالطود بالرغم مما مر به من أحداث بل و اضطهاد فی بعض العصور. و لعمری أن المرء لیتساءل ماذا کان یصیب اللغة العربیة و آدابها و ما یتصل بهما من علوم و معرفة لو أن الأزهر أصابه ما أصاب غیره من معاهد و لم یصمد للحوادث طیلة هذه الأجیال؟

لقد کان هذا الأزهر و لا یزال- و أرجو أن یظل علی ذلک أبد الدهر- دعایة العلوم و المعارف فی العالم الإسلامی. و قد أراد اللّه بالأمم الإسلامیة خیرا حین کلأ هذا الجامع بعنایته و رعایته و صانه من غوائل الدهر و من الانهیار.

و لم یکن الأزهر بناء أو جدرانا لا حیاة فیها. بل کان علی الدوام فکرة نابضة و روحا متسامیة و حیاة فکریة و مبادیء حیة. بدأ جامعا فانقلب جامعة لها خصائصها و تقالیدها و سمتها و طابعها. و قد ظلت هذه التقالید و الخصائص و الطابع و السمة تلازمه علی مر العصور. و کان من خیر هذه التقالید أن الطالب یظل یتلقی العلم حتی إذا/ آنس فی نفسه القدرة علی التصدر للعلم أذاع ذلک بین زملائه و شیوخه فتعقد فی دیوان الأزهر حلقة من العلماء النابهین یجلس الطالب فی صدرها و یناقش نقاشا حادا فی المادة التی تدرسها و فی جمیع المواد المتصلة بها، فإذا أثبت الطالب کفاءة ممتازة منح حق التدریس. و هذا التقلید یذکرنا بما هو متبع فی الجامعات العریقة و فی مناقشة رسالات الدکتوراه فیها فی عصرنا الحدیث. و إذا کان الأزهر قد صعد نیفا و ألف عام للأحداث و ظل راسخا فی أداء رسالته فی دعم أرکان الدین الإسلامی و نشر العلوم الإسلامیة، و استطاع أن یحتفظ بمکانته المرموقة کدعامة قویة للإسلام و منارة لنشر العلم و العرفان، فإن منهجه یجب أن یحتذی فی کافة الأمصار الإسلامیة فلیس فی وسع سکان الباکستان أو غیرها من البلاد الإسلامیة أن یفدوا بقضهم و قضیضهم لیتزودوا من منهل الأزهر الذی لا ینضب و ینهلوا من مورده العذب، عل أن الباکستان و غیرها من البلاد الإسلامیة لا تستطیع أن تترسم الروح الأزهریة الفذة دون أن تنوه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴

ببعض ما يجول فی نفوس بعض العلماء من مخاوف بشأن اضمحلال هذه الروح بسبب تلك النظم الحديثة التی أدخلت فی الأزهر مثل نظام الامتحانات و تحديد المقررات و كثرة المواد الدراسية التی لا- تتصل بالدراسات الإسلامية- حتی أن البعض يعتقد أن مستوی التحصيل فی الأزهر قد اخفض انخفاضا ملموسا بسبب انصراف الطلبة إلی إحراز الإجازات التی تعتبر سلاحا للتوظف دون الرغبة فی التزود بالعلم لذاته و التعمق فی المعرفة. و قد كان النظام الذی سلكه الأزهر خلال القرون الماضية نظاما جامعيا بحتا و كانت الروح العلمية تسيطر علی جوه، فكانت صلة الطالب بمدرسته صلة وثيقة دعامتها العلم و الرغبة فی اعتراف مناهله ... و حسبك أن تعلم أن الجامعات الغربية تتهيأ الآن هذا التهيؤ لتأدية رسالتها.

و لكن ما لبث النظام «المدرسی» الجديد الذی أدخل علی الأزهر أن أضعف من هذه الرابطة العلمية بين الطالب و أستاذه. ثم إن النظام يعمل علی شحن ذهن الطالب بعلوم لا طائل تحتها و لا يدع له وقتا و لا ميلا للتعمق فی نوع عين من المعرفة الإسلامية تعمق من شأنه أن يخلق لنا علماء من طراز الشيخ محمد عبده و الشيخ مصطفی عبد الرزاق و الشيخ المراغی و إضرابهم من جهابذة العلماء الذين يفخر العالم الإسلامی بهم. و الحق أن النواة لأمثال هؤلاء العلماء موجودة فإن الطلبة الأزهريين ما زالوا يتسمون بالروح العلمية، و قد علمت من أحد القائمين علی إدارة المعهد البريطانی فی القاهرة أنه وجد فی الطلبة الأزهريين الذين يتلقون اللغة الانجليزية فی المعهد المذكور استعدادا و إدراكا و تعمقا و غيرة و إقبالا علی العلم بما هو جدير بطلبة هذه الجامعة العريقة، و نعتقد أن خير ما يمكن أن يفعله الأزهر هو أن يعمل جاهدا للعودة لذلك الجو العلمی البحث الذی عرف به و أن يقضی علی نظام الامتحانات أو يعد له، بحيث ينصرف الطلاب للعلم وحده دون النظر للإجازات العلمية كهدف يتعين عليهم تحقيقه للحصول علی الوظائف.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵

و بودنا لو عنی رجال الأزهر الأعلام الألمعيون بأمر جدير بعنايتهم و هو تعليم الفتيات، فالشاهد أن الأسر الإسلامية كثيرا ما تدخل فتياتها فی المعاهد الأجنبية التبشيرية، و لسنا نجد مبررا لحرمان الفتيات المسلمات من الثقافة الدينية الإسلامية ما لم يمد يده لمعونتها. و الواقع أن رسالة الأزهر لا تقتصر و لا يجب أن تقتصر علی مصر وحدها بل رسالته أعم و أشمل. و من حق البلاد الإسلامية أن تطالبه بأن يمد رسالته عبر البحار لا إلی البلاد الإسلامية فحسب بل و للبلاد غير الإسلامية أيضا. و من حسن الطالع ألا يكون هذا هو رأينا وحدنا بل هو رأی الحكومة المصرية نفسها بدليل ما وافق عليه مجلس الوزراء فی إحدی جلساته الأخيرة من فتح الاعتمادات لإنشاء معهدين إسلاميين فی مدريد و طنجة. و فی وسع الأزهر أن يساهم مساهمة أدبية و مادية فی إنشاء معاهد العلوم الإسلامية و الدينية فی البلاد الإسلامية فيبعث بعلمائه إلی هذه الأمصار التی ستلقاهم بصدر رحب و تحلهم منها مكانة الصدر و الأعزاز، يبثون فيها تلك الروح الفقهية و العلمية العميقة التی انفرد الأزهر بها منذ حوالی عشرة قرون و يضعون برامج الدراسة فی هذه المعاهد وفق النهج الذی مارسه الأزهر منذ إنشائه و يعملون علی نشر اللغة العربية و دعمها فی البلاد الإسلامية غير العربية. و لسعادة علوبة باشا مشروع فی هذا الشأن يستطيع علماء الأزهر دراسته و تنفيذه كله او بعضه. أما بالنسبة للبلاد غير الإسلامية فإن واجب الأزهر يقتضيه- بوصفه دعامة العلوم الإسلامية و منارة الدين و الهدی- أن ينشیء المعاهد الإسلامية فی عواصمها و مدنها الكبری و أن يزودها ببعض زملائه الذين يتقنون اللغات حتی يكون فی مقدورهم نشر العلوم الإسلامية فی هذه البلاد. و إذا كانت بعض الجميعات الإسلامية قد أحرزت توفيقا فی هذا المضمار فأحری بالأزهر و هو المؤسسة التليدة العريقة أن يصيب نجاحا عظيما بما يتوافر لديه من اعتبارات و عوامل تكفل له التوفيق و النجاح فی القيام برسالته. و يستطيع الأزهر مثلا أن ينشیء معاهد فی لندن و برلين و باريس و روما و واشنطون و غيرها من المدن الكبری

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶

علی غرار ما نراه من المعاهد الأجنبية التی تنشئها الدول الغربية بين ظهرانينا و نعتقد أن مثل هذا العمل يستدعی إنشاء معهد خاص للغات الأجنبية فی الأزهر نفسه يدرس فيه العلماء و الطلاب تلك اللغات بتوسيع و تعمق فی وسط ازهری يكفل لهم تغلغل الروح

الأزهرية العالية فی نفوسهم.

-۱۴-

و فی عام ۱۹۵۲ نشر الأستاذ أمين الخولی فی جريدة المصری مقالات متعددة عن «الدين و الحياة» عرض فيها للأزهر بالتحليل و النقد، و ندد بحيرته فی أداء رسالته، فقال فی المقال الأول الذی نشره له المصری فی ۲۸ من أبريل من هذا العام:

هل أدی الأزهر رسالته، بما هو بيئة التربية الدينية و التوجيه الدينی؟

أن ذلک ليقتضينی أن أرجع بالذاكرة إلی ما قبل اثنين و أربعين عاما، إذ أعود إلی عهد من النشاط دخلت فيه «مدرسة القضاء الشرعی، لا تلقی تلک التجربة، السياسية و العلمية، و الاجتماعية، التی أرادتها مدرسة الإصلاح الدينی الحديث، من شيعة «محمد عبده» و علی رأسهم، سعد زغلول باشا، فأرادوا فی السياسة تجربة استقلالية مصرية، فی معهد لا تمتد إليه يد أجنبية و يتولی أمر نفسه، فی استقلال إداری و ثقافی، لا- صلة له بوزارة المعارف، و مستشارها العتيد إذ ذاک كما أرادوا تجربة علمية تلتقی فيها الثقافتان: القديمة و الحديثة، و الشرقية و الغربية، إلتقاء معتدلا رزينا، لا تجوز فيه واحدة علی صاحبتها، و لا تنكر واحدة منهما أختها .. و أرادوا مع ذلک كله تجربة اجتماعية، فی الإصلاح بالقدوة و المثل، يشهدهما المجتمع، فيری مبصر، و يسمع واع .. فعانيت فی دار تلک التجربة ما عانيت أعواما .. دارسا و مدرسا، و رئيس تحرير مجلة القضاء الشرعی، أعود بالذاكرة إلی سنة ۱۳۴۲ ه- ۱۹۲۳ م- حين انطلقت أرقب الحياة الدينية، و التعليم الدينی فی أوروبا، و أرصد شئونها، لأقيد نتائج مقابلة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۷

ذلک كله بما فی مصر، متتبعا ذلک، فی إيطاليا مقر البابوية، بمعاهدها الدينية و فی المانيا و غيرها، بالجامعات المدنية. ثم أعود بالذاكرة إلا ما بعد ذلک، إذ أرجع إلی مصر فأشارک فی هذه الشئون بها، مشاركة مفكرة منظمة، مشرعة معلمة إلی حوالی سنة ۱۹۴۰ م- نحو سنة ۱۳۶۰ ه- ثم إلی ما بعد ذلک فی تجربة معانية، مراقبة، عنيفة ...

أعود بالذاكرة إلی ذلک كله، لأرقب سير التطور فی هذه الناحية من صلة الدين بالحياة، و إصلاح الدين، و الإصلاح به فأجيب عن أسئلتک، بما يحدث به اتجاه ذلک التطور، و دلالة سيره، علی هذه الرسالة الأزهرية و أدائها و علی غير ذلک من الشئون الدينية الحيوية .. و إذ أعود إلی هذه المذكرات المحفوظة أو المكتوبة؛ أذكر سنة ۱۳۵۵ ه- ۱۹۳۶ م إذ التقی ثلاثة من جلة الأشياخ، و منهم رابع و آخر جامعی لتقدير ما كتب من أبحاث، فی مسابقة من تلک المسابقات التی أثارها علی ماهر، و من بينها مسابقة عن رسالة الأزهر فی القرن العشرين .. اجتمع هؤلاء المجتمعون ليروا كيف يقدرون ما كتب عن هذه الرسالة و بأی ميزان يزنونه .. فانتهی الأمر بعد لأی إلی أن للأزهر رسالات ثلاثا: رسالة اجتماعية و أخری دينية و ثالثة علمية .. و قبل الانتهاء إلی هذه الرسالات الثلاث كانت الرسالة الاجتماعية من بين هذه الثلاث موضع اعتراضات و مناقشات حادة طويلة من أحد أولئک الذين عهد إليهم الدهر بعد بالإشراف علی أدائها .. فقيل: ما ذا تكون الرسالة الاجتماعية إلی جانب الدينية؟ و كيف تتغايران؟ و بم تختلفان؟ و هل للأزهر رسالة وراء وجوده الدينی الإسلامی؟! و قيل فی ذلک شیء كثير، سجل بعضه بحث عن تلک الرسالة الأزهرية لصاحب هذه الكلمات، بيانا لما كان من أمر الأزهر أول إنشائه دعاية لسياسة معينة و عقيدة معينة، فعرف بذلک التوجيه الاجتماعی فی نشأته، فكيف به الآن، و قد عمر فی قومه أكثر من عمر نوح بخمسين سنة و أكثر .. ثم هذا الأزهر بعد ذلک و غير بيئة دينية قد تهيأ لها من أسباب المناعة و الصيانة ما تستطيع به

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸

حماية الشخصية المصرية خاصة و الشرقية عامة و الإسلامية جملة .. و قد كتب حول هذه المعانی و ما إليها ما دفعته مطبعة الأزهر نفسه، فی ذلک الحين، إلی أيدی القراء و خزائن الكتب تحت عنوان: رسالة الأزهر فی القرن العشرين، و فيه أن رسالة الأزهر

الاجتماعية إنما هى: حماية الروح القومية لمصر و الشرق الإسلامى. جماعة عاقلة. متبصرة متدينة لا تقف عند القشور و لا تعنى بالتافه. و فى سبيل هذه الحماية يحتفظ هو لنفسه بالطابع المصرى الإسلامى. ثم الشرقى. النافع، الذى لا يعوق الحياة فى تجددها و نشاطها العمل. مقدرا نواميس الاجتماع. و قوانين الحياة غير واقف فى طريق شىء من ذلك. أو معارض إلا على أساس من النظر البعيد. و الوزن الدقيق. أذاع الأزهر الحديث هذه الرسالة الاجتماعية على الناس شرقا و غربا. و الأزهريون بالأمس. يعرفون العالم بأنه: العاكف على دينه العارف بحال قومه .. و للأزهر صحافة غنية راتبة. فما الذى كان من بحث تفاصيل هذه الرسالة الاجتماعية؟ و ما الذى درس من اتجاه التطور الاجتماعى. و التجدد الدائم للحياة المصرية. و النشاط العملى لها؟ أما أنا فلا أعرف من ذلك شيئا. و لعل غيرى يهدينى إلى شىء من هذا التعرف للواجب الاجتماعى على الأزهر لحياة الأمة التى ساير حياتها ألف عام.

و فى المقالة الثانية التى نشرت فى أول مايو ۱۹۵۲ عن «الأزهر فى حياة مصر الدينية» ذكر أن الأزهر هو الذى يحمى إحساس مصر، و الشرق الإسلامى بذاتهما إحساسا قويا واضحا، و هو الذى يحمى روح مصر و الشرق الإسلامى الخاصة، و هو الذى يحمى الذوق المصرى الشرقى، الصالح، و يحييه. و هو الذى يحمى الفضائل العملية المصرية و الشرقية، و يغرى الناس بها، و هو الذى يحمى العادات المصرية الشرقية الصالحة للبقاء، و يقف بها فى وجه العادات الغربية التى لا تلائم البيئة المصرية و الشرقية، و هو الذى ينظلأ فيما تقتبسه الحياة من جديد، و يتدخل فى هذا الاقتباس، بتعقل و لباقة، ليقاوم الضار منه، على ضوء الهدى الإسلامى،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۹

و الخبرة الاجتماعية و الفهم الجيد لشئون الحياة .. فكل هذا و ما إليه هو ما دعته تلك الهيئة الأزهرية رسالة الأزهر الاجتماعية، و بالنظر فى هذه الرسالة، وجدناها حينا غير واضحة فى أذهان رجال هذه البيئة، و حينا ير معتنى بتعرفها، و فهمها الفهم الصحيح، و آنا قد غلبت البيئة الأزهرية غير شخصيتها ذاتها فاندمجت فى التيار الغالب بغربيته .. و طورا يعوز هذه البيئة الاتصال بالحياة، اتصالا قويا فعالا، مؤثرا فى سيرها و توجيهها.

و قد تألفت لجنة بحث المسابقة عن رسالة الأزهر فى القرن العشرين، من الشيخ محمد مصطفى المراغى و الشيخ مصطفى عبد الرازق و الشيخ عبد المجيد سليم، و المرحوم عبد العزيز فهمى، و معهم كاتب هذه الكلمات، الذى عرض عليهم بعد الحكم فى المسابقة، ما كتبه قبلها و لم يدخل التحكيم، و قررت اللجنة أنه الصورة المطلوبة فى ذلك، و نشره الأزهر مطبوعا ... و فى الناحية الدينية، من رسالة الأزهر، أقرت اللجنة من هذا المكتوب نواحى ثلاثا:

۱- بيان التدين الإسلامى المرجو اليوم.

۲- الهيئة الدينية التى تقوم به و تحققه فى هذا العصر.

۳- الهدف الذى تعمل لتحقيقه، أو الرسالة الدينية للأزهر.

و من الحق أن أعتمد على ما أقرته اللجنة من ذلك، فيما أحدث عنه، من أمر الأزهر فى حياة مصر الدينية الآن، و أول ذلك أن تعرف الرأى فى التدين الإسلامى المرجو اليوم، كما اطمأنت إليه تلك الهيئة الأزهرية، منذ ذلك الزمن غير القريب، فهل ترى، أنه تدين إنسانى القلب، نبيل العاطفة، يؤيد التعاون البشرى، و لا يعوق الإخاء الإنسانى، و أنه ليس العصبية المقيتة، المتعمقة الأفق التى تحتقر الآخرين و تنزلهم من مرتبة الإنسانية، و تنكر صفتهم البشرية، و أنه تدين لا يعرف تلك السلطة الغاشمة التى ترهب العقل الطليق، و تفت فى العزم الوثيق، و تفسد الذوق الدقيق.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۰

و تحتكم بجبروت لاهوتى فى حياة الدنيا، و تسد الطريق إلى الآخرة، و إنه تدين لا يخلق تلك الطبقة التى تحتكر الدين، و تسد المسالك إلى اللّه و لا يعترف بتلك الطبقة أن خلقتها الظروف، لأنه لا رياسة فى الإسلام، و كلهم قريب إلى اللّه سبحانه و تعالى، و من التدين على هذا الوجه، ترى الهيئة الجليلة أن يشتق الأزهر صنعته الدينية، و من التدين على هذا الوجه يتبين الأزهر رسالته الدينية،

و ما أخال مفكرا يشك، فی أن هذا التدين هو أولا، أقرب ما يكون من حقيقة الإسلام، و جوهره، ثم هو ثانيا ما تتطلع إليه الروح الصافية، الطامحة المخلصة، البارئة من كل وهم، أو جهل، أو تعصب أو جحود أو حمق يسيء إلى الحياة، و أعود بالذاكرة إلى سنة ۱۳۵۵ ه- ۱۹۳۶ م، فأرى مؤتمر الأديان العالمی يعقد فی ۳ يوليو من سنة ۱۹۳۶ نفسها، و يدعی إليه الأزهر، فيبعث إليه حضرة صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد مصطفی المراغی شيخ الأزهر برسالة. فی موضوع الزمالة الإنسانية، تنشر بمصر فی شهر يوليو من السنة ذاتها.

و ترى فی هذه الرسالة أنوار من آفاق التدين الإسلامی الوضيء، الذی قرأت آنفا وصفه، فهی تحدثك عن زمالة عالمية يتعاون فيها أصحاب الأديان جميعا، تعاونا حقا جادا على تحقيق أغراض معنوية، و أغراض عملية جليلة مسعدة للإنسانية المعناة بالبغضاء و الجهل و البؤس. فأما الأغراض المعنوية التی تسعی هذه الزمالة الإنسانية لتحقيقها فهی فی إجمال إزاحة العلل التی حالت دون تأثير الشعور الدينی، فی تقريب ما بين الناس .. و أما الأغراض العملية فهی- على الإجمال- جعل التدين أداة فعالة فی تهذيب الجماعة و تمكين العوامل المعنوية، التی تشترك فيها الأديان، من التأثير فی الحياة الإنسانية الواقعية، و تصيير الفضائل العملية التی تدعو إليها الأديان كلها نظما عملية ... كما أنها تعد الوسائل المختلفة لتحقيق تلك الأغراض النظرية و العملية من الدرس و التوجيه، و إيجاد الهيئات و .. و ... مما تجده واضحا فی تلك الرسالة التی نشرها الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱

نفسه، بالعربية و الانجليزية فی يولية سنة ۱۹۳۶ م- و التی نشر فی أبريل منها ما كتبه عن رسالة الأزهر.

و فی مقالة أخرى نشرت بعنوان «الأزهر و العمل الدينی» ذكر فيها فيما ذكره أن الأزهر هو هذه البيئة الدينية الأولى و الكبرى، فی مصر و الشرق ..

هذه البيئة التی لبثت كثيرا، تؤدی فی مصر و الشرق رسالة دينية، هذه البيئة التی ستظل دهرا طويلا تؤدی فی مصر و الشرق رسالة دينية و للدين عمله فی الحياة، منذ دبت الحياة على ظهر الأرض .. و سيكون للدين أثره على الحياة، حتی يرث اللّه الأرض و من عليها.

فی هذه البيئة آلاف مؤلفة- كما تعرف- ما بين طلبة دراسين و أساتذة مدرسين، و علماء منقطعين للبحث، و رجال إدارة فی مراكز مختلفة، بالأزهر، و موظفين موكلين بأعمال دينية لمصر كالواعظ و نحوهم ... و كل أولئك أهل للنشاط العملی، و التدبير الدينی لحياة مصر، بل هم أحق بالتدبير العامل لحياة مصر، من أهل أية بيئة أخرى؛ علمية أو عملية بها .. و ذلك أن ما يقوم به الآخرون، غير الأزهريين إنما يدفعهم إليه شعور الوحدة الاجتماعية، التی تربطهم بقومهم، و يحتاجون فی إثارة هذا الشعور بتلك الوحدة، إلى معان بعيدة، لإدراك أنهم بإصلاح حال قومهم إنما يهيئون المجال الحيوی، الذی يجدون فيه فرصة تكميل أنفسهم و ترقية وجودهم، و الحياة السعيدة الكريمة التی يطمعون فيها، و بدون هذا المجال الحيوی، من المجتمع الصالح الخير، يستحيل على الفرد أن يجد فرصة لكمال نفسه هو، و تحقيق وجوده الصالح السعيد، و حين يتنادی أهل البيئات غير الدينية بهذه المعانی الاجتماعية، و يجهدون فی العمل لتقوية الشعور بها، تجد أهل الدين يشعرون بمثل تلك الحقائق شعورا قويا، تمده عقيدة وجدانية، أصيلة بأن الأمر بالمعروف، و النهی عن المنكر هو ما به دون غيره، تكون الأمة خير الأمم، و بدونه تكون الأمة ملعونة و هذا هو ما يتعبدون بتلاوته، و يتفقهون بدرسه، و يتواصون باتباعه، و الأمر بالمعروف

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲

الزام بكل خير، و النهی عن المنكر تجنيب لكل شر، و عمل الفرد فيه يفيد الناس جميعا. و إهمال الفرد له يضر الناس جميعا و من هنا تكون تلك الآلاف المؤلفة بالأزهر، إذا سلمت فطرتها، و صحت عقيدتها، مصدر قوة كبرى فی الشعور بوحدة الجماعة، و مبعث نشاط عامل للمعروف، مانع من المنكر، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر، و يقلد فيهم لاحق سابقا، و يفتدی آخر بأول فهم جميعا يتنفسون فی الجو الدينی، و هم إما معلمون يقررون هذه الأسس الدينية، أو متعلمون يستمعون لهذا التقرير، أو مديرون قوامون على

توجيه هذه البيئة نحو غايتها، و الإشراف على خطوات سيرها إلى تلك الغاية ..

و قد رد على الأستاذ أمين الخولى و آرائه الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء فى سلسلة طويلة من المقالات الممتعة، كما رد عليه الأستاذ الشيخ محمد الشربينى عضو الجماعة و رئيس جبهة علماء الأزهر فى مقالة واحدة.

و يقول الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل حسن وكيل كلية اللغة العربية معبرا عن رأية فى رسالة الأزهر:

رسالة الأزهر هى رسالة نبى الإسلام و إنما ينجح العلماء فى أداء هذه الرسالة بما نجح به نبى الإسلام على عاملين لا ينفك أحدهما عن الآخر عامل البيان و عامل السلطان فقد بدأ الرسول صلوات اللّه و سلامه عليه الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة و لم يزل يتنقل بالعقول التى خضعت للوثنية، و يذلل لها طريق الهداية إلى المبادىء الإسلامية و يوجهها إلى النظر فى الآفاق و الاعتبار بالآيات و يتعدها بالأدلة المقنعة فى أسلوب الحكيم الماهر حتى استطاع بحكمته السامية و حجته الباهرة أن يقنع الناس بصدق الوحدانية و أن يبين لهم أمر دينهم و دنياهم معا، حتى وضح لهم ما أحل اللّه لهم و ما حرم عليهم و دخلوا فى دين اللّه أفواجا عن بينة و اختيار «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». و من طريق هذا البيان أصبح

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۳

الحلال بينا و الحرام بينا كما قال عليه الصلاة و السلام و مع ما قام به الرسول من بيان أوضح معالم الحلال و الحرام فقد اعترضه فى سبيل الدعوة إلى اللّه صناديد قومه الذين أكل الحقد قلوبهم فعز عليهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم برغم ما لمسوه من أنه نبى حقا و أن ما دعا إليه هو الحق و عرفوه كما يعرفون أبناءهم. وقف هؤلاء فى سبيل دعوته و حرضوا على قتله و أذوا أصحابه بأنواع الأذى و كادت هذه الفتنة تزلزل أثر الدعوة التى قامت على الحجة و البيان لو لا أن تداركه مولاه بالعناية و أمره بالجهاد و أمده بالعامل الثانى عامل القوة و السلطان فأعطاه السيف لا حبا فى إراقة الدماء و لكن ليزيل من طريق الدعوة هذه العقبات و ليسعد العالم بالإسلام رغم أنوف هؤلاء المعاندين المعترضين سبيل الدعوة إلى اللّه، فلما وضع السيف فى أعناقهم محا اللّه صولة الكفر و الكافرين و رسخت دعوته التى قامت على الحجة و البيان بعد أن عززه اللّه بالقوة و السلطان لذلك يقول سيدنا عثمان بن عفان: «إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» إنه لقول حق و فيه الموقف الفصل و منه يتبين للمنصفين أن رسالة الإسلام إذا قامت على البيان فإنها لا تكمل و لا تتم إلا بالعامل الثانى عامل السلطان الذى غير معالم ظلم الظالمين و أزال صولة الكافرين و المعاندين و مهد للإسلام و المسلمين نعمة التمام و الكمال فى قول اللّه عز و جل: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً.

فتعالوا أيها السائلون عن رسالة الأزهر، و هل أدى العلماء رسالتهم أو لا؟ تعالوا لنقول لكم كلمة الحق و الحق أحق أن يتبع. لقد قام العلماء بواجبهم بالنسبة للعامل الأول عامل البيان و تذكير الناس بمواطن الحلال و الحرام ففريق منهم يعلم أبناء المسلمين أحكام دينهم فى كلياتهم و معاهدهم ليتخرجوا للناس دعاة إلى اللّه ينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم- و فريق منهم يقوم بالوعظ و الإرشاد و إصلاح ذات البين و ما شجر بين الناس فى البلاد و ما زالوا يجاهدون و يتنقلون لهذا فى كل وادّ.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۴

و فريق من العلماء يقوم بتعليم العامة فى بيوت اللّه تعالى حين يجتمعون للصلاة و إذا كان فى كل مسجد عالم يدعو إلى دين اللّه فكثير ما هم. و إذا أردت أن تعرف صدق القول فى ذلك فاسأل أى رجل فى عرض الطريق عما يعرف من واجبات دينه فيقول لك مثلا الصلاة الزكاة الحج الصوم صلة الأرحام و كل ما يعز دين اللّه و يسعد الأوطان ثم سله عما حرم اللّه فيقول لك: الربا الزنى الخمر الغيبة و النميمة و كل سعى بالفساد بين الناس و هكذا و العامى الذى يجيبك بهذا لم يولد من بطن أمه عالما بهذه الأحكام و لكنه مدين فى علمه بذلك لبيان العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

بعد هذا اعترف للسائل بأن العلماء و إن أدوا رسالتهم بالنسبة لعامل البيان و عليه تقوم نصف الرسالة فإنهم لم يقوموا بتنفيذ ما بينوا للناس من معالم الحلال و الحرام، فهم يرون شارب الخمر يشربها و لا يكسرون كأسه و يرون الربا قد فشا التعامل به، و لم يقضوا على

آثاره و يرون النساء العاريات متبذلات و لا يتعرضون للقضاء على هذه المظاهر الخلقية بالقوة و السلطان.

و يرون كثيرا من النكرات يقوم بها العام و الخاص و لا يستطيعون تغيير هذه المنكرات إلا بقلوبهم و ذلك أضعف الإيمان. أتدرى أيها المنصف لما ذا؟ لما ذا ضعف العلماء عن تغيير هذه المنكرات؟ لأن زمام الأمور لما تولاه فى الماضى قوم وهنوا فى أمر دينهم استطاع المستعمرون أن يستخدموهم فى نزع السلطة الدينية من العلماء و مكنوا لهم حتى شرعوا للناس قوانين وقفت عقبة فى سبيل الدعوة إلى اللّه، و حالت دون تغيير ما حرم اللّه فالعالم إذا تعرض مثلا لكسر الكأس الذى بيد شارب الخمر أدين فى القانون الذى رخص بشرائها و شربها و التجارة فيها و إذا تعرض لبيان قوله تعالى: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا اعترضه المشروع الذى أحل الربا و رخص للقضاء أن يحكم به.

و إذا نهى العالم عن مظاهر الفتنة التى يتسابق فيها النساء الفاجرات رموه بالرجعية و أنه عدو الحرية و إذا أبان للناس ما كرم اللّه به المرأة من قوامة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۵

الرجل عليها و القيام بخدمتها و نفقتها و وضعها دون الحجاب الذى يحفظ لها كرامتها و يديم عليها بهجتها لا يجد فى المجتمع ما يؤيده و يساعده لأن الناس مغرمون بالتشريعات التى تبيح للمرأة الاختلاط بالرجال و مثل هذه التشريعات تحمل المرأة على أن تترجل و تحمل الرجل على أن يتخنث.

الحق أقول لك أيها السائل: إن فى النفس شيئا كثيرا، و يكفى أن أقول لك: إن الرسالة الأزهرية لا يتم أداؤها إلا إذا تعاون معهم أهل السلطان، و هذا هو المنتظر بعد أن يتم القضاء على الاستعمار و أذنابه.

الأزهرى و واجبه الدينى و الروحى

يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم و يأبى اللّه إلا أن يتم و نوره و لو كره الكافرون. ضلت الإنسانية و ذلت البشرية، إن لم تهتد بنور الإسلام المشرق. و ترو سحابة المغدق و تستظل بظله الوارف الأمين. و ساء مثل الأمم و الشعوب إن لم تؤمن بهذه الشريعة الباقية الخالدة، و ذلك الكتاب السماوى الحكيم، الذى جاء به محمد صلى اللّه عليه و سلم نورا و هدى للناس و روحا و ذكرى للعالم و للمؤمنين. و شاهت وجوه أولئك الوارثين لمجد الإسلام الخالد و تراثه التليد. إن لم يضربوا أروع المثل فى سبيل اللّه و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره الكافرون كما ضرب أسلافهم الأرواع المشابيب أكرم الأمثال و قاموا بأروع التضحيات و الجهاد، لتكون كلمة اللّه هى العليا. لقد وقعت المعجزة منذ أربعة عشر قرنا: على يدى هادى الإنسانية و ناشر السلام و علم الدنيا و الآخرة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و على أيدى أصحابه الأبطال الميامين، فعلت كلمة الحق، و نشرت راية الفضيلة، و رفع لواء الحضارة و المدنية و الثقافة، و ظهرت على دول العالم القديم الأمة الإسلامية المؤمنة، فكان لها الفوز الأكبر، و النصر المؤزر، و الكلمة العليا، و الشرف العظيم. فلم لا يقوم الأزهر بمثل تلك المعجزة من جديد؟

فيقودها ثورة صارمة فى وجه الباطل، و هداية حكيمة تملأ مشارق الأرض

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۶

و مغاربها نورا، حتى يطمئن العقل الحائر، و يسعد العالم الشقى، و تنعم الإنسانية المعذبة، و تسود كلمة الحق و الخير و الفضيلة، و تعود الحياة سيرتها الأولى. و لم لا يستصغر المشقات فى جانب روح الأبد، و راحة الضمير ... لا يأس فى الدعوة، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون، و لا ونى فى الهداية، فإنه لا يبنى فى ميدان الجهاد إلا من لبس إيمانه بظلم، و لا عمل إلا للّه و رسوله، فإن أجدر عمل بالظفر و السداد ما كانت غايته اللّه و رسوله. فإما أن يحيى للدعوة مجاهدا لإظهار كلمة اللّه، و إما أن يموت فى ميدانها شهيدا.

أین الأزهری الـذی یـدعو الناس بخلقه و أدبه و طریقته، إلی ما یـدعوهم إلیه بقوله و بیانه و حجته؟ .. و هل تکون العظـة ذات أثر إلا إذا صـدرت من مؤمن عامل بها، و ممن یأمر بالمعروف و لا ینسـی نفسه؟ فما أفحم الـداعی إلی مکرمـة لم یندب نفسه لها و إن کان بلیغا منطقیا. علی الأزهری أن یدعو الناس بالحکمة و الموعظة الحسنة، و الحجة البالغة، و الآیة المبصرة ...

یأخـذ النـاس علی حسب عقولهم، و یکلمهم بما یؤثر فی نفوسـهم و یعرض علیه نواحی الجمال فی العقیـدة الإسـلامیة، و یبین لهم ما فیها من دعوة إلی الحق و الخیر و الجمال و العدالة، و من إعزاز للنفس الإنسانیة و سمو بها، و تکریم لقدر الإنسان فی الحیاة، و ما فیها من ألوان الإصـلاح فی السیاسة و الاجتماع و الاقتصاد و العلم و العمران، و من سـماحة فی المبادیء و سـهولة فی التشـریع، و یسر فی الشعائر، و ما فیها من دیمقراطیة عالیة، و روحیة سامیة، و إخاء کریم و عدالة و مساواة و إیثار ضربت بها الأمثال بین الناس.

و علیه أن یضـرب لهم الأمثال بالأسلاف الأولین، و ما کان لهم من المواقف الرائعة، و المشاهد الماجدة، و الصفحات الناصعة فی کل میـدان ... و أن یفصل لهم المـدی الـذی بلغته الحضارة الإسـلامیة و الفکر الإسـلامی، و ما کان لهما من آثار بعیدة فی النهضة الغربیة الحدیثة. و أن یعاضد رجال الفکر و الثقافة و الصحافة، و یتخذهم أصدقاء یساعدونه علی أداء رسالته الدینیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۷

و نشرها بین الناس، و أن ینشیء الجمعیات الدینیة التی تسهم بنشاط فی نواحی المجتمع و مرافق الأمة، و علی الأزهر أن یهضم الثقافة الإسـلامیة القدیمة، و یحیلها غذاء عقلیا جدیدا بأسـلوب یتفق و روح العصر و الزمن، إن الأزهر داعیة للدین و الخیر .. فعلیه أن ینهض بالعبء و یحمل الرسالة، و یؤدی الأمانة. و أن یرشد الناس من جدید إلی کل ما فی الدین من حق و خیر و جمال.

و التصوف و السـمو الروحی فی الإسـلام جدیر بتأمله و دراسـته و إذاعته بین الناس، لیفهموا رسالة الروحیة الحقة، و السلام الأبدی، و الطمأنینة النفسـیة العمیقة، التی هی «الطب الروحی» و «العلاج النفسـی» الصـحیح، الذی سـبق بالکشف عنه فلاسفة الإسلام و متصوفوه منذ أجیال مدیدة فی تاریخ الحیاة.

الأزهری کما ینبغی أن یکون

کتب الأستاذ الأکبر المرحوم محمد مصطفی المراغی حول هذا الموضوع یقول:

أول ما یجب أن یکون علیه الأزهری: هو المحافظة علی الشـعائر الإسلامیة محافظة تامة بحیث لا یقصر فی شیء منها، و لا یمکن غیره من الاحتفاظ علیه بزلـة، حتی یکون قـدوة بعمله لا بقوله فحسب، و القـدوة العملیة تترک فی النفوس أثرا صالحا، تؤثر فیها ما لا تؤثره الأقوال، و الشـعائر الدینیة فی جملتها من أکبر الوسائل لطمأنینة النفس و التحلی بالأخلاق الفاضلة، و هی التی توجد الصلة بین العبد و ربه، و تقوی صـلات الأفراد، و تحسن حال الجماعات، و یصاحب هـذا ملازمة الأخلاق النبویة، و التبصـر فی هدی القرآن و السـنة، و مجاهدة النفس و ریاضتها علی احتمال الأذی و المکروه فی سبیل العمل بالأخلاق الدینیة و أداء الشعائر الإسلامیة،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۸

حتی تصـیر الفضـیلة شـعارا و ملکـة، و حتی تصدر أعمال الخیر من غیر تعمل و رویة. و من لوازم الداعی و المرشد أن یکون شـجاعا صادقـا قوی الإیمـان بمـا یـدعو إلیه یری فی الإقـدام لـذة، و حقا للنفس الخیرة یؤدیه احتسابا للّه لا علی أنه مکلف به، یؤدیه للأجر و زیادة الـدرجات و المرتبات، و من حق الداعی أن یکون بصـیرا بالوسط الذی یعیش فیه، خبیرا بأحوال النفوس، واسع الحیلة فی التنقل من طریق إلی طریق، یقصـد إلی الهدایة المطلوبة من طریقها النافع. و لیس أفعل فی النفوس من جلال تسـکبه التقوی و ملازمة حدود اللّه، و من جمال یلقیه العلم الناضـج علی صاحبه، و من هیبـة یوجـدها الإعراض عن الـدنیا و عـدم الحرص علیها، و قـد شاهـدنا فقراء لیس لهم جاه رسـمی، و لا عزة عصبیـة، یهابهم أصـحاب المقامات الرفیعـة و الأموال المکنوزة، و ینکمشون أمام هیبتهم التی بسـطتها التقوی وزانهم بها العزیز الحکیم.

و الحرص على الـدنيا يفسـد على العالم لـذة العلم، و يفسد عليه الغاية التى يطلبها، و هى الهداية، و الناس لا شك زاهدون فى العلماء إذا رأوهم مقبلين عليها معرضـين عن الآخرة. فلتكن الدنيا مطلوبة بالقدر الذى تسـتحقه، و فى الدرجة التالية لدراسة العلم و تحصيله و اللذة به نفسه، و باعتباره وسـيلة من وسائل الآخرة، و طريقا لرضى اللّه و رسوله. و لقد كانت للأزهريين تقاليد متوارثة محمودة، و هى عطف الكـبير على الصـغير، و توقير الصـغير للكـبير، و احـترام الأسـلاف، و الصبر على الـدرس و التحصـيل، و تفهم المسائـل بعللهـا و أسـبابها و مـا يتفرع عنها و يتولـد منها، لا يبالون فى سبيل ذلك بالوقت و الجهـد و يرونه أكبر لـذة للنفس و أكبر متاع للعقل، و يرونه واسـطة المجـد و طريق الشـرف و الكرامـة، و كان طالب العلم إذا لم يفهم كتابا أعاده، و إذا لم يفهم مسألـة فتش عمّن يفهمها منه، و كانت اجتماعاتهم لا تخلو من المـذاكرة فى مسألـة من مسائل العلم، و قد رأينا منهم من كان أهلا للتدريس و للتقدم للامتحان و كان يحجم لأنه يريد الاستزادة و تكميل النفس،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۹

فـالعلم نفسه تفوق لـذته لـذة الحصول على الدرجـة، و الـدخول فى مضـمار الحياة. كانوا يجيـدون تحضـير الـدروس قبل إلقائها على التلاميذ بقدر ما بسمح به الجهد. و كان الطلبة يجيدون تحضير الدروس و فهمها قبل تلقيها عن الشيوخ بل كان نوابغ الطلبة لا يذهبون إلى تلقى الـدروس إلا لحل مشـكلة عرضت لهم. أو انتظار لتحقيق مسألـة من مسائلها .. كانوا يفعلون هـذا مع الطمأنينـة و اللذة وسـعة الصدر، لا للنجاح فى الامتحان، و لا لطلب الرزق. و كانت القناعة تجمل فقرهم و تزين علمهم، لا يمكن أن يمر فى خاطر أحدهم أن الفقر نقيصة، و أن الإسراف فى البحث مضيعة للوقت.

و لا ننكر مع هـذا أن ملازمـة بعض المؤلفات المختصـرة، و ترك المناهل العذبـة من كتب الأسـلاف، و عدم التوسع فى الاطلاع على تراث الأقدمين، ضيق دائرة التفكير، و أوجد إسرافا فى تحليل الألفاظ و إبداء ما تحتمله من الوجوه، و أوجد انحرافا عن الجادة القويمة فى طلب العلم و بحث مسائله و تحقيقها، و بعـدا عن أساليب اللغـة العربية الصـحيحة، و إعراضا عن مسايرة الناس فى الحياة و إدراك ما تتطلبه الحياة بل و شـغلهم عن القرآن و السـنة من ناحية الهداية التى جاء لها القرآن، إلى نواح أخرى متكلفة. و تلك هى الأدواء التى ألم منها الناس وسعوا لإزالتها.

لكن فى الوقت الـذى نريـد فيه إزالـة هـذه الأـدواء، لاـ يصـح أن ينسـى الأزهرى جوهر تقاليـده، بل يجب عليه أن يحافظ عليها، و أن يصرفها إلى وجوه الخير، و ما يعود على دينه و أمته و ملته بالصلاح و الفلاح.

حول رسالة الأزهر

فى مساء الاثنين ۵ من جمادى الأولى سنة ۱۳۷۵ ه (۱۹ من ديسمبر ۱۹۵۵) عقد فى دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين مؤتمر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۰

إسلامى كبير ليبحث فيه «رسالة الأزهر الشريف اليوم».

افتتح المؤتمر فضـيلة الأسـتاذ أحمد الشرباصـى الرائد الدينى لجمعيات الشبان المسلمين فقال: الأزهر اليوم فى محنة، و ما أكثر المحن التى مرت عليه، و لكن محنـة اليوم كبطون الليالى المثقلات بالعجائب، و ذكر أن مهاجمة الناس للأزهريين لم يقصد بها ذلك، و إنما قصد بها محاربة رسالتهم، و قال: و الناس فى شأن الأزهر ثلاثة أصناف: صديق محب، و ناقد منصف، و عدو حقود. فالصديق المحب يفضل مقام المؤيـد على مقام المحاسب المؤاخـذ، و الناقـد المنصف يروم الكمال و يبغى الرفعـة، و أما العـدو الحقود فهو الداء الذى يستعصى على الدواء.

ثم قـال: و كبر مقتـا عنـد اللّه أن ننكر مـا بالأـزهر من حاجـة ملحـة إلى الإصـلاح، و لكنه جامعـة كبرى يعروها ما يعرو كل كريم من تقلبات الزمن، و قـد يكون لبعض المنتسبين إليه ذنوب تحتاج إلى التهذيب. ثم ذكر فضـيلته: الفرق بين كلمتى «الأزهر» و «الأزهريين»

و قال: إن الأزهريين طائفة يجوز عليهم الخطأ و الزلل، و لكن خطأ الأزهرى يكون أوضح مما سواه لأنه مطالب بأن ينفى غاية جهده مواطن الشر من نفسه، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين. و لقد يغدو الأزهرى أو يروح على كلمة ثناء أو تقدير، و لكنه يغدو على سهام التجريح من مواطنيه.

و فكر فضيلته: أن الأزهر فى غير وطنه حصن الإسلام الحصين، و أبناء الإسلام فى جميع البلاد يتطلعون إليه كما يتطلعون إلى المساجد الثلاثة، و إذا كانت الرحال تشد إلى هذه المساجد تعبدا فإنها تشد إلى الأزهر تفقها و تدبرا، لينذر أصحابها أقوامهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، و التعبد لا يكون صحيحا إلا إذا قام على التفقه فى الدين.

ثم قال: لعل الذين أنشأوا الأزهر أرادوا أن يكون مظهرا من مظاهر الطائفية فى الملة، و لكن اللّه لم يرد للأزهر إلا أن يكون للإسلام

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۱

و المسلمين، و لقد زال دعاة الطائفية المذهبية، و بقيت للأزهر عربيته و إسلاميته. ثم ذكر فضيلته أن الناس يرون فى الأزهرى أنه رجل الدين، و أن واجبه أن يقول للمخطىء: أخطأت. مهما كان شأن هذا المخطىء، و أن يغار على حرمات اللّه، و لكن الواجب على المجتمع أن يمكنه من ذلك. و ذكر: أن البرلمانات فى الدول الحديثة تعطى حصانة للنائب تمنع عنه الأذى، فإذا أريد لرجل الدين ذلك كان من واجب المجتمع أن يضمن له حصانة حتى يأمن على نفسه و أهله و كرامته.

و إذا كنا نغار على الأزهر أشد الغيرة، و نذود عنه سهام الكائدين له فإننا فى الوقت نفسه نذكر ما على أبنائه من واجبات ضخام و مسئوليات جسام، فما كان لهم أن يرضوا بموروث الذكر الحكيم و لا يمنوا أنفسهم بمقام كريم ما لم يؤدوا لذلك حقه، فعليهم أن يحسنوا القوامة، و أن يبرهنوا قولا- و عملا- على أنهم أهل لذلك، و إلا- مكنوا غيرهم من مهاجمتهم، و أن يتقولوا عليهم بالحق و الباطل.

و اختتم فضيلته حديثه بقوله: فليحذر الأزهريون زائد الثناء، و ليتذكروا دائما أن بقاءهم فى الحياة لا يكون إلا بأداء الواجب. و ليحذر أعداء الأزهر لعنة التاريخ و نقمة الجبار، و اللّه يقول الحق و هو يهدى السبيل.

ثم تحدث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد عميد كلية اللغة العربية عن «الأزهر و العالم الإسلامى» فقال: إن صلة الأزهر بالعالم الإسلامى بدأت منذ بدأ الأزهر، و استمرت فى كل طور من أطوار تاريخه. الأزهر ذلك المعهد العتيد دارت الأزمان المتطاولة و علوم الأمم المختلفة ما هو فى أقصى الشرق و ما هو فى أقصى الغرب. الأزهر هو ذلك المعهد الخالد الباقى و إن رغمت أنوف و عفرت جباه. ثم ذكر فضيلته أن المسلمين كانوا يعيشون بجوار رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يتعلمون، و يتهذبون حتى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۲

انتقل إلى الرفيق الأعلى، ثم تفرقوا فى البلاد غازين فاتحين معلمين للناس ما تعلموه من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كيف أن هذه البلاد استفادت منهم و تخرج عليهم علماء كثيرون فى مشارق الأرض و مغاربها، و أن الأزهر جمع علم هؤلاء جميعا و علم مدارسهم كلها من مكة و الشام و المغرب و غيرها من البلاد.

و قال بعد ذلك: إن الأزهر منذ بدأ و له علاقته بالعالم الإسلامى لا فى الثقافات و المؤلفات فقط و لكن فى عالم الأشخاص، و إلا فما هذه الأروقة الكثيرة من أروقة اليمن، و الأتراك، و الجاويين، و الهنود، إلى غير ذلك.

إن الأزهر يبدو- كما يقولون- منطويا على نفسه، و لعمرى إن هذه فريضة، متى كان الأزهر منطويا على نفسه؟ الآن ..؟ أم فى أعماق التاريخ؟ لا- أريد أن أقول: إن محمدا عبده قد ذهب إلى بيروت و أوروبا و غيرهما .. و لكنى أريد ضرب مثل برجلين من رجال الأزهر القديم هما الشيخان حسن العطار، و الدردير، و ذكر ما كان لهما من أثر جليل فى محاربة الفرنسيين، و قيادة الشعب و تأليبه على الغاصب.

أما رجال الأزهر حديثا فهم أكثر من أن يحصوا، فعلماؤنا اليوم فى كل صوب و بلد،- ثم أشار إلى فضيلة الأستاذ عبد المنعم النمر- و

قال: و هذا مثل قريب منا فضيلة الأستاذ النمر سيذهب إلى الهند فى الأيام القليلة المقبلة مبعوثا من الأزهر إليها.

ثم تحدث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى مدير التفتيش بالأزهر الشريف فقال: أستطيع أن أحصر كلمتى فى سؤالين ثم أجيب عنهما أولا: لم كان الأزهر؟؟ .. ثانيا: و لم كان فى مصر و عاش بمصر؟. ثم ذكر أن الدعوة الإسلامية كانت تمتد فى أعماق البلاد على ألسنة من يرتحلون من قطر إلى قطر- و أن هذا ليس بكاف للتعليم- ظلت كذلك مرحلة من الزمن حتى جاء الفاطميون، و أقاموا الأزهر.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۳

و يقول المؤرخون: إن الأزهر ولد لحاجة سياسية و هى الطائفية، و أعتقد غير هذا. وهبوا أنهم كذلك! فهل قصدوا من إيجاده أن يستأثروا به دون غيرهم، و أن يستخدموه للقضاء على المذاهب الأخرى؟ هم شيعة و لا شك أنهم مسلمون على أية حال لاشتراكهم معنا فى الإيمان باللّه ربا و بالإسلام دينا- و إن الختلف مذهبهم الفقهى عنا أقول: إن مصر دخلها الإسلام سنة ۲۰ هجرية، و قبل دخوله كانت مسيحية، و قبلها كانت يهودية أفلا يجوز فى نظر العقل أن يكون قصدهم اكتساح اليهودية و النصرانية بإقامة الأزهر؟. تأكدوا أن الأزهر لو كان موجودا لفكرة خبيثة لفنى بفنائهم ..

و لكنه بقى و بقى و سيظل بإذن اللّه باقيا .. ثم بين فضيلته أن الأزهر بقى على رسالته العلمية مع تطوره بتطور الزمن و أنه لم تبعث نهضة وطنية إلا و الأزهر باعثها و متعهدها. و ان الأزهر له مكانته العلمية فى جميع البلاد، و ما زالت الفتوى ترد إليه من جميع الأقطار لأنه قبلتهم الثانية و أن الأزهر يرسل علماءه إلى البلاد حسب إمكاناته. ثم قال: هم يظلمون الأزهر بقولهم إنه جامد لا يجدد.

و قال فضيلته: إنه لا بد و أن يكون للأزهر أعداء و خصوم لأن هذا شأن كل عظيم ثم اختتم كلمته بقوله: أعلن أن الأزهر كما أنه فى ماضيه و أمام العقبات الوكداء لم يتخلف و لم يغلق أبوابه، و لم يسرح علماءه هو فى حاضره كذلك، و سيظل فاتحا بابه ناشرا كتابه معلما أبناءه.

ثم تحدث فضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد حسن وكيل كلية اللغة العربية فبين أن رسالة الأزهر هى رسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و أن علماء الأزهر لا ينجحون فى دعوتهم إلا إذا سلكوا مسلك صاحب الدعوة، و بين أن هذا المسلك ينحصر فى شيئين:

الأول: البيان للناس و تعليمهم أمور الدين.

و الثانى: القوة. و بين فضيلته: أن النبى صلى اللّه عليه و سلم بدأ بالعامل الأول فكشف الحجب، و طهر العقيدة حتى آمن الناس عن رغبة، و لما تخلف عن ذلك قوم حقدا لا عن جهل، و حسدا لا عن عقيدة؛ أعطاه اللّه العامل الثانى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۴

ليسعد الناس بالإسلام رغم أنوفهم (و المرء يثاب رغم أنفه).

ثم قال: لقد علق أحد الغيورين على ذلك بقوله: إذا كانت للعلماء قوة التأثير فهم ليسوا بحاجة إلى القوة. و جوابى أن ذلك ممكن لقوم يريدون معرفة الحق، و لكن قوما عاندوا لا بد لهم من القوة فقد عميت بصائرهم.

و ليس العلماء مهما بلغوا من قوة التأثير بمثل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و مع ذلك احتاج الرسول إلى الجهاد ليخرج به المعاندين إلى حكم الإسلام. و قال فضيلته:

و أخيرا أعود فأقول: هل أدى الأزهر رسالته؟ الحق أن الأزهريين أدوا نصف رسالتهم التى تتعلق بالبيان، و عجزوا عن النصف الآخر، و هو العمل. ثم ذكر أن المسئول عن ذلك هو الاستعمار فإنه وضع العقبات فى طريق الأزهر، و أيضا القوانين التى تحمى الخارجين على الدين.

و اختتم فضيلته كلمته بقوله: لا بد من العلاج لنؤدى النصف الآخر، و إن من حق الأزهر أن يتطلع إلى رجال الثورة فى مد يد المساعدة على ذلك، و يوم أن يتم يكون العلماء كالماء يساق إلى الأرض الجرز فينبتها و يخرج ثمراتها يانعة، و اللّه يهدى من يشاء

إلى صراط مستقيم.

ثم تكلم فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فشرح كلمتى «المجتمع» و «الأزهر» فذكر أن المجتمع يطلق على الأسرة و القبيلة و الشعب و الأمة و العالم، و أن كلمة «الأزهر» كانت تطلق على الجامع ثم أطلقت على المعهد ثم على الجامعة العلمية ثم على الجامعة العلمية الإسلامية. و قال فضيلته: فهل هذا التطور فى كلمتى الأزهر و المجتمع له تطور فى التلازم بينهما؟ أرى أن كلمة الأزهر تعنى كلمة الإسلام، فالصلة بين الأزهر و المجتمع هى الصلة بينهما- الإسلام و المجتمع- ثم تساءل: هل يؤخذ على الأزهر ما يقع فى المجتمع من الرقص التوقيعى و الأغانى الخسيسة التى تغزو قلوب الشبان و الشابات؟ هل يؤخذ عليه الحملات التى توجد فى الصحف من صور عارية و قصص مثيرة؟ ليس الأزهر من القوة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۵

بحيث يطور هذا المجتمع أو يخلع عليه تلك القوة إلا- إذا كان هناك تجاوب بينه و بين المسلمين. ثم ذكر فضيلته: أن الأزهر فى العرف التاريخى هو كالمسجد الذى ينشأ قبل المدينة ثم تبنى المدينة بعده، و ضرب أمثلة لذلك بمسجد عمرو بن العاص و مدينة الفسطاط، و جامع طولون و مدينة القطائع، و المسجد الأموى و مدينة دمشق .. الخ.

ثم حى فضيلته كثيرا من رجال الأزهر أمثال عز الدين قائد الجيوش ضد التتار، و الشيخ الدردير و عمر مكرم الذى وقف أمام نابليون ۳۷ يوما، و الشيخ عليش و غيرهم و غيرهم و غيرهم وحى كذلك منبر الأزهر الحر الذى عامت جثث الضحايا حوله فى بحر من الدماء.

ثم تساءل مرة أخرى: من الذين يباعدون بين الأزهر و المجتمع؟

أ هؤلاء الذين لا يعرفون فى هذه الأمة إلا التضليل، و الحديث عن الوجودية؟ أم هؤلاء الذين يلبسون لكل عهد حلة ليأكلوا على كل مائدة؟

أ هؤلاء هم الذين يرددون أن الأزهر بعيد عن المجتمع؟؟.

و اختتم فضيلته حديثه بقوله: أرجو اللّه أن يكون الأزهر فى هذا الجور الحر و نحن فى وقت تتكتل فيه الجهود لمحاربة الاستعمار أن يدفع بالأزهر إلى الرعيل الأول ليدافع عن كل نافع، و أن تتجه أمم العرب و المسلمين جميعا إلى الإسلام.

ثم تحدث فضيلة الأستاذ عبد المنعم النمر مبعوث الأزهر إلى الهند قائلا: إن الحديث عن الأزهر فى الماضى، و عن تاريخه و جهاده فى العلم و الدين و الاجتماع، شىء جميل نحب أن نكرره لنعرف الماضى فنصله بالمستقبل. و إننا إذا دافعنا عن الأزهر فلأنه فكرة، و تاريخ مجيد، و لأنه دفاع عن الإسلام و كيانه، و ليس معنى هذا أن الأزهر قد بلغ غايته من النضج. ثم ذكر أن الأزهر له روحيته و شخصيته الموجهة، و له كذلك تربويته و علمه. أما روحيته و مركزه فى العالم الإسلامى فهو أقل مما يجب

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۶

أن يكون. فنحن نريد أن يكون موجها حاكما بروحيته و نفوذه.

ثم قام الشاعر محمد بدر الدين فألقى قصيدة حرة جريئة بعنوان «الأزهر» مطلعها:

ركع الزمان ببابك استرضاءو سعى إليك ليقبس الأضواء

و الشمس تطوى ليلها فى لهفةلتطوف حولك فى النهار ولاء

ثم أجاب بعد ذلك فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى عن أسئلة السامعين و تلا بعدها قرارات المؤتمر و هى:

أولا- إن السهام التى توجه إلى الأزهر محاولة النيل منه أو الغض من شأنه ليست موجهة إلى أبناء الأزهر بقدر ما هى موجهة إلى رسالة الأزهر الكبرى التى تدور حول الإسلام و لغة القرآن.

ثانيا: الأزهر الشريف هو المفخرة الكبرى لمصر العربية الإسلامية، و كل تعويق للأزهر عن السير فى طريقه يعد تعويقا لمصر و إساءة

لسمعتها الكريمة بين أبناء البلاد العربية و الإسلامية.

ثالثا: من واجب الدولة أن تبسط للأزهر و رجاله الأسباب الموصلة لتحقيق رسالته و ليتم التعاون بين ولاة الأمر فى الدولة و فى الأزهر، لبناء الوطن المؤمن السليم فى عقائده و أخلاقه و تفكيره.

رابعا: قد يكون من وسائل التمكين للعماء فى أداء رسالتهم أن تصدر الدولة تشريعا يقضى بتجنيد بعض الأزهريين المختارين من معسكرات الأزهر التدريبية لتكون مهمتهم أن يقاوموا المنكرات الشائعة فى المجتمع بصورة عملية، و يكون لهم الامتيازات المكفولة لبوليس الآداب و يسمون «الحرس الخلقى الاجتماعى» كما يكون لهم شعار خاص يعرفون به بين الجمهور.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۷

خامسا: من واجب الأزهر أن يسارع إلى الأخذ بأسباب الإصلاح الجدى الصحيح حتى يستقيم الركب الأزهرى على الطريق الموصل إلى تحقيق رسالته الإسلامية و العربية و القومية.

سادسا: يأمل الأزهر من الدولة أن تفسح أمام الأزهريين مجال العمل فى المدارس و فى القضاء و فى الإذاعة و فى كل مجتمع يحتاج إلى دعاة و مرشدين.

رسالة الأزهر فى النصف الثانى من القرن العشرين

-۱-

هذا المعهد العريق، و البيت العتيق، و المنارة الشماء، لم يعد لمصر وحدها، و لا للعرب فحسب، و إنما صار مجدا للعالم الإسلامى كافة، و أصبح بعد ذلك كله خير مظهر للإسلام، شريعة اللّه المنزلة على رسوله محمد بن عبد الله صلوات اللّه و سلامه عليه، و التى كان كتابها المطهر هو القرآن الكريم ..

و مصر فى انتفاضتها الحاضرة، و وثبتها الراهنة، و نهضتها الباهرة، و فى زعامتها العالم العربى، و فى قيادتها الروحية للعالم الإسلامى و فى حملها لواء القومية العربية المجيدة، مصر هذه مدينة للأزهر بديون كثيرة فى ماضيها و حاضرها، و هى مع ذلك كله- فى ظلال ثورتها الكبرى- محتاجة إليه أشد الاحتياج، لتوطيد منزلتها فى العالمين العربى و الإسلامى، و ليسهم معها فى نشر الثقافة و رسالة الإسلام فى ربوع أفريقيا و آسيا، و ليكون الدعامة الأولى للقومية العربية، و لقيادة مصر الثقافية و الروحية لشعوب العروبة و الإسلام.

و عند ما نفكر فى رسالة الأزهر فى النصف الثانى من القرن العشرين،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۸

لا بد أن نفكر أولا فى طلاب الأزهر و خريجيه و مدرسيه، لا بد أن نكفل لهم الطمأنينة و الاستقرار فى حياتهم، و أن نفتح أمامهم الأبواب للمستقبل، و أن نستعين بهم فى كل الميادين الثقافية و الروحية و الإدارية، حتى يستطيعوا فى ظل هذه الرعاية أن ينصرفوا بكل جهودهم إلى أداء رسالة الأزهر العلمية و الروحية فى كل مكان و لا بد مع ذلك كله أن نفكر فى احتياجات الأزهر المالية، التى تعينه على أداء مهمته على الوجه الأكمل، و التى تساعد على رفع المستوى العلمى فى معاهده و كلياته، و تعين على خلق نهضة فكرية و روحية فى أروقته التى عاشت على مرور الأجيال تكافح فى سبيل نشر ثقافة الإسلام و علومه و آدابه و حضارته فى كل مكان.

-۲-

و عند ما نتحدث عن رسالة الأزهر لا نستطيع أن نقول إنها يجب أن تتجه إلى العناية بالدراسات الإسلامية فحسب، و لا إلى الدعوة إلى الإسلام فحسب، و لكن يجب أن تبنى هذه الرسالة على أصول هاتين الغايتين الكبيرتين معا، على أن نلاحظ هذه الحقائق التى قام

عليها الأزهر طول عصور التاريخ التى شاهدها:

۱- الأزهر رمز للفكر الإسلامى، لأنه أقدم الجامعات الإسلامية فى بلاد المسلمين، و لأن ماضيه أهله لحمل رسالة الفكر الإسلامى ..

۲- الأزهر جامعة أمم عربية و إسلامية، ففيه يجلس الطلاب من كل بلاد المسلمين بل من كل شعوب العالم تقريبا، جنبا إلى جنب، يتعلمون العلوم الإسلامية و العربية و الفلسفية.

۳- الأزهر ليس ملكا لمصر وحدها، و إنما هو ملك العالم الإسلامى عامة، و من ثم يجب أن تسهم الدول الإسلامية فى نفقاته ليقوم الأزهر بنشر رسالة الإسلام فى كل جهة.

۴- الأزهر ليس فى عزلة ثقافية أو فكرية عن المجتمع فى مصر و لا

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۶۹

فى البلاد العربية، إنه قطعة حية من صميم المجتمع الإسلامى، و هو مركز ثقافى ضخم، يسهم فى النهوض بالثقافة فى مصر خاصة و فى العالم الإسلامى عامة عن طريق بعثاته العلمية التى يوفدها الأزهر إلى الأمم العربية و الإسلامية فى أفريقيا و آسيا و غيرهما و لا يمكن أن يكون فى عزلة و أبناؤه من طلاب و أساتذة هم من مختلف طبقات الوطن على أن التاريخ قد وعى اشتراك الأزهر فى كل الثورات القومية و الوطنية فى مصر خلال تاريخها الطويل، و على أن ثورات التحرر فى العالمين العربى و الإسلامى إنما كان قادتها- فى أغلب الأحيان- من أبناء الأزهر و خريجيه.

۵- تاريخ الأزهر مرتبط بتاريخ الإسلام، فلا يمكن أن يقول قائل:

إن الأزهر لم تعد له ضرورة: فما دام دين اللّه باقيا على الأرض، فإن الأزهر باق بإذن اللّه لدراسة علوم الإسلام و لنشر هدايته فى الأرض جميعا.

و رسالة الأزهر لا بد أن تقوم أولا على خلق وعى فكرى إسلامى داخل بيئة الأزهر العلمية، و هذا الوعى جدير بتكوين شخصية فكرية مستقلة للأزهر أولا و لكل من يتخرج منه ثانيا. و لكى نعاون على خلق هذا الوعى يجب أن نفكر أولا: فى مناهج الأزهر التى يسير عليها، ففى رأيى أنها لم تعد صالحة كل الصلاحية للسير بالثقافة الإسلامية فيه إلى ما يتمناه لها و له المخلصون.

ثانيا: فى الدراسات العليا فى الأزهر الجامعى: هذه الدراسات التى لم يعد لها وجود فى الأزهر، و التى ترجع بالأزهر من صبغته الجامعية الواسعة النطاق إلى صبغة مدرسية محدودة.

ثالثا: فى قوانين الأزهر كلها، المنظمة له، و الموجهة للثقافة فيه و لا بد من الاستعانة فى هذه السبيل بنظم الجامعات و لوائحها فى مصر و فى كل مكان، على ألا يفقد ذلك الأزهر طابعه الإسلامى، و شخصيته التى عرف بها منذ أجيال بعيدة.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۰

-۲-

و رسالة الأزهر يجب أن تتناول كل شىء يتصل بفهم الإسلام و نشر هدايته فى الآفاق، و من ثم يجب أن يكون من أهم ما تتناوله:

۱- خلق جيل جديد متثقف ثقافة واسعة من أبناء الأزهر، ليستطيع حمل رسالته إلى كل مكان.

۲- عرض الثقافة الإسلامية القديمة فى أسلوب جديد، يلائم أسلوب العصر فى الفهم و البحث و الدراسة، و كتابة و نشر بحوث جديدة عميقة عن الإسلام و علومه و ثقافاته.

۳- فتح مراكز ثقافية إسلامية فى كل عاصمة من عواصم العالم فى الشرق و الغرب، تكون مراكز الدعاية للإسلام عن طريق المحاضرة و عن طريق معاونة المشرقين للمترددين عليها من أبناء الإسلام و غيرهم فى البحث و الدراسة و عن طريق طبع رسائل للتعريف بالإسلام تقوم هذه المراكز بتوزيعها على الجامعات و على المفكرين و العلماء و المهتمين بالبحوث الإسلامية، و سوى ذلك من

الطرق .. و تكون هذه المراكز بمثابة مأوى للمبعوثين من الأزهر إلى مختلف هذه الجهات، على أن تزود بجميع المصادر و الكتب الإسلامية، و بشتى الأجهزة اللازمة لها ...

۴- العمل بكل وسيلة على وحدة المسلمين الفكرية و الروحية و الدينية ليكون ذلك معينا على إمكان قيام وحدة سياسية بينهم فى المستقبل.

۵- الاتصال بشتى المفكرين فى مصر و العالم ليكونوا بمثابة أصدقاء و أنصار للأزهر و لرسالته، بشتى طرق هذا الاتصال.

۶- الإشراف على التعليم الدينى و على الهيئات الدينية جميعها فى مصر، و العمل على توجيه الجماعات الإسلامية فى مصر و فى كل مكان توجيها صالحا.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۱

۷- إرسال بعثات أزهرية إلى كل مكان فى العالم بقصد دراسة أحوال المسلمين و تفهم كل ما يحيط بهم من مشكلات، للعمل على معاونتهم فى حلها، و خاصة فى الجانب الروحى.

۸- الإشراف على ترجمة القرآن الكريم إلى الانجليزية و الفرنسية و الألمانية و الروسية، و على ترجمة طائفة مختارة من الحديث النبوى كذلك إلى هذه اللغات.

۹- إقامة مواسم ثقافية على نمط عال فى «قاعة محاضرات الأزهر» يتحدث فيها كبار علماء الأزهر و كبار المهتمين بالدراسات الإسلامية من غير الأزهريين.

۱۰- التفكير حاليا فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، ليمكن عن هذا السبيل ربط الأزهر من جديد بشتى جامعات العالم، على أن يمهد لذلك بطبع مائة مؤلف من خير ما ألف الأزهريون فى القديم و الحديث لتوزيعها على الجامعات المختلفة و ممثليها، و بطبع رسالة عن تاريخ الأزهر تترجم إلى شتى اللغات.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۳

الباب الثامن

آراء للأزهر فى مشكلاتنا الفكريّة

-۱-

أصدر الاستاذ على عبد الرازق العالم الأزهرى، و القاضى الشرعى، عام ۱۹۲۵ كتابه «الإسلام و أصول الحكم»، و كان على رأس الوزارة فى ذلك الحين زيور باشا يسنده حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عبد العزيز فهمى باشا و حزب الاتحاد برئاسة يحيى باشا إبراهيم .. و كان الوفد فى المعارضة برئاسة سعد.

و قد أثار الكتاب معركة اشترك فيها كل صاحب رأى أو قلم .. و قبل أن نعرض الصراع الذى دار حول هذا الكتاب نوضح فكرته الأساسية التى ذهب إليها المؤلف ... و فكرته هى: أن الإسلام لم يقرر نظاما معينا للحكومة، و لم يفرض على المسلمين نظاما خاصا يجب أن يحكموا بمقتضاه. بل ترك لنا مطلق الحرية فى أن ننظم الدولة طبقا للأحوال الفكرية و الاجتماعية و الاقتصادية التى توجد فيها، مع مراعاة تطورنا الاجتماعى و مقتضيات الزمن. و أن الإسلام برىء من نظام الخلافة، و الأدواء التى عصفت به. فإن الخلافة شلت كل تطور فى شكل الحكومة عند المسلمين نحو النظم الحرة، خصوصا بسبب العسف الذى أنزله بعض الخلفاء بتقدم العلوم السياسية و الاجتماعية، إذ صاغوها فى قالب يتفق مع مصالحهم.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۴

و قد أثار الكتاب ضجة كبرى فى محيط الأحزاب و الشعب و رجال الأزهر، فجمع شيخ الأزهر الشيخ أبو الفضل الجيزاوى هيئة كبار العلماء و قررت أن ما فى الكتاب من آراء هى كفر و إلحاد و خروج على الدين، كما قررت استدعاء الشيخ على عبد الرازق- باعتباره من العلماء لمحاكمته، عن تهم سبع وجهتها إليه، و انعقدت الجلسة فى ۵ أغسطس سنة ۱۹۲۵.

و جلس العلماء على مائدة كبيرة، و استدعى الشيخ على عبد الرازق، فدخل الحجرة، و أشار إليه شيخ الأزهر بالجلوس.

و دفع المؤلف دفعا فرعيا، هو أنه لا يعتبر نفسه أمام هيئة تأديبية و طلب من الهيئة أن لا تعتبر حضوره أمامها اعترافا منه بأن لها حقا قانونيا فى محاكمته.

و فى ۲۵ أغسطس، أصدرت هيئة العلماء حكمها، «بتجريد الشيخ على عبد الرازق من العالمية، لأنه أتى بأمور تخالف الدين و القرآن الكريم و السنة النبوية و إجماع الأمة!. و قد تساءلت «الأخبار» عن موقف عبد العزيز فهمى و حزبه بعد أن أحرجته جريدته بدفاعها عن الكتاب. و أما «السياسة» فقد نشرت كلمة الشيخ على عبد الرازق يقول فيها: «لا جرم أننا تقبلنا مسرورين إخراجنا من زمرة العلماء، و قلنا كما يقول القوم الذين إذا خلصوا من الأذى قالوا «الحمد للّه الذى أذهب عنا الأذى و عافانا» ..

و من هذا اليوم، هجر على عبد الرازق ملابس الشيوخ، و أصبح «أفنديا»! ..

أيه أيها الطريد من الأزهر، تعالى إلى نتحدث عن هذه القصة المضحكة، قصة كتابك و الحكم عليه و عليك و طردك من الأزهر. ما بال رجال الأزهر لم يقضوا على كتابك بالتمزيق، فقد كان يلذ لنا أن نرى نسخه فى صحن الأزهر أو أمام «باب المزينين» أو فى ناحية من هذه الأنحاء التى لا يأتيها الباطل و لا يصل إليها المنكر، و لا يسعى إليها إلا الأخيار و الأبرار

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۵

ثم تضرم فيها النار.! دعنا نتحدث فى حرية و لا تكن أزهريا، فقد أخرجت من الأزهر!.

-۲-

و جاء فى قرار هيئة كبار العلماء فى محاكمته:

من حيث أن الشيخ عليا جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم و التنفيذ فى أمور الدنيا فقد قال فى ص ۸۷ و ۷۹ و الدنيا من أولها لآخرها و جمع ما فيها من أغراض و غايات أهون عند اللّه من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول و حبانا من عواطف و شهوات و علمنا من أسماء و مسميات هى أعون عند اللّه من أن يبعث لها رسولا و أهون عند رجل اللّه من أن يشغلوا بها و ينصبوا لتدبيرها»، و قال فى ص ۸۵ أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد و معاملات و آداب و عقوبات فإنما هو شرع دينى خالص للّه تعالى و لمصلحة البشر الدينية لا غير. و أوضح من كلامه أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الانسان و ربه فقط أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية و تدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به و ليس من مقاصدها. و هل فيه استطاعة الشيخ على يشطر الدين الإسلامى شطرين يلغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا و يضرب بآيات الكتاب العزيز و سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عرض الحائط؟

و ما ذا يعمل الشيخ على فى مثل قوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ و قوله تعالى: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، و قوله تعالى: لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ و قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما. و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها. و ما ذا يعمل الشيخ على فى ما رواه البخارى و مسلم فى صحيحهما أن ابنة النضر أخت

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۶

الربيع لطمت جارية فكسر سنها فاختصموا إلى النبى صلى اللّه عليه و سلم فأمر بالقصاص.

فقالت أم الربيع يا رسول اللّه أنقص من فلانة؟ لا- و اللّه. فسبحان اللّه. يا أم الربيع كتاب اللّه القصاص و مثل ما رواه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما أنه قال: قضى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بالشفعة فى كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود و صرفت الطرق فلا شفعة. و ما رواه أيضا عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال قضى النبى صلى اللّه عليه و سلم إذا تشاجروا فى الطريق اذرع- و ما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قضى باليمين على المدعى عليه و ما رواه أيضا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قضى بيمين و شاهد.

و من حيث أنه زعم الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى اللّه عليه و سلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين و لا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين. فقد قال فى ص ۵۳ «و ظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين و لا لحمل الناس على الإيمان باللّه و رسوله» .. ثم قال فى ص ۵۳ «و إذا كان صلى اللّه عليه و سلم قد لجأ إلى القوة و الرهبة فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة إلى الدين و إبلاغ رسالته إلى العالمين و ما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك، فالشيخ على فى كلامه هذا يقطع بأن جهاد النبى صلى اللّه عليه و سلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين و لا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين، و فى كلامه يزعم أن الدين لا يمنع من أن جهاده كان فى سبيل الملك فعلم من كلامه هذا أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى اللّه عليه و سلم كان فى سبيل الدين و لا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين و هذا أقل ما يؤخذ عليه فى مجموعة نصوصه. على أنه لم يقف عند هذا الحد بل كما جوز أن يكون الجهاد فى سبيل الملك و من الشئون الملكية جوز أن تكون الزكاة و الجزية و الغنائم و نحو ذلك فى سبيل الملك أيضا و جعل كل ذلك على هذا خارجا على حدود رسالة النبى صلى اللّه عليه و سلم لم ينزل به وحى و لم يأمر به اللّه تعالى.

و من حيث أنه زعم أن نظام الحكم فى عهد النبى صلى اللّه عليه و سلم كان موضع

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۷۷

غموض أو إبهام أو اضطراب و نقض، و موجبا للحيرة فقد قال فى ص ۴۰ «لاحظنا أن حال القضاء زمن النبى صلى اللّه عليه و سلم غامضة و مبهمة من كل جانب».

و إذا كان قد اعترف ببعض أنظمة الحكم فى الشريعة الإسلامية فإنه نقض الاعتراف و قرر أن هذه الأنظمة ملحقة بالعدم.

و ما زعمه الشيخ على مصادم لصريح القرآن الكريم.

و من حيث أنه زعم أن مهمة النبى صلى اللّه عليه و سلم كانت بلاغا للشريعة مجردا عن الحكم و التنفيذ، فقد قال الشيخ على فى ص ۷۱: «ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى صلى اللّه عليه و سلم لم يكن له شأن فى الملك السياسى و آياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان. ثم عاد فأكد ذلك فقال ص ۷۳ «القرآن كما رأيت صريح فى أن محمدا صلى اللّه عليه و سلم لم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة اللّه تعالى إلى الناس و أنه لم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ و ليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به و لا- أن يحملهم عليه .. و لو كان الأمر كما زعم هو كان ذلك رفضا لجميع آيات الأحكام الكثيرة فى القرآن الكريم. و دون ذلك خرط القتاد.

و قد قال الشيخ على فى دفاعه: «إنه قرر فى مكان آخر من الكتاب بصراحة لا مواربة فيها أن للنبى صلى اللّه عليه و سلم سلطانا عاما و أنه ناضل فى سبيل الدعوة بلسانه و سنانه. و هذا دفاع لا يجدى إذ لو كان معنى الذى قرره فى ص ۶۶ و ۷۰ كما أشار إليه أن عمل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم السماوى يتجاوز حدود البلاغ المجرد عن كل معانى السلطان لما كان سائغا أن يقول بعد ذلك فى صفحة ۷۱ إن آيات الكتاب متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان، و أن يقول بعد ذلك فى صفحة ۷۳ «إن القرآن صريح فى أنه عليه الصلاة و السلام لم يكن معه شىء غير بلاغ رسالة اللّه إلى الناس و لم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ، و ليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به و لا أن يحملهم عليه. و الواقع أن السلطان الذى أثبته إنما هو

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۷۸

السلطان الروحی. کما صرح به فی مذکرة دفاعه حیث قال فیها: «إن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یستولی علی کل ذلک السلطان لا- من طریق القوة المادیة و إخضاع الجسم کما هو شأن الملوک و الحکام و لکن من طریق الإیمان له إیمانا قلبیا و الخضوع له خضوعا روحیا»، لکان دفاعه إثباتا للتهمة لا نفیا لها، علی أنه قد نسب فی ص ۶۵ و ۶۶ السلطان إلی عوامل أخری من نحو الکمال الخلقی و التمییز الاجتماعی لا- إلی وحی اللّه و آیات کتابه الکریم، کما أنه جعل الجهاد فی موضع آخر من کتابه وسیلة کان علی النبی صلی اللّه علیه و سلم أن یلجأ إلیها لتأیید الدعوة و لم ینسبه إلی وحی له، و کلام الشیخ علی مخالف لصریح کتاب اللّه تعالی الذی یرد علیه زعمه و یثبت أن مهمته صلی اللّه علیه و سلم تجاوزت البلاغ إلی غیره من الحکم و التنفیذ فقد قال اللّه تعالی: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِما أَراکَ اللَّهُ و قال تعالی: وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ.

و روی عن ابن سلمة عن أبی هریرة رضی اللّه عنه أنه أتی إلی النبی صلی اللّه علیه و سلم برجل قد شرب فقال اضربوه. و روی عن عروة عن عائشة رضی اللّه عنها أن قریشا أهمتهم المرأة المخزومیة التی سرقت و قالوا من یکلم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و من یجتری‌ء علیه إلا- أسامة حب رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، فکلم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فقال: أتشفع فی حد من حدود اللّه. ثم قام فخطب فقال: یا أیها الناس إنما ضل من قبلکم أنهم إذا سرق الشریف ترکوه و إذا سرق الضعیف فیهم أقاموا علیه الحد، و إیم اللّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد یدها. فهل یجوز أن یقال بعد ذلک فی محمد صلی اللّه علیه و سلم إن عمله السماوی لم یتجاوز حدود البلاغ المجرد من کل معانی السلطان و أنه لم یکلف أن یأخذ الناس بما جاءهم به و لا أن یحملهم علیه؟

و هل یجوز أن یقال بعد ذلک فی القرآن الکریم أنه صریح فی أنه صلی اللّه علیه و سلم لم یکن من عمله شی‌ء غیر إبلاغ رسالة اللّه إلی الناس و لیس علیه أن یأخذ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۷۹

الناس بما جاءهم به و لا أن یحملهم علیه.

و من حیث أنه أنکر إجماع الصحابة علی وجوب نصب الإمام و علی أنه لا بد للأمة ممن یقوم بأمرها فی الدین و الدنیا فقد قال فی ص ۲۲ «أما دعوی الإجماع فی هذه المسألة- وجوب نصب الإمام- فلا تجد مساغا لقبولها بأیة حال و محال إذا طالبناهم بالدلیل أن یظفروا بدلیل، علی أننا مثبتون لک أن دعوی الإجماع هنا غیر صحیحة و لا مسموعة سواء أرادوا بها إجماع الصحابة وحدهم أم الصحابة و التابعین أم علماء المسلمین أم المسلمین کلهم». ادعی الشیخ علی أن حظ العلوم السیاسیة فی العصر الإسلامی کان سیئا علی الرغم من توافر الدواعی التی حمل علی البحث فیها، و أهمها إن مقام الخلافة منذ زمن الخلیفة الأول کان عرضة للخارجین علیه، غیر ان حرکة المعارضة کانت تضعف و تقوی، ثم ساق بعد أمثلة یؤید بها ما یدعیه من أن الخلافة کانت قائمة علی السیف و القوة لا علی البیعة و الرضا و لو سلم للشیخ علی ذلک جدلا لما تم له ما یزعمه من إنکار إجماع الصحابة علی وجوب نصب إمام للمسلمین. فإن إجماعهم علی ذلک شی‌ء و إجماعهم بیعة إمام معین شی‌ء آخر و اختلافهم فی بیعة إمام معین لا یقدح فی اتفاقهم علی وجوب نصب الإمام، أی إمام کان. و قد ثبت إجماع المسلمین علی امتناع خلو الوقت من إمام. و نقل إلینا ذلک بطریق التواتر فلا سبیل إلی الإنکار.

و من حیث أنه أنکر أن القضاء وظیفة شرعیة فقد قال فی ص ۱۰۳ «و الخلافة لیست فی شی‌ء من الخطط الدینیة و لا القضاء و لا غیرهما من وظائف الحکم و مراکز الدولة، و إنما تلک کلها خطط سیاسیة صرفة لا شأن للدین بها فهو لم یعرفها، و لم ینکرها و لا أمر بها و لا نهی عنها، و إنما ترکها لنا لنرجع فیها إلی أحکام العقل و تجارب الأمم و قواعد السیاسة». و کلام الشیخ علی فی دفاعه

یقضی بأن الذین ذهبوا إلی أن القضاء وظیفة شرعیة جعلوه متفرعا عن الخلافة فمن أنکر الخلافة أنکر القضاء.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۰

و قال الشیخ علی فی دفاعه: «إن الذی أنکر أنه خطة شرعیة إنما هو جعل القضاء وظیفة معینة من وظائف الحکم و مراکز الدولة و اتخاذه مقاما ذا أنظمة معینة و أسالیب خاصة».

و ما زعمه الشیخ علی من إنکار أن القضاء وظیفة شرعیة و خطة دینیة باطل و مصادم لآیات الکتاب العزیز، قال اللّه تعالی: فَلا وَ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً و قال تعالی: فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَکَ مِنَ الْحَقِ و قال تعالی: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِما أَراکَ اللَّهُ و قال تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلی أَهْلِها وَ إِذا حَکَمْتُمْ بَیْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ.

و من حیث أنه یزعم أن حکومة أبی بکر و الخلفاء الراشدین من بعده رضی اللّه عنهم کانت لا دینیة فقد قال فی ص ۹: «طبیعی معقول إلی درجة البداهة ألا توجد بعد النبی صلی اللّه علیه و سلم زعامة دینیة. و أما الذی یمکن أن یتصور وجوده فإنما هو نوع من الزعامة جدید لیس متصلا بالرسالة و لا- قائما علی الدین، هو إذا نوع لا- دینی». و هذه جرأة لا دینیة فإن الطبیعی و المعقول عند المسلمین إلی درجة البداهة أن زعامة أبی بکر رضی اللّه عنه کانت دینیة یعرف ذلک المسلمون سلفهم و خلفهم جیلا بعد جیل.

و من حیث أن التهمة الموجهة ضد الشیخ علی عبد الرازق ثابتة علیه و هی مما لا- یناسب وصف العالمیة وفاقا للمادة (۱۰۱) من القانون رقم ۱۰ لسنة ۱۹۱۱، فبناء علی هذه الأسباب حکمنا نحن شیخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة و عشرین عالما معنا من هیئة کبار العلماء باخراج الشیخ علی عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر و القاضی الشرعی بمحکمة المنصورة الابتدائیة الشرعیة و مؤلف کتاب «الإسلام و أصول الحکم» من زمرة العلماء.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۱

-۳-

و کانت الثورة الثانیة عند ما أخرج الدکتور طه حسین عام ۱۹۲۶ کتابه «الشعر الجاهلی» فأحدث ضجة هائلة فی مصر و بین رجال الدین، استمر صداها أمدا طویلا. و کان أول أثر لهذا الصدی هو مصادرة الکتاب، و قد حققت النیابة العامة مع الدکتور و اتخذت النیابة أخیرا قرارا بحفظ أوراق التحقیق إداریا لأن غرض المؤلف لم یکن مجرد الطعن و التعدی علی الدین، بل أن العبارات الماسة بالدین التی أوردها فی بعض المواضع من کتابه إنما قد أوردها فی سبیل البحث العلمی مع اعتقاده أن بحثه یقتضیها».

و قد أخرج الدکتور طه کتابه بعنوان جدید هو «فی الأدب الجاهلی» و حذف منه بعض الفقرات التی کانت سببا لثورة الجماهیر و رجال الدین علی الکتاب، و قد بسطت المسائل الأدبیة التی أوردها الدکتور فی کتابه (الشعر الجاهلی)، و ناقشتها مناقشة تحلیلیة فی کتابی (الحیاة الأدبیة فی العصر الجاهلی)، فلا داعی للعودة إلیها فی هذا الکتاب.

-۴-

و فی عهد الشیخ المراغی فکر فی ترجمة القرآن سنة ۱۹۳۶، و قد ثار الکثیر علی الشیخ المراغی و عارضوا مشروع الترجمة، و قدم الشیخ إلی رئیس مجلس الوزراء مذکرة بشأن المشروع جاء فیها:

اشتغل الناس قدیما و حدیثا بترجمة معانی القرآن الکریم إلی اللغات المختلفة و تولی ترجمته أفراد یجیدون لغاتهم و لکنهم لا یجدون اللغة العربیة و لا- یفهمون الاصطلاحات الإسلامیة الفهم الذی یمکنهم من أداء معانی القرآن علی وجه صحیح، لذلک وجدت فی التراجم أخطاء کثیرة و انتشرت تلک التراجم و لم یجد الناس غیرها فاعتمدوا علیها فی فهم أغراض القرآن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۲

الکریم و فهم قواعد الشریعة الإسلامیة فأصبح لزاما علی أمة إسلامیة کالأمة المصریة لها المکان الرفیع فی العالم الإسلامی أن تبادر إلی إزاحة هذه الأخطاء و إلی إظهار معانی القرآن الکریم نقیة فی اللغات الحیة لدی العالم، و لهذا العمل أثر بعید فی نشر هدایة الإسلام بین الأمم التی لا تدین بالإسلام ذلک أن أساس الدعوة إلی الدین الإسلامی إنما هو الإدلاء بالحجة الناصعة و البرهان المستقیم، و فی القرآن الکریم من الحجج الباهرة و الأدلة الدامغة ما یدعو الرجل المنصف إلی التسلیم بالدین و الإذعان له. و فائدة أخری للأمم الإسلامیة التی لا تعرف العربیة و تشرئب أعناقها إلی اقتطاف ثمرات الدین من مصدرها الرفیع فلا تجد أمامها إلا تراجم قد ملئت بالاخطاء، فإذا ما قدمت لها ترجمة صحیحة تصدرها هیئة لها مکانتها الدینیة فی العالم اطمأنت إلیها و رکنت إلی أنها تعبر عن الوحی الإلهی تعبیرا دقیقا.

لذلک اقترح أن یقرر مجلس الوزراء ترجمة معانی القرآن الکریم ترجمة رسمیة علی أن تقوم بذلک مشیخة الأزهر بمساعدة وزارة المعارف و أن یقرر مجلس الوزراء الاعتماد اللازم لذلک المشروع الجلیل، فأرجو النظر فی هذا.

و قد أرفق المراغی بمذکرته نص فتوی کبار العلماء، و قد وجه إلیهم سؤالا جاء فیه.

ما قول السادة حضرات أصحاب الفضیلة جماعة کبار العلماء فی السؤال الآتی؟ بعد ملاحظة المقدمات الآتیة:

۱- لا شبهة فی أن القرآن الکریم اسم للنظم العربی الذی نزل علی سیدنا محمد بن عبد الله صلوات اللّه علیه و علی آله.

و لا شبهة أیضا فی أنه إذا عبر عن معانی القرآن الکریم بعد فهمها من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۳

النص العربی بأیة لغة من اللغات لا تسمی هذه المعانی و لا العبارات التی تؤدی هذه المعانی قرآنا.

۲- و مما لا محل للخلاف فیه أیضا أن الترجمة اللفظیة بمعنی نقل المعانی مع خصائص النظم العربی المعجز مستحیلة.

۳- وضع الناس تراجم القرآن الکریم بلغات مختلفة اشتملت علی أخطاء کثیرة و اعتمد علی هذه التراجم بعض المسلمین الذین لا یعرفون اللغة العربیة، و بعض العلماء من غیر المسلمین ممن یرید الوقوف علی معانی القرآن الکریم.

۴- و قد دعا هذا إلی التفکیر فی نقل معانی القرآن الکریم إلی اللغات الأخری علی الوجه الآتی:

یراد أولا فهم معانی القرآن الکریم بوساطة رجال من خیرة علماء الأزهر الشریف بعد الرجوع لآراء کبار أئمة المفسرین و صوغ هذه المعانی بعبارات دقیقة محدودة، ثم نقل هذه المعانی التی فهمها العلماء إلی اللغات الأخری بوساطة رجال موثوق بأمانتهم و اقتدارهم فی تلک اللغات بحیث یکون ما یفهم فی تلک اللغات من المعانی هو ما تؤدیه العبارات العربیة التی یصنعها العلماء، فهل الإقدام علی هذا العمل جائز شرعا أو غیر جائز؟.

هذا مع العلم بأنه سیوضع تعریف شامل یتضمن أن الترجمة لیست قرآنا و لیس لها خصائص القرآن و لیست هی ترجمة کل المعانی التی یحتملها النظم العربی و إنما هی ترجمة للمعانی التی فهمها العلماء و أنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربی للقرآن الکریم.

و قد أجاب السادة العلماء علی ذلک بالفتوی الشرعیة الآتی نصها:

الحمد للّه و الصلاة و السلام علی رسول اللّه، و بعد فقد أطلعنا علی جمیع ما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۴

ذکر بالاستفتاء المدون بباطن هذا و نفید بأن الإقدام علی الترجمة علی الوجه المذکور تفصیلا فی السؤال جائز شرعا و اللّه سبحانه و تعالی أعلم.

إمضاءات: محمود الدینارى عضو جماعة کبار العلماء و شیخ معهد طنطا، عبد المجید اللبان شیخ کلیة أصول الدین و عضو جماعة

کبار العلماء، إبراهیم حمروش شیخ کلیة اللغة العربیة و عضو جماعة کبار العلماء، محمد مأمون الشناوی شیخ کلیة الشریعة و عضو جماعة کبار العلماء، عبد المجید سلیم مفتی الدیار المصریة و عضو جماعة کبار العلماء، محمد عبد اللطیف الفحام وکیل الجامع الأزهر و عضو جماعة کبار العلماء، دسوقی عبد الله البدوی عضو جماعة کبار العلماء، أحمد الدلبشانی عضو جماعة کبار العلماء، یوسف الدجوی عضو جماعة کبار العلماء، محمد سبع الذهبی شیخ الحنابلة و عضو جماعة کبار العلماء، عبد المعطی الشرشیمی عضو جماعة کبار العلماء، عبد الرحمن قراعة عضو هیئة کبار العلماء، أحمد نصر عضو جماعة کبار العلماء، محمد الشافعی الظواهری عضو جماعة کبار العلماء:

حیث أن الترجمة المرادة هی ترجمة لمعانی التفسیر الذی یضعه العلماء فهی جائزة شرعا بشرط طبع التفسیر المذکور بحوار الترجمة المذکورة، کتبه بیده الفانیة: عبد الرحمن علیش الحنفی من جماعة کبار العلماء.

و لما تلقی المراغی هذه الفتوی الشرعیة أرفقها بکتاب منه هذا نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحیم. وجهت هذا السؤال إلی حضرات أصحاب الفضیلة جماعة کبار العلماء و أنا أوافقهم علی ما رأوه و لا أری داعیا للحفظ الذی أبداه فضیلة الشیخ عبد الرحمن علیش و هو طبع التفسیر مع الترجمة لعدم الحاجة الی ذلک بعد مراعاة الشروط المدونة فی السؤال. رئیس جماعة کبار العلماء: محمد مصطفی المراغی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۵

و مع ذلک فقد بدأت لجنة فی عهد الشیخ المراغی فی ترجمة القرآن، ثم توقفت عن العمل، و لم تنجز شیئا من مهمتها.

و لما تولی المشیخة الأستاذ الأکبر إبراهیم حمروش فکر فی طبع رسائل إسلامیة للتعریف بالإسلام بشتی اللغات، و مع ذلک لم ینجز شیء من هذا العمل.

و فی أکتوبر عام ۱۹۵۴ کتب الدکتور طه حسین یطالب بترجمة معانی القرآن الکریم إلی اللغات الحیة، و أجابت مشیخة الأزهر علی تساؤله بأن المشیخة تفکر فی وضع و طبع رسائل إسلامیة تکتب بشتی اللغات العالمیة الحیة.

-۵-

و فی عام ۱۹۴۷ ألف الأستاذ محمد أحمد خلف اللّه رسالة سماها «الفن القصصی من القرآن الکریم» و قدمها إلی کلیة الآداب بجامعة فؤاد الأول للحصول علی الدکتوراه.

و قد ثار علی هذه الرسالة علماء الأزهر، و فی مقدمتهم الشیخ عبد المجید سلیم، و المرحوم الشیخ عبد الفتاح بدوی الأستاذ بکلیة اللغة العربیة سابقا، و الشیخ شلتوت و کان معهم أحمد أمین، و بعضهم أساتذة الجامعة.

و وقف الأستاذ أمین الخولی و صاحب الرسالة یدافعان عن الکتاب ..

و قد کانت أخبار الیوم و بعض الصحف و المجلات تنشر بین الحین و الحین أنباء المعرکة حول هذه الرسالة، و قد قررت الجامعة عدم صلاحیة الرسالة، و طالبت المؤلف بتقدیم رسالة أخری، و قد نشر کتابه بعد ذلک.

-۶-

و فی عام ۱۹۵۰ أخرج الدکتور طه حسین کتابه (الوعد الحق)، و اتفقت معه بعض شرکات السینما علی إخراجه فی (فیلم سینمائی) ...

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۸۶

فوافق علی ذلک بعض العلماء، و ثار آخرون علی هذا الفیلم الذی تعرض فیه للصحابة علی الشاشة البیضاء، و منهم المرحوم الشیخ محمود الغمراوی عضو جماعة کبار العلماء الذی کتب فی الأهرام یوم ۱۰/ ۸/ ۱۹۵۰ یقول:

قرأت ما أملاه الدكتور طه حسين وزير المعارف على مندوب الأهرام جوابا عن سؤاله الخاص بوضع سيادته سيناريو عن الدين الإسلامى عند ظهوره، و قد جاء فيما أملاه الدكتور على المندوب أنه أصدر فى شهر يناير الماضى كتابا عنوانه «الوعد الحق» و إن هذا الكتاب يصور الاضطهاد الذى لقيه المسلمون عند ظهور الإسلام، و كيف ثبت المسلمون لهذا الاضطهاد و صبروا عليه و انتصروا على الذين كانوا يضطهدونهم. و إن هذا الكتاب ظهر و تلقاه القراء لقاء حسنا، ثم قص ما عرضه عليه الأستاذ عز الدين من رجائه للدكتور أن يأذن له فى أن يستقى من هذا الكتاب سيناريو لفيلم سينمائى، فاستغرب الدكتور الأمر و استبعد أن يكون تحقيقه ممكنا و لكنه لما كلمه فيه مرة و مرة اقتنع بإمكان ذلك، و طلب إليه أن يستأذن من رجال الدين شيخين عينهما، فلما جاءه منهما كتابان أذنا فيهما بهذا العمل و أظهر استحسانا شديدا له، أخذ الدكتور فى مراجعة السيناريو الذى كان قد وضعه المخرج، و انتهيا أخيرا إلى إقراره بعد جهد طويل.

تلك هى قصة وضع ذلك السيناريو الذى اعتزم الدكتور طه حسين أن يبرز به المسلمين و خلفاءه الراشدين و أصحابه الأبرار المجاهدين مصورين فى فيلم سينمائى، فيزلزل إيمان العامة، و يفتن جماهير المسلمين إذ يكون النظارة من الدهماء و غيرهم عند عرض هذا الفيلم عليهم بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يستقبلوه كعادتهم عند عرض ما يستغرب عليهم فيتلقوه بالصفير و النعير، و لازمة ذلك الإستهزاء و التحقير و ذلك هو الإثم البواح و الكفر الصراح.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۸۷

أو يتلقوا هذه الصور الكريمة بما يليق لأصحابها من احترام و توقير، و تعظيم و تقدير، فيدخلوا فى باب من أبواب التشبه بعبدة الصور، و حينئذ يلجون على الشرك أو يلج عليهم الشرك من باب أمرنا الإسلام بسده، و نهى الدين عن ولوجه، أو أن يحوم المسلمون حوله بتحريم التصوير و لعن المصورين و حظره اتخاذ الصور، هذا إلى أن تصوير النبى و صحبه و خلفائه (و هم الذين يحرمون التصوير و يحظرون اتخاذ الصور) مؤذن باستخفاف المصور و كل من يقره أو يرضى عن عمله بأصحاب هذه الصور.

فمن أبرز إنسانا على هيئة أو صورة يكره اتخاذها لغيره، بله أن يكون قد جاء بدين يحرم اتخاذ الصور فهو مزدر بصاحب هذا الدين و مستخف به.

و لو أن إنسانا رسم الدكتور طه حسين الآن فى زى: فوق رأسه عمامة و عليه قفطان و جبة و بيده مسبحة، فإنى أحكم بأن الذى فعل ذلك مستخف بالدكتور مستهزىء به، ذلك بأنى أعلم أن الدكتور طه نبذ الزى منذ أعوام و حرمه على نفسه، فمن يصور النبى و هو يعلم أن النبى قد حرم التصوير و نهى عن اتخاذ الصور، فقد اقترف إثما مبينا، و اقترب من الكفر بهذا النبى و شريعته و دينه. إن للدكتور طه أن يكتب للناس و يخلبهم بسحر بيانه و أن يعرض على القراء من صفحات التاريخ الإسلامى صفحات رائعات يبين لهم فيها أن المسلمين فى أول ظهور الإسلام لم يكسبوا حريتهم إلا بالجهد و الصبر و المقاومة و الثبات، تلك الخلال المجيدة التى كسبهم إياها أيمانهم و مكنها من قلوبهم صدقهم فى الإيمان، و أن يصور لهم فى ذلك ما يشاء بأسلوبه الطلى و بيانه الساحر الوحى، لعلهم يرجعون إلى نفوسهم، و يتعرفون مكامن الداء فى قلوبهم فيداووها، فإن اللّه ليشكر له و يجزل ثوابه على ما يقدم من عمل على حسب نيته، غير أنى أرباء بالدكتور عن أن يخرج عن طبيعته و يعدل عن صنعته و أن يحاول أن يجحد بيانه و يبدل سحره و إحسانه، و يجعل من ذلك صورا ميتة و رسوما جامدة لا فائدة من ورائها، فإن أبى لنفسه إلا ذلك فإنى أنصح له ألا يسىء إلى المسلمين و ألا يمتهن

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۸۸

قداسة النبيين و الصديقين، يروج الوزير لمشروعه الخطير بأنه سيكون له أثر حسن جدا من ناحيتين ذكرهما! فأما عن الناحية الأولى فقد قدمنا ما سيكون من النظارة عند ما يعرض عليهم هذا الفيلم و ذكرنا ما ينجم عنه من خطر على عقيدتهم و دينهم.

و إذا كنا نئن و نتوجع مما تأتيه الجماهير من الآهات المكررة و الأصوات المنكرة حين سماعها للقرآن و هو الذى تقشعر منه جلود

الـذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر اللّه فتراهم حين يسـمعون القرآن من قـارىء متكسـر فى تلاـوته يصـيحون و يكثرون من التأوه بالنغمـة و اسـتحسانا للوحدة ذاهلين عن معانى الآيات التى تقرع أسـماعهم فلا تخشع لها جوارحهم أو تلين قلوبهم- فكيف يكون الحال عنـد ما يشاهـدون أبطال المسـلمين و نبى الإسـلام فى ثياب باليـة مهلهلة و فى هيئة تنبو عنها أبصارهم و تنفر منها أذواقهم، و هـل يبقى لواحـد من هؤلاـء الـدهماء دينه، أو يثبت معه أيمانه و يقينه عنـد ما يهجم على قلبه الاشـمئزاز و النفور من تلك الهيئـة البدوية و الصورة العربية الوحشـية التى ينكرها ذوقه و يشـمئز منها حسه. أيظن معالى الدكتور أن يكون الدهماء فلاسـفة عند ما يشاهدون السيناريو الذى يعده معاليه لهم فتقتحم أبصارهم تلك الصور و تتخطى ما يحيط بها من الأستار و يطفرون بعقولهم و يشبون بأفكارهم إلى ما وراء هذه الصور الشوهاء الملخبطة فيدركون ما تخفى ورائها من المعانى و الأسرار.

أما الناحيـة الثانيـة التى يروج بها الدكتور لمشـروعه و هى الناحية الفنية و نهوض صاحبه بها و تقدمه فإنا نتمنى لصاحبه ما يتمناه هو له من النبوغ و التقدم، و أن يكون فى فنه من العبقريين على أن لا يجرى ريشته فى رءوس المسلمين.

أما بعد فإن عهدى بالدكتور طه حسـين أنه من أولئك الرجال الذين لا يستفتون غيرهم و إنما يستفتون قلوبهم و إن أفتاهم المفتون لا يدفعه إلى أمر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۸۹

دافع، و لاـ يرجعه أو يثنيه عن رغيبـة أرادها راجع، فما باله اليوم ينزل عن مطيته، و لا يمضـى لطيته حتى يجيزه اثنان ارتضاهما من بين رجال الدين.

ثم أقول لحضـرتى الشـيخين اللـذين أجازا فى كتابيهما هـذا العمل و أظهرا اسـتحسانهما الشديد له: على أى أساس بنيتما هذا الأذن و كيف كان هذا الاسـتحسان؟ فهل غاب عنكما و أنتما من أعرف الناس بروح هذا العصـر، و ما يغلب على أهله من التمرد على الدين و الإلحاد فيه- ما يترتب على هذا العمل من خطر، و ما ينشأ عنه من فتن تفتح أبوابها و تفغر أفواهها، و هل نسـيتما سد الذرائع؟ عسى أن تعدا فى العصريين، و ألا تكونا مثلنا عن ركب الحياة متخلفين!

خدعونا بقولهم حسناءو الغوانى يغرهن الثناء

ربنا اغفر لنا ذنوبنا و اسرافنا فى أمرنا و ثبت أقدامنا يا أرحم الراحمين.

-۷-

حول كتاب من هنا نبدأ:

و قـد أخرج الشـيخ خالـد محمد خالد من العلماء كتابا عام ۱۹۵۰ سـماه «من هنا نبـدأ» .. و قـد ثار العلماء على هـذا الكتاب، و كثرت حركة النقد حوله مما هو مشهور و معروف.

و قـد صودر الكتاب و نظرت قضـية مصادرته أمام القضاء، فحكم بإلغاء أمر مصادرته، لأن حريـة الرأى مكفولـة فى حـدود القانون، و الكتـاب لا ينطوى على جريمـة ما، و قـد كتب خالـد محمـد خالـد مقالـة فى المصـرى بعنوان «شـموع لا حراب» قال فى آخرها: «لقد احتكم الأزهر إلى القضاء، و قال القضاء كلمته، فلننحن لها فى خشوع و إعجاب، فإنها كضوء الفجر منيرة هادية».

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۹۰

-۸-

و طالبت الهيئات النسائية بإعطاء المرأة حقوقها السياسـية، و أيدها فى ذلك بعض الأفراد، فنشـر مفتى الديار المصـرية الشـيخ مخلوف عام ۱۹۵۲ فتوى جاء فيها:

عنی الإسلام أتم عنایة بإعداد المرأة الصالحة للمساهمة مع الرجل فی بناء المجتمع علی أساس من الدین و الفضیلة و الخلق القویم و فی حدود الخصائص الطبیعیة لکل من الجنسین فرفع شأنها و کون شخصیتها و قرر حریتها و فرض علیها کالرجل طلب العلم و المعرفة، ثم ناط بها من شئون الحیاة ما تهیؤها لها طبیعة الأنوثة و ما تحسنه حتی إذا نهضت بأعبائها کانت زوجة صالحة و أما مربیة و ربة منزل مدبرة و کانت دعامة قویة فی بناء الأسرة و المجتمع.

و کان من رعایة الإسلام لها حق الرعایة أن حاط عزتها و کرامتها بسیاج منیع من تعالیمه الحکیمة و حمی أنوثتها الظاهرة من العبث و العدوان و باعد بینها و بین مظان الزیف و بواعث الافتتان فحرم علی الرجل الأجنبی الخولة بها، و النظرة العارمة إلیها، و حرم علیها أن تبدی زینتها إلی ما ظهر منها، و أن تخالط الرجال فی مجامعهم، و أن تتشبه بهم فیما هو من خواص شئونهم، و أعفاها من وجوب صلاة الجمعة و العیدین مع ما عرف عن الشارع من شدید الحرص علی اجتماع المسلمین و تواصلهم، و أعفاها فی الحج من التجرد للإحرام، و منعها الإسلام من الأذان العام، و إمامة الرجال للصلاة، و الإمامة العامة للمسلمین، و ولایة القضاء بین الناس، و أثم من یولیها، بل حکم ببطلان قضائها علی ما ذهب إلیه جمهور الأئمة، و منع المرأة ولایة الحروب و قیادة الجیوش و لم یبح لها من معونة الجیش إلا ما یتفق و حرمة أنوثتها.

و قد قال تعالی للمؤمنین بعد أن أمرهم بطاعة اللّه و طاعة رسوله و أولی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۱

الأمر (فإن تنازعتم فی شیء فردوه إلی اللّه و الرسول إن کنتم تؤمنون باللّه و الیوم الآخر ذلک خیر و أحسن تأویلا) و الرد إلی اللّه و الرسول هو الرد إلی القرآن و السنة، و قال تعالی: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فلیس للمرأة المؤمنة أن تترک ما حدده لها الشارع الحکیم و تأخذ بما نهاها عنه، و قد قال تعالی لنساء نبیه صلی الله علیه و سلم و نساء الأمة تبع لهن وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِیَّةِ الْأُولی وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِینَ الزَّکاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ عن أنس رضی اللّه عنه أن بعض النساء قلن یا رسول اللّه ذهب الرجال بالفضل و الجهاد فی سبیل اللّه فما لنا من عمل ندرک به عمل المجاهدین فی سبیل اللّه تعالی فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم (من قعدت منکن فی بیتها فإنها تدرک عمل المجاهدین فی سبیل اللّه تعالی و الجهاد سنام الإسلام و عموده و ما دونه لا یدانیه فضلا و أجرا)، و قال تعالی: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ. قال القرطبی و یدخل فی ذلک جمیع النساء بالمعنی و بما تضمنته أصول الشریعة من أن المرأة کلها عورة بدنها و صوتها فلا یجوز کشف ذلک إلا للضرورة القصوی و فی الحدیث (المرأة عورة و إذا خرجت استشرفها الشیطان و إنها تکون أقرب إلی اللّه منه فی بیتها)، و فی الحدیث الصحیح (لا یخلون أحدکم بامرأة إلا مع ذی رحم) و فیه (لن یفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)- و فیه (لعن رسول اللّه المتشبهین من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال) و فیه (صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سیاط کأذناب البقر بها الناس و نساء کاسیات عاریات ممیلات مائلات رءوسهن کأسنمة البخت المائلة لا یدخلن الجنة و لا یجدن ریحها) و هذا من أعلام النبوة التی وقعت. و لا سبیل الی استقصاء الآیات و الأحادیث الواردة فی ذلک لکثرتها، بل ما کنا فی حاجة إلی ذکرها و هی من بدیهیات التشریع و فیها الدلالة القاطعة علی أن الشریعة الإسلامیة لا تبیح للمرأة ما تطالب به الآن مما سمته حقوقا لها و هو اعتداء منها علی الحقوق التی خص بها الرجال. و کل ما أباحه لها الشارع و ما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۲

منعها إنما هو لخیرها و صونها و سد ذرائع الفتنة منها و الافتتان بها حذرا من أن یحیق بالمجتمع ما یفضی إلی انحلاله و انهیار بنائه و اللّه أعلم بما للطبائع البشریة من سلطان و دوافع و بما للنفوس من میول و نوازع و الناس یعلمون و الحوادث تصدق. و لقد بلغ من أمر الحیطة للمرأة أن أمر اللّه تعالی نساء نبیه صلی اللّه علیه و سلم بالحجاب و هن أمهات المؤمنین حرمة و احتراما و أن النبی صلی اللّه علیه و سلم لم تمس یده و هو المعصوم أیدی النساء اللاتی بایعنه- و أن المرأة لم تول ولایة من الولایات الإسلامیة فی عهده و لا فی

عهد الخلفاء الراشدين و لا فی عهود من بعدهم من الملوک و الأمراء و لا حضرت مجالس تشاوره صلی اللّه علیه و سلم مع أصحابه من المهاجرين و الأنصار.

ذلک شأن المرأة فی الإسلام و مبلغ تحصينها بالوسائل الواقية، فهل تريد المرأة الآن أن تخترق آخر الأسوار و تقتحم علی الرجال قاعة البرلمان فتزاحم فی الانتخاب و الدعاية و الجلسات و اللجان و الحفلات و التردد علی الوزارات و السفر إلی المؤتمرات و الجذب و الدفع و ما إلی ذلک مما هو أكبر إثما و أعظم خطرا من ولاية القضاء بين خصمين و قد حرمت عليها و اتفق أئمة المسلمين علی تأثيم من يوليها تاركة زوجها و أطفالها و بيتها وديعة فی يد من لا- يرحم. إن ذلک لا يرضاه أحد و لا يقره الإسلام بل و لا الأكثرية الساحقة من النساء اللهمّ إلا من يدفعه تملق المرأة أو الخوف من غضبتها إلی مخالفة الضمير و الدين و مجاراة الأهواء و لا حسبان فی ميزان الحق لهؤلاء .. علی المسلمين عامة أن يتعرفوا حكم الإسلام فيما يعتزمون الإقدام عليه من عمل، فهو مقطع الحق و فصل الخطاب، و لا خفاء فی أن دخول المرأة فی معمعة الانتخاب و النيابة غير جائز لما بيناه.

و إننا ننتظر من السيدات الفضليات أن يعملن بجد و صدق لرفعة شأن المرأة من النواحی الدينية و الأخلاقية و الاجتماعية و العلمية الصحيحة فی حدود طبيعة الأنوثة و التعاليم الإسلامية قبل أن يحرصن علی خوض غمار الانتخاب و النيابة- و أن نسمع منهن صيحة مدوية للدعوة إلی وجوب تمسک

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۳

النساء عامة بأهداب الدين و الفضيلة فی الأزياء و المظاهر و الاجتماعات النسائية و غير ذلک مما هو كمال و جمال للمرأة المهذبة الفاضلة.

و أصدرت لجنة الفتوی فی الأزهر حول هذا الموضوع هذه الفتوی:

إن لجنة الفتوی تتوخی جهدها هذه الأصول و المبادیء- فی بحث ما يعرض لها من المسائل- و تسير علی هذا النهج فی بحث المسألة الحاضرة:

مسألة حق المرأة فی الانتخاب. و هی تقرر أن هذه المسألة ذات شقين:

الأول: أن تكون المرأة عضوا فی البرلمان.

الثانی: أن تشترک فی انتخاب من يكون عضولا فيه.

و لمعرفة الحكم فی هذين الأمرين اللذين يتضمن أولهما نوعا من ولاية التصرف فی شئون عامة، يلزم بيان أن الولاية نوعان. ولاية عامة و ولاية خاصة.

فالولاية العامة: هی السلطة الملزمة فی شأن من شئون الجماعة، كولاية من القوانين و الفصل فی الخصومات، و تنفيذ الأحكام، و الهيمنة علی القائمين بذلک.

و الولاية الخاصة، هی السلطة التی يملک بها صاحبها التصرف فی شأن من الشئون الخاصة بغيره كالوصاية علی الصغار، و الولاية علی المال، و النظارة علی الأوقاف. و قد فسحت الشريعة للمرأة فی هذا النوع الثانی من الولاية فهی تملک منها ما يملكه الرجل كما تملک التصرف فی شئون نفسها الخاصة بها. فلها حق التصرف فی أموالها بالبيع و الهبة و الرهن و الإجارة و غيرها من التصرفات و ليس لزوجها و لا لأحد من أهلها حق معها فی ذلک.

ملكتها الشريعة ذلک كله مع إرشادها إلی ما يحفظ كرامتها و حياطتها بما فيه ضمان شرفها و مكانتها.

أما الولاية العامة- و من أهمها مهمة عضو البرلمان و هی ولاية سن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۴

القوانين و الهيمنة علی تنفيذها- فقد قصرتها الشريعة الإسلامية علی الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة.

و قد جری التطبیق العملی علی هذا من فجر الإسلام إلی الآن. فإنه لم یثبت أن شیئا من هذه الولایات العامة قد أسند إلی المرأة، لا مستقلة و لا- مع غیرها من الرجال و قد کان فی نساء الصدر الأول مثقفات فضلیات، و فیهن من تفضل کثیرا من الرجال کأمهات المؤمنین.

و مع أن الدواعی لاشتراک النساء مع الرجال فی الشئون العامة کانت متوافرة لم تطلب المرأة أن تشترک فی شیء من تلک الولایات و لم یطلب منها هذا الاشتراک، و لو کان لذلک مسوغ من کتاب أو سنة لما أهملت مراعاته من جانب الرجال و النساء بإطراد. و هذه قصة سقیفة بنی ساعدة فی اختیار الخلیفة الأول بعد الرسول صلی اللّه علیه و سلم قد بلغ فیها الخلاف أشده ثم استقر الأمر لأبی بکر و بویع بعد ذلک البیعة العامة فی المسجد، و لم تشترک امرأة مع الرجال فی مداولة الرأی فی السقیفة و لم تدع لذلک، کما أنها لم تدع و لم تشترک فی تلک البیعة العامة.

و کم من اجتماعات شوریة من النبی صلی اللّه علیه و سلم و أصحابه، و من الخلفاء و إخوانهم فی شئون عامة لم تدع إلیها المرأة و لم تشترک فیها.

و الدلیل الشرعی علی هذا المنع هو ما رواه البخاری فی صحیحه و أخرجه أحمد فی مسنده و النسائی فی سننه و الترمذی فی جامعه- قال البخاری: حدثنا عثمان بن الهیثم قال حدثنا عوف عن الحسن البصری عن أبی بکر قال «لقد نفعنی اللّه بکلمة أیام الجمل، لما بلغ النبی صلی اللّه علیه و سلم أن فارس ملکوا ابنة کسری قال «لن یفلح قوم و لو أمرهم امرأة». و ظاهر أن الرسول صلی اللّه علیه و سلم لا یقصد بهذا الحدیث مجرد الأخبار عن عدم فلاح القوم الذین یولون المرأة أمرهم، لأن وظیفته علیه الصلاة و السلام بیان ما یجوز لأمته أن تفعله حتی تصل إلی الخیر و الفلاح. و ما لا یجوز لها أن تفعله حتی تسلم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۵

من الشر و الخسار، و إنما یقصد نهی أمته عن مجاراة الفرس فی إسناد شیء من الأمور العامة إلی المرأة. و قد ساق ذلک بأسلوب من شأنه أن یبعث القوم الحریصین علی فلاحهم و انتظام شملهم علی الامتثال. و هو أسلوب القطع بأن عدم الفلاح ملازم لتولیة المرأة أمرا من أمورهم. و لا شک أن النهی المستفاد من الحدیث یمنع کل امرأة فی أی عصر من العصور أن تتولی أی شیء من الولایات العامة و هذا العموم تفیده صیغة الحدیث و أسلوبه کما یفیده المعنی الذی من أجله کان هذا المنع، و هذا هو ما فهمه أصحاب الرسول صلی اللّه علیه و سلم و جمیع أئمة السلف لم یستثنوا من ذلک امرأة و لا قوما و لا شأنا من الشئون العامة. فهم جمیعا یستدلون بهذا الحدیث علی حرمة تولی المرأة الإمامة الکبری و القضاء و قیادة الجیوش و ما إلیها من سائر الولایات العامة. هذا الحکم المستفاد من الحدیث و هو منع المرأة من الولایات العامة لیس حکما تعبدیا یقصد مجرد امتثاله دون أن تعلم حکمته و إنما هو من الأحکام المعللة بمعان و اعتبارات لا- یجهلها الواقفون علی الفروق الطبیعیة بین نوعی الإنسان: «الرجل و المرأة». ذلک أن هذا الحکم لم ینط بشیء وراء «الأنوثة» التی جاءت کلمة «امرأة» فی الحدیث عنوانا لها. و إذا فالأنوثة وحدها هی العلة فیه.

و واضح أن الأنوثة لیس من مقتضاها الطبیعی عدم العلم و المعرفة و لا عدم الذکاء و الفطنة حتی یکون شیء من ذلک هو العلة، لأن الواقع یدل علی أن للمرأة علما و قدرة علی أن تعلم کالرجل بل قد تفوق الرجل فی العلم و الذکاء و الفهم؟ فلا- بد أن یکون الموجب لهذا الحکم شیئا وراء ذلک کله.

إن المرأة بمقتضی الخلق و التکوین مطبوعة علی غرائز تناسب المهمة التی خلقت لأجلها، و هی مهمة الأمومة و حضانة النشء و تربیته و هذه قد جعلتها ذات تأثر خاص بدواعی العاطفة و هی مع هذا تعرض لها عوارض طبیعیة تتکرر علیها فی الأشهر و الأعوام من شأنها أن تضعف قوتها المعنویة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۶

و توهن من عزیمتها فی تکوین الرأی و التمسک به و القدرة علی الکفاح و المقاومة فی سبیله و هذا شأن لا تنکره المرأة من نفسها. و

لا تعوزنا الأمثلة الواقعية التی تدل علی أن شدة الانفعال و المیل مع العاطفة من خصائص المرأة فی جمیع أطوارها و عصورها. فقد دفعت هذه الغرائز المرأة فی أسمی بیئة نسویة إلی تغلیب العاطفة علی مقتضی العقل و الحکمة، و آیات من سورة الأحزاب: تشیر إلی ما کان من نساء النبی صلی اللّه علیه و سلم و تطبعهن إلی زینة الدنیا و منعتها و مطالبتهن الرسول أن یغدق علیهن مما أفاء اللّه به من الغنائم حتی یعشن کما تعیش زوجات الملوک و رؤساء الأمم. لکن القرآن قد ردهن إلی مقتضی العقل و الحکمة فی ذلک یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیاةَ الدُّنْیا وَ زِینَتَها فَتَعالَیْنَ أُمَتِّعْکُنَّ وَ أُسَرِّحْکُنَّ سَراحاً جَمِیلًا وَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظِیماً، و آیة أخری من سورة التحریم تحدث عن غیرة بعض نسائه علیه الصلاة و السلام و ما کان لها من الأثر فی تغلیبهن العاطفة علی العقل، مما جعلهن یدبرن ما یتظاهرن به علی الرسول صلی اللّه علیه و سلم، و قد ردهن القرآن إلی الجادة إِنْ تَتُوبا إِلَی اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ، وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمَلائِکَةُ بَعْدَ ذلِکَ ظَهِیرٌ.

هذه هی المرأة فی أسمی البیئات النسویة لم تسلم من التأثر الشدید بدواعی العاطفة و لم تنهض قوتها المعنویة علی مغالبة نوازع الغیرة مع کمال إیمانها و نشأتها فی بیت النبوة و الوحی، فکیف بامرأة غیرها لم تؤمن إیمانها و لم تنشأ نشأتها و لیس لها ما تطمع به أن تبلغ شاؤها أو تقارب منزلتها؟!

فالحق إن المرأة بأنوثتها عرضة للانحراف عن مقتضی الحکمة و الاعتدال فی الحکم، و هذا هو ما عبر عنه الرسول صلی اللّه علیه و سلم بنقصان العقل و رتب علیه- کما جاء فی القرآن الکریم- إن شهادة المرأة علی النصف من شهادة الرجل و قد بنت الشریعة علی هذا الفرق الطبیعی بین الرجل و المرأة التفریق بینهما فی کثیر من الأحکام:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۷

جعلت القوامة علی النساء للرجال؟ الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَی النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ، و جعلت حتی طلاق المرأة للرجل دونها و منعتها السفر دون محرم أو زوج أو رفقة مأمونة و لو کان سفرها لأداء فریضة الحج. و جعلت لها حق الحضانة للصغار دون الرجل، و أوجبت علی الرجل حضور الجمعة و الجماعات و الجهاد و لم توجب علیها شیئا من ذلک.

و إذا کان الفرق الطبیعی بین الرجل و المرأة قد أدی فی نظر الشریعة إلی التفرقة بینهما فی هذه الأحکام التی لا تتعلق بالشئون العامة للأمة فإن التفرقة بینهما بمقتضاه فی الولایات العامة- التی یجب أن تکون بمنأی عن مظان التأثر بدواعی العاطفة- تکون فی نظر الحکمة أحق و أوجب.

و من هنا تقرر لجنة الفتوی، أن الشریعة الاسلامیة تمنع المرأة- کما جاء فی الحدیث الشریف- أن تلی شیئا من هذه الولایات، و فی مقدمتها ولایة سن القوانین التی هی مهمة أعضاء البرلمان. هذا- و لیس من الولایات العامة التی تمنع منها المرأة ما یعهد به إلی بعض النساء من الوظائف و الأعمال کالتدریس للبنات و عمل الطبیبة و الممرضة فی علاج المرضی من النساء و تمریضهن، فإن هذه الأعمال و ما شابهها لیس فیها معنی الولایة العامة، الذی هو سلطان الحکم و قوة الإلزام، و قد استند دعاة حق المرأة فی الانتخاب إلی بعض وقائع حسبوها من الولایة العامة التی تولتها المرأة علی حین أنها لیست من هذه الولایة فی شیء، فقد قالوا إن السیدة عائشة رضی اللّه عنها تولت قیادة الجیش فی واقعة الجمل لمقاتلة حزب علی رضی اللّه عنه، و إیراد هذه الوقعة علی هذا الوجه لیس فیه إنصاف للحقیقة و التاریخ. فإن السیدة عائشة لم تخرج محاربة و لا قائدة لجیش محارب، و إنما خرجت داعیة للمطالبة بدم عثمان رضی اللّه عنه، و قد دفعها إلی ذلک أنها کانت ساخطة- کغیرها من أهل عثمان و أشیاعهم- علی خطة التریث و التمهل و عدم المبادرة بالبحث قبل کل شیء عن قتلة عثمان و الاقتصاص منهم، و هذا أمر لیس من الولایة العامة فی شیء کما قلنا. علی أن صنیع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۸

السیدة عائشة هذا لیس فیه دلیل شرعی یصح الاستناد إلیه، فإن کان عن اجتهاد منها. و کانت مخطئة فیه. و قد أنکر علیها بعض

الصحابة هذا الخروج فاعترفت بخطئها و ندمت على خروجها. و فی ذلک یروی الحافظ بن حجر فی شرح صحیح البخاری یقول: أخرج عمر بن شبة من طریق مبارک بن فضالة عن الحسن أن عائشة أرسلت إلی أبی بکرة- تدعوه إلی الخروج معها- فقال: إنک لأم و إن حقک لعظیم. و لکن سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول: «لن یفلح قوم تملکهم امرأة» و لم یخرج معها أبو بکرة.

و ورد کذلک من طریق قیس بن أبی عاصم قال: لما أقبلت عائشة فنزلت ببعض میاه بنی عامر نبحث علیها الکلاب فقالت: أی ماء هذا؟ فقالوا:

الحواب، فقالت: ما أظننی إلا راجعة فقالت لها بعض من کان معها: بل تقدمین فیراک المسلمون فیصلح اللّه ذات بینهم. فقالت: إن النبی صلی اللّه علیه و سلم قال لنا ذات یوم: «کیف بإحداکن تنبح علیها کلاب الحواب؟» و أخرج هذا أحمد و أبو یعلی و البزار و الحاکم و صححه بن حبان و سنده علی شرط الصحیح. و ورد عن طریق عصام بن قدامة عن عکرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال لنسائه: «أیتکن صاحبة الجمل الأدبب (۱) تخرج حتی تنبحها کلاب الحواب یقتل عن یمینها و عن شمالها قتلی کثیرة و تنجو بعد ما کادت»، و أخرج أحمد و البزار بسند حسن من حدیث أبی رافع أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال لعلی بن أبی طالب: «إنه سیکون بینک و بین عائشة أمر» قال:

فأنا أشقاهم یا رسول اللّه؟ قال: لا، و لکن إذا کان ذلک فاردها إلی مأمنها.

من هذه الأحادیث المتعددة الطرق یتضح لمن اشتبه علیهم الأمر أن موقف السیدة عائشة رضی اللّه عنها فی واقعة الجمل کان عن اجتهاد منها لم یقرها علیه کثیر من الصحابة و إنها تذکرت ما أنبأ به النبی صلی اللّه علیه و سلم فندمت علی خروجها و اعترفت بخطئها.

و قد روی الطبرانی بسند صحیح عن أبی یزید المدینی قال عمار بن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۹۹

یاسر لعائشة لما فرغوا من الجمل: ما أبعد هذا المسیر من العهد الذی عهد إلیکن- یشیر إلی قوله تعالی: وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَ فقالت: «أبو الیقظان؟ قال نعم قالت: و اللّه إنک ما علمت لقوال بالحق، قال الحمد للّه الذی قضی لی علی لسانک» فهی تعترف بخطئها و تقر عمارا علی إنکاره لصنیعها و توافقه علی أن الخروج لمثل ذلک الشأن لا یجوز للنساء.

و یجدر أن نسوق هنا ما رواه أبو یعلی و البزار عن أنس قال: أتت النساء رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فقلن یا رسول اللّه ذهب الرجال بالفضل بالجهاد فی سبیل اللّه فما لنا عمل ندرک به عمل الجهاد فی سبیل اللّه؟ فقال:

«مهنة إحداکن فی بیتها تدرک عمل المجاهدین فی سبیل اللّه»، هذا إلی ما قدمناه من أن خروج السیدة عائشة فی هذه الواقعة لیس من الولایة العامة، فلا یتصل بموضوع الیوم فی شیء.

و أبعد من ذلک عن الموضوع ما یستدل به أنصار حق المرأة فی الانتخاب من أن الرسول صلی اللّه علیه و سلم بایع النساء کما بایع الرجال. و مبایعة النساء هذه، هی التی جاء بها القرآن الکریم فی قول اللّه تعالی فی سورة الممتحنة: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا جاءَکَ الْمُؤْمِناتُ یُبایِعْنَکَ عَلی أَنْ لا یُشْرِکْنَ بِاللَّهِ شَیْئاً وَ لا یَسْرِقْنَ وَ لا یَزْنِینَ وَ لا یَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا یَأْتِینَ بِبُهْتانٍ یَفْتَرِینَهُ بَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا یَعْصِینَکَ فِی مَعْرُوفٍ فَبایِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ»، هذه هی المبایعة التی یستدل بها أنصار حق المرأة فی الانتخاب و هی عهد من اللّه و رسوله قد أخذ علی النساء ألا یخالفن أحکام اللّه و أن یتجنبن تلک الموبقات المهلکات التی کان أمرها شائعا فاشیا فی العرب قبل الإسلام، فأی شیء فی هذا یصلح مستندا لأنصار هذا الرأی؟. إنه لم یدع أحد أن المرأة ممنوعة من تلقی دروس العلم و المعرفة أو من حضور مجالس العلم محتشمة لسماع تعالیم الدین و الوعظ و الارشاد، بل إن الإسلام یحتم علیها أن تتعلم و تتثقف و تتأدب بآداب الدین الصحیحة کما یحتم ذلک علی الرجل، فهذا حق لها و واجب علیها. حق لها علی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۰

الأمـة أن تمكنها من أن تتعلم كل ما يصـلح لها فی دينها و دنياها. و واجب عليها أن تبـذل جهـدها فی سبيل هـذه المعرفة، و لا يجب عليهـا أن تسـأل فی ذلـك عما تجهل و أن تناقش فيما لا تقتنع به مما تسـمع و مما هی فی حاجـة إليه من العلوم و المعارف. و لها فی ذلـك أسوة ببعض نساء السـلف إذا اعترضت إحـداهن علی عمر و قـد كان يخطب الناس فی المسـجد ينهاهم عن المغالاة فی المهور فقالت: أيعطينا اللّه و يمنعنا عمر؟ تشـير إلی قوله تعالی: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْـتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْـداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُـذُوا مِنْهُ شَيْئاً، و فی هـذا يروی ابن أبی يعلی عن مسـروق أن عمر لما راجعته تلك المرأة بعد ما نزل من المنبر قال: كل الناس أفقه من عمر ثم صعد المنبر فقال: كنت نهيتكم أن تزيدوا علی أربعمائة، فمن طابت نفسه فليفعل، كل هذا لائق بالمرأة و هو كما قلنا حق لها و واجب عليها لكنه لا نسبة له بما تطالب به اليوم من الولاية العامة و ما تدعيه من حق الاشتراك فی الانتخاب.

و فی رأينا أن مبايعة النساء للرسول صـلی اللّه عليه و سـلم إن دلت علی شیء يصح التمسك به فی المسألة الحاضرة فذلك هو التفرقة فی الأعمـال بين مـا ينبغی أن يكون للرجـال أو للنسـاء، فهی حجـة علی أنصار دعوی المساواة بين الرجل و المرأة و ليست دليلا لهم، ذلك أن مبايعـة النساء هـذه كانت عقب فراغ النبی صـلی اللّه عليه و سـلم من مبايعـة الرجال عند الصـفا يوم فتح مكة. فقد بايع هؤلاء الرجال أولا و لكن علی ماذا؟ علی الإسـلام و الجهاد. فإن هـذا الأمر الـذی يليق بهم و ينتظر منهم. كما بايعهم قبل ذلك فی الحـديبية سنة ست من الهجرة علی ألا يفروا من الموت، و كما بايع نقباء الأنصار فی منی قبل الهجرة علی السمع و الطاعة و النصرة و أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و أبناءهم.

أمـا مبايعـة النساء فكانت علی ما قـدمنا مما وردت به الآيـة الكريمـة من سورة الممتحنـة. و للّه الحكمـة البالغـة، لا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها. إذا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۱

لا شیء مما يستدل به دعاة حق المرأة فی الانتخاب يصح أن يكون دليلا لهم. و لا شیء منه يمكن أن يكون من الولاية العامة.

أما الذی هو من الولايات العامة فهو تولی شجرة الدر ملك مصر. لكنا لا نظن أحدا من أهل الجد فی القول يلجأ إلی هذا الأمر فيجعل منه دليلا- شرعيا علی أن الإسـلام يجيز فی الملـك أن تتولاه امرأة، هـذا ما رأته اللجنـة فی حكم أحـد الأمرين و هو الخاص بانتخاب المرأة لتكوين عضوا فی البرلمان.

أما الأمر الثانی و هو اشتراكها فی انتخاب من يكون عضوا فيه، فاللجنـة ترى أنه باب تريـد المرأة أن تنفـذ منه إلی تلك الولايـة العامة التی حظرتهـا عليهـا الشـريعة ذلـك أن من يثبت له حق الاشتراك فی الانتخـاب فإنه يثبت له حق ترشـيح نفسه لعضويـة البرلمان متی توافرت فيه الشـروط القانونيـة لهـذه العضويـة. و بعيـد أن ينشأ للمرأة قانون يبيـح لها الاشتراك فی التصويت ثم يمنعها- لأنوثتها- من ترشيح نفسها للعضوية و هی التی لا تقنع بأن الأنوثة تمنعها من شیء و لا ترضی إلا بأن تكون مساوية للرجل فی كل شیء.

و إذا لا يصح أن يفتح لها باب التصويت عملا بالمبدأ المقرر فی الشريعة و القانون.

إن وسـيلة الشـیء تأخذ حكمه. فالشـیء الممنوع بسبب ما يلازمه أو ما يترتب عليه من ضرر أو مفسدة تكون الوسيلة إليه ممنوعة لهذا السبب نفسه، فإنه لا يسوغ فی عقل و لا شرع أن يمنع شیء لما يترتب عليه أو يلازمه من مضار و يسمح فی الوقت نفسه بالوسائل التی يعلم أنهـا تتخـذ طريقـا إليه، و بهـذا يتبين أن حكم الشـريعة فی اشتراك المرأة فی انتخـاب عضو البرلمـان هو كحكمهـا فی اختيـارها لتكون عضوا فيه. كلاهما ممنوع. هذا- و يتبين مما قدمنا أن الحكم فی المسألة بشقيها علی هذا الوجه لم ينظر فيه إلی شیء آخر وراء طبيعة هذين الأمرين، أما إذا نظرنا إلی ما يلازم عملية

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۲

الانتخـاب المعروفـة و الترشـيح لعضويـة البرلمـان من مبـدأ التفكير فيه إلی نهـايته. فإنـا نجـد سلسـلة من الاجتماعات و الاختلاطات و الأسـفار للدعاية و المقابلات و ما إلی ذلك مما تتعرض المرأة فيه لأنواع من الشـر و الأذی، و يتعرض لها فيه أرباب القلوب المريضة

الـذين ترتـاح أهواؤهم و تطمئن أنفسـهم لمثـل هـذا الاختلاـط بين الرجـال و النساء فهـذه مواقف لا ينبغى للمرأة أن تزج بنفسـها فى معتركها غير المأمون. و يجب عليها أن تنادى بنفسـها عنها حفظا لكرامتها و صونا لسمعتها. و هذا واقع لا ينبغى إغفاله أو التغافل عنه و يجب تقـدير الأـمور و تقرير الأحكـام على أسـاسه، و قـد تكفى هـذه الإشـارة فى التنبيه إلى مضـار الاختلاط فى اجتماعات الرجال و النساء، و آيات من الكتاب العزيز ترسم لنا الطرق الصالحة فى التربية الاجتماعية و التهذيب الخلقى و الأدب الدينى الصحيح، فعلينا أن نعتبر بها و نقيس بتعاليمها ما هو واقع فى اجتماعاتنا لنعرف مـدى قربنا أو بعدنا من هذه التعاليم: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً، قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، بإمضاء: محمد عبد الفتاح العنانى رئيس لجنة الفتوى بالأزهر.

و قد كتب الدكتور أحمد زكى بك و الأستاذ إسماعيل مظهر يؤيدان

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۳

قضية المرأة، ورد عليهما علماء الوعظ بالأزهر بآيات و أحاديث شريفة، مغزاها خلاف ما ذهب إليه الدكتور زكى و الأستاذ مظهر.

و قد نشر الشيخ علام نصار المفتى آراء له حول: تعدد الزوجات، و الطلاق و سواها .. و قد قامت معركة حول هذه الآراء، و اشتركت فى مناقشتها و الرد عليها «جبهة علماء الأزهر» فى كتاب نشرته.

ـ ۹ـ فكرة توحيد التعليم:

هذه الفكرة أيدها الدكتور طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة»، فرأى أن يكون التعليم موحدا فى الدولة و أن تكون المعاهد الثانوية مدارس ثانوية خاضعة لوزارة المعارف، و تستقل كليات الأزهر بالدراسات الدينية.

و قد كتب الدكتور محمد يوسف موسى فى ۶ اغسطس ۱۹۵۰ كلمة فى الأهرام يؤيد فيها هذا الرأى، ورد عليه الأستاذ الشيخ الطيب النجار عضو جماعة كبار العلماء و غيره من أساتذة الأزهر.

ـ ۱۰ـ

لمناسبة الاحتفال بسفر المحمل و الكسوة الشريفة عام ۱۹۵۲ و ما يلازم هذا الاحتفال عادة من تقاليد و الطقوس بعث على ماهر رئيس الوزراء سابقا إلى فضيلة مفتى الديار المصرية بكتاب يستفتيه فى حكم الشريعة فى هذه التقاليد و الطقوس و قد جاء فيه: جرت العادة فى حفلة المحمل السنوية على نظم و تقاليد و طقوس نرجو التفضل ببيان الحكم الشرعى فيها قبل الموعد المحدد للحفلة فى هذا العام، مع الإحاطة بأننا نعتبر هذه لا تعدوا أن تكون إيذانا بافتتاح موسم الحج، و إذا رأيتم فضيلتكم الاتصال بصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر و صاحب الفضيلة رئيس المحكمة الشرعية

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۴

ليكون الرأى إجماعيا نكون لكم من الشاكرين.

و قد قدم حضرة صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية فتواه فى الرد على رئيس الوزراء مؤيدة برأى فضيلة شيخ الجامع الأزهر و فضيلة رئيس المحكمة العليا الشرعية إلى الرئيس على ماهر، و جاء فيها ما يلى بعد الديباجة: تشرفت اليوم بتلقى كتابكم المؤرخ ۱۸/

۸/ ۱۹۵۲ الذی تطلبون فیه الرأی الشرعی فی النظم و التقالید و الطقوس التی تجری فی الحفلة السنویة للمحمل، و نفید أننا منذ مدة قد بینا الحکم فی ذلک بیانا واضحا و استنکرنا بعض هذه التقالید استنکارا صریحا لمخالفتها لتعالیم الإسلام، و قد جرت العادة علی إقامة هذه الحفلة کل عام عند سفر المحمل و عند عودته بما فی ذلک هذه التقالید التی ینکرها الشرع و التی هی بدع سیئة لا أصل لها فی الدین و یجب إزالتها و القضاء علیها، من ذلک:

۱- الطواف بالمحمل سبع مرات حول الدائرة التی ترسم له أمام السرادق المعد للاجتماع الرسمی رمزا إلی الطواف حول الکعبة سبعة أشواط مع أن الطواف لم یشرع إلا حول الکعبة فی مناسک الحج و العمرة، و لا یجوز الرمز إلی ذلک بأیة حال.

۲- دوران عدة من الجمال حول هذه الدائرة و علیها رجال یطبلون و یزمرون بملابس خاصة و صورة مزریة.

۳- تقبیل أمیر الحج و العظماء المدعوین إلی الحفلة مقود الجمل الذی یحمل الهودج المرموز به إلی هودج شجرة الدر حین حجت فی عهد دولة المماليک و لیس لهذا أصل فی الدین فضلا عن أنه مما تأباه النفوس الکریمة. فالتقبیل لم یؤذن به شرعا فی المناسک أو غیرها إلا فی الحجر الأسود و فیه قال أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه: «و اللّه إنی لأعلم أنک حجر لا تضر و لا تنفع و لو لا أنی رأیت رسول اللّه یقبلک لما قبلتک».

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۵

۴- وقوف جماعة من مشایخ الطرق و أتباعهم أمام السرادق یقرأون الفاتحة و یبتهلون بأصوات صاخبة مزعجة و ما کانت تلاوة القرآن لذلک و علی هذا الوجه.

و قد تأصلت هذه الأعمال فی النفوس حتی ظن عامة الناس أنها من الدین أو علی الأقل من البدع الحسنة، و الدین یأباها و یرشد إلی أنها من السوء بمکان و فی إقراره تضلیل للعامة باعتقادهم أنها من الدین و هی لیست من الدین فی شیء. و بما أن الواجب شرعا رد المسلمین إلی الحق و الهدی و إرشاد العامة إلی ترک المعتقدات الباطلة و البدع السیئة و قد صح من المأثور أن من أمات بدعة فقد أحیا سنة.

لهذا کله نرجو أن یفتتح هذا العهد الإصلاحی بتطهیر العقائد و الأعمال من شوائب المنکرات، و اللّه یوفقکم و یصلح بکم و یسدد خطاکم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۷

الباب التاسع

ألوان ثقافیة فی حیاة الأزهر العلمیّة

-۱-

کان الأزهر لا یعنی کثیرا بالعلوم العقلیة فی عهد الانحطاط العثمانی، و من شواهد ذلک أن أحمد کور باشا الذی تولی ولایة مصر عام ۱۱۶۱ ه فی عهد مشیخة الشیخ عبد اللّه الشبراوی، ناقش شیخ الأزهر الشیخ الشبراوی، فی إهمال الأزهر و مصر للعلوم الریاضیة .

و مع ذلک فقد کان هناک قلة من العلماء تعنی بهذه العلوم و تدرسها، و من هؤلاء الشیخ حسن الجبرتی الذی کان ذا شهرة عظیمة فی العلوم الریاضیة، و قد ذکر ابنه المؤرخ فی حدیثه عنه فی تاریخه أنه فی سنة ۱۱۵۹ ه- ۱۸۰۵ م أتی إلیه طلاب من الفرنجة، و تلقوا علیه علم الهندسة، و أهدوا إلیه من مصنوعاتهم و آلاتهم أشیاء نفیسة ثم رجعوا إلی بلادهم و نشروا بها ذلک العلم من ذلک الوقت، و أخرجوه من القوة إلی الفعل، و استخرجوا به صناعات بدیعة، مثل طواحین الهواء، و جر الأثقال، و استنباط المیاه، و ما إلی هذا من الصناعات، فأی شیء بعد هذا یحتاج إلیه فی إثبات فضل الأزهر علی العلم؟ و أیة ید أثیمة بعد هذا تحاول

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۸

أن تناله بسوء، و أن تقابل فضله بالجحود؟ و قد تلقی الشیخ حسن الجبرتی هذه العلوم الریاضیة فی الأزهر، و کذلک غیرها من العلوم الدینیة و العربیة، و هو فی الأصل من أهل الحبشة الذین رحلوا إلی الأزهر لطلب العلم، و لهم رواق فیه یسمی رواق الجبرتیة، و قد تلقی العلوم الدینیة و العربیة علی السید محمد البنوفری و الشیخ عمر الأسقاطی و الشیخ أحمد الجوهری و غیرهم، و بدأ تلقی العلوم الریاضیة علی الشیخ محمد النجاحی، ثم قدم الشیخ حسام الدین الهندی إلی الأزهر، و کان بارعا فی العلوم الریاضیة و الفلسفیة، فتلقاها علیه بعض طلاب الأزهر، مثل الشیخ الوسیمی، و الشیخ أحمد الدمنهوری، فذهب إلیه الشیخ حسن الجبرتی و لازمه، و تلقی علیه کتبا نفیسة فی هذه العلوم، مثل أشکال التأسیس فی الهندسة، و تحریر أقلیدس، و المتوسطات و المبادیء و الغایات، و الأکر، و علم الأرتماطیقی، و الجغرافیا، و علم المساحة، و لم یزل یطلب هذه العلوم حتی برع فیها، و طارت شهرته بها، و کان یعرف اللغة الترکیة و الفارسیة، و یتکلم بهما کأهلهما، ثم اشتغل بالتدریس فی الأزهر، و تلقی علیه فیه الشیخ أحمد الشیخ عبد الرحمن البنان و الشیخ محمد الصبان و الشیخ محمد عرفة الدسوقی و الشیخ محمد الأمیر، و غیرهم من أفاضل علماء الأزهر.

و کان یقتنی کثیرا من الکتب النفیسة فی العربیة و الفارسیة و الترکیة، و مما کان یقتنیه من الکتب الفارسیة کتاب الکلستان، و دیوان حافظ، و شاهنامه، و کان بها من الصور العجیبة ما یکسبها رونقا و بهاء، و کان عنده کثیر من الآلات الفلکیة، و الکرات النحاسیة، و الآلات الإرتفاعیة، و المیالات، و حلق الأرصاد، و الأسطرلابات، و العدد الهندسیة، و آلات أکثر الصناعات کالنجارة و غیرها، و آلات الرسم و التقاسیم، و کان کل ماهر فی صناعته یجتمع به لیتسفید منه، و کان مع هذا یعرف صناعة التراکیب و التقاطیر و استخراج المایه، و قد رسم فی أیام اشتغاله ما لا یحصی من المنحرفات و المزاول، و فی سنة ۱۱۷۲ ه- ۱۷۵۸ م، وقع الخلل فی الموازین

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۰۹

فتحرکت همته لتصحیحها، و أحضر الحدادین و السباکین، و حرر المثاقیل و الصنج الکبار و الصغار، و رسمها بطریق الاستخراج علی أصل العلم العملی و الوضع الهندسی، و لم ینقص هذا من إلمامه بالعلوم الدینیة، بل کان حجة فی الفقه و غیره من هذه العلوم، حتی إن القضاة لم یکونوا یثقون إلا بفتواه، و کانت وفاة هذا العالم الأزهری سنة ۱۱۸۸ ه- ۱۷۷۴ م ..

-۲-

و قد نعی الشیخ حسن العطار علی الأزهر إهماله هذه العلوم و سواها و ذلک فی حاشیته علی شرح جمع الجوامع فی أصول الفقه و کان من تلامذة العطار رفاعة رافع الطهطاوی الأزهری، الذی سافر مع بعثات محمد علی إلی باریس، و له کتاب «تخلیص الإبریز فی تلخیص باریز» و کتاب مناهج الألباب المصریة فی مباهج الآداب العصریة، الذی یقول فیه عن محمد علی و عهده إنه جدد دروس العلوم بعد اندراسها، و أوجدت بعد العدم رؤساء العلماء و الفضلاء نتیجة قیاسها، لقصد انتشار العلم و الزیادة فی الفضائل، فأتی من ذلک بما لم تستطعه الأوائل، غیر أنه- حفظه اللّه و أبقاه- و لو أنه أعلی منار الوطن و رقاه. لم یستطع إلی الآن أن یعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور، و لم یجذب طلابه إلی تکمیل عقولهم بالعلوم الحکمیة التی کبیر نفعها فی الوطن لیس ینکر، نعم إن لهم الید البیضاء فی إتقان الأحکام الشرعیة العملیة و الاعتقادیة، و ما یجب من العلوم الآلیة کعلوم العربیة الإثنی عشر، و کالمنطق و الوضع و آداب البحث و المقولات و علم الأصول المعتبر، غیر أن هذا وحده لا یفی للوطن بقضاء الوطر، و الکامل یقبل الکمال کما هو متعارف عند أهل النظر، و مدار سلوک جادة الرشاد و الإصابة، منوط بعدول الأمر، بهذه العصابة، التی ینبغی أن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۰

تضیف إلی ما یجب علیها من نشر السنة الشریفة، و رفع أعلام الشریعة المنیفة، معرفة سائر المعارف البشریة المدنیة، التی لها مدخل فی تقدیم الوطنیة، من کل ما یحمد علی تعلمه و تعلیمه علماء الأمة المحمدیة، فإنه بانضمامه إلی علوم الشریعة و الأحکام، یکون من

الأعمال الباقية على الدوام، و يقتدى بهم فى اتباعه الخاص و العام، حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة، يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله، فإن سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم، و منهجه الأبهج هو القويم، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم، و تلقيه من أفواههم أتم و أنظم، لا- سيما أن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم إسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية، و لم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة، بل لا زال يتشبث بقراءتها و دراستها من أهل أوروبا حكماء الأزمنة الأخيرة، فإن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى (۱۱۰۱- ۱۱۹۲ ه)- الذى كانت مشيخته قبل شيخ الإسلام أحمد العروسى الكبير (۱۱۳۲- ۱۲۰۸ ه) جدّ شيخ شيوخ الجامع الأزهر، السيد المصطفوى العلم الشهير رأى أنه أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير، و أنه له فيها المؤلفات الجمة، و أن تلقيها إلى أيامه كان عند الجامع الأزهر من الأمور المهمة، فإنه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية و آلاتها معقولا و منقولا:

أخذت عن أستاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعترى.

خاتمة العارفين بعلم الحساب و استخراج المجهولات و بما توقف عليها.

كالفرائض و الميقات، وسيلة ابن الهائم و معونته- كلاهما فى الحساب- و المقنع لابن الهائم، و منظومة الياسمين فى الجبر و المقابلة، و دقائق الحقائق فى حساب الدرج و الدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأزياج، و رسالتين إحداهما على ربع المقنطرات و أخراهما على ربع

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۱

المجيب- كلاهما للشيخ عبد الله المارديني جد السبط- و نتيجة الشيخ اللاذقى المحسوبة لعرض مصر، و المنخرفات لسبط المارديني فى علم وضع المزاول، و بعض اللمعة فى التقويم. و أخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز و اللمحة العفيفة فى أسباب الأمراض و علاماتها بشرح الأمشاطى، و بعضا من قانون ابن سينا، و بعضا من كامل الصناعة، و بعضا من منظومة ابن سينا الكبرى- و الجميع فى الطب- و قرأت على استاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لقط الجواهر فى الحدود و الدوائر لسبط المارديني فى الهيئة السماوية، و رسالة ابن الشاطر فى علم الاضطراب، و رسالة قسطا بن لوقا فى العمل بالكرة و كيفية أخذ الوقت منها، و الدر لابن المجدى فى علم الزيج. و قرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة، و بعضا من الجغميني فى علم الهيئة، و بعضا من رفع الأشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة، و قرأت على الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب، منها رسالة فى علم الأرتماطيقى للشيخ سلطان المزاحى. و قرأت على الشيخ الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير و علم الأوفاق و علم الاستنطاقات و علم التكعيب، و رسالة اخرى فى رسم ربع المقنطرات و المنحرفات لسيط المارديني، و علم المزاول و منظومة فى علم الأعمال الرصدية و روضة العلوم و بهجة المنطوق و المفهوم لمحمد بن صاعد الأنصارى، و هى كتاب يشتمل على سبعة و سبعين علما، أولهما علم الحرف و آخرها علم الطلاسم، و رسالة للإسرائيلى، و رسالة للسيد الطحان- كلاهما فى علم الطالع- و رسالة للخازن فى علم المواليد- أعنى الممالك الطبيعية و هى الحيوانات و النباتات و المعادن- و أخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة، و متن الجغميني فى علم الهيئة- بمراجعة قاضى زاده و مطالعة السيد عليه- و أخذت عن سيدى أحمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة فى تقويم

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۲

الكواكب السبعة. و لما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ فقال: طالعت كتاب إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد فى علم الأرتماطيقى، فى نحو كراسين، و كتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه، و رسالة الكلام اليسير فى علام البواسير، فى نحو كراسين، و رسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح، فى نحو كراسين، و كتاب إتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب، فى نحو خمسة كراريس، و رسالة القول الأقرب فى علاج لسع العقرب، فى نحو كراس، و

کتاب منهج السلوک فی نصیحة الملوک، فی نحو عشرة کراریس، و کتاب بلوغ الأرب فی أسماء سلاطین العجم و العرب- معنونا باسم السلطان مصطفی خان بن السلطان أحمد خان، المولود فی رابع عشر شهر صفر سنة تسع و عشرین و مائة و ألف یوم الأربعاء أول النهار فی الساعة الأولی بعد الشمس، الجالس علی سریر الملک فی سابع عشر صفر الخیر سنة إحدی و سبعین و مائة و ألف یوم الأحد قبل الشمس. و یقول رفاعة: فانظر إلی هذا الإمام الذی کان شیخ مشایخ الجامع الأزهر، و کان له فی العلوم الطبیة و الریاضیة و علم الهیئة الحظ الأوفر، مما تلقاه عن أشیاخه الأعلام، فضلا عن کون أشیاخه کانوا أزهریة، و لم یفتهم الوقوف علی حقائق هذه العلوم النافعة فی الوطنیة، و فضل العلامة الجبرتی المتوفی فی أثناء هذا القرن فی هذه العلوم، و فی فن التاریخ أمر معلوم، و کذلک العلامة الشیخ عثمان الوردانی الفلکی، و کان للمرحوم العلامة الشیخ حسن العطار شیخ الأزهر أیضا مشارکة فی کثیر من هذه العلوم، حتی فی العلوم الجغرافیة، فقد وجدت بخطه هوامش جلیلة علی تقویم البلدان لإسماعیل أبی الفداء سلطان حماة، المشهور أیضا بالملک المؤید، و للشیخ المذکور هوامش أیضا وجدتها بأکثر التواریخ، و علی طبقات لأطباء و غیرها، کان یطلع دائما علی الکتب المعربة من تواریخ و غیرها، و کان له ولوع شدید بسائر المعارف البشریة،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۳

مع غایة الدیانة و الصیانة، و له بعض تآلیف فی الطب و غیره، زیادة عن تآلیفه المشهورة، فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الأزهریین بالعلوم العصریة التی جددها الخدیو بمصر، بإنفاقه علیها أوفر أموال مملکته، لفازوا بدرجة الکمال، و انتظموا فی سلک الأقدمین من فحول الرجال، و ربما یتعللون بالاحتیاج إلی مساعدة الحکومة، و الحال أن الحکومة إنما تساعد من یلوح علیه علامات الرغبة و الغیرة و الاجتهاد، فعمل کل من الطرفین متوقف علی عمل الآخر، فترجع المسألة دوریة، و الجواب عنها أن الحکومة قد ساعدت بتسهیل الوسائط و الوسائل، لیغتنم فرصة ذلک کل طالب وسائل، و کل من سار علی الدرب وصل، و إنما المکافأة علی تمام العمل.

-۳-

و قد ازدهر القرن التاسع عشر بکوکبة من المصلحین، من أمثال الأفغانی (۱۸۳۹- ۱۸۹۷ م) و علی مبارک (۱۸۲۳- ۱۸۹۳ م) و السید عبد الرحمن الکواکبی (۱۸۴۸- ۱۹۰۲ م) و الشیخ محمد عبده (۱۸۴۹- ۱۹۰۵ م)، و کان هؤلاء المصلحون یتجهون أول ما یتجهون إلی إیقاظ الفکر المصری و العربی، و إلی تجدید النهضة الدینیة.

و لما حضر جمال الدین الأفغانی إلی مصر لأول مرة سنة ۱۲۸۶ ه أقام فی القاهرة أربعین یوما، تردد فیها علی الجامع الأزهر، و اتصل به کثیر من العظماء و الطلاب، ثم ترک القاهرة إلی الأستانة، فوصل إلیها فی سنة ۱۲۸۷ ه، و لکن الدسائس أحاطت من کل جانب، و من أجل ذلک عاد جمال الدین إلی القاهرة فی أوائل سنة ۱۲۸۸ ه، فأکرمه إسماعیل، و أجری علیه راتبا یلیق به، فجعل من بیته مدرسة یقصدها النابهون من طلاب العلم فی الأزهر و غیره، و کان یدرس لهم أمهات الکتب فی علم الکلام و الحکمة و الهیئة و التصوف و أصول الفقه، و لم یکن یقصد من دروسه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۴

التعلیم فقط، بل کان یقصد منها الدعوی إلی الإصلاح، و فتح باب الاجتهاد فی الدین و العلم و بث الأخلاق العالیة فی النفوس، و کان إلی هذا یرشد الطلاب إلی مطالعة کتب الأدب، لیتعلموا منها حسن الکتابة و الإنشاء، و یستطیعوا أن ینهضوا بالأمة بالکتابة فی الجرائد و غیرها، فأیقظ النفوس من غفلتها، و فتح عیون الطلاب فی الأزهر لضعف التعلیم فیه، حتی ألفوا من بینهم جماعة تسعی فی إصلاحه، و کان أول ما عملوه کتابة منشور علقوه علی أعمدة الأزهر فی سواد اللیل، و بینوا فیه مواضع الخلل فی التعلیم بالأزهر، و شرحوا الوسائل التی تؤدی إلی إصلاحه، فبدأ جمال الدین بدروسه فی الإصلاح، الجهاد فی إصلاح الأزهر، و أوجد من أبنائه و

غيرهم من يعمل فيه بكل ما يمكنه من الوسائل التى توصل إليه.

و كان نشاطه التعليمى ذا شعبتين: دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته (فى خان الخليلى)، و كان يتلقاها أمثال الشيخ محمد عبده، و الشيخ عبد الكريم سلمان، و الشيخ سعد زغلول، و الشيخ إبراهيم الهلباوى من مجاورى الأزهر و علمائه، و كان يدرس لهم كتب منطق و فلسفة و تصوف و هيئة، و يظهر أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة فى ذاتها، و إنما قيمتها كانت فيما يضيفه عليها الشيخ فى شرح آرائه و أفكاره، و التبسط فى مناحى الفكر، و التطبيق على الحياة الواقعية، بربط الحياة العملية بالعلمية، هذا إلى أنه كان يأخذ بيد تلاميذه، فيجعلهم يسيطرون على الكتاب، و يسمون عن قيود الألفاظ و الجمل إلى معرفة الحقائق ذاتها، يحدد لهم موضوع الدرس من الكتاب، و يفيض عليهم فى شرحه من عنده حتى يحيطوا به، و يتفهموه من جميع أطرافه.

و كانت مدرسته الثانية غير النظامية أكبر أترا و أعم نفعا، و كان تلاميذه فيها زواره فى بيته أو فى بيوتهم حين يزورهم، و من يلتقى بهم فى (قهوة البوستة) و فى المجتمعات من أمثال: محمود سامى البارودى، و عبد السلام المويلحى و أخيه إبراهيم المويلحى و سعد زغلول، و محمد عبده

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۵

و على مظهر، و أديب إسحق و غيرهم. و فى هذه المدرسة حول مجرى الأدب و نقله من حال إلى حال، كان الأدب عند الحكام لا هم له إلا مدح الملوك و الأمراء، و التغنى بأفعالهم و صفاتهم، فأتى جمال الدين و سخّر الأدب فى خدمة الشعب، يطالب بحقوقه، و يدافع عنه من ظلمه، يبين للناس سوء حالتهم، و يبصرهم بمن كان سبب فقرهم، و يحرضهم أن يخرجوا من بؤسهم و ضلالهم و ألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم، فكان أدبه ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، و ينشد الحرية و يفيض فى حقوق الناس و واجبات الحاكم، و يجعل من الأديب مشرفا على الأمراء، لا سائلا يمد يده للأغنياء، كنت تتصفح آثار الأدباء أمثال: السيد على أبى النصر، و الشيخ على الليثى و عبد اللّه باشا فكرى، فلا ترى موضوعاتهم غير غزل فى حبيب، أو رسالة إلى صديق، أو مدح لأمير، أو استعطاف له، أو اعتذار إليه، أو وصف سفينة، أو شكر على هدية. أما مصر و حال شعبها، و بؤس أهلها، و ظلم حكامها، و حقوق الناس، و واجبات الحكام، فلا ترى لذلك أثرا. فقلب جمال الدين هذا الوضع و فتح للأدباء منافذ القول، و كانت خطته فى ذلك ما يأتى:

۱- كون جماعة حبب إليهم الكتابة، و رسم لها خطتها و أوحى إليهم بالمعانى و شجعهم على إنشاء الجرائد، يكتب فيها، و يستكتب القادر منهم، فأنشأ أديب إسحق جريدة «مصر» فى القاهرة، و «التجارة» بالأسكندرية، و كان جمال يكتب فيها أحيانا باسم مستعار أو باسمه الحقيقى و قد كتب مقالين: أحدهما فى الحكومات الشرقية و أنواعها، و الثانى سماه «روح البيان فى الأنجليز و الأفغان» كان لهما صدى بعيد، و لقيت الصحيفتان رواجا كبيرا، ثم أغلقهما رياض باشا و كذلك وجه الكتاب فى «الوقائع المصرية» و غيرها، و بذلك ربى طائفة من الكتاب تحسن الكتابة» و اختيار الموضوعات، و وضع النواة الأولى للصحافة الشرقية و الكتاب الذين يعالجون شئون وطنهم و حالة شعوبهم، و الذى ساعده على النجاح فى ذلك

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۶

حال مصر المالية و السياسية و تدخل الأجنبى فيهما و جزع الشعب و الحاكم معا لذلك فشجعوا هذا النقد من الصحافة، و لو لا ذلك لخابت دعوة جمال الدين فى مصر كما خابت فى غيرها.

۲- أحاديثه فى المقهى و فى المحافل و بيوت الزيارة، تواتيه المعانى، و يطاوعه اللسان، فيخلق أمتع الأحاديث، و يحدث كل من بمجلسه بلسان عربى مبين، فيدهش السامعين، و يفحم السائلين، و يبكم المعترضين، و بذلك خرج مدرسة عجيبة تحسن السمر و الحديث و الاستطراد، و تملك على السامع لبه من أمثال محمد عبده، و سعد زغلول، و الهلباوى، و لطفى السيد، و غيرهم.

و هكذا بدأ جمال الدين تعليمه فى حجرة ثم فى مقهى أو مجتمع، ثم فى محفل يريد توسيع العقول، و تعليم الحرية فى البحث و

النقد، و تبصير الشعب بحقوقه و واجبات الحاكم نحوه، و يضع يده فی صميم السياسة فيريد أن يسيطر على الوزارات و الحكومة بمحفله، و رأى أول أمره أن لا قيمة لمجلس النواب ما دام الشعب غافلا جاهلا، فلما نضجت الأمة و استبد الحكام، غير رأيه و ألح فی طلب الحكم النيابی و حرض عليه. و كان يلتقی بالأمير توفيق فی المحفل فيقدره و يدين بمبادئه، و لكنه لما تولی الحكم بعد إسماعيل دس له الدساسون، فاجتمع مجلس الوزراء و قرر نفی جمال الدين فقبض عليه فی ۲۴ أغسطس سنة ۱۸۷۱، و نفی إلی بمبای فی الهند، و كان ذلك آخر عهد له بمصر.

و سافر الأفغانی إلی لندن عام ۱۸۸۳ و منها إلی فرنسا، و وافاه إليها تلميذه و صديقه الشيخ محمد عبده و كان منفيا فی بيروت. و أخذا يتشاوران فيما يعملان من وجوه الإصلاح، و كان من رأی الشيخ محمد عبده بعد ما رأی من غدر الناس فی ثورة عرابی أن يذهبا إلی مكان بعيد، ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها أنجب التلاميذ من الأقطار الإسلامية،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۷

و يعدانهم للزعامة و نشر الإصلاح، و لكن لم يعجب السيد هذا الرأی، و رأی فيه خورا و ضعفا و يأسا، و وضع خطته بإنشاء جريدة فی باريس للعالم الإسلامی تبصره بحقوقه و واجباته و وظيفته، و كانت جريدة «العروة الوثقی» للسيد فيها الأفكار و المعانی، و للشيخ التحرير و الصياغة، و ميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية ما يهم الشرق، و كان وراءها جمعية سرية فی جميع أقطار الإسلام، و لها فروع فی بلدانه يجتمعون للمذاكرة، و يتبرعون بالمال ينفق منه علی الجريدة و القائمين بها، فقد كانت ترسل بالمجان أكثر أعدادها، و كان الأعضاء يقسمون اليمين لأحياء الأخوة الإسلامية، و تقوية الإسلام بقدر ما يستطيعون. و كان أهم أغراض الجريدة كما لخصت هی ذلك فی أول عدد لها:

۱- بيان الواجب علی الشرقيين، و أسباب فساد حالهم.

۲- إشراب النفوس عقيدة الأمل و ترك اليأس.

۳- الدعوة إليالتمسك بالأصول التی كان عليهم أسلافهم و عزوا بها.

۴- الدفاع عما يتهم به الشرقيون عموما و المسلمون خصوصا من أنهم لن يتقدموا ما داموا متمسكين بدينهم.

۵- إخبارهم بما يهمهم من حوادث السياسة العامة و الخاصة.

۶- تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، و مناصرة من لا يجحف بحقوقهم من أمم الخارج.

و أخذ يكتب فی ذلك فی الجريدة و يفصل هذه الأسباب فی مقالات، و كان مثله الأعلی حكومة إسلامية موحدة للجميع، و لما رأی عدم إمكان ذلك دعا إلی أن تحكم الأقطار الاسلامية بحكومات إمامها القرآن، و أساسها العدل و الشوری و ترتبط جميعا بروابط محكمة.

و قد قاده هذا التفكير فی الحكومة الإسلامية و أخلاق الشعب التی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۸

يجب أن يكون عليها إلی أن يناهض فی الجريدة الاحتلال الأجنبی فی الأقطار الإسلامية و خاصة فی مصر، و شغل هذا حيزا كبيرا منها بأسلوب مهيج و عبارات شديدة، كما استخدم بجانبها رسلا متخفين إلی الأقطار المختلفة ينشرون التعاليم التی لا يستطيع نشرها فی الجريدة، و كان منهم الشيخ محمد عبده- و هو محكوم عليه بالنفی- فجاء إلی مصر و تونس و كان من نتائج هذا أن روقبت الجريدة من أصحاب السيادة علی حكومات الهند و مصر، فمنعت من دخولهما، و استحال وصولها إلی أصحابها و قرائها فاحتجبت عن أداء رسالتها.

و قد كان يدعو إلی الاجتهاد و ترك التقليد فی الدين، فإن الأئمة اجتهدوا و أحسنوا و لكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، و الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء. و يری أن التفرقة بين أهل السنة و الشيعة سببها مطامع الملوك، فالفريقان يؤمنان

بالقرآن و رسالة محمد، ففیم الخلاف و القتال؟. و یری أن الإشتراکیة فی الإسلام ملتحمة مع الدین، ملتصقة مع الخلق، یبعث علیها حب الخیر، علی النقیض من إشتراکیة الغرب التی یبعث علیها جور الحکام و عوامل الحسد فی العمال لأرباب الغنی. کما یری أن المرأة تساوی الرجل فی تکوینها العقلی و التفاوت بینهما أتی من التربیة و إطلاق السراح للرجل، و تقیید المرأة فی البیت.

و مهمتها فی هذا أسمی، و لا تقل عن مهمة الرجل، و من یطلب مساواتها فهو مخطی، و لا مانع من أن تعمل فی الخارج إذا فقدت عائلها، و اضطرتها ظروفها و لکن بطهارة. کما أنه لا مانع عنده من رفع الحجاب إذا لم یتخذ وسیلة للفجور. و یری کذلک أن الدین لا یخالف الحقائق العلمیة، و إذا ظهر غیر ذلک وجب تأویله، فالقرآن أعظم من أن یخالف العلم الحقیقی خصوصا فی الکلیات.

و قد أجمع معاصروه و من درسوا تاریخ حیاته علی أن له غرضین واضحین:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۱۹

۱- بث الروح فی الشرق لینهض بثقافته و علمه و تربیته، و تنقیة عقیدته من الخرافات و استعادة عزه و مکانته.

۲- مناهضة الاحتلال الأجنبی حتی تعود الأقطار الشرقیة إلی استقلالها مرتبطة بروابط علی أی شکل، لتلقی ما یحیط بها من أخطار.

و لما مات حمل المصلحون بعده لواء هذین الغرضین متفرقین و قد کان یحمل لواءهما معا، فحمل الشیخ محمد عبده لواء الإصلاح الثقافی، فإن الواجب الأول علی المصلح فی رأیه تثقیف الشعب و تهذیبه، ثم الاستقلال یکون الخاتمة. و قد رفع العلم الآخر و هو العلم السیاسی لمناهضة الحکم الأجنبی عبد الله ندیم، ثم مصطفی کامل و فرید، ثم سعد زغلول. و کذلک کان فی غیر مصر من أقطار الشرق من حملوا لواء الإصلاحین و ساروا علی هداه و لکن فی بطء لا یعجبه فقد کان طموحا إلی مقصده، شجاعا مقداما لا یهاب الموت، حدید المزاج، لا یرید الحق إلا من طریق الحق، یریده غایة و یریده وسیلة، و لکن سیاسة الدنیا غیر ذلک تقوم علی المصالحة، و أخذ شیء بترک شیء، و من أراد الحق کاملا- فلیطلب ذلک فی المثل الأعلی للخلق لا فی السیاسة أو فلینتظر حتی تخضع السیادة للخلق و لن یکون.

-۴-

و یقول. فی إهمال العلوم الریاضیة و الفلسفیة فی الأزهر- الأستاذ مصطفی بیرم من رسالة له عن الأزهر قدمها لمؤتمر علماء اللغات الشرقیة المنعقد بمدینة همبورج بالمانیا عام ۱۹۰۲: إن تلک العلوم الریاضیة و الجغرافیة و العقلیة و الفلسفیة مهجورة من الأزهر ینظر إلیها بعین السخط، و یفر من سماعها فرار الصحیح من الأجرب، و لکن بفضل اللّه و کرمه لم یطل الأمر علی ذلک کثیرا، حتی قیض اللّه لنا علماءنا الأعلام من ثنیه لأسباب تأخرنا العلمی، و أخذوا فی السعی لإعادة تدریس تلک العلوم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۰

النافعة المقویة للملکة الذهنیة، و لخشیة المفاجأة بإعادة تدریسها للجامع بعد ما رسخ فی أذهان الکثیر من أن بها ما یعدوا علی الدین، رأی ولاة الأمور أن یمهدوا السبیل لادخالها فی الجامع الأزهر بأخذ آراء أفاضل العلماء الأزهریین، فکلفوا والدی المرحوم السید محمد بیرم بهاته المهمة العلمیة، و بعد أخذ و عطاء بینه و بین المرحومین: العلامة الشیخ محمد الأنبابی شیخ الإسلام بمصر و شیخ الجامع الأزهر، و الشیخ محمد البنا مفتی الدیار المصریة فی ذلک العهد، استقر الرأی أن یکتب لهما استفتاء صورته، بعد الدیباجة: «ما قولکم رضی اللّه عنکم؟ هل یجوز تعلم المسلمین للعلوم الریاضیة؟ مثل الهندسة و الحساب و الهیئة و الطبیعیات و ترکیب الأجزاء المعبر عنها بالکیمیاء، و غیرها من سائر المعارف، لا سیما ما ینبنی علیه منها من زیادة القوة فی الأمة، بما تجاری به الأمم المعاصرین لها فی کل ما یشمله الأمر بالاستعداد بل هل یجب بعض تلک العلوم علی طائفة من الأمة؟ بمعنی أن یکون واجبا وجوبا کفائیا علی نحو التفصیل الذی ذکره فیها الإمام حجة الإسلام الغزالی فی إحیاء العلوم، و نقله علماء الحنفیة أیضا و أقروه، و إذا کان الحکم فیها کذلک، فهل یجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلیة من نحو و غیره الرائجة الآن بالجامع الأزهر و جامع الزیتونة و القرویین؟

أفیدوا الجواب، لا زلتم مقصدا لأولی الألباب: فأجابه العلامة الشیخ محمد الأنبابی بالفتوی الآتیة بعد الدیباجة: یجوز تعلم العلوم الریاضیة مثل الحساب و الهندسة و الجغرافیا، لأنه لا تعرض فیها شیء من الأمور الدینیة، بل یجب منها ما تتوقف علیه مصلحة دینیة أو دنیویة وجوبا کفائیا، کما یجب علم الطب لذلک «کما أفاده الغزالی فی مواضع من الإحیاء، و إن ما زاد علی الواجب من تلک العلوم مما یحصل به زیادة التمکن فی القدر الواجب فتعلمه فضیلة، و لا یدخل فی علم الهیئة الباحث عن أشکال الأفلاک و الکواکب و غیرها علم التنجیم المسمی بعلم أحکام النجوم و هو الباحث عن الاستدلال بالتشکلات الفلکیة علی الحوادث السفلیة، فإنه حرام کما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۱

قال الغزالی، و علل ذلک بما محصله أنه یخشی من ممارسته نسبة التأثیر للکواکب، و التعرض للإخبار بالمغیبات، مع کون الناظر قد یخطیء لخفاء بعض الشروط، و أما الطبیعیات و هی الباحثة عن صفات الأجسام و خواصها و کیفیة استحالتها و تغییرها- کما فی الإحیاء فی الباب الثانی من کتاب العلم- فإن کان ذلک البحث علی طریق أهل الشرع فلا منع منها، کما أفاده العلامة شهاب الدین أحمد بن حجر الهیتمی فی جزء الفتاوی الجامع للمسائل المنتشرة بل لها حینئذ أهمیة بحسب أهمیة ثمرتها، کالوقوف علی خواص المعدن و النبات المحصل للتمکن فی علم الطب، و کمعرفة عمل الآلات النافعة فی مصلحة العباد، و إن کان علی طریقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام، لأنه یؤدی للوقوع فی العقائد المخالفة للشرع، کما أفاده العلامة المذکور، نعم یظهر تجویزه لکامل القریحة الممارس للکتاب و السنة، للأمن علیه مما ذکرنا، قیاسا علی المنطق المختلط بالفلسفة، علی ما هو المعتمد فیه من أقوال ثلاثة، ثانیها الجواز مطلقا، و نسبه الملوی فی شرح السلم للجمهور، و ثالثها المنع مطلقا، و نسبه صاحب السلم لابن الصلاح و النووی، قال الملوی: و وافقهما علی ذلک کثیرا من العلماء.

و لما کان الإمام النووی ممن یقول فی المنطق بالمنع مطلقا مشی علی نظیر ذلک فی الطبیعة، فعد فی کتاب السیر من الروضة من العلوم المحرمة علوم الطبیعیات بدون أن یفصل، لکن حیث یعتمد التفصیل هناک فلنعتمده هنا، إذ لا فرق فی ذلک، فإن مظنة الضرر و النفع موجودة فی کل منهما، و الظاهر أن موضوع کلام الروضة ما کان علی طریقة الفلاسفة، إذ غیره لا محظور فیه اتفاقا کالمنطق الخالص، کما یشعر بذلک تعبیرها بعلوم الطبائعیین دون علوم الطبیعة. و أما علم ترکیب الأجزاء المعبر عنه بالکیمیاء فإن کان المراد به البحث عن الترکیب و التحلیل بدون تعرض لما یخشی منه علی العقیدة الإسلامیة. فلا بأس به، بل له أهمیة حسب ثمرته، و إلا جرت فیه الأقوال الثلاثة المتقدمة، و أما العلم المعروف بعلم جابر، و یسمی أیضا الأزهر فی ألف عام ؛ ج۳ ؛ ص۱۲۲

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۲

علم الصنعة و علم الکاف، و هو الذی ینصرف إلیه علم الکیمیاء عند غالب الناس، فقد أفاد العلامة ابن حجر فی شرحه علی المنهاج أنه إن قلنا بالمعتمد من جواز انقلاب الجسم عن حقیقته و کان العلم الموصل لذلک یقینا جاز تعلمه و العمل به، و إلا حرم، و لفقد هذا الشرط لم یتحصل المشتغلون به فیما رأینا إلا علی ضیاع الأموال، و تشتت البال، و تغییر الأحوال- فعلم أن العلوم الریاضیة لا بأس من قراءتها کما تقرأ علوم الآلات. و کذا الطبیعیات و علم ترکیب الأجزاء، حیث کانت تقرأ علی طریقة لا یفهم منها منابذة الشرع بحال، کبقیة العلوم العقلیة مثل المنطق و الکلام و الجدل، بل یجب کفایة من هذه الثلاثة ما یحتاج إلیه فی الحجاج عن العقائد الدینیة.

و کتب الشیخ محمد البنا مفتی الدیار المصریة فی ذلک لعهد هذه الفتوی: «ما أفاده حضرة شیخ الإسلام موافق لمذهبنا، و ما استظهروه من أن الخلاف الجاری فی علم المنطق یجری فی علم الطبیعة أیضا وجیه.

و اللّه سبحانه و تعالی أعلم». و کانت فتوی الشیخ الأنبابی فی غرة ذی الحجة سنة ۱۳۰۵ ه، و کانت فتوی الشیخ البنا فی ۱۷ من هذا الشهر .

كانت العلوم و الكتب التى تدرس بالأزهر فى القرن التاسع عشر و أول القرن العشرين كما جاء بيانها فى رسالة مقدمة من شيخ الأزهر إلى الخديو فى سنة ۱۳۱۰ ه، هى كما اشتملت عليه هذه الرسالة :

۱- علم التوحيد، و الكتب التى تدرس فيه هى أم البراهين الصغرى للشيخ محمد يوسف السنوسى بشرح المؤلف و الهدهدى و الباجورى، و أم

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۳

البراهين الكبرى للسنوسى، و جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقانى بشرح عبد السلام اللقانى، و العقائد النسفية بشرح السعد التفتازانى، و الخريدة للشيخ أحمد الدردير، و المقاصد لسعد الدين التفتازانى، و المواقف للشيخ عبد الرحمن العضد بشرح الجرجانى، و طوالع الأنوار للبيضاوى بشرح الأصفهانى، و متن السباعى بشرح الباجورى.

۲- التصوف، و الكتب التى تدرس فيه هى الإبريز للشيخ عبد العزيز، و الأنوار القدسية للشيخ عبد الوهاب الشعرانى، و بستان العارفين للشيخ نصر السمرقندى، و تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى، و التجليات الإلهية للشيخ محى الدين بن عربى، و تحفة الإخوان للشيخ الدردير، و تفليس إبليس لعز الدين بن عبد السلام، و تنبيه الغافلين للشيخ نصر السمرقندى، و التنوير فى إسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى، و الإحياء للغزالى، و قوت القلوب لأبى طالب المكى، و المنن الكبرى للشيخ الشعرانى.

۳- التفسير، و الكتب التى تدرس فيه هى الكشاف للزمخشرى.

و تفسير الجلالين بحاشية الشيخ الجمل، و تفسير الخطيب الشربينى، و تفسير عبد الله بن عمر البيضاوى، و تفسير أبى السعود، و تفسير الفخر الرازى، و تفسير الخازن، و تفسير النسفى، و الاتقان للسيوطى.

۴- التجويد و القراءات، و الكتب التى تدرس فيه هى تحفة الأطفال للشيخ سليمان الجنزورى، و الجزرية للشيخ الجزرى، و التمهيد له أيضا، و جهد المقل للشيخ على زاده، و إرشاد الرحمن للشيخ عطية الأجهورى، و الشاطبية للشاطبى، و الوقف و الابتداء للشيخ الأشمونى.

۵- الحديث، و الكتب التى تدرس فيه هى صحيح البخارى بشرح و العسقلانى و العينى و زكريا الأنصارى، و مختصر البخارى للشيخ ابن أبى حمزة، و صحيح مسلم بشرح النووى، و الشفاء للقاضى عياض

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۴

بشرح الخزرجى و منلا على قارى، و موطأ الإمام مالك بشرح الزرقانى و ابن عبد البر، و الجامع الصغير للسيوطى بشرح العزيزى و المناوى و الأبيارى، و الأذكار للنووى بشرح ابن علان، و التجريد للزبيدى، و الشمائل المحمدية للترمذى بشرح الجمل، و الترغيب و الترهيب للمنذرى، و الأربعين للنووى، و صحيح الترمذى، و صحيح النسائى، و صحيح الأشعث و صحيح ابن ماجه، و المواهب اللدنية للقسطلانى، و السيرة الحلبية للحلبى.

۶- مصطلح الحديث، و الكتب التى تدرس فيه هى ألفية الحافظ العراقى بشرح شيخ الإسلام العدوى. و تقريب النووى بشرح الجلال السيوطى، و النخبة لابن حجر العسقلانى، و البيقونية للشيخ عمر البيقونى بشرح الزرقانى و منظومة الصبان.

۷- فقه الحنفية، و الكتب التى تدرس فيه هى نور الإيضاح بشرح الشرنبلالى، و الكنز للنسفى بشرح الطائى و ابن نجيم و الزيلعى و العينى و مثلا، و تنوير الأبصار للتمرتاش بشرح الحصفكى، و البداية للمرغينانى، و الهداية، و الغاية، و فتح القدير، و الأشباه و النظائر لابن نجيم، و الخراج للإمام أبى يوسف، و ملتقى الأبحر للحلبى بشرح الحصفكى، و مجمع البحرين لابن الساعاتى، و متن القدورى للبغدادى، و جامع الفصولين، و السراجية للسجاوندى.

۸- فقه المالكية، و الكتب التى تدرس فيه هى العشماوية للشيخ العشماوى بشرح ابن تركى، و العزية لأبى الحسن على الشاذلى بشرح

الزرقانی، و رسالة ابن أبی زید القیروانی بشرح الحسن الصعیدی، و أقرب المسالک للدردیر، و مختصر خلیل بشرح الدردیر و الخرسی و الزرقانی و الحطاب و الشبراخیتی، و المجموع للشیخ الأمیر، و العاصمیة، و التبصرة لابن فرحون، و القلصاوی للقرسی.

۹- فقه الشافعیة، و الکتب التی تدرس فیه هی التقریب لأبی شجاع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۵

بشرح ابن قاسم و الخطیب الشربینی، و الأشباه و النظائر للسیوطی، و التحریر للشیخ زکریا الأنصاری، و منهج الطلاب له أیضا، و الروض لابن المقری، و منهاج الطالبین للنووی، و العباب لابن المدحجی، و نهج الطلاب للجوهری، و البهجة لابن الوردی، و الوجیز للغزالی، و الروض للنووی، و الإرشاد لابن المقری، و کشف النقاب للونائی، و فتاوی ابن حجر، و فتاوی الرملی، و الرحبیة، و الترتیب للماردینی، و کشف الغوامض للسبط، و ألفیة ابن الهائم.

۱۰- فقیه الحنبلیة، و الکتب الذی تدرس فیه هی الدلیل للشیخ مرعی، و زاد المستقنع للبهوتی، و المنتهی للفتوحی، و الإقناع للحجاوی، و المقنع لابن قدامة، و مختصر المقنع للحجاوی، و الإنصاف للمرداوی، و مختصر الشطی.

۱۱- أصول الفقه، و الکتب التی تدرس فیه هی جمع الجوامع للسبکی بشرح المحلی، و مختصر ابن الحاجب بشرح العضد. و منار الأنوار للنسفی بشرح بن مالک و الحصفکی و ابن نجیم، و التنقیح لصدر الشریعة، و تنقیح الفصول للقرافی، و الورقات لإمام الحرمین بشرح المحلی و ابن القاسم، و الورقات للحطاب، و التحریر للکمال ابن الهمام، و فصول البدائع، و المرآة.

۱۲- اللغة، و الکتب التی تدرس فیها هی القاموس للفیروزبادی بشرح السید مرتضی، و الصحاح للجوهری، و مختار الصحاح للرازی، و المصباح المنیر للفیومی، و فقه اللغة للثعالی، و الأساس للزمخشری، و المزهر للسیوطی، و لسان العرب للأنصاری.

۱۳- النحو، و الکتب التی تدرس فیه هی الأجرومیة للصنهاجی بشرح الکفراوی. و الشیخ خالد، و الأزهریة و شرحها للشیخ خالد، و قطر الندی لابن هشام، و شذور الذهب له أیضا، و ألفیة ابن مالک بشرح ابن عقیل

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۶

و الأشمونی، و مغنی اللبیب لابن هشام، و الکافیة لابن الحاجب، و التسهیل لابن مالک.

۱۴- الصرف، و الکتب التی تدرس فیه هی المراح لأحمد بن علی بن مسعود، الشافیة لابن الحاجب بشرح شیخ الإسلام و الرضی، و التصریف للغزی بشرح السعد التفتازانی، و الترصیف للأخضری، و نظم العقود للطحاوی بشرح الشیخ علیش، و لامیة الأفعال لابن مالک، و رسالة الجوهری فی الإشتقاق.

۱۵- علوم البلاغة، و الکتب التی تدرس فیها هی التلخیص للخطیب القزوینی بشرح السعد، و المفتاح للسکاکی بشرح السعد و السید، و الجوهر المکنون للأخضری بشرح الدمنهوری، و عقود الجمان و شرحه للسیوطی، و منظومة ابن الشحنة، و الرسالة البیانیة للصبان، و السمرقندیة.

۱۶- العروض و القوافی، و الکتب التی تدرس فیه هی الکافی للقنائی، و الخزرجیة و منظومة الصبان.

۱۷- الوضع و الکتب التی تدرس فیه هی: الرسالة العضدیة بشرح السمرقندی، و عنقود الزواهر.

۱۸- المنطق و الکتب التی تدرس فیه هی السلم للأخضری بشرح المؤلف و القویسنی و الملوی و الباجوری، و إیساغوجی للأبهری بشرح الشیخ زکریا الأنصاری، و التهذیب للسعد التفتازانی بشرح الخبیصی، و الشمسیة للکاتبی بشرح القطب الرازی و المختصر للسنوسی، و المطالع للأرموی بشرح الرازی.

۱۹- أدب البحث و المناظرة، و الکتب التی تدرس فیه هی آداب الکلنبوی بشرح حسن باشازاده، و آداب السمرقندی بشرح الشیروانی و شیخ الإسلام، و آداب الساجقلی للمرعشی، و آداب الجرجانی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۷

۲۰- التاریخ و الکتب الذی تدرس فیه هی تاریخ الخمیس للقاضی حسین الدیار بکری، و إسعاف الراغبین للصبان، و مقدمة ابن خلدون، و تاریخه العبر و دیوان المبتدأ و الخبر، و الکامل لابن الأثیر، و الخطط للمقریزی، و نفح الطیب للمقری، و تحفة الناظرین للشرقاوی، و العقد الفرید لابن عبد ربه، و الطبقات الصغری لابن السبکی، و طبقات الشعرانی، و لواقح الأنوار له أیضا، و خلاصة الأثر للحلبی، و أخبار الأول للإسحاقی.

۲۱- الحساب و الجبر، و الکتب التی تدرس فیهما هی الوسیلة لابن الهائم، و التحفة السنیة للسبط، و السخاویة للسخاوی، و الیاسمینیة لابن الهائم، و منظومة فی الحساب للأخضری، و نزهة النظار لابن الهائم، و الدرة البیضاء للأخضری، و الخلاصة للعاملی، و التخلیص للدمیاطی، و اللمعة لابن الهائم.

۲۲- المیقات و الهیئة، و الکتب التی تدرس فیهما هی دقائق الحقائق للسبط، و خلاصة المختصرات لابن عائشة، و رسالة فی العمل بالربع للجبرتی، و المقدمة لمحمد المجدی، و تحفة الإخوان لابن قاسم، و الوضع علی الجهات للمالکی الأندلسی، و هدایة الحائر للسبط، و رسالة الوقت و القبلة للقلیوبی، و رسالة فی معرفة التواریخ لابن مهدی، و دستور علم المیقات لرضوان أفندی، و زاد المسافرین لأحمد بن المجدی، و تسهیل الدقائق لخلیل الفرازی، و رسالة المنحرفات له أیضا، و التذکرة للطوسی، و المطلع السعید لحسین زائد.

۲۳- الحکمة، و الکتب التی تدرس فیها هی الإشارات لابن سینا، و الهدایة لأثیر الدین الأبهری، و حکمة العین للکاتبی، و مقولات السجاعی، و مقولات البلیدی، و مقولات المرصفی، و غالیة النشر لعبد الجواد القبانی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۸

۲۴- الرسم و الکتب التی تدرس فیه هی منظومة فی الرسم العثمانی رسم مصحف عثمان- و منظومة فی الرسم القیاسی.

من صحائف الذکری

فی سنة ۱۲۸۰ ه - ۱۸۶۳ م، أراد السلطان عبد العزیز أن یزور الدیار المصریة، و کان هذا فی عهد إسماعیل باشا خدیوی مصر، فلما وصل إلی القاهرة اختار إسماعیل باشا أربعة من علماء الأزهر، لیذهبوا إلی تهنئة نیابة عن إخوانهم، و هم السید مصطفی العروسی شیخ الجامع الأزهر، و الشیخ السقا، و الشیخ علیش، و الشیخ حسن العدوی، و کان لمقابلة سلاطین آل عثمان آداب لا یعرفها علماء الأزهر فطلب إسماعیل باشا من قاضی قضاة مصر- و کان یختار من علماء دولة آل عثمان- أن یعلمهم آداب المثول بین یدی السلطان، فذکر لهم أن المقابلة ستکون فی حجرة یقف السلطان فی صدرها علی منصة مرتفعة، و أنه یجب إذا ما وصلوا إلی باب الحجرة و وقعت أعینهم علی السلطان أن ینحنوا انحناء عظیما، ثم یلقوا علیه السلام، ثم یکرروا الانحناء و التسلیم إلی أن یرد السلطان علیهم تحیتهم، فینحنوا و یسلموا مرة أخری، و یرجعوا متقهقرین إلی الوراء إلی أن یصلوا إلی باب الحجرة، فینحنوا مرة أخری، ثم ینصرفوا إلی خارج الحجرة. و قد وقعت هذه الآداب من العلماء الأربعة موقع الاستغراب، فقال لهم قاضی القضاة: إن هذا لا بد منه، فقالوا قد فهمنا. ثم ذهبوا إلی مقابلة السلطان، فدخل الشیخ العروسی أولا، و أدی المقابلة بالشکل الذی ذکره قاضی القضاة، ثم أداها مثله الشیخ السقا و الشیخ علیش، و کان الخدیوی إسماعیل واقفا وراء السلطان و عینه ترقب حرکاتهم، فسر لإتقانهم آداب المقابلة، و ظهورهم بهذا المظهر الذی کان موقع استغراب منهم، ثم دخل بعدهم الشیخ العدوی و کان عالما شجاعا لا یخشی إلا اللّه، و لا یقیم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۲۹

وزنا لعظمة سواه، فانحنی انحناءة خفیفة عند الباب، ثم أقبل نحو السلطان منتصب القامة، و لم یکرر الانحناء أمامه، فخفق قلب إسماعیل باشا لما فعل، و لا سیما حین رآه یجاوز الحاجز و یصل إلی السلطان، ثم یقول له:

السلام علیک یا أمیر المؤمنین و رحمة اللّه. فیبتسم السلطان له و یرد علیه تحیته، و ینحنی له انحناء خفیفا، فیکلمه الشیخ العدوی فیما

يجب على السلطان لرعيته، و يبين له عظم المسئولية الملقاة على عاتقه، و أن ثوابه عند اللّه سيكون بقدر تلك المسؤولية و حسن قيامه بها، و أن عقابه عنده سيكون بقدر تقصيره فيها. فلما رأى ذلك إسماعيل باشا إصفر لونه، و أخذ يتوقع غضب السلطان عليه لهذه المقابلة، و لكن وجد السلطان لم يبد عليه أى أثر للغضب، بل وجده مرتاحا للكلام الذى سمعه. و قد خرج الشيخ العدوى بعد أن انتهى من موعظته، و لم يخرج بظهره كما خرج غيره، بل ولى وجهه نحو الباب و خرج، فوجد العلماء الثلاثة ينتظرونه أمام الباب فأخبرهم بما فعل مع السلطان، فأخذوا يلومونه على ما فعل، و يخوفونه عاقبة هذا الأمر: فقال لهم: أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين، و أما أنتم فكأنكم قابلتم صنما، و كأنكم عبدتم وثنا، و لما انصرف الشيخ العدوى سأل السلطان عبد العزيز إسماعيل باشا عنه، فقال له: هذا شيخ من أفاضل العلماء، و لكنه مجذوب، و أستميح جلالتكم عفوا عن سقطته، فقال له السلطان: كلا، بل إنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى لمقابلته.

ثم أمر له بخلعة سنية، و ألف جنيه.

شعلة لا تنطفىء

لما استولى صلاح الدين على مصر، و أبطل منها مذهب الشيعة الفاطمية أبطل الخطبة فى الجامع الأزهر، و أقرها بالجامع الحاكمى لسعته و بقى الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه زمن الدولة الأيوبية، و بعضا من عصر المماليك البحرية- أى نحو مائة سنة- و أهمل أمره مدة تعطيل الجمعة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۰

فيه، و أنشئت مدارس أخرى لتدريس فقه الشافعية و التفسير و الحديث و غيرها.

و لما ولى ملك مصر الظاهر بيبرس البندقدارى كان من أمراء دولته الأمير عز الدين أيدمر الحلى، و كانت داره بالقرب من الأزهر، فرعى فيه حرمة الجوار، و استعان بماله و جاهه عند السلطان فى عمارته، فجمع بعض ما بددته أيدى الفاطميين من أوقافه، و أمده السلطان بالمساعدة، فعمر الواهى من أركانه، و رفع سقوفه، و بلطه، و فرشه، و أثر فيه آثارا حسنة، حتى عاد حرما آمنا فى وسط المدينة. و أنشأ بيلبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء، و محدثا يتلو الحديث النبوى و يلقى المواعظ و مقرئين للقرآن، و وقف على ذلك الغلات الدارة.

و لما كانت الدراسة معطلة فى الأزهر من بدء الدولة الأيوبية فقد أريد إعادة الخطبة فيه، فامتنع قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز من إقامة خطبتين للجمعة، فيه و فى الجامع الحاكمى، وفقا لمذهبه، و هو مذهب الإمام الشافعى. فولى السلطان قاضيا حنفيا فأذن فى إعادتها، و أخذ بذلك خطوط العلماء. و أعيدت إقامة الجمعة فيه باحتفال عظيم حضره أكابر الدولة، و عاد مسجدا جامعا، و مدرسة عظيمة. و كان هذا الإذن أساسا اعتمد عليه سلاطين المماليك و كبراؤهم فى صحة بناء مساجد جامعة كثيرة فى القاهرة و غيرها. و عظمت عناية المماليك بالأزهر فجددوه مرارا، و رفعوا حواليه المنارات السامية، و أضافوا إليه بضع عشرة مدرسة، حبست عليها الحبوس الجليلة، و فتحوا أبوابه للعلم، و أجروا على قاصديه الجرايات من الطعام و الحلوى، فقصده الطلاب و العباد من أقاصى البلاد. و بلغ عدد طالبى العلم به سنة ۸۱۸ ه نحو سبعمائة و خمسين طالبا من مصريين و مغاربة و أعاجم، و هم عدد عظيم بالإضافة إلى ما كان ينافسه فى الشهرة و ينازعه هذه المكرمة، نحو مائة مدرسة و جامع أنشأها سلاطين المماليك

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۱

و أمراؤهم، و وقفوا عليها أضعاف ما وقف على الأزهر.

و كانت الدراسة فيه مقصورة أول الأمر على علوم اللغة و الدين، ثم أدخلت فيه بعض علوم الرياضة و النجوم و الطبيعة، و لكنها لم تعش طويلا، و عادت الدراسة فيه سيرتها الأولى. و ظل كذلك تتوالى عليه أحوال عسر و يسر، إلى أن نهض المصلحون لأخذ طلابه

بقسط من علوم الحياة:

كالتاريخ، و تقويم البلدان، و العلوم الرياضية، فلقوا شيئا من المعارضة.

على أن الأزهريين لم يلبثوا أن اطمأنوا إلى هذه العلوم، و أقبلوا جاهدين على دراستها طالبين المزيد منها، و الإصلاح فى جميع أنواع التعليم بمعهدهم الجليل فعولج الإصلاح بعدة مشروعات، و تم لهم ما أرادوا و سن للأزهر قانون جعل التعليم فيه على ثلاث مراحل: هى مراحل التعليم الابتدائى ثم الثانوى، ثم العالى، و أنشىء للمرحلة الأخيرة ثلاث كليات، بكل منها أقسام للتخصص. و اقتضى النظام الجديد أن يختص كل مدرس بنوع من العلم لطائفة من الطلاب محدودة العدد من طبقة واحدة، فضاق نطاق الأزهر عن فرق الدراسة، فوزعت على كثير من الأمكنة. و ألحق بالأزهر فى نظامه و إدارته العليا كثير من المعاهد العلمية، كمعهد الأسكندرية، و الجامع الأحمدى، و الجامع الدسوقى، و معهد دمياط، و معهد أسيوط، و معهد شبين الكوم، و معهد الزقازيق.

و للأزهر الفضل الذى لا يجحد فى حفظ علوم الدين و اللغة فى تلك الحقبة الطويلة، التى ابتليت فيها مصر بالفقر و الجهل و سائر ألوان الفساد.

و كان ملاذ القاصدين من أبناء اللغة العربية، و غياث المتعطشين لورود مناهلها من سائر الممالك الإسلامية، و مصباحا ينبعث منه نور الهداية إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى، و له عظيم الأثر فى النهضة الحديثة، إذ كان الملجأ الذى لجأ إليه محمد على فى نهضته، فاختار من بين طلابه بعوثه الى البلاد الأوروبية للتوسع فى العلوم و الفنون، فعادوا و كانوا أئمة المصلحين. و استعان بعلمائه فى القيام بكثير من شئون مملكته، كتعليم

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۲

اللغة و الدين بالمدارس التى أنشأها، و الإشراف على طبع الكتب و تصحيحها، و تحرير الوقائع المصرية، و المشاركة فى وضع مصطلحات العلوم المترجمة. و من الأزهر استمدت مدرسة القضاء الشرعى و دار العلوم طلابها، و تخرج من المدرسة الأولى طائفة من رجال الشريعة، نهضوا بأعباء القضاء فى المحاكم الشرعية، و أعمالها الكتابية، كما تخرج من الثانية كثير من مدرسى المدارس المصرية فى العصر الحديث، و إلى الأزهر يرجع الفضل فى توسيع نطاق التعليم. فقد أمد مدارس المعلمين الأولية بما تحتاج إليه من التلاميذ، و ساعد المدارس الحكومية و الأهلية برجاله، و عمل طلابه على إزالة الأمية، و نشر الثقافة العامة فى قرى القطر المختلفة لإنبثائهم بها، و إقامتهم فيها، و به أصبحت مصر مركز الثقافة العربية، و المثابة الأخيرة لعلوم الدين و اللغة.

علماء من الأزهر القديم و الحديث

-۱-

ليس فى وسعى فى هذا الكتاب إحصاء جميع العلماء الذين تخرجوا من الأزهر أو درسوا فيه أو تولوا مناصبه الدينية و العلمية الكبرى، فذلك شىء لا يمكن أن يحيط به باحث.

و قد ذكرت فى فصول الكتاب أشهر الأعلام فى الأزهر، خلال عصور التاريخ المختلفة، و نذكر الآن أسماء عديدة، بعضهم ممن سبق ذكرهم، و لكن هنا تحقيق دقيق لتاريخ ميلادهم و وفاتهم، و من الأعلام الأزهريين:

۱- الشيخ محمد بن عمر الخفاجى المصرى المتوفى عام ۱۰۱۹ ه، و هو والد الشهاب الخفاجى، و كان من جلة العلماء و له آثار علمية كبيرة .

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۳

۲- الشهاب الخفاجى المصرى (۹۷۵- ۱۰۶۹ ه ۱۶۵۸ م) و كان من جلة العلماء و المؤلفين، و تولى رياسة القضاء فى مصر، و رحل

إلی الحرمین و الشام و القسطنطینیة، و من مؤلفاته: الریحانة، و طراز المجالس، و شفاء الغلیل و شرح درة الغواص، و حاشیة علی الشفاء، و حاشیته المشهورة علی البیضاوی، و سواها، کما أن له کثیرا من الکتب المخطوطة .

و الشهاب اسمه أحمد بن محمد شهاب الدین الخفاجی المصری، و قد ولد بسریاقوس و تلقی دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبیه إلی الحرمین، ثم الآستانة، و عین قاضیا علی الروملی فی سلانیک، و عینه السلطان مراد قاضیا للعسکر بمصر، ثم استقال و سافر إلی دمشق فحلب فالآستانة، و توفی سنة ۱۰۶۹ ه. و کان أدیب عصره، عالما باللغة و علومها، کاتبا شاعرا مؤلفا. و من شعره قوله:

إن وجدی بمصر وجد مقیمو حنینی کما ترون حنینی

لم یزل فی خیالی النیل حتیزاد عن فکرتی ففاضت عیونی

و قوله:

فدیتک یا من بالشجاعة یرتدیو لیس لغیر السمر فی الحرب یغرس

فإن عشق الناس المها و عیونهامن الدل فی روض المحاسن تنعس

فدرعک قد ضمتک ضمة عاشقو صارت جمیعا أعینا لک تحرس

و قوله مضمنا:

یا صاح إن وافیت روضة نرجسإیاک فیها المشی فهو محرم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۴ حاکت عیون معذبی بذبولها(و لأجل عین ألف عین تکرم)

و قال یتغزل و یتطرق إلی مدح محمد بن القاسم الحلبی:

حتام یغزونی صدودهو الصبر قد کثرت جنوده

لم أدر: فاتر جفنهو الخصر، أسقم أم عهوده

نشوان یعبث بی کماعبثت بآمالی و عوده

لو لا میاه الحسن جالت فیه لاحترقت خدوده

کالصب لو لا دمعهیهمی لأحرقه وقوده

یخفی الهوی و عیونهبغرامه المضنی شهوده

فسقی ریاض الحسن مندمعی حیا یهمی مدیده

زمن یجید اللهو قدنظمت علی نسق عقوده

إذ دوح أنسی یانعبکئوسنا انفتحت وروده

و الکأس نجم لاح فیفلک المسرة لی سعوده

یصفو فیحلو ذکر منقد زین الدنیا وجوده

ذاک ابن قاسم الذیما زال فی تعب حسوده

۳- الشیخ محمد الأمیر الکبیر (۱۱۵۴- ۱۲۳۲ ه- ۱۷۴۱- ۱۸۱۷ م)، و قد تولی مشیخة السادة المالکیة فی الأزهر.

۴- الشیخ محمد بن عرفة الدسوقی صاحب حاشیة البلاغة المشهورة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۵

علی شرح التلخیص و توفی سنة ۱۲۳۰ ه.

۵- الشیخ عبد الله الشرقاوی (۱۱۵۰- ۲ شوال سنة ۱۲۲۷ ه- ۱۷۳۷- ۱۸۱۲ م) و قد تولی مشیخة الأزهر الشریف.

۶- الشیخ مصطفی بن أحمد الصاوی من الأزهریین الذین اشتهر ذکرهم أیام غزو نابلیون لمصر و کان من أدباء الأزهریین .

۷- الشیخ محمد الخالدی المعروف بابن الجوهری قرأ الدروس فی الأزهر و طار صیته، و توفی فی ۴۱۱+ ۵ ۱۲۱۵ ه- ۱۸۰۱ م.

۸- الشیخ حسن العطار (۱۱۸۰- ۲ ذی القعدة ۱۲۵۰ ه- ۱۷۶۶- ۱۸۳۵ م).

۹- الشیخ حسن قویدر (۱۲۰۴- ۱۲۶۲ ه- ۱۷۸۵- ۱۸۴۶ م).

۱۰- الشیخ شهاب الدین الشاعر المصری (۱۲۱۸- ۱۲۷۴ ه- ۱۸۰۳- ۱۸۵۷ م) و قد درس فی الأزهر.

۱۱- الشیخ إبراهیم البیجوری شیخ الإسلام (۱۱۹۸- ۱۲۷۷ ه- ۱۷۸۴- ۱۸۶۰)، و قد ولد بمدیریة المنوفیة و طلب العلم فی الأزهر.

و اشتهر بالنبوغ بین طلابه، و ألف کتبا عدیدة، و تولی التدریس فی الأزهر، و طار صیته، و ذاعت شهرته، و له کتب مشهورة فی الفقه الشافعی.

۱۲- الشیخ رفاعة الطهطاوی و قد درس فی الأزهر، و سافر فی بعثة أرسلها محمد علی إلی فرنسا، و عاد منها و تولی کبریات المناصب فی الدولة (۱۲۱۶- ۱۲۹۰ ه- ۱۸۰۱- ۱۸۷۳ م).

۱۳- الشیخ محمد الأنبابی شیخ الأزهر (۱۲۴۰- ۱۳۱۳ ه- ۱۸۲۴- ۱۸۹۶ م).

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۶

۱۴- الشیخ علیش أحد مشایخ السادة المالکیة (۱۲۳۷- ۱۲۱۹ ه- ۱۸۰۲- ۱۸۸۲).

۱۵- الشیخ حسین بن أحمد المرصفی المتوفی سنة ۱۳۰۷ ه- ۱۸۸۹ م.

و هو العلامة اللغوی الأدیب المحقق الشیخ حسین بن أحمد المرصفی. ولد بمصر و نشأ فیها. و بعد أن حفظ القرآن الکریم، و کان مکفوف البصر، جیء به إلی الأزهر، فأخذ العلم عن کبار شیوخه، حتی أدرک منه قدرا جلیلا، و تصدر للتدریس فیه. و کان شدید الشغف بعلوم العربیة و آدابها، فجد فی دراستها، و أطال النظر فی وجوه بلاغاتها. و لم یطمئن إلی ذلک الأدب الذی کان شائعا فی عصره. بل کان من أوائل من تفطنوا فی هذه البلاد إلی قدر الأدب القدیم. فأقبل علی کتب اعلام البلاغة السابقین، و دواوین فحول الشعراء المتقدمین. و جعل یقرأ و یحفظ و یتدبر، ما اتسع له الوقت للقراءة و الحفظ و التدبیر. کما جعل یروض قلمه علی البیان الصحیح المتین، حتی أصبح الأدیب التام الأداة. و درس الأدب فی دار العلوم للسابقین من طلابها. و کان منهم حفنی ناصف و أترابه. و أخذ عنه کبار المتأدبین فی عصره من أمثال البارودی، و عبد الله فکری، و صاحبوه و لازموه، و عرضوا علیه بیانهم فی منظومهم و منثورهم، فهذب و نقح، و هدی إلی الأجمل الأصلح. و کتب فی مجلة (روضة المدارس) فعلم الأدب علما، کما درب بالعمل و القدرة، علی صحیح البیان. و قد ألف فی البلاغة کتابا جلیلا دعاه (الوسیلة الأدبیة). فشاع الانتفاع به، و لا یزال هذا الکتاب مرجع المتأدبین إلی الیوم. و له کذلک رسالة دعاها (الکلم الثمان)، تحدث فیها عن معانی: الأمة، و الوطن، و الحکومة، و العدل، و النظام، و السیاسة، و الحریة، و التربیة.

و علی کل حال، فالشیخ حسین المرصفی، رحمه اللّه، یعد من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۷

أقوی الدعائم التی قامت علیها النهضة الحدیثة فی اللغة و الأدب.

۱۶- الشیخ عبد الهادی نجا الأبیاری الأدیب الأزهری المؤلف النابه (۱۲۳۶- ۱۳۰۶ ه- ۱۸۲۱- ۱۸۸۸ م).

-۲-

و یذکر أحمد أمین هذه الأغنیة الشعبیة المصریة، و هی بعد حذف دیباجتها: «حصانی فی الخزانة، و الخزانة «عاوزة» سلم، و السلم عند النجار، و النجار عاوز مسمار، و المسمار عند الحداد، و الحداد عاوز بیضة، و البیضة فی بطن الفرخة، و الفرخة عاوزة قمحة، و القمحة عند القماح، و القماح عاوز فلوس، و الفلوس عند الصریف، و الصریف عاوز عصافیر، و العصافیر فی الجنة، و الجنة عاوزة

حنا» الخ ....

و يقول عنها: إنها أغنية لطيفة حقا، لا يزال أطفالنا إلى الآن يتغنون بها بتوقيعهم الظريف، و صوتهم الشجى، و هم إذ ينشدونها لم يدروا أنهم يتغنون بفلسفة عالية، و فكرة سامية، قد يلاحظ عليها أن الربط فى بعضها محكم كحاجة السلم إلى النجار و النجار إلى المسمار، و بعضها غير محكم كحاجة الحداد إلى البيضة، و حاجة الصريف إلى العصافير، و لكن أظن أن تحكيم المنطق الدقيق الحاد فى الأدب كالشعر و الأغانى و سار الفنون مجاوزة للحد، فالأغنية لطيفة رغم المنطق، و من أسباب جمالها هذا النوع البديع الذى يصح أن أسميه «جمال الدوران» أو جمال التسلسل، مثل قولهم «لا سلطان إلا برجال، و لا رجال إلا بمال، و لا مال إلا بعمارة، و لا عمارة إلا بعدل».

و قولهم: الحجر يكسر الزجاج، و الحديد يكسر الحجر، و النار تذيب الحديد، و الماء يطفىء النار، و الريح تلعب بالماء. و الإنسان يتقى الريح.

و الخوف يغلب الإنسان. و الخمر تزيل الخوف. و النوم يغلب الخمر.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۸

و الموت يغلب النوم». و مثل قولهم: «العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا. و الجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالما» الخ .. و بعد فما تاريخ هذه الأغنية و من واضعها؟ لا بد أن يكون فيلسوفا أو حكيما بعيد النظر. و مما يؤسف له أن هذه الأغانى و الأزجال و المواويل لم يعن بها عناية الأدب الأرستقراطى. فبينا يعنى العلماء و الأدباء بنسبة بيت الشعر إلى قائله. و القصيدة إلى منشئها. و يحتدم بينهم القتال على ذلك. إذ بنا لا نجد هذه العناية و لا بعضها فى الأغانى و الأزجال الشعبية. و هذا نوع مما أصاب الأدب الشعبى من الظلم. و كم أصابه من أنواع! و ها هى ذى الأغانى التى تخترع فى عصرنا نجدها على الأفواه و نستعذبها، و تهش لها نفوسنا. و لا نكلف أنفسنا مؤنة البحث عن منشئها و لكن من حسن حظ هذه الأغنية أو من حسن حظنا نحن، أننا نجد ظلا لتاريخها فقد ذكرها الجبرتى فى تاريخه فى حوادث سنة ۱۱۴۳ هجرية. فيكون عمرها أكثر من قرنين و ربع و ظلت الأجيال تتعاقبها إلى يومنا. و يظهر من كلام الجبرتى أن واضعها عالم كبير جليل من أكابر علماء الأزهر فى القرن الثانى عشر. هو الشيخ الحفناوى أو الحفنى، كان سيد الأزهر فى أيامه، له حلقات الدروس الحافلة بنوابغ الطلبة، يقرأ فيها أغوص الكتب و أصعبها، كجمع الجوامع و الأشمونى و حاشية السعد، و له التآليف الكثيرة فى البلاغة و الميراث و الجبر و المقابلة. كما كان بيته ساحة كرم يغشاه أعيان مصر و علماؤها و أدباؤها، و يلجأ إليه الفقراء و ذوو الحاجات و كان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب، و طاحون بيته دائر ليل نهار، و يجتمع على مائدته الأربعون و الخمسون و الستون، إلى هيبة و وقار، حتى يهاب العلماء سؤاله لجلاله.

و هو مع هذا كله ظريف أديب، سمع تلميذا له يوما يقول:

قالوا تحب المدمس؟ قلت بالزيت حارو العيش الأبيض تحبه؟ قلت و الكشكار

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۳۹

فضحك الشيخ و قال أنا لا أحبه بالزيت الحار. و إنما أحبه بالسمن ثم قال:

قالوا تحب المدمس؟ قلت بالمسلىو البيض مشوى تحبه؟ قلت و المقلى

و له المواويل الظريفة كقوله:

بحياة يا ليل قوامك و صوم الحرتحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقه حر

لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجرأزداد لوعة و لا عمرى بقيت أنسر

إلى غير ذلك، فيحدث تلميذه أن الشيخ الحفنى قال له يوما «أحدتك حدوتة بالزيت ملتوتة، حلفت ما آكلها، حتى يجى التاجر، و التاجر فوق السطوح و السطوح عاوز سلم الخ» فحكاية التلميذ و لم يكن يسمعها من قبل و روايته لها عن شيخه، ترجع الظن أنها من

عمل الشيخ الحنفى. و قد زاد الشيخ على ذلك فشرح الأغنية على طريقة الصوفية ففسر التاجر بالمرشد الكامل و المربى الواصل، و التاجر فوق السطوح فى مستوى عال. و السطوح لا يمكن صعوده إلا بمعراج الخ. و قد كان للشيخ جانب آخر صوفى عظيم. فالأشمونى و جمع الجوامع، و الحواشى و التقارير كلها لم تمنع الشيخ العالم الأزهرى الجليل من أن يكون أديبا و زجالا، يضع الأغانى و المواويل يتغنى بها الشعب. و هذا يذكرنى بما سمعت عن الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعة المفتى الأسبق من أنه واضع الدور المشهور: اللّه يصون دولة حسنك».

أموال المسلمين الموقوفة على الأزهر

رصد المسلمون على الأزهر أوقافا كثيرة طول العصر الإسلامية.

و لما جاء محمد على اغتصب الكثير من هذه الأوقاف و أهداها لأسرته- و قد كان شيخ الأزهر يشرف على هذه الأوقاف و نظارتها، و فى العهود الأخيرة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۰

تولت وزارة الأوقاف المصرية النظارة على هذه الأوقاف، و قد أنشئت وزارة الأوقاف (و كانت تسمى ديوان الأوقاف) قبل إنشاء الأزهر بأكثر من مائتين و أربعين عاما، و يرجع تاريخ إنشائه إلى عام ۱۱۸ ه، و يروى أن إنشاءه كان فى عهد هشام بن عبد الملك فقد تولى قضاء مصر توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك، و كانت أوقاف المسلمين فى أيدى أهلها و فى أيدى أوصيائهم، فقال توبة: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء و المساكين، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من الإلتواء و التوارث، و صنع ذلك عام ۱۱۸ ه، فكان ذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف فى مصر و لم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما.

و فى العهد الأخير و بعد حل الأوقاف الأهلية صودرت جميع أوقاف الأزهر و حول مصرفها إلى جهات خيرية، و أبعد عنها العلماء المدرسون بالأزهر، على خلاف نصوص الواقفين و شروطهم.

بعض آراء فى الإصلاح

الأزهر جامعة دينية كبرى، يؤمه المسلمون فى مشارق الأرض و مغاربها، و هو أمانة فى يدى مصر ائتمنه عليه الشرق الإسلامى كله، و مصر مسئولة أمام اللّه و التاريخ عن هذه الجامعة العتيدة الخالدة، و عن النهوض بها و تمكينها من أداء رسالتها.

و أول خطوة للإصلاح فى رأيى هى جعل جماعة كبار العلماء ممثلة تمام التمثيل لكبار رجال الدين، و فى مقدمتهم شيوخ الكليات و المعاهد الثانوية، و أساتذة الكليات حرف ا، و رئيس المحكمة العليا الشرعية و مفتى الديار المصرية و شيخ الطرق الصوفية و شيخ الأزهر و وكيله، و شيوخ الأزهر السابقين، و شيوخ المذاهب الأربعة .. و تكون مهمة الجماعة ما يلى:

(۱) الافتاء فى المسائل الدينية و الشرعية، بتكوين لجنة من بين

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۱

الجماعة لهذا الغرض، يساعدها بعض الأساتذة المتخرجين من تخصص المادة و المدرسين فى كلية الشريعة الإسلامية و تحل هذه اللجنة محل- لجنة الفتوى الحالية فى الأزهر.

(ب) بحث نظام الإسلام الاجتماعى و الاقتصادى بحثا كافيا .. و وضع أصول التشريعات اللازمة للحياة الحاضرة فى مصر و العالم الإسلامى ..

و نشر البحوث المتصلة بذلك .. على أن تقوم بذلك لجنة تختار لهذه المهمة من بين أعضاء الجماعة، و يختار لها أساتذة مساعدون من أساتذة الكليات (حرف ب و ج).

(ج) بحث نظم التعليم فى الأزهر، و وجوه الإصلاح فيه .. و يقوم بذلك لجنة تختار من أعضاء الجماعة، و لها أن تختار مساعدين لها من بين أعضاء هيئات التدريس فى الأزهر، أو من كبار الموظفين الإداريين فى الأزهر.

(د) الإشراف على الجماعات الدينية الإسلامية فى مصر، إشراف توجيه و إصلاح، و يقوم بهذا الإشراف جماعة تختار من بين أعضاء الجماعة، يكون من بينها: شيخ الأزهر، و المفتى، و رئيس المحكمة العليا الشرعية.

و يقوم التعليم فى الأزهر الآن على تخريج عالم لا على تخريج رجل دين. و أرى أن يعالج هذا النقص علاجا سريعا بما يلى:

١- تعميم دراسة أحاديث و آيات قرآنية مختارة فى جميع مراحل الدراسة فى الابتدائى و الثانوى .. و دراسة مادة «قصص الأنبياء» و مادة «التصوف»، و مادة «الأخلاق الإسلامية» فى جميع سنى الدراسة الابتدائية و الثانوية.

و دراسة أصول الإسلام و أهدافه و مناهجه فى الإصلاح الدينى و الاجتماعى و الاقتصادى و الثقافى و السياسى فى كليات الأزهر.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۲

٢- جعل حفظ القرآن ضروريا للنجاح فى شهادات الأزهر، و احتساب عامين من مدة التعليم الابتدائى فى الأزهر لحفظ القرآن الكريم.

٣- تنظيم طلاب البعوث الإسلامية، و إعدادها إعدادا يليق بمهمتها الجليلة.

۴- تنظيم محاضرات أسبوعية فى كل معهد أو كلية أزهرية يلقيها الأساتذة.

۵- حسن أختيار الكتب الدراسية فى الأزهر.

۶- جعل اختيار شيوخ الكليات الأزهرية عن طريق انتخاب هيئات التدريس فى هذه الكليات.

٧- العناية بدراسة الآثار الإسلامية و التاريخ الإسلامى دراسة كاملة صحيحة.

٨- الإكثار من بعثات الأزهر التعليمية إلى أوروبا، و يختار أعضاؤها للسفر فى بعثات منظمة إلى معاهد التعليم فى أوروبا وفق الحاجة.

٩- فتح أقسام الدراسات العليا فى كليات الأزهر التى أغلقت أبوابها منذ عام ۱۹۴۰- إلى غير ذلك من شتى الإصلاحات التعليمية، و من بين الإصلاحات الواجبة:

١- إصلاح مجلة الأزهر.

٢- مساواة أساتذة الكليات بأساتذة الجامعات المصرية، و مساواة أساتذة المعاهد بنظرائهم فى وزارة المعارف.

٣- إنشاء اتحاد عام لطلاب الأزهر على غرار اتحاد طلبة الجامعة المصرية.

۴- التفكير جديا فى الاحتفال بالذكرى الألفية للأزهر.

۵- قيام الأزهر بنشر أصول كتب الشريعة و الحديث و اللغة و رسائل المتخصصين من أبنائه و نشرها فى العالم الإسلامى.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۳

الأزهر و الذكريات القومية

يشارك الأزهر الأمة الفرح بالأعياد القومية، و من أول هذه الأعياد عيد الجلاء، بمناسبة توقيع الاتفاقية المصرية الانجليزية عام ۱۹۵۴ الخاصة بجلاء الجيوش الانجليزية عن مصر.

و قد وقعت اتفاقية الجلاء بين مصر و انجلترا الساعة ١٠ مساء يوم الثلاثاء ١٩ أكتوبر ۱۹۵۴- ٢١ صفر ١٣٧۴ ه فى البهو الفرعونى بدأ مجلس النواب فى القاهرة، و قد وقعها بالنيابة عن حكومة مصر الرئيس جمال عبد الناصر، و احتفلت البلاد احتفالات قومية بتوقيعها، و من الطريف أن يوم ١٩ أكتوبر ١٨٠١ وقعت فيه اتفاقية جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر.

و قد دعا شيخ الأزهر إلى حفلة ابتهاج باتفاقية الجلاء، و ذلك بقاعة المحاضرات بمبنى الكليات الأزهرية فى الساعة السادسة يوم

الاثنین ۲۷ من صفر ۱۳۷۴ ه- ۲۵ أکتوبر ۱۹۵۴، و قد تحدث فیها شیخ الأزهر، الشیخ عبد الرحمن تاج و الشیخ عبد اللطیف السبکی مدیر التفتیش بالأزهر، و ألقی الأستاذ حسن جاد قصیدة بلیغة من عیون الشعر.

قال شیخ الأزهر من کلمته:

الآن .. و قد مکنتم بحمد اللّه لمصر أمرها، و ثبتم لها عزتها، و أزحتم الأجنبی عن دیارها، و أعدتم إلیها کامل استقلالها.

الآن .. و قد حللتم مشکلة مصر الخارجیة فعلیکم أن تعملوا علی حل مشاکلها الداخلیة، و أن تسیروا فی خطة الإصلاح و الإنشاء الذی بدأتم فیها، و قطعتم منها شوطا کبیرا .. بنفس العزم و القوة کی تنهض مصر إلی المستوی الجدیر بها و الجدیرة به، أن تنصروا اللّه ینصرکم و یثبت أقدامکم و لینصرن اللّه من ینصره، و اللّه قوی عزیز.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۴

و ألقی الاستاذ الشیخ عبد اللطیف السبکی مدیر التفتیش بالأزهر و عضو هیئة کبار العلماء کلمة حیا فیها قادة الثورة، و قارن بین حیاة مصر و شعبها المجید الذی حکمه أبناؤه بعد أجیال من الاضطهاد و العذاب، و بین ما کان علیه فی العصور التی ابتلینا فیها بالغرباء الطغاة ثم قال:

و تهیأ لمصر، الوطن الإسلامی الکبیر، نخبة من أبناء جیشها، و تملکتهم العزة القومیة، و جاشت فی صدورهم الوطنیة، و قوی فیهم الإحساس بما تقاسیه مصر، فأصبح کل منهم یسمع فی أعماق نفسه هاتفا ینادی: أن أنقذ مصر من عثرتها، فاتحدت عزائمهم، و استمدوا من هدی الرسالة المحمدیة ما أوضح لهم السبیل، و دفهم إلی الغایة النبیلة فصرخوها صرخة مدویة: لبیک لبیک یا مصر، و کان لهم من جانب اللّه تأیید و توفیق فبارک اللّه لمصر یومها العظیم ۲۳ یولیو، و أبقاهم لشعب مصر حراسا أمناء، و مصلحین أکفاء.

و هذه هی قصیدة الشاعر حسن جاد:

سنا فجره المأمول لاحت بواکرهو هزت ربوع المشرقین بشائره

أطل علی لیل الحیاری و أشرقتعلی ظلمات الیأس غرا منائره

و خف إلیه الدهر یرهف سمعهو یزحم رکب النور فیمن یسایره

و طالعت النیل السعید بصبحهمتی طالما جاشت بهن خواطره

تزف بها بشری الجلاء وعیدهفترقص فی شطیه نشوی أزاهره

و تعتنق الأرواح فوق ضفافهعرائس واد جن بالحسن سامره

علی لهوات الطیر من صبواتهاطرائف شدو أبدعتها حناجره

هو النیل و البشری استخفت و قارهترنح عطفاه و جاشت هوادره

و ما فاض فی شطأنه غیر فرحةتضیق بها یوم الجلاء سرائره

و ما هو ماء ما یفیض و إنماعواطفه جیاشة و مشاعره

ثوی فی قیود الذل سبعین حجةیکاتم غیظا أو تثور ثوائره

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۵ و صابر الاستعباد مستأسد المنییؤمل یوما أن تقال عواثره

تدارکه فجر الخلاص بیمنهفصحت أمانیه و قرت نواظره

فمن رام الاستقلال فلیشهد الحمیتغنت به أریافه و حواضره

و من ضاق بالأغلال فالقید حطمتسلاسله و الغل لانت مکاسره

و من ضل فی لیل المظالم سعیهفقد هتکت أستاره و ستائره

و من سره أن یشهد البعث ماثلافهذی معانیه و تلک مظاهره

و من شاقه یوم الجلاء و عیدهفهذی مجالیه و تلک مناظره

کفی یومه أن الزمان بأسرهأوائله یحسدنه و أواخره

رعی اللّه للوادی جمالا و صحبهأسوأ جرح وادی النیل فالتأم ناغره

لقد صیروا حلم الجلاء حقیقةو کان سرابا یخدع العین ظاهره

و کان لتجار السیاسة مغنماعلی سوقه السوداء قامت متاجره

و کم من ندی کان قصة لهوهیرددها مخموره و مقامره

فساد و ظلم و انحلال و نکسةأصیب بها الوادی فضلت مصائره

و ما کحمی الأخلاق حصن لأمةإذا نکبت فیه فما ذا تحاذره؟

و قد ینهض الشعب الجریح بروحهو لیس یقوم الشعب ماتت ضمائره

تدارک رحمن السماء مصیرهو طاحت بعرش الظالمین مقادره

مضوا یتساقون الندامة علقماو باءوا بشؤم طار بالنجس طائره

و أضحی کناس النیل غابا ممنعاتهاب بوازیه و تخشی قساوره

صنادید راع الظلم بأس زئیرهمفزلزل مغناه و دکت مقاصره

هی الثورة البیضاء ما شابها دمو لا فارقت غمد الکمی بواتره

فقد بعثوا من رقدة الموت وادیاأعدت له أکفانه و مقابره

فحل هراء المرجفین فما ثنیأخا العزم یوما جاحد الفضل ناکره

و قل للذی تعیشه أضواء نهضةمضی لیلک الداجی و ولت دیاجره

یحث الخطا للمجد موکب نورهاو یدفعه قلب الحمی و یؤازره

سیبنی فلا یثنیه هدم معوقو یمضی فلا یلوی علی من یکابره

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۶ و من یجعل الإخلاص رائد عزمهإلی رفعة الأوطان فاللّه ناصره

بنی الشرق هذا الغرب ضل ضلالهو أعمته أطماع تظل تساوره

و دان بشرع الغاب بغیا و شرةفضلت عن الحق القویم بصائره

یعد أسالیب الفناء بعلمههل العلم أن یفنی من الکون عامره؟

لقد عزه فی الشرق قوة روحهفراح بأنواع السلاح یفاخره

إذا العرب الأمجاد فیه توحدتصفوفهمو عادت أمانا مخاطره

و هذا زمان لیس فیه لأعزلمکان و لا یصغی لشکواه قاهره

فما ینفع المظلوم منطق حقهو منطق سفاک الحقوق بواتره

إذا الذئب لم یسمع لغیر ضراعةمن الحمل الوانی فما هو عاذره

هو الحق لا یعطی لذلة طالبو لکن إذا ضجت غضابا کواسره

به مشعل النور استفاض علی الحمیسناه و جاب المشرقین مسافره

و فی ساحة شب الجهاد تحوطهشریعة حق ما تزال تؤازره

تماثل للبعث الجدید و قد صحتأمانیه و اهتزت رجاء منابره

ألح علیه السقم من طول یأسهو شقت من الحرمان مطلا مرائره

و أوهن عهد الظلم بأس شيوخهو كان أعز المالكين يحاذره

و صار يلقى الأمر من كل تابعو كانت على الحكام تلقى أوامره

أتنساه مصر و هى تفخر باسمهو يذكره بالقول لا الفعل ذاكره

و تمنع دون الجامعات حقوقهو تعطى كما شاءت مناها نظائره

إذا ما شكا قالوا عهدناه قانعاتقشفه فى العيش تروى مآثره

و إن ضاق بالحرمان قيل له اتئدو علله بالزهد من لا يصابره

أليس لنا حق الحياة كغيرناو أين سبيل العدل إن جار جائره؟

مضى عهد تفريق الطوائف و انقضىو راح زمان الظلم، لا عاد غابره

و أدركه عهد المساواة منصفافهل يرتجى فى ظله اليوم كادره؟

متى ينصفوه ينصفوا خير معهدموارده محمودة و مصادره

و إن تنهضوه تنهضوا بحماكمو يزهى على الماضى، و يعتز حاضره

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۷

و قال جمال عبد الناصر بعد انتهاء كلمات المتحدثين: إخوانى رجال الأزهر:

أحييكم ... و أعبر لكم عن سعادتى فى هذه الفرصة التى جمعتنا للاحتفال بجلاء قوات الاحتلال عن أرض الوطن فى رحبات الأزهر.

و فى هذه المناسبة العظيمة، لا يسعنى إلا أن أذكر لهذا الأزهر جهاده على مر السنين، فقد حمل الأزهر دائما الرسالة و لم يتخل مطلقا عن الأمانة، و كافح كفاحا مريرا فى سبيل الحصول على أهداف الوطن. و كفاح الأزهر أيام الحملة الفرنسية معروف، و كم قاسى رجاله، و عذبوا و قتلوا و شردوا، و اقتحم المحتلون الأزهر فلم يتوان عن المطالبة بحقوق الوطن ... و استمر الأزهر يحمل الرسالة حتى سلمها إلى الجيش، و إلى عرابى الذى قام متسلحا بروح الأزهر المعنوية إلى جانب القوات المادية، يطالب بحقوق البلاد ... و عند ما وطئت أقدام المستعمر أرض مصر، حاول بكل قواته أن يقضى على رسالة الأزهر، كما حاولوا القضاء على الجيش و قوته و رسالته، و رغم هذا، استمر الأزهر على مر السنين يكافح .. ففى ثورة ۱۹۱۹ حمل الأزهر العلم، و قام بأداء الرسالة و الأمانة مرة أخرى.

و عمل المستعمر على تفريق الشعب شيعا و أحزابا و تحطم الجيش و فصله و فصل الأزهر عن الوطن.

و اليوم و بعد أن قامت الثورة أقول لكم عليكم حمل الرسالة و الأمانة مرة أخرى فإن أمامنا عملا شاقا طويلا، و هذا العمل يطالبكم بأن تجاهدوا من أجل الأهداف الكبرى التى كافح من أجلها السابقون. و رجال الأزهر على طول السنين.

الأزهر و معارك التحرير الأولى

اشارة

فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) افتتح رجال الأزهر أولى حركات التحرير فى تاريخنا القومى، فاشترك كبار العلماء

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۸

فى إعداد الثورات و رسم خطط المقاومة الشعبية مضحين فى سبيل الدفاع عن الوطن بأموالهم و أنفسهم فمنهم من صودرت أملاكه، و منهم من عذب، و منهم من استشهد، و قد كان لهذه التضحيات أكبر أثر فى بعث روح المقاومة فى الشعب الذى نهض ليواجه قوات الاحتلال فى شجاعة نادرة المثال.

إعلان الجهاد:

اضطرب المماليك حين وصلهم نبأ احتلال نابليون للأسكندرية فى صفر ۱۲۱۳ ه (۱۷۹۸ م)، و عقدوا اجتماعا للتشاور فى الأمر و دعوا العلماء لحضوره- و كانوا قادة الرأى العام إذ ذاك- فحضر منهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، و الشيخ السادات، و الشيخ الشرقاوى، و الشيخ سليمان الفيومى، و الشيخ الصاوى، و الشيخ المهدى، و الشيخ العربى، و الشيخ محمد الجوهرى. و جرت أثناء الاجتماع مناقشة حادة بين العلماء و الأمراء حتى قام الشيخ السادات و وجه الكلام إلى الأمراء قائلا «إن كل هذا من سوء مقالكم و ظلمكم. و آخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للأفرنج» ثم نظر إلى مراد بك قائلا له: «و خصوصا بأفعالك و تعديك أنت و أمراؤك على متاجرهم و أخذ بضائعهم». و أخيرا اتفق المجتمعون على إخطار الدولة العثمانية بالأمر و تجهيز العساكر للحرب.

من هذا الاجتماع نستطيع أن ندرك لأول وهلة موقف الأزهر بالنسبة للفرنسيين، فهو موقف المقاومة المسلحة؛ كما أن العلماء بصفتهم وكلاء عن الشعب وضعوا قاعدة دستورية هامة، و هى محاسبة الحكام على تفريطهم فى حقوق الشعب .

و لما وصل نابليون إلى إمبابة أعلن السيد عمر مكرم و العلماء الجهاد

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۴۹

و استنفروا الشعب و دعوا إلى التطوع العام، و سار السيد عمر مكرم فى مقدمة المتطوعين للقتال، و قام بعرض شعبى فى شوارع القاهرة استجاب له جميع الأهالى، و لكن إذا كان العلماء قد نجحوا فى تعبئة الشعب إلا- أن تخاذل المماليك أسرع بالبلاد نحو الخاتمة المنتظرة.

بين الأزهر و نابليون:

استفز الفرنسيون المصريين بفرض الضرائب الثقيلة و القتل و مصادرة الأملاك و الاعتداءات المتوالية، مما عجل بقيام ثورة القاهرة الأولى فى (جمادى الأول سنة ۱۲۱۳ أكتوبر سنة ۱۷۹۸). فقام العلماء و على رأسهم الشيخ السادات يدعون إلى الجهاد ضد الفرنسيين، و انتخبوا مجلسا للثورة كى ينظم حركات المقاومة و يمونها بالأسلحة و الذخائر، و فى ذلك يقول نابليون فى مذكراته: «إن الشعب قد انتخب ديوانا للثورة، و نظم المتطوعين للقتال، و استخرج الأسلحة المخبوءة. و أن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان». و ذكر فى تقريره إلى حكومة الدير كتوار أن لجنة الثورة كانت تنعقد فى الأزهر.

انتشر رجال الأزهر فى القاهرة يبثون الثورة فى النفوس و يدعون الشعب إلى الجهاد و يعاهدونه على المقاومة، بينما كان مجلس الثورة يوزع الأسلحة على أحياء العاصمة، حتى اقترب الوعد فعقد المجلس اجتماعا ليلة الأحد (۱۰ جمادى الأولى ۱۲۱۳- ۲۱ أكتوبر سنة ۱۷۹۸) لرسم خطة العمل فى صبيحة ذلك اليوم.

يقول الكولونيل ديتروا فى يومياته وصفا للثورة كما شهدها: فى الساعة السادسة صباحا من يوم ۲۱ أكتوبر احتشدت الجموع فى كثير من أحياء القاهرة و كان المؤذنون يدعون إلى الجهاد على المآذن، و كان المعسكر العام للثائرين الجامع الكبير المسمى بالأزهر ذلك المسجد الجميل الذى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۰

طارت شهرته فى أنحاء المشرق و قد قام الثوار بإقامة المتاريس فى الطرق و الأزقة المفضية إليه حتى أصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة.

و فى الساعة العاشرة صباحا اصطدم الثوار بكتيبة من الفرسان يقودها الجنرال ديبوى قومندان القاهرة و تغلب الأهالى على الكتيبة و قتل الجنرال ديبوى أثناء المعركة. و امتدت الثورة حتى اشتبكت الجماهير بدوريات الجنود فى كل مكان.

كان نابليون فى ذلك الوقت يطوف بسرعة ليتفقد الاستحكامات العسكرية فى مصر القديمة و الروضة و لما عاد إلى بولاق بلغة

مصرع الجنرال دیبوی فأصدر أمرا بتعیین الجنرال بون خلفا له و کلفه بإجراء اللازم لإعادة النظام إلی المدینة.

هال الجنرال بون تفاقم الحالة فی العاصمة فکتب إلی نابلیون فی الساعة العاشرة مساء من یوم الثورة یطلب اتخاذ إجراءات فی غایة الشدة و الصرامة مع حی العرب حیث یوجد الجامع الأکبر (الأزهر).

و فی صباح یوم ۱۱ جمادی الأولی ۱۲۱۳ (۲۲ أکتوبر ۱۷۹۸ م) بلغت حماسة الثوار مبلغا عظیما حتی حاولوا ضرب الاستحاکات الفرنسیة فی القلعة من مسجد السلطان حسن، کما تمکنوا من قتل الکولونیل سلکوسکی فی معرکة عند باب النصر.

و فی هذا الیوم أرسل نابلیون الجنرال (برتییه) رئیس أرکان حربه فی الساعة الثانیة بعد الظهر و معه أمر بضرب الأزهر بالمدافع سلمه للجنرال بون و قد أوصی نابلیون بوضع المدافع فی أصلح المواقع لیکون تدمیرها شدیدا.

کما أصدر أمرا إلی الجنرال (دومارتان) بالاستیلاء علی جمیع المنافذ المفضیة الی الأزهر و مما جاء فی هذا الأمر (و علیکم أن تقتحموه بجنودکم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۱

تحت حمایة المدافع و أن تقتلوا کل من تلقونه فی المسجد و أن تضعوا فیه حرسا قویا من الجنود).

و ابتدأ الضرب من بعد الظهر حتی الساعة الثامنة مساء، و أخذت رسائل الوحشیة المقنعة بالمدینة تهال فی صورة آلاف من القنابل علی الأزهر حتی قال ریبو: أوشک الجامع أن یتداعی من شدة الضرب فیدفن تحت أنقاضه الجماهیر الحاشدة فیه و أصبح الحی المجاور للأزهر صورة من الخراب و التدمیر. و لما وجد العلماء أن الاستمرار فی المقاومة سیفضی إلی کارثة محققة، شرعوا فی مفاوضة نابلیون لإیقاف الضرب.

محاکمة العلماء الثائرین:

فی ۱۲ جمادی الأولی ۱۲۱۳ ه (۲۳ أکتوبر ۱۷۹۸ م) أصدر الجنرال (برتییه) أمرا باسم نابلیون إلی الجنرال (بون) قومندان القاهرة بهدم الأزهر لیلا إذا أمکن، و من هذا نری أن نابلیون أراد أن یقضی علی المقاومة الشعبیة بهدم مرکزها، ثم عدل عن هذه الفکرة خوفا من إثارة الحماس الدینی.

و فی ۲۴ أکتوبر توجه وفد من العلماء إلی نابلیون یسأله العفو عن الأهالی لیسکن روعهم، فطالبهم نابلیون بإرشاده عمن تسبب فی الثورة من العلماء، فلم یرشدوه إلی أحد فقال لهم: «نحن نعرفهم واحدا واحدا».

قبض نابلیون علی ثمانین من أعضاء لجنة الثورة أعدموا سرا و ألقیت جثثهم فی النیل أما الذین حوکموا رسمیا من المقبوض علیهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشیخ إسماعیل البراوی و الشیخ یوسف المصیلحی و الشیخ عبد الوهاب الشبراوی و الشیخ سلیمان الجوسقی شیخ طائفة المکفوفین و الشیخ أحمد الشرقاوی و کلهم من العلماء و قد حکم علیهم بالإعدام و نفذ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۲

الحکم فی الساعة الثامنة صباحا من ۲۳ جمادی الأولی ۱۲۱۳ ه (نوفمبر ۱۷۹۸ م).

و فی کتاب تحفة الناظرین للشیخ عبد الله الشرقاوی أن الفرنسیین قتلوا فی هذه الثورة ثلاثة عشر عالما.

بین الأزهر و الجنرال کلیبر:

لم تکد تدوی مدافع معرکة عین شمس فی ۲۳ شوال ۱۲۱۴ ه (۲۰ مارس ۱۸۰۰ م) حتی دوی فی القاهرة نداء الحریة فلبت العاصمة النداء مستمدة قوتها من إیمان أهلها و حماستها من وطنیتهم و استبسالها من تضحیتهم وهب السید عمر مکرم و السید أحمد المحروقی و الشیخ السادات و الشیخ الجوهری و غیرهم من زعماء الثورة یحرضون الناس علی القتال.

و لما رجع کلیبر بعد انتصاره علی الجیش العثمانی فی معرکة عین شمس وجد العاصمة أشبه ببرکان ثائر لا یهدأ فاشتبک مع الثوار فی معارک طاحنة دامت أکثر من ثلاثین یوما دمرت خلالها بولاق تدمیرا تاما. و للمرة الثانیة شرع العلماء فی مفاوضة الفرنسیین علی أساس العفو عن جمیع سکان القاهرة فوافق کلیبر علی هذا الشرط و لکنه سرعان ما نقضه و فرض علی الأهالی غرامة فادحة قدرها (إثنا عشر ملیونا من الفرنکات) و ألزم الأهالی بتسلیمه عشرین ألف بندقیة و عشرة آلاف سیف. و کانت أشد الغرامات المفروضة غرامة الشیخ السادات و قدرها ثمانمائة ألف فرنک هذا فضلا عما تعرض له من التعذیب و الإهانة إذ کان یجلد صباحا و مساء فی معتقله، و کانت غرامة الشیخ الصاوی (۰۰۰، ۲۶۰ من الفرنکات) و الشیخ محمد الجوهری و أخیه فتوح الجوهری مثل ذلک.

مصرع الجنرال کلیبر:

کان إسراف کلیبر فی الأنتقام و إهانته للعترة النبویة ممثلة فی شخص

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۳

الشیخ محمد السادات من أهم الأسباب التی أدت إلی مصرعه فی ۲۰ المحرم ۱۲۱۵ ه (۱۴ یونیه ۱۸۰۰ م) بید سلیمان الحلبی، و سرعان ما اتجهت أنظار الفرنسیین نحو الأزهر فقاموا بتفتیشه و تفتیش أروقته و قبضوا علی من ذکرهم سلیمان الحلبی فی التحقیق کما قبضوا علی العلماء المعروفین بقیادة الثورات الوطنیة. و رأی کبار العلماء أن الفرنسیین سیتخذون من تفتیش الأزهر بین حین و آخر ذریعة للإیقاع بهم فتوجه الشیخ الشرقاوی و الشیخ الصاوی و الشیخ المهدی إلی الجنرال مینو و استأذنوه فی إغلاق الأزهر فأغلق فی ۲۷ المحرم ۱۲۱۵ ه (۲۱ یونیه ۱۸۰۰ م). و کان هذا ما یریده الفرنسیون و قد استمر الأزهر مغلقا حتی تم جلاء الفرنسیین عن مصر.

یقول تیبر: «لو بقی کلیبر حیا لاستمرت مصر خاضعة للحکم الفرنسی حتی انهیار نابلیون علی الأقل، فقد ضاع أکبر قائد و أکفأ من یؤسس الاستعمار الفرنسی فی الشرق».

و هنا لا بد من أن نقول کلمة عن المنشورات التی کان یصدرها الفرنسیون علی لسان أعضاء الدیوان من العلماء: إذ کان الغرض من هذه المنشورات تضلیل الشعب و بث التفرقة بینه و بین زعمائه، و أکبر دلیل علی براءة من اشترک من العلماء فی الدیوان أنهم کانوا من المعروفین لدی الفرنسیین بقیادة الثورات و التحریض علیها.

الأزهر یحرض علی قتال الحملة الإنجلیزیة الأولی:

فی المجرم ۱۲۲۲ ه (مارس ۱۸۰۷ م) نزل الإنجلیز الأسکندریة بقیادة الجنرال فریزر و ما کادت تصل أنباؤهم إلی العاصمة حتی قام السید عمر مکرم و الشیخ الشرقاوی و الشیخ الأمیر یدعون الناس إلی الدفاع عن الوطن، و حث الخطباء فی المساجد الناس علی القتال، فأقبل هؤلاء یتطوعون فی حماس نادر المثال و انضم إلیهم طلبة الأزهر و العلماء و کان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۴

المتطوعون یذهبون یومیا لضرب الاستحکامات خارج القاهرة تحت إشراف السید عمر مکرم و کبار الشیوخ، کما تطوع البعض الآخر للسفر لیشترک فی فک حصار الإنجلیز لرشید.

و أمام هذا التضامن الشعبی الرائع وجد الإنجلیز أنفسهم عاجزین عن متابعة احتلال البلاد فقرروا الجلاء عن القطر المصری فی ۱۰ رجب سنة ۱۲۲۲ ه (۱۴ سبتمبر ۱۸۰۷ م).

هذا هو الدور الذی قام به الأزهر فی معارک التحریر الأولی، و قد کان لهذه المعارک أکبر أثر فی تکوین الوعی القومی الذی بدأ منذ ذلک الوقت یوجه تاریخنا الحدیث.

إنتاج الأزهر العلمی فی العصر الحدیث

اشارة

فی مکتبات کلیات الأزهر الثلاث مجموعة کبیرة من الرسائل القیمة التی نوقشت فی الأزهر، و قدمها أصحابها للحصول علی العالمیة من درجة أستاذ، و نال مقدموها هذه الدرجة العلمیة الرفیعة، و شغل بعضهم مناصب التدریس فی الکلیات الأزهریة.

و کذلک فی مکتبات الکلیات توجد طوائف کبیرة من رسائل حاملی شهادة التخصص القدیم، الذین تولی أکثرهم المناصب الإداریة فی الأزهر و مناصب التدریس فی الکلیات و المعاهد الثانویة الأزهریة.

و فی مکتب شیخ الأزهر یوجد رسائل علمیة قدمت لنیل عضویة جماعة کبار العلماء فی الأزهر الشریف، و هذه الرسائل علی جانب کبیر من الأهمیة العلمیة و الدینیة.

و لو عنی الأزهر بنشر هذه الرسائل کلها، أو جلها لسدت فراغا کبیرا فی الثقافة الإسلامیة، و مثلت إنتاج الأزهر العلمی فی العصر الحاضر فی صورة مشرقة زاهیة- و هذه الرسائل إلی جانب ما نشره أساتذة کلیات الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۵

من دراسات و بحوث و کتب ثقافیة و علمیة، تمثل الأزهر تمام التمثیل فی فترة من أعجب الفترات التی مر بها فی تاریخه الطویل.

و الذین یشککون فی أهمیة الأزهر الثقافیة و العلمیة، علیهم أن یطلعوا علی إنتاج شیوخه العلمی قبل أن یحکموا له أو علیه، و للأسف فإن جل إنتاج الأزهر العلمی لا یزال مخطوطا، و تحوی مکتبة الأزهر علی الکثیر من المؤلفات المخطوطات التی ألفها علماء الأزهر فی العصور السابقة، و أغلب مؤلفات الأزهریین المتقدمین قد ضاع أو بدد، و ما بقی منه یحتوی علی کنوز ثمینة عظیمة القیمة العلمیة.

و إذا کانت بعض مؤلفات علماء الأزهر فی العصور القدیمة قد کتبت بأسلوب عتیق، علی الرغم مما فیها من ثورة علمیة لا تقدر بقیمة، فإن الأمل معقود علی أساتذة کلیات الأزهر و معاهده لکی ینهضوا لتحقیق هذه الکتب، و إخراجها فی ثوب علمی جدید، حتی یتسنی للأمة و للعالم الإسلامی الانتفاع بما فیها من ثقافات واسعة ذات قیمة کبیرة، و لا بد أن تقوم مطبعة الأزهر الثمینة علی نشر تراث الأزهر العلمی القدیم و الحدیث بإشراف و توجیه جماعة من أفذاذ علمائه.

و من بین رسائل الأستاذیة المخطوطة رسالة نفیسة عنوانها: «أثر الأزهر فی النهضة الأدبیة الحدیثة» للأستاذ محمد کامل الفقی المدرس فی کلیة اللغة العربیة. و رسائل فی الأدب و البلاغة و أصول النحو و مذاهب النحویین لاساتذة یحملون شهادة العالمیة من درجة أساتذة و یتولون التدریس فی کلیة اللغة العربیة الیوم ... و رسائل أخری فی الفلسفة الإسلامیة و أصول الدین، و فی علوم الشریعة الإسلامیة.

کلیة اللغة العربیة تنشیء صحافة أزهریة

أخرج الأدیب موسی صالح شرف الطالب بکلیة اللغة العربیة مجلة باسم صوت لأزهر فی ۳ ینایر سنة ۱۹۵۳- الموافق ۱۷ ربیع الأول سنة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۶

۱۳۷۲ و لا تزال هذه المجلة توالی الصدور ... و کتب المؤلف کلمة فی عددها الأول بعنوان «صوت الأزهر الخالد» و کانت المجلة تنشر مقالات و أحادیث للمؤلف أیضا، و قد خرج علی أثرها مجلة أخری فی کلیة اللغة باسم «النهار» و فی الأزهر قبل هذه المجلة «مجلة الأزهر» و هی مجلة رسمیة تمثل الأزهر، و ینشر علی صفحاتها شیوخ الأزهر و أساتذته المقالات و الأحادیث العلمیة و الدینیة، و یرأس تحریر هذه المجلة کبار العلماء فی الأزهر، و هناک (مجلة نور الإسلام) و هی لسان حال وعاظ الأزهر الشریف و تؤدی

رسالتها فی محیط الوعظ و الإرشاد .. و کونت فی العام الماضی أسرة للصحافة بکلیة اللغة العربیة و أصدرت جریدة حائط، و فی هذا العام تخرج مجلة شهریة لأبناء کلیة اللغة العربیة، و کونت لجنة للإشراف علی هذه المجلة من حضرات الأساتذة أصحاب الفضیلة: الشیخ کامل حسن وکیل الکلیة، و محمد عبد المنعم خفاجی، و عبد الخالق سلیمان، و حسن جاد، و یوسف البیومی ..

و تألفت لجنة من طلاب الکلیة لإصدار هذه المجلة مکونة من الأدباء:

موسی صالح شرف و حسن عفیفی و محمود محجوب و رشید أبو الفتوح اللیثی و عمر عطیة و منجود محمد و کمال کامل حسن و أحمد الصاوی، و یصدر العدد الأول من هذه المجلة فی ینایر عام ۱۹۵۵!!

و قد أخذت المعاهد تسیر علی ضوء کلیة اللغة العربیة، فصدرت مجلات أخری لمعهد أسیوط و معهد طنطا و معهد دمیاط.

الأزهر و رسالة الإسلام

فی یونیو سنة ۹۷۲ ألقی إمام الأزهر من منبره الشریف، أول درس جامعی فیما یسمی الیوم بالعلوم الإنسانیة، و منذ ذلک الیوم إلی الآن، و إلی ما شاء اللّه لم تنقطع ینابیع الحکمة، و العلم و المعرفة، ینهل منها الوافدون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۷

إلی الأزهر من أبناء مصر، و أبناء کل شعوب العالم فی مختلف أرجاء الدنیا.

و أحب أن ألخص الرسالة التی کان یؤدیها الأزهر فی هذا الشعب، و ینقلها عنه الوافدون إلیه من مختلف أرجاء الدنیا إلی شعوبهم و أممهم فیستیقظ بها الغافی، و یتنبه الغافل، و یعرف الجاهل، و یمضی إلی غایته المعرفة النافعة، أصحاب العزائم لخیر شعوبهم و خیر الإنسانیة فی کل مکان.

و هذه الرسالة کانت تقوم و لا تزال علی دعامتین: الأولی: الحریة، و الثانیة: العدالة الاجتماعیة.

فأما الحریة فإنها فی رسالة الأزهر تنبع من الإسلام، الذی قام علی نشره و الدعوة الیه و الانتفاع به الوافدون علیه، و المعتزون بالانتساب إلیه.

و الحریة التی تنبع من الإیمان باللّه و الاعتزاز به و التأمل فیه و الالتجاء إلیه هی أمنع و أعز و أسمی ما یتطاول إلیه أعناق طلاب الحریة فی کل عصر و فی کل مکان.

و عن هذه العقیدة الإسلامیة مضی فقهاء الإسلام الی تقویم الحریة تقویما یرتفع بها فی أحیان کثیرة الی منازل لم یقدرها أحد کما قدرها هؤلاء الفقهاء.

و إلیکم هذه الصورة من صور الاعتزاز بالحریة عند فقهاء المسلمین و هی قاعدة فقهیة معروفة:

إذا ترافع مسلم و مسیحی أمام قاضی المسلمین فی ولید لا یعرف أبوه فقرر المسلم أمام القاضی أن هذا الولید عبد له، و قرر المسیحی أن هذا الولید ولد له، فإن علی قاضی المسلمین أن یحکم به للمسیحی ولدا و لا یحکم به للمسلم عبدا.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۸

و الذین یتأملون هذه الصورة الفقهیة و یقیسونها إلی ما یتراءونه الیوم فی دنیا الناس من الحدیث عن الحریة و التشدق بها. لا یکادون یجدون لها مثیلا فی خیال شاعر أو قلم کاتب أو واقع شعب.

و وجه القوة هنا أن الفقیه المسلم وضع تعصبه للحریة قبل تعصبه لدینه علی ما فی التعصب للدین من قوة قاهرة و سلطان عظیم.

و أما الدعامة الثانیة: و هی العدالة الاجتماعیة فإنها تستند فی نفس المسلم الی العقیدة التی یدین اللّه علیها. و تطرق سمعه کل یوم آیات اللّه فی الدعوة الی العدل و احترامه و تکریمه بحیث یری الدنیا بغیر عدل شبحا بغیر حقیقة و جسما بغیر روح.

و من أفضل ألوان العدل التی جاء بها الإسلام العدل فی توزیع الثروة و یعتبر من أدق صور العدل فی المجال الاقتصادی. و کذلک

من أجل ألوان العدل التى جاء بها الإسلام أيضا العدل الذى يقوم على التفاضل بين الناس على قدر ما يقدم الإنسان للمجتمع من خير و ليس على قدر انتسابه إلى لون خاص أو جنس خاص أو عرق خاص. فذلك قول اللّه تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ.

فهذه الصورة من العدل الذى دعا إليه الإسلام و قامت بالدعوة إليه جامعة الأزهر مدة ألف عام أمانة فى أعناقنا، لا لشعوبنا وحدها و لكن للإنسانية جمعاء.

فإن الإنسانية لم تتعرض لمحنة بالغة و ابتلاء شديد كما تعرضت لمحنة التفاضل بالألوان و الأجناس و العروق. فإذا كان لا بد للناس أن يطلبوا السعادة و أن يحرصوا عليها فلا بد لهم قبل كل شىء أن يعملوا على وأد هذه الثغرة، و خنق الدعوة إلى العنصرية القائمة على الأجناس و الألوان و العروق.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۵۹

و إن أحوج ما يحتاج إليه الإنسان ليتم له بده سعادته، و تتوافر به طمأنينته، لا يعدو هذه الأمور الثلاثة:

الأساس العقيدى الذى يملأ قلبه بالإيمان و السكينة.

و الأساس الاقتصادى الذى يكسوه من عدرى و يطعمه من جوع.

و الأساس الإنسانى الذى يجعله فاضلا بما يؤدى من عمل لا بما ينتسب إليه جنس أو لون أو عرق.

و إن من حق شعوبنا على جامعاتنا مديرين و أساتذة أن نسعى دائبين لكى نوفر لها جوا تحيا فيه راضية مطمئنة موفورة الحاجات التى لا بد من توافرها لحياة الإنسان.

الشيخ أحمد حسن الباقورى- من كلمة له نشرت فى الأخبار

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۱

الباب العاشر

شخصيّات أزهريّة معاصرة

الشيخ محمد عرفة

هو شيخ جليل، و مفكر نابه، له مكانته العلمية فى الأزهر، و تلاميذه الكثيرون و لا نجد فى تاريخ حياته خيرا مما أرخ به هو لنفسه فى مقالة نشرتها له المصرى بعنوان «الدين و الحياة و الأزهر» فى يونيو عام ۱۹۵۲ و هى من سلسلة مقالاته التى كتبها يرد فيها على الأستاذ أمين الخولى الذى نشر سلسلة مقالات فى «المصرى» ندد فيها بالأزهر و تأخره عن أداء رسالته، قال الشيخ محمد عرفة:

كنت بصدد أن أثبت أن الأزهر شعر بحقيقة الدين المشرقة المتسامحة التى تدعو إلى الإخاء الإنسانى و التعاون البشرى و أنه تعدى دائرة الشعور إلى دائرة التنفيذ، و استدللت ببحث كنت كتبته فى العلة فى مشروعية الجهاد، أهى الكفر أم عدوان الكافرين على المسلمين، فاستخلصت من بين الأقوال المختلفة إن العلة هى العدوان؛ فما لم يعتد المخالفون فى الدين على المسلمين فلا جهاد و لا قتال، و بذلك كانت العلاقة الخارجية بين المسلمين و أمم الأرض هى السلم لا الحرب و يتبع ذلك ما يتبعه مما يكون بين المسالمين من المحبة و التعاون و الإخاء، و جمعت بين الأدلة المتعارضة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۲

الظاهرة على هذا الأساس من كتاب اللّه و أحاديث رسول اللّه، فاستقامت ككعوب الرمح على توال و اتساق، و إنى أعتز بهذا البحث و أرانى قد خدمت به المسلمين بخاصة و الإنسانية بعامة، و كنت أذيع هذا البحث فى دروسى و مجالسى .. و إنما كنت بهذا الصدد

لأرد على من قال إن الأزهر لم يشعر بالدين الإسلامى المنتظر الذى يدعو إلى الإخاء و التعاون، و قد نبهته فلم يتنبه و هو لا يطمع فى التنفيذ. فكتب الأستاذ الشرقاوى فى «المصرى» يشككك فى قيمة هذا الدليل دون أن يبين الأسباب، و نقل الكلام إلى أن الأزهر لا يشارك فى المواضيع التى تهم الأمة و ليس كغيره من علماء الأديان الأخرى الذين يشاركون مشاركة فعلية و قولية فى كل شأن من الشئون و ضرب أمثلة برجال الدين فى جزيرة قبرص حيث خطب أحدهم يطلب الانضمام إلى اليونان و دقت الكنائس أجراسها احتفالا بالخطيب، و ذكر أن الباب تعاون الإسلام و المسيحية لمقاومة الشيوعية و تحدث بذلك سفير مصر فى الفاتيكان و لم يحرك الأزهر ساكنا، و البعثة التى جاءت إلى الأديرة فى سينا لتحقيق الوثائق التاريخية لم يدرسها معها و لم يشارك فى هذا التحقيق.

و إنى أقبل أن ينقل الحوار إلى هذه الناحية و أذكر أن الأزهر شارك فى الأحداث الجسام فكان مهد الحركة الوطنية و منبع الثورة فى سنة ۱۹۱۹ و ظل مدة الثورة يلهب النفوس بالحماسة الوطنية، و كان منبرا للخطابة و توجيه الثورة، و كان أهل الأقاليم يأتون إليه فيعمر قلوبهم بالإيمان الوطنى، و يزودهم بالرأى الناصح و المشورة النافعة، و قد نبه إلى ذلك اللورد ملنر فى تقريره. أما مسألة الشيوعية فإنى أذكر أنى قرأت فى الجرائد أن أساقفة الكنائس اجتمعوا تحت رياسة رئيس أساقفة كانتربرى و قرروا أن الشيوعية تخالف المسيحية لأنها تنكر وجود الله و الحياة الآخرة و توقد نار الحرب بين الطبقات الخ .. فما أن قرأت ذلك حتى عرضت مبادئها على قواعد الدين الإسلامى و ذكرت مواضع الخلاف و نشرت ذلك بعض الصحف.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۳

و أرى المساجلة ستضطرنى إلى ذكر بعض ما شارك به الأزهر فى المسائل التى تهم الأمة فى شخص أحد أبنائه كاتب هذه السطور، و لو لا موضع الحجة لما استبحت أن أنطق بكلمة، و إنى أذكرها مع الخجل و الاستحياء:

۱- رأيت الأسر المصرية كما قلت فى حينها سنة ۱۹۲۲ بمدرجة السيول، و مهب الرياح، تقوضها الريح إذا هبت و يذهب بها السيل إذا جرى، يبيع الرجل أو يشترى فيقسم على سلعته بالطلاق كذبا لترويج سلعته فإذا امرأته طالق- يغضب الرجل و الغضب غول يغتال العقل فيطلق زوجته ثم يبقى نادما على بيت هدمه و أبناء شتتهم- يطلق الرجل امرأته ثلاثا فى لفظ واحد فتبين منه، و يندم و لات ساعة مندم.

رأيت ذلك فنظرت فى الشريعة الإسلامية و أقوال الماضين فرأيت الرسول يقول: لا طلاق فى إغلاق- أى غضب- و إذا من الأئمة من يرى أن يمين الطلاق التى الغرض منها الحث على شىء أو النهى عنه لا تقع طلاقا و إذا القرآن يوجب أن تطلق المرأة لعدتها طلقة واحدة و أن تبقى فى بيت الزوجية، فإذا بلغت الأجل فأما أن يعاشرها بالمعروف أو يفارقها بالمعروف، و علل ذلك بقوله- لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا- فيعطف قلبه بعد نفور، فجعل اللّه له سعة فى مراجعة ما كان منه، و كان الطلاق على عهد رسول اللّه و أبى بكر و سنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث طلقة واحدة فأمضاه عليهم عمر فكتبت ذلك كله فى مقال و نشرته بإمضاء- م. ع فثارت ثائرة بعض المحافظين وردوا على ذلك، و لكنها كانت حجرا ألقى فى الماء الراقد فنبهت الأذهان و فعلت فعلها حتى صدر قانون المحاكم الشرعية بعد ذلك مطابقا لكل ما اقترحته .. فإن كان ذلك قد خفظ الأسرة المصرية من التداعى و الانهيار و حفظ الأبناء من الشتات و الضياع، فعند الله احتسب ما صنعت و أدخر ما قدمت.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۴

۲- كتبت فى فتنة القبعة و كنت أريد أن أحفظ على المسلمين شخصيتهم، و رددت على القائلين أنها لباس المتقدمين فى العلم و الحضارة، فقلت ليس التقدم بتغيير لباس الرأس و إنما هو بتغيير ما فى الرأس، و اعمدوا إلى رءوسكم فنظفوها من الخرافات و حلوها بالعلوم و المعارف بذلك و بذلك وحده تتقدمون.

۳- حاضر الدكتور فخرى فهاجم الاسلام فى أمور كثيرة: منها جعله المرأة على النصف من الرجل فى الميراث، فدعا الأزهر الشيوخ و النواب و رجالات العلم إلى سماع محاضرة فى قاعة المحاضرات بدار العلوم، فقمت فألقيت هذه المحاضرة، و كتب المرحوم الهباوى

فی شأنها یقول:

هذه أول مرة یستمع الناس فیها إلی محاضرة تمکث ساعتین بدون سأم و لا ملل.

۴- زعم مرقص باشا سمیکة فی التقویم السنوی للحکومیة أن المعز لدین الله الفاطمی تنصر و قضی بقیة أیامه فی کنیسة سیفین، فکتبت أرد هذه الفریة بالأدلة التاریخیة القاطعة فلم یسع الباشا إلا أن یعلن فی الصحف أنه أمام هذه الأدلة یرجع عن رأیه.

۵- کتبت فی تفسیر آیات الأحکام و عرضت للوصیة و ما ثبت من أنه لا وصیة لوارث، و بینت أن صاحب المال قد یکون بعض أبنائه بررة به، و بعضهم یعقونه، فیرید أن یوصی للبررة بفضل فی ماله، و هذه إرادة مشروعة عقلا فکیف یحرم منها و بینت بعض المذاهب التی تجیز ذلک و قد نشرت أمثال هذه البحوث بجریدة البلاغ، فجاءنی المرحوم أحمد بک قمحة- وکیل مدرسة الحقوق وقتئذ- و قال: جئتک علی غیر معرفة سابقة لأتعرف بک، و قال لو کتبت الشریعة بهذا القلم لرفع الخلاف بین الشریعة و القانون.

۶- کتبت کتاب نقض مطاعن القرآن الکریم للرد علی الأفکار التی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۵

کانت تذاع فی الجامعة مما تطعن فی القرآن الکریم، و رددت علی کتاب الشعر الجاهلی، و کتبت مقالات فی الرد علی ضمیر الغائب و استعماله اسم إشارة.

۷- أخرجت کتاب «النحو و النحاة بین الأزهر و الجامعة» للرد علی کتاب إحیاء النحو، و کتب بعض شیوخ الأزهر السابقین له مقدمة یظهر فیها الإعجاب و التقدیر، و ذکر لی بعض أصدقائی أن رحالة من النحویین جاء إلی مصر، و بحث عنی و قال: جئت إلی مصر و غایتی منها أن أری صاحب کتاب النحو و النحاة ...

۸- کتبت السر فی انتشار الإسلام و هی رسالة کلفتنی بها جماعة کبار العلماء لحمایة الإسلام و قد طبعها الأزهر و ترجمت إلی اللغة الفارسیة و الصینیة.

۹- أخرجت کتاب اللغة العربیة- لماذا أخفقنا فی تعلیمها- و کیف نعلمها- هدیت فیه إلی الطریق الطبیعی لتعلیم اللغات عامة و اللغة العربیة خاصة- و قد نشر قبل ذلک مقالات فی مجلة الرسالة- و قد لخصه العالم الجلیل عبد القادر المغربی و نشره فی مجلة المجمع العلمی بدمشق، و قدم له بحث المدارس فی بلاد العرب علی الأخذ بما فیه لیکسبوا ملکة التکلم و الکتابة باللغة العربیة ...

۱۰- حملت علی الشعر الفاسق حملة شعواء، لأنه یزین الرذیلة و الخمر و یفسد الشباب، و کان ذلک فی حفل تأبین المرحوم شوقی بک و فی مؤتمر الثقافة العربیة المنعقد بلبنان سنة ۱۹۴۷، و طلبت أن تکون المختارات للطلاب فی دور العلم من الشعر العفیف و کان أیضا فی محاضرات ألقیتها فی مشاکل الشباب فی محطة الشرق الأدنی، و حملت علی الأغانی الخلیعة و الروایات المفسدة للأخلاق و الصور العاریة فی المجلات و الجرائد و النساء الکاسیات العاریات فی النوادی و الشوارع،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۶

و ناشدت المجتمع أن یرفق بالشباب إذ یعرض أمامه کل هذه المفاتن و یطلب منه الصون و العفاف.

۱۱- والیت أحداث مصر فکنت أکتب فی کل مناسبة أری الرأی النافع فأدلی به و أدعو إلیه فکتب فی فتنة الزقازیق و دعوت إلی الصفاء و الوئام بین عنصری الأمة، و بینت أن الإسلام جعل لهم مالنا من حقوق و علیهم ما علینا من واجبات، و کنت أکتب فی المناسبات الدینیة کالهجرة و المولد، و أحث علی فضیلة أجعلها نصیحة العام، و کنت أؤمن بالوحدة و یمنها و أکره الفرقة و الانقسام فکنت أخوف منهما و أحث علی التعاون و الوحدة، و لقد قلت فی بعض ما کتبت إنکم لو خسرتم کل شیء و ربحتم الوحدة فقد ربحتم کل شیء، و إذا ربحتم کل شیء و خسرتم الوحدة فقد خسرتم کل شیء.

۱۲- کتبت رسالة الأزهر فی القرن العشرین و درست فیها الأزهر و علله و وصفت له أداء رسالته، و کان فیما عرضت له فیها- إضراب الشباب- فقد رأیت الشباب فی الأزهر و فی دور العلم و الجامعات قد هجر الدروس و اعتاد المظاهرات و الاعتداء علی الأملاک

العامة، و رأيت أن هذه الحالة تخرج جيلا جاهلا اعتاد الفوضى و عدم احترام القانون من حيث تجعل المدارس مكانا للتعليم و التربية و التعود على النظام و احترام حقوق الغير، فإذا خرج هؤلاء و أولئك عن الجادة فمن سنة اللّه أن يغلب العلم الجهل، و النظام الفوضى، و الفضيلة الرذيلة، و بحثت فى سبب ذلك و علته فإذا هى السياسة الحزبية دخلت دور العلم و أخذ كل حزب فريقا يشغب به إذا أراد الشغب.

و علمت إنى بذكر ذلك أغضب الأحزاب و الحكومات التى تستند إليها فترفقت و بينت أن ذلك واجب دينى، و إنى أكون من الخائنين للأمة و للشباب و ممن يكتمون ما أنزل اللّه من البينات و الهدى إذا كتمت هذه النصيحة، فلم يجد كل ذلك فعزلت من وظيفة مدير الوعظ و الارشاد فى سنة ۱۹۴۸ لقيامى بهذا الغرض الدينى. النصيحة للّه و للرسول و لأئمة المسلمين

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۷

و عامتهم، و قد تبدلت العهود و ولى الوزارة حزبيون و مستقلون و لم يغير هذا الظلم حزبى و لا مستقل، كأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر جرم لا تقال عثرته و لا تقبل توبته، و لست فى ذلك بغاضب و لا متسخط بل ربما كنت راضيا بالقضاء فيه لما أرجو من ثوابه و جليل جزائه:

و لست أبالى حين أقتل مسلماعلى أى جنب كان فى اللّه مصرعى

و إنما الذى أريد أن أقدم نصيحة أخرى و لا أدرى ما عاقبة هذه النصيحة أيضا.

إن المنافسة كثيرا ما تكون بين أبناء الطائفة الوحيدة و كثيرا ما تكون غير مشروعة فيكيد بعضهم لبعض عند أولى الأمر، و يصورون الناصح الشفيق بصورة العدو الضار، و يزعمون الخير الصرف شرا بحتا، و لو تنبه أولو الأمر لهذا الباب لما أصابوا بريثا.

إن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فرضان من فرائض الإسلام كالصلاة و الصوم، فالعقوبة عليهما كالعقوبة على أداء الصوم و الصلاة، و لا يصح أن يكون ذلك فى بلد إسلامى كمصر.

إن العصر الحاضر لا يحترم شيئا كحرية الرأى، لأنه يراها السبيل الوحيد لتقدم الإنسانية، و ليس أدل على تأخر بلد من الحجر على الحريات، فإذا شاءت مصر أن تكسب احترام الدول فلتعمل على احترام الآراء فيها ..

إن أولى الأمر فى مصر إذا ظلوا يخنقون الرأى و يضيقون بالنقد، فإن ليل التأخر باق و طويل و فجر الاصلاح بعيد جد بعيد.

تلك شقشقة هدرت ثم قرت، و ثورة هاجتها الذكرى ثم سكنت فلأرجع إلى ما كنت فيه.

ماذا أريد أن أقول- أريد أن أقول هذه بعض مشاركات شارك بها فرد

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۸

واحد من أفراد الأزهر فهل ترونها مشاركة عن فهم و إدراك و تبصر و شجاعة حتى إنها عصفت بصاحبها، و رمت به خارج الأزهر، هل ترونها حركات إصلاحية تولى صاحبها قيادتها و قام بتوجيهها، و هل ترون فيها إنتاجا عقليا ينير عقول الناس و يتركهم خيرا مما كانوا؟.

فإذا كان هذا ما قام به أزهرى واحد فهل يسوغ أن يقول قائل: إن الأزهر لا يشارك الأمة فى عواطفها، و لا يقوم بحركة من حركات الإصلاح فيها، و لا ينتج إنتاجا عقليا ينير العقول و يرضى النفوس ..

هذا و الشيخ محمد عرفة من أكثر علمائنا نشاطا و إنتاجا و جهادا و بلاء فى سبيل الدين و الأزهر.

خدم الثقافة فى الأزهر مدة طويلة، و منذ عام ۱۹۳۰ اختير أستاذا للشريعة الإسلامية بكلية الشريعة، ثم وكيلا للكلية، ثم عضوا فى هيئة كبار العلماء التى ألفت لنشر الدعوة فى سبيل اللّه و لمقاومة التبشير، ثم اختير أستاذا للفلسفة بكلية اللغة العربية، ثم أستاذا للبلاغة فى تخصص الأستاذية بالكلية نفسها، و اختير عضوا فى مجلس إدارتها، و منح عضوية جماعة كبار العلماء، ثم اختير مديرا للوعظ عام ۱۹۴۶ و أنعم عليه بكسوة التشريف العلمية من الدرجة الأولى، ثم اختير مديرا لمجلة الأزهر ثم اختير أستاذا ذا كرسى فى كليات

الأزهر الشریف.

و له کثیر من المؤلفات و البحوث الذائعة، کنقض مطاعن فی القرآن الکریم، و مؤلف فی تفسیر آیات الأحکام، و السر فی انتشار الاسلام، و النحو و النحاة، الذی منح به عضویة جماعة کبار العلماء، و آخر کتاب له «مشکلة اللغة العربیة»، هذا إلی کثیر من البحوث و المحاضرات و المقالات.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۶۹

و الأستاذ «عرفة» بحق عالم متضلع، و باحث دقیق، و مفکر واسع التفکیر کثیر الإحاطة بآثار القدامی و بشتی الثقافات الحدیثة، و هو من صفوة العلماء الذین یفخر بهم الأزهر، و یعتز بجهادهم العلمی و مکانتهم العلمیة الکبیرة، و بجمع إلی ذلک کله التواضع و النبل و عظمة الخلق و جلال العلماء و وقار المرشدین. و توفی یوم الثلاثاء ۵ من ذی الحجة ۱۳۹۲ ه- ۹ ینایر ۱۹۷۳.

الشیخ علی محفوظ

حفظ الشیخ علی محفوظ القرآن فی کتاب قریته ثم رحل إلی مدینة طنطا لتجوید القرآن و تلقی العلم فی معهدها الدینی و بالمعهد أتم تعلیمه الابتدائی و الثانوی و تلقی من العلوم ما کان مقررا فیه ثم أشار إلیه شیوخه أن یستکمل دراسته العالیة بالأزهر فجاء إلیه بالقاهرة و أخذ عن کبار شیوخه إذ ذاک. أخذ عن الشیخ محمد عبده و الشیخ أحمد أبی خطوة و الشیخ بخیت المطیعی و الشیخ الحلبی و غیرهم و حصل علی الشهادة العالمیة سنة ۱۳۲۴ ه. و اشتغل فی التدریس فیه و لما أنشیء قسم الوعظ و الإرشاد بالأزهر اختیر للتدریس فیه و وکل إلیه أمر الإشراف علیه و وجد الشیخ فی هذا القسم ضالته و وقف علیه فکرة و وقته و جهده و بفضله أصبح هذا القسم معهدا لتخریج الدعاة و المرشدین الذین برزوا فی فنون الدعوة فی مصر و الأقطار الإسلامیة. و قد حمله منهج الدراسة فی هذا القسم أن یضع کتبا تلائم الدراسة المقررة علی طلابه فوضع بذلک کتابین هامین فی طرق الدعوة و مادتها یعتبران من أهم الکتب التی وضعت فی فنون الدعوة الحدیثة و هما کتابا (الإبداع فی مضار الإبتداع) «و هدایة المرشدین» إلی طریق الوعظ و الخطابة أما الأول فهو کما یدل علیه اسمه فی بیان البدع التی شاعت و نسبت خطأ إلی الدین و قد تتبع کثیرا من البدع فی العقائد و العبادات و المعاشرة و العادات و بین أصل الخطأ فیها و وضعها من الدین و قدم لذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۰

بمقدمات فی بیان السنة و البدعة و أقسامها و اختلاف أنظار العلماء إلیها من جهة کونها مستحسنة أو غیر مستحسنة.

و قد قال عنه العلامة المرحوم الشیخ یوسف الدجوی: هذا السفر الجلیل المسمی بالإبداع الذی وضعه العلامة الفاضل الشیخ علی محفوظ فیما رأیت خیر کتاب جمع إلی تحقیق الباحث عذوبة الألفاظ و حسن الترتیب و لا غرو فالأستاذ من أجل علماء البرهان و فرسان حلبة المیدان و خیر المرشدین و أجل الواعظین- و أما الکتاب الثانی هدایة المرشدین فهو کما یدل علیه اسمه أیضا وضعه لیهتدی به المرشدون و الدعاة فی رسالتهم و یستعینوا به علی أداء مهمتهم و یقول فی مقدمته: هذا مختصر فی الوعظ و الخطابة جعلته نبراسا للدعاة الناصحین و سراجا یضیء للخطباء الراشدین و قد تکلم فی مقدمته علی الدعوة و تعریفها و هدی المصطفی صلی اللّه علیه و سلم فیها سواء بالخطابة أو الکتابة إلی الرؤساء و الملوک و تکلم عن تاریخ الوعظ و ألم بتاریخ القصص و القصاص و عرض لشخصیة الداعی و ما ینبغی أن یکون علیه من الصفات العلمیة و الخلقیة و الطریق التی یستحسن أن یسلکها فی اختیار الموضوعات و الأسالیب و ذکر نماذج المحاضرات فی موضوعات مختلفة. و قد تأثر فی هذین الکتابین بالإمام الغزالی فی کتاب الأحیاء و بالإمام الشاطبی فی کتاب الاعتصام و بابن الحاج فی کتاب المدخل و ظهر هذا التأثر بالشاطبی فی کلامه عن البدعة و السنة و بالغزالی فی کلامه عن آداب الداعی و صفاته و المنهج الذی ینبغی أن ینتهجه فی دعوته. و لا زال هذان الکتابان منذ وضعا مرجعا لعلماء الوعظ و طلبته، و قد طبع فی مصر مرات عدیدة- و للشیخ غیر هذین کتب و رسائل منها مجموعة الخطب و الجواهر السنیة فی الأخلاق

الدينيـة و الـدرة البهيـة فی الأخلاق الدينية. و سبيل الحكمة و قد كان الشـيخ عضوا فی جماعة كبار العلماء و هی أكبر هيئة علمية فی مصر فيما سبق و منح الإمتيازات التی كانت لأعضائها.

و يعتبر الشيخ محفوظ صاحب مدرسة جديدة فی الوعظ فقد جاء علی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۱

فترة اضـمحل فيها الوعظ و قل الوعاظ لا فی مصـر وحدها بل فی العالم الإسـلامی كله. و الوعظ كما تعرف أهم الوسائل لنشـر الدين بأحكامه و آدابه و تقويم من انحرف عن سبيله و قـد أثارت هـذه الحال انتباه المصـلحين فحاولوا علاجها و فكر جماعـة منهم فی سـد الفراغ فأنشـئوا مدرسة لتخريج الدعاة و تأهيلهم فنيا و سموها دار الدعوة و الإرشاد و لكنها لم تلبث طويلا و لم تحقق الغرض منها فلما بدأ النشاط للشيخ فی ميادين الوعظ أحس الناس بشغل كثير من ذلك الفراغ. فقد كان رحمه اللّه أمة فی فرد يقوم بما تقوم به جماعة وفيرة العـدد و لقـد امتلأ إيمانا بوجوب حمل تلك الرسالـة و حبب اللّه إليه هدايـة الناس حتی غدا ذلك الحب جزءا من طبيعته. فأنی رمت الهداية وجدت الشيخ يحمل مشاعلها فی النوادی و الجمعيات و فی العواصم و القری من أقصی الشمال إلی أقصی الجنوب و لا يشـغله عن رسـالته شاغـل. و كـان الشـيخ أسـلوب خاص فی وعظه و كان له أثر فی نجاحه فقـد كان يحاول أن يربط وعظه بأحـداث المجتمع و مشاكله و يسـتمد منها العظة و العبرة و يتخير الأسـلوب المناسب لمسـتمعيه محاولا أن يضـفی عليه وسائل التشويق و الإثارة من فكاهـة طريفـة أو نادرة لطيفـة أو قصة ذات مغزی و هدف ليبعث نشاطهم و يجذبهم إليه و قد تأثر فی طريقته بالإمام الغزالی و ابن الجوزی فليس الوعظ عنـده سـرد الأحكام و التحذير الجاف المنفرد و إنما كان منهجه قول اللّه تعالی ادْعُ إِلی سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، و قول الرسول صلی اللّه عليه و سلم:

يسروا و لا تعسروا و بشروا و لا تنفروا و قاربوا و سددوا.

و بالموعظـة الحسـنة و العرض اللطيف كان يبلغ غايته و هـذه هی اللباقـة فی التبليغ و هذا هدی الأنبياء و المرسـلين. و لقد تأثر بطريقة الشـيخ تلامذته ففی كثير منهم ملامح من منهج الشيخ و أسلوبه و كان الشيخ سلفيا يحرص علی المأثور و يحارب البدع لا يتسمح فی شیء منهـا و ألف فيهـا كتابا خاصا سـبقت الإشارة إليه و قـد أسـهم بقلمه و جهـده فی أكثر الجمعيات الدينيـة التی وجـدت أو كانت موجودة. أسهم فی جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۲

و جمعيـة الهدايـة الإسـلامية و جمعيـة نشـر الفضائل الإسـلامية كما أسـهم فی جمعيـة الرد علی المبشـرين و فی جمعية تحفيظ القرآن الكريم هـذا إلی جهوده فی اجتماعـات خاصـة فی منزله و فی عيـادات الأطبـاء و مكـاتب المحامين و غيرهم. و لما اسـتخدمت محطة الإذاعـة بالقاهرة فی نشـر الوعی الـدينی و الثقافـة الإسـلامية كان للشـيخ نصـيب فيها و كان من عادته أن يقوم بإلقاء الـدروس الدينية بالأزهر عصر كل يوم من شهور رمضان و ظل محافظا علی ذلك حتی انتقل إلی جوار ربه رحمه اللّه.

و كان الشـيخ مثلا فی الخلق و التواضع سمحا لطيفا تؤمن بوادره و يغضی عما لا يروقه و كان ألفا مألوفا أحبه تلاميذه و زملاؤه و كل من عرفه.

و كان وسـيم الطلعة مشـرق الوجه تبدو عليه سمات الصالحين، فكان مرجو البركة مطروق الرحاب كما كان موضع التقدير من الكبراء و العظماء جمعته و المرحوم الشـيخ محمد الخضر حسين التونسی المحبة فی اللّه و الرغبة فی إحياء دينه فأنشأ جمعية الهداية الإسلامية التی قامت بجهد مشـكور فی التبصـير بالدين و الأخذ بيد الغافلين و قد هدی اللّه علی يديه خلقا كثيرا. و قد ولد الشـيخ فی قرية محلة روح من قری مدينة طنطا و توفی سنة ۱۳۶۱ ه و اسمه الكامل علی بن عبد الرحمن بن محفوظ.

الشيخ صالح شرف

- ۱- و هو الشیخ الأستاذ الکبیر صالح موسی حسن أحمد شرف عضو جماعة کبار العلماء و السکرتیر العام للأزهر الشریف.

ولد فی بنی عدیات الوسطانیة مرکز منفلوط مدیریة أسیوط یوم ۴ یولیو سنة ۱۸۹۴، و التحق فی السابعة من عمره بمکتب الدردیر و تعلم القرآن الکریم و حفظه و فهم أحکامه و تجویده و سنه لا تتجاوز الثالثة عشرة، التحق بالأزهر الشریف فی المحرم ۱۳۲۷ الموافق ۱۹۰۸، و تلقی العلوم الدینیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۳

و العربیة علی أفاضل العلماء، و منهم الشیخ عبد الحکم عطا و الشیخ حسن الحواتکی و الشیخ أحمد هیکل و الشیخ محمد حسنین و الشیخ حسنین محمد مخلوف و الشیخ یوسف الدجوی و الشیخ حسن مدکور و الشیخ البراد و الشیخ عطا المرصفی و الشیخ محمد البرادی، ثم نال الشهادة الأهلیة عام ۱۳۳۵ ه، و نال جوائز مالیة کانت تعدها مشیخة الأزهر للمتفوقین فی علوم التوحید و الفقه و الأصول و الإنشاء، و نال الشهادة العالمیة ۱۳۴۱ الموافق ۱۹۲۴ و کان لجنة الامتحان مکونة من أصحاب الفضیلة الشیخ عطا المرصفی رئیسا و الشیخ محمد السرتی و الشیخ البرد و الشیخ الغریبی و الشیخ المرشدی و الشیخ عبد المقصود الفشنی، و حضر الامتحان الشیخ عبد المجید اللبان و الشیخ صادق عزام و حصل علی الشهادة العالمیة و کان ترتیبه الثالث من ۱۴۳ متخرجا، و عین إماما و مدرسا و خطیبا فی مسجد بمدیریة المنیا، ثم نقل من هذا المسجد إلی المسجد الأموی بأسیوط فی ینایر ۱۹۲۶ و دخل مسابقة امتحان فی التاریخ أعلنها الأزهر لاختیار مدرسین بالأزهر و نجح فیها بتفوق، ثم عین مدرسا بمعهد أسیوط الدینی فی عام ۱۹۲۷ و نقل فی عام ۱۹۳۱ إلی معهد الزفاریق و لکنه لم یمکث به إلا شهرا، ثم عاد إلی معهد أسیوط مرة ثانیة، و مکث مدرسا بمعهد أسیوط منذ تعیینه حتی عام ۱۹۳۸، و نقل فی عام ۱۹۳۸ إلی کلیة أصول الدین للتدریس بها، ثم انتدب وکیلا لمعهد الأسکندریة الدینی فی عام ۱۹۴۴ و مکث بالمعهد سنتین، و عاد إلی کلیة أصول الدین مرة ثانیة فی ۱۹۴۶، ثم عین شیخا لرواق الصعایدة فی عام ۱۹۴۸، و انتدب شیخا لمعهد أسیوط الدینی فی عام ۱۹۵۰ حتی عام ۱۹۵۲، و عین عضوا فی جماعة کبار العلماء فی عام ۱۹۵۱ و رجع إلی کلیة أصول الدین فی عام ۱۹۵۲.

عین سکرتیرا عاما للجامع الأزهر و المعاهد الدینیة فی عام ۱۹۵۳ و عین عضوا بالمجلس الأعلی للأزهر فی أکتوبر ۱۹۵۴، و لا یزال یلقی المحاضرات العلمیة علی طلبة کلیة أصول الدین.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۴

الشیخ محمد محیی الدین عبد الحمید

من کبار الشیوخ الأزهریین، و أکثرهم إنتاجا و تألیفا، و أذیعهم شهرة و ذکرا فی العالم الإسلامی، و الکتب التی حققها و نشرها و ألفها تزید الیوم علی مائة کتاب و من بینها العدید من الکتب الدراسیة فی الأزهر الشریف، و طائفة من أصول کتب البلاغة و التاریخ و الأدب و النقد.

و الشیخ محمد محی الدین یتولی الیوم مشیخة کلیة اللغة العربیة إحدی کلیات الأزهر الشریف، و قد تخرج فی الأزهر الشریف عام ۱۹۲۵، و تولی التدریس فی الأزهر ثم اختیر أستاذا فی کلیة اللغة العربیة منذ إنشائها ثم وکیلا لها، ثم ندب مفتشا بالأزهر الشریف، فاستاذا لکرسی الشریعة الإسلامیة فی کلیة غردون بالخرطوم، ثم أستاذا للفلسفة فی کلیة أصول الدین، ثم رئیسا للتفتیش علی العلوم العربیة و الدینیة فی الأزهر، ثم عمیدا لکلیة اللغة العربیة، و کان والده من خیار الشیوخ الأزهریین و تولی قبل وفاته منصب مفتی وزارة الأوقاف و کانت له فی الناحیة الدینیة و الإسلامیة آثار عدیدة.

و قد مثل الشیخ محمد محی الدین عبد الحمید الأزهر فی کثیر من المؤتمرات الأدبیة و الثقافیة و الدینیة، و هو فی طلیعة الشیوخ الذین لهم فقه باللغة العربیة و أصولها و آدابها، و فی مقدمة الأساتذة الذین شارکوا فی دعم کیان الأزهر العلمی فی نهضته الحاضرة.

و توفی رحمه اللّه یوم السبت ۲۵ من ذی القعدة ۱۳۹۲ ه ۳۰ دیسمبر ۱۹۷۲ م.

الشیخ شلتوت

هو أحد أعضاء جماعة کبار العلماء البارزین، و له الکثیر من الإنتاج العلمی و الدینی القیم، و طائفة من المقالات و الأحادیث الإسلامیة الجدیدة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۵

فی أسلوبها و منهجها و طریقة تفکیرها .. و الشیخ محمود شلتوت من أسر علماء الأزهر ذکرا، و أذیعهم شهرة، و أکثرهم تقدیرا من شتی البیئات العربیة و الإسلامیة، و قد تخرج فی الأزهر من نحو ثلاثین عاما، و عین مدرسا فیه، ثم أستاذا فی کلیة الشریعة الإسلامیة، فوکیلا لها، فمفتشا فی الأزهر الشریف، فعضوا فی جماعة کبار العلماء، و عضوا فی لجنة الفتوی بالأزهر، فمراقبا عاما للبحوث و الثقافة فی الأزهر، و قد مثل الأزهر فی کثیر من المؤتمرات العربیة و الإسلامیة، و هو من تلامذة الشیخ عبد المجید سلیم الأوفیاء، و ممن درسوا أفکار الإمام محمد عبده الإصلاحیة التجدیدیة و تأثروا بها.

الشیخ محمد کامل حسن

فی عام ۱۹۳۶ اختیر الشیخ أستاذا فی کلیة اللغة العربیة من بین زملائه أساتذة المعاهد الدینیة، و سمعنا منه الکثیر من المحاضرات فی شتی العلوم العربیة، و تلقی علیه کثیر من الذین تخرجوا فی الکلیة و التحقوا بشتی المعاهد و المدارس، و قد راعنا من الشیخ سعة أفقه، و دماثة خلقه، و وداعة نفسه.

و فی عام ۱۹۴۸ أختیر- ثقة به- للتفتیش فی الأزهر فی العلوم الدینیة و العربیة، و فی عام ۱۹۴۹ اختیر وکیلا لکلیة اللغة العربیة بعد وفاة وکیلها الخالد الذکر المغفور له الشیخ محمد أبی النجا، و بعد أن ذهب وفد من أساتذة الکلیة و عمیدها آنذاک إلی شیخ الأزهر المغفور له الأستاذ الأکبر الشیخ محمد مأمون الشناوی یطلبون منه اختیاره لوکالة الکلیة، و قالوا له:

إنه سیکون خیر خلف لخیر سلف، فاستجاب شیخ الأزهر مسرورا لهذه الرغبة، و تم ذلک بقرار مجلس الأزهر الأعلی الصادر فی مارس سنة ۱۹۴۹.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۶

و قد وقف الشیخ حیاته علی خدمة الکلیة، و رفع مستواها العلمی و الأدبی فی إخلاص و محبة و صدق و تعاون مع الجمیع، و قد عدلت مناهج الکلیة مرارا بإشرافه حتی سایرت أحدث المناهج فی کلیات الآداب و التربیة الجامعیة المختلفة .. و قد مثل الأزهر و الکلیة فی کثیر من المناسبات و کثیر من اللجان، فکان یرفع دائما من کرامة الأزهری، و یعزز الثقة فیه، مع تواضع المعتز بنفسه. و کثیرا ما یعلل الشیخ فلسفته فی التواضع بهذه الحکمة: «إنما یتدلی من الشجرة فرعها المثمر».

و قد ولد الشیخ فی یوم ۶ من یونیه سنة ۱۸۹۵ و کان والده أزهری النشأة، فعنی بتربیته و تحفیظه القرآن الکریم لیکون طالبا بالأزهر، و أتم تجوید القرآن فی الأزهر سنة ۱۹۱۰.

و فی سنة ۱۹۱۱ انتسب إلی الأزهر طالبا فی بدء النظام الذی وضع له القانون رقم ۱۰ عام ۱۹۱۱ و عرف بنظام الشیخ محمد شاکر، لأنه الذی وضع أسسه و رسم خططه و بدأ بتنفیذه و اختار له المدرسین النابهین النابغین، و کان لهذا النظام ثلاث مراحل (ابتدائی و ثانوی و عال) و مدة کل مرحلة خمس سنوات دراسة- لهذا کان أول فوج تخرج فی هذا النظام سنة ۱۹۲۴، و کان الشیخ من أوائل الناجحین فی جمیع سنی دراسته بهذا النظام.

و عین مدرسا سنة ۱۹۲۵ عقب تخرجه بمعهد طنطا، ثم نقل إلی معهد دسوق ثم الزقازیق.

و کان فی کل مکان قدوة عالیة لرجل الدین المثقف المستنیر، الحریص علی أداء رسالته، و علی تعزیز ثقة المجتمع به، و رأس لجان الامتحان للشهادات الأزهریة الکبری، فکان مثالا عالیا للنزاهة و الکفایة و حسن السمعة بین الناس، و مع أعماله الإداریة الکثیرة فهو یشغل کرسیا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۷

علمیا فی الکلیة و یقوم بنشاط علمی کبیر محمود بین الأستاذة و الطلبة، و یعده الطلاب أبا روحیا، کا یعده الأساتذة زمیلا حمیما لهم، و قد حاز ثقة شیوخ الأزهر علی اختلاف مذاهبهم و اتجاهاتهم و نوهوا بکفایته و أمانته و حرصه علی أداء الواجب فی مناسبات کثیرة، و قد شهدت الکلیة منذ عام ۱۹۵۳ نشاطا رائعا بفضله و توجیهه، و شهدت فی أوائل عام ۱۹۵۴ میلاد صحیفة یومیة داخلیة کاملة یکتبها الطلبة بأیدیهم، و میلاد صحف مطبوعة، و ذلک بفضل یقظته و توجیهه و رعایته ... و الشیخ من أحب علماء الأزهر إلی قلوب الناس و الطلاب، و هو فی ورعه و تقواه قدوة طیبة.

و قد توفی الی رحمة اللّه فی ۲۹ من شعبان ۱۳۸۹ ه نوفمبر ۱۹۶۹ م.

الشیخ حسین خفاجی

کان والده السید محمد خفاجی (۱۲۷۷ ه- ۱۹۴۰ م) من کبار الصوفیین الزاهدین فی ثغر دمیاط- و قد ولد الشیخ حسین فی یونیو عام ۱۸۹۶، و تخرج من الأزهر فی فبرایر عام ۱۹۲۳ بعد أن نال العالمیة بتفوق، و تنقل فی الوظائف الإداریة بالأزهر الشریف، و هو الیوم کبیر المراقبین فی کلیة الشریعة الإسلامیة، التی اختیر لها منذ إنشائها، و له فیها أیاد تذکر بالتقدیر من جمیع شیوخ الأزهر الشریف ...

الشیخ عبد المتعال الصعیدی

من الشیوخ الثائرین فی الأزهر، ذوی الآراء الإصلاحیة التقدمیة، و هو من بینهم یمتاز بمیل إلی التجدید، و عکوف علی البحث و التألیف.

ولد فی قریة «کفر النجبا» من أعمال مرکز أجا بمدیریة الدقهلیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۸

عام ۱۳۱۳ ه- ۱۸۹۴ م و مات والده و هو ابن شهر، فکفلته والدته، و تعلم فی کتاب القریة.

ثم انتسب إلی الجامع الأحمدی، فدرس فیه علی النظام الحدیث و أظهر تفوقا فی الدراسة، و یقول فی ترجمته لنفسه فی تاریخ الإصلاح فی الأزهر:

تابعت دراستی فی جد و اجتهاد، حتی کنت أول الناجحین فی أغلب سنی الدراسیة، فإذا لم أکن الأول کنت الثانی أو الثالث، لأنی کنت علی انتقادی الآن لطریقة التدریس القدیمة آخذ نفسی بأقصی ما نصل إلیه فی البحث اللفظی و المعنوی، حتی کان الدرس یمضی فی عراک علمی بینی و بین المدرس، و لهذا کنت موضع تقدیر أساتذتی و حبهم، و من أشهرهم الشیخ محمد الشافعی الظواهری، و الشیخ محمد الأحمدی الظواهری.

و لکنی کنت مع هذا شدید الشغف بمطالعة کل ما تظهره المطبعة من کتب الأدب و الفلسفة و غیرها، فکنت أطالع کل کتاب قدیم أو حدیث تظهره المطبعة، و أطالع المجلات العلمیة و الأدبیة، و کذلک الجرائد الیومیة، و لا سیما جرائد الحزب الوطنی الذی کان یقوم بالجهاد السیاسی فی ذلک الوقت، فکنت أتلقی فی هذه الجرائد دروس الوطنیة، و کانت تغرس فی نفسی حب الجهاد فی سبیل الوطن، و لقد کنت و أنا تلمیذ بالکتاب آخذ نفسی بالمطالعة، فکنت أطالع الکتب القصصیة الشائعة فی القری، و لا سیما قصة عنترة العبسی، فقد طالعت فیها کثیرا، و أعدت قراءتها نحو أربع مرات، و لعل هذا هو الذی ربی فی حب المطالعة بعد أن صرت طالبا

بالجامع الأحمدی، و قد أخذت شهادة العالمیة علی النظام الحدیث فی سنة ۱۹۱۸ م (۱۳۳۶ ه)، و عینت فیها مدرسا بالجامع الأحمدی بعد امتحان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۷۹

مسابقة جری بین أکثر من مائة عالم نظامی فی نحو عشر وظائف، فنجحت فیه أنا و عالم آخر، و سقط فیه الباقون لصعوبته.

و ألف کتابا سماه «نقد نظام التعلیم الحدیث للأزهر الشریف»، و أهم بحوثه کما یقول الشیخ نفسه:

۱- کلمة فی نقد قانون التخصص.

۲- تمهید فی بیان الحاجة إلی الإصلاح، و فائدة العلوم الحدیثة فی الدفاع عن الدین، و فی بیان قصور النظام الحدیث عن الإصلاح المطلوب.

۳- الموازنة بین العهد القدیم و النظام الحدیث، و خلاصتها أن الفرق قلیل جدا بینهما، لأن النظام الحدیث لا یزال یعتمد علی کتب العهد القدیم، و علی طریقة التدریس القدیمة، و لا یمتاز النظام الحدیث عن العهد القدیم إلا بدراسة بعض العلوم الحدیثة التی تدرس فی المدارس الابتدائیة و الثانویة، و هی دراسة ناقصة لا تناسب المعاهد الدینیة، و لا تحقق الغرض المقصود منها فیها، و هو استخدامها فی الدفاع عن الدین، و کان الواجب أن تدرس علی نحو ما تدرس فی الجامعات الکبیرة فی أوروبا، لأنها تدس فیها دراسة جامعیة، و لا یصح أن یقصر الأزهر فی دراستها عن هذه الدراسة، لأنها هی التی تلیق بأقدم جامعة علمیة دینیة.

۴- نقد کتب الدراسة، و خلاصة نقدها أنها من کتب المتأخرین ذات المتون و الشروح و الحواشی و التقاریر، و لما کانت متونها غامضة معقدة فدراستها تقوم علی أساس فهم عبارات هذه المتون، فهو الذی یقصد فیها أولا و بالذات، أما فهم مسائل العلوم و التمرین علیها فلا یهتم بها کما یهتم بفهم عبارات المتون، و هذا إلی أن هذه الکتب تسلک طریقة واحدة فی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۰

التألیف، و خلط مسائل العلوم بعضها ببعض، فلا تتدرج فی هذا للطلاب بل تأخذ المبتدئین بما تأخذ به المنتهین، و قد کان لتعقیدها أسوأ أثر فی طلاب المعاهد الدینیة، لأنه یظهر فی أسلوب کتابتهم، و یحول دون النهوض به بتعلیم الإنشاء و مطالعة کتب الأدب، و لا یراد من هذا أن نرجع إلی کتب المتقدمین، بل یجب أن نعتمد فی الدراسة علی کتب تؤلف فی هذا العصر الحدیث، و تفتح باب الاجتهاد فی الدین و العلم.

۵- نقد طریقة التدریس، و خلاصة نقدها أنها طریقة تلقینیة تقلیدیة، لا تعنی بتربیة ملکة الفهم الصحیح، و لا بإعداد الطلاب لیکون منهم علماء و حکماء یرفعون منار العلم فی الدنیا، و یتحدث العالم بعلمهم، کما کان یتحدث بعلم أسلافنا فی الماضی، و کما یتحدث الیوم بعلم أهل أوروبا.

۶- نقد العلوم القدیمة، و خلاصة نقدها أنها علوم جامدة لا تزال علی حالها منذ سبعة قرون، و لیس فیها أثر للتجدید الذی تناول کل شیء فی عصرنا، و قد کان علماؤنا الأولون یجتهدون فیها و یجددون فی کل عصر من عصورهم، فیجب أن نجتهد فیها و نعمل علی تجدیدها فی عصرنا.

۷- نقد نظام التعلیم، و خلاصة نقده أنه لا یتدرج بالطلاب فی مراحل التعلیم، بل یبدأ بالکتاب الأقل حجما و إن کان أصعب فهما، و یبدأ بالعلوم التی اعتید البدء بها فی العهد القدیم، و إن کان الواجب تأخیرها و البدء بغیرها، و کذلک یجعل مدة الدرس واحدة فی کل مراحل التعلیم، و یأخذ المبتدئین فی هذا بما یأخذ به المنتهین.

۸- إهمال التخصص فی العلوم، و خلاصة ما جاء فیه أن النظام الحدیث اتبع العهد القدیم فی تخریج علماء یأخذون کل العلوم التی یدرسونها بنسبة واحدة، فلم یحاول أن یوزعها فی آخر مراحل التعلیم علی الطلاب، و یجعل منها شعبا یتخصص الطلاب فیها، لیعیدوا عهد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۱

التخصص فی علمائنا الأولین، و یتخرج منهم أئمة نابغون فیما تخصصوا فیه، و لا یکون هذا علی نحو ما جاء فی قانون التخصص السابق، لأنه لا یفید فی تخریج أولئک العلماء النابغین.

۹- نقد طریقة الانتساب إلی المعاهد الدینیة، و خلاصة نقدها أنها تجری علی الطریقة القدیمة من الاکتفاء بحفظ القرآن، و معرفة القراءة و الکتابة و لو أقل معرفة، فیجتمع بها فی السنة الأولی أصناف من الطلاب یتفاوتون تفاوتا کبیرا فی استعدادهم، و لا یمکن أن ینتظم سیر التعلیم بمثلهم.

۱۰- نقد طریقة الامتحان، و خلاصة نقدها أنه یجری علی طریقة التدریس، فالامتحان الشفوی یقصد منه اختبار الطلاب فی فهم عبارات الکتب، و الامتحان التحریری یقصد منه معرفة تحصیلهم لها، و حفظهم لمسائلها.

۱۱- إهمال تعلیم اللغات، و إرسال بعثات إلی أوروبا، و إنشاء ناد و مجلة للأزهر و المعاهد الدینیة، و إنشاء مجمع علمی و لجنة تألیف، و إنشاء مطبعة لطبع کتب الدراسة طبعا صحیحا. و هذه هی أهم أبواب ذلک الکتاب، و هو یقع فی ستین و مائة صفحة، و قد طبع عام ۱۳۴۲ ه.

و قد سبق الشیخ الأحمدی الظواهری أن نقد نظام التعلم فی الأزهر فی کتابه «العلم و العلماء و نظام التعلیم»، الذی کان من أهم بحوثه أبواب أربعة:

فالباب الأول فی العلماء، أخذ المؤلف فیه علی العلماء أنهم لا یعرفون شیئا سوی مناقشات الفنون و الکتب التی یدرسونها، فلا یعنون بمطالعة الجرائد و المجلات العلمیة، و لا یعرفون شیئا من اصطلاحات الناس و عاداتهم و غیر ذلک من أمورهم، و لا یمیلون إلا إلی ما وجدوا علیه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۲

من قبلهم، لأنهم لا یرون الکمال إلا فی علومهم و معتقداتهم و کتبهم و طرق تدریسهم و سائر أحوالهم.

و الباب الثانی فی المدارس الدینیة- الأزهر و المدارس الملحقة به- و خلاصة ما جاء فیه أن هذه المدارس صارت لا فائدة فیها، و أصبحت لا تؤدی وظیفتها للعالم الإسلامی، لاختلال نظامها، و فساد طرق التعلیم فیها، فیجب إصلاحها بحمل طلابها علی المطالعة و معرفة نظم الأشیاء و حقائقها، و ما فی هذا العالم من شرائع و دیانات، و ما إلی هذا من الاصطلاحات التی جاءت فی هذا الباب.

و الباب الثالث فی العلوم، و قد عاب فیه طرق دراستها، و رأی أن یضاف إلیها کثیر من العلوم الحدیثة و تاریخ الملل و المذاهب و الآراء و اللغات الأجنبیة، و رأی أیضا أن یؤلف فیها کتب حدیثة ملائمة لهذا العصر، و ذکر أن الکتب التی تدرس فیها لا تختار من جید ما ألفه السلف، و إنما تختار من الردیء القلیل الفائدة.

و الباب الرابع فی طرق التعلیم، و خلاصة ما جاء فیه أن منتهی الکمال فی هذه الطرق هو التفنن فی فهم عبارات المتون، و إیراد ما لا یحصی من المعانی فی فهمها، و الإکثار من الاعتراضات و الأجوبة عنها، و هی طریقة معیبة لا تهتم إلا بهذه المباحث اللفظیة، و لا یعنیها تفهیم الطلاب مسائل العلوم فی ذاتها .. و قد تخرج الشیخ محمد الأحمدی الظواهری من الأزهر عام ۱۹۰۲ و تولی المشیخة عام ۱۹۲۹ و استقال منها عام ۱۹۳۵، و توفی فی ۲۰ جمادی الأولی ۱۳۶۳ ه- ۱۳ مایو ۱۹۴۴.

و قد استمر الشیخ عبد المتعال الصعیدی مثابرا علی البحث و التألیف، و أخرج العدید من الکتب، و لما أنشئت کلیة اللغة العربیة نقل إلیها مدرسا بعد قلیل، و من إنتاجه کتبه هذه.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۳

بغیة الإیضاح لتلخیص المفتاح أربعة أجزاء، الکمیت بن زید شاعر العصر المروانی تجدید علم المنطق فی شرح الخبیصی علی التهذیب، شباب قریش فی العهد السری للإسلام، المیراث فی الشریعة الإسلامیة و الشرائع السماویة، لماذا أنا مسلم، النحو الجدید،

القضایا الکبری فی الإسلام، السیاسة الإسلامیة فی عهد النبوة، النظم الفنی فی القرآن، فی میدان الاجتهاد، الوسیط فی تاریخ الفلسفة الإسلامیة، المنطق المنظم فی شرح الملوی علی السلم، تعلیقات علی شرح السراجیة فی المیراث، دراسات إسلامیة، المجتهدون فی الإسلام، تاریخ الإصلاح فی الأزهر، الآجرومیة العصریة، زبد العقائد النسفیة مع شرحها و حواشیه، البلاغة العالیة فی علوم البلاغة، أبو العتاهیة الشاعر العالمی، الفقه المصور فی أحکام العبادات، زعامة الشعر الجاهلی بین امرىء القیس وعدی بن زید، روائع النظم و النثر، نقد نظام التعلیم الحدیث للأزهر الشریف.

إلی کتب أخری مخطوطة لم تقدم للطبع، و کتب أخری لم ینته من تألیفها.

السید حسن القایاتی

من علماء الأزهر الشریف، و من الشعراء النابهین فی الشعر العربی الحدیث، و هو حسن بن محمد بن عبد الجواد بن عبد اللطیف، زعیم بیت القایاتی، بیت مصر الوسطی: الجیزة، و بنی سویف، و المنیا، و الفیوم. و عضو المجمع اللغوی، و شیخ رواق الفشنیة فی الأزهر الشریف، ینتهی نسبه من جهة أبیه، إلی صاحب رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، أبی هریرة رضی اللّه عنه. و من جهة الأم إلی الحسن السبط رضی اللّه عنه.

و بیت القایاتی أشبه البیوت الدینیة بالزوایا التی کان لها بالأوطان الإسلامیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۴

فی العهود المتوسطة شأن مذکور- و لا زال- محط رجال الوافدین من الواحات، و من بلاد المغرب، و من أقالیم مصر الوسطی. یلقون فی ربوعه الکریمة، و فی رحابة الفیح و فی سماحته الطبیعیة، عودة الغریب إلی وطنه و النازع إلی عطنه، و الطائر إلی فننه. و هو- إلی أنه بیت دین و کرم بیت علم و أدب و سیاسة، فمن أعلام علمائه: السید أحمد عبد الجواد أحد علماء الأزهر و شیخ الفشنیة فی القرن التاسع عشر، و السید عبد العظیم محمد زعیمه السابق، و کل رجاله أدباء، و لهم فی السیاسة المصریة مقام مشهود، فالسیدان: محمد و أحمد عبد الجواد فی الصف الأول من زعماء الثورة العرابیة، و کان حظهم من آثارها النفی إلی سوریا الشقیقة لمدة أربع سنوات. و الشیخ مصطفی القایاتی، و خلفه شقیقه السید إبراهیم شیخ الفشنیة السابق: و علی الجملة: لم نجد فی مصر حرکة وطنیة أو دینیة، لم یبذل فیها بیتا القایاتی فی القاهرة و فی «القایات» أو فی قسط من الجهود الأدبیة و المادیة بذل السخی المسماح. و السید حسن القایاتی، من لدات الشیخ مصطفی عبد الرازق و الشیخ محمود أبی العیون.

و تمر الأیام، و ذکری الشاعر حسن القایاتی لا تزال ملء القلوب و الأذهان، هذا الشاعر الذی استحدث دیباجة خاصة متمیزة فی الشعر المعاصر، و الذی امتاز شعره بروعة الفکرة و عمقها، و بجمال الأسلوب و عذوبته، و کان شعر القایاتی کأنه وشی منمنم، و کان یمیزه صفاء الطبع و جمال الموهبة و جلالها بطابع خاص.

و القایاتی من أسرة عربیة تنتمی إلی أبی هریرة رضی اللّه عنه، و منها شمس الدین القایاتی قاضی مصر المتوفی عام ۸۰۰ ه، و فی الخطط التوفیقیة لعلی مبارک نخبة من القایاتیین، و فی أحداث الثورة العرابیة یذکر والد السید حسن القایاتی و عمه، و قد نفیا إلی الشام، و کان السید مصطفی القایاتی من زعماء ثورة ۱۹۱۹.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۵

و بیت القایاتی یستوطن إقلیم المنیا، و هو من بیوت الدین و التصوف فی مصر.

ولد السید حسن القایاتی عام ۱۳۰۰ ه و التحق بالأزهر، و نبغ فی لأدب و الکتابة، و أحب الشعر و نظمه، حتی صار قرین المنفلوطی و الکاشف، و الهراوی و الرافعی.

طبع الجزء الأول من دیوانه عام ۱۹۱۰ م، و هو فی نحو العشرین من عمره، و مع کثرة شعره فلم یطبع له غیر هذا الدیوان حتی الیوم.

و اشترک فی الأحداث الوطنیة، و کتب فی الصحف و المجلات المقالات الرنانة، و نشرت له القصائد الرفیعة، و انضم إلی کتاب الوفد فی الثورات الوطنیة، ثم صار عضوا فی مجلس النواب المصری، ثم عضوا فی المجمع اللغوی فی القاهرة من عام ۱۹۴۳، و ظل یعانی فی آخر حیاته آلام المرض حتی توفاه اللّه إلی رحمته فی لیلة الثلاثاء الثانی و العشرین من اکتوبر عام ۱۹۵۷.

و لقد مضی السید حسن القایاتی فی شعره بجزالة الأسلوب الشعری و فخامته، و شرف المعنی و دقته.

و من شعر یتناول القایاتی فیه بیت عبد الرازق، فیقول:

یا مصطفی أمل الحجافی أمة خطبت حجاها

فطر الملائک ربهافی مثل خیمک، و احتذاها

الشمس بیتک، و العلاتنهل عارفة وجاها

عرفوا أباک فسدتهمو الشمس ما عرفوا أباها

إن تعل أسرة نابهفتعرفوا: من والداها؟

للدین بیت ثقافةللجامعات و ما بناها

فی هدی طه یعتلی‌ناديک، أم فی علم طه؟!

و یعرض القایاتی للازهر فیقول فی القصیدة نفسها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۶ یا سیدا عصفت به‌شیم الجلالة و ابتناها

فتکت بنفسک عزةکالنار یتلفها لظاها

کرم أحل بربه‌تلف الأزاهر فی نداها

ضحک الغواة لنبله‌فبکی الفضیلة و افتداها

أنف الهوان بساحةالبدر یشرق فی ذراها

و من شعره فی الغزل:

إن فی الغادین منی طفلةقام بدع الحسن منها و قعد

صورت من جوهر الشمس فماهی إلا ریق النور جمد

أوقد الحسن علی وجنتهاجمر قلبی، فتلظی و اتقد

یعکف الطرف علیها مغضیاقد رأی قبلة حسن فسجد!

لا یرانی اللّه إلا ذاکراللیلة التودیع، و البین یعد

أقبلت و اللیل یرنو نجمه‌نظرة الزنجی حقدا أو کمد

لا أذم البین ظلما، و فمن فم دان، و خد فوق خد

تمسح الدمع غزیرا بیدثم تدنینی إلی الصدر بید

أرشفتنی ریقة قد بردتمن ثناياها بحبات البرد

و من وطنیاته قوله فی حرب طرابلس «من مقصورة»:

أکیدا لنا یا باعثات العدا؟دعوا البیض مرکوزة و القنا

نصحا لکم. لا تهبجوا الأسودو قد یرسل النصح لا عن هوی

جنیتم وغی، فاجتنوا صابهافإن لکل امرىء ما جنی

أبینا سوی خطتی عزةفإما المعالی، و إما الردی

نجود بأرواحنا لاثنتین غداة الوغی و غداة الندی

زعمتم طرابلس ملکا لکم ألا ما أحب حدیث المنی!

ترون السماء، فهل تدنی لأیدیکمو؟ هی تلک السما!

أجدتم طعان المواسی الرقاق فأما طعان العوالی فلا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۷ و قد تحسنون لقاء الظباء و لا تحسنون لقاء الظبا

رویدا عدید الدبی، تمطروا من النبل مثل عدید الدبی

کأن تدارک وقع النبال علیکم تدارک وقع الحیا

و منها:

ألا یضحک الناس من زائغ یری المهتدین سبیل الهدی؟

و من مستطیل کفور الفؤاد یحاول مسعاة أهل التقی؟

أ للعدل جئتم؟ معاذ الأباء متی عرف العدل فیکم، متی؟

أجودا علی العرب الطاعمین و فی داارکم کل بادی الطوی؟

و برا بقاصیة العالمین و البر أولی به من دنا؟

و ما أصدق ما قال السید، فی أمم الغرب بعامة، لا فی الطلیان بخاصة!

و السید حسن- إلی أنه شاعر فحل- کاتب بلیغ، یتوخی طریقة مزاجا من مذهبی الجاحظ و ابن العمید فی الکتابة: جزالة فخمة، مع الترسل حینا، و مع السجع المطبوع حینا، و ببطیء بقلمه عن المرانة و السرعة التی تستدعیها طبیعة العصر، إباؤه علی التبذل، و سموه عن الاتجار فی أسواق الحیاة. و لو لا ذلک فی العشرة الأوائل من کتاب الشرق العربی.

و یقول فیه الشیخ عبد العزیز البشری: لو تهیأ للبیان أن یتمثل خلقا، لما جمع بیان السید حسن القایاتی، إلا علی صورة صاحبه، و فی مثل شکله و دله، سواء بسواء و لو لم یکن قدر لی أن أری السید حسنا، ثم رأیته، بعد أن نهلت من بیانه، لخیل إلی أنی أتهدی وحدی إلی أن هذا الإنسان، صاحب هذا البیان! عرفت السید من صدر أیام الطلب فی الأزهر، و سرعان ما امتد بیننا حبل المودة فکان من یوم منجمه- وصل اللّه فی عمره- برسل الکلام، و یقرض الشعر، إذ شعره و إذ نثره صورة صادقة حق الصدق، لسهولة نفسه، و جزالة طبعه، و حلاوة خلقه، بل إنک لتحس

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۸

فی بیانه بالحیاء الذی تحسه فیه نفسه.

بعد هذا ضع بیان السید حسن القایاتی، حیث یحلو لتقدیرک. ضعه فی الدرجة الأولی أو ما فوقها، أو تخلف به عنها، فلکل من الناس مذهبه فی تقدیر أصحاب الفنون، و لکنک علی أیة حال تراک مرغما علی أن تقضی بأن بیان السید حسن إنما هو صورة تامة الصدق لما یعتلج فی نفسه، و ما یتدسی فی أطواء قلبه، و هذا الضرب من أهل البیان قلیل!! و هذه المزیة و لک أن تدعوها الموهبة، إنما تنشأ فی أصلها بالفطرة، و تنجم مع الطبع، ما یجدی فی خلقها تفکیر و لا تهذیب، علی أنها تربو و تستحصد بد ذلک بطول التدریب و التمرین، حتی ما یجد صاحبها فکاکا من صدق التعبیر عما یحیک فی نفسه من نزعات الإحساس، و کذلک السید حسن القایاتی، و لعل مما أبلغ السید حسنا هذه المنزلة، بعد توافر الأمرین له، أنه نشأ فی بیت حسب، فهو یأنف من أن یرائی الناس، و یبادلهم بما یراه حقا، و أن اللّه تعالی بسط له فی الرزق فهو غنی عن ترضی الناس بالحق و بالباطل!!! طلبا للمنزلة فیهم، و التماسا للمعروف عندهم. هذا إلی أنه رجل رقیق الحس، مهذب العاطفة، جمیل منزع النفس، و من کان له کل هذا، فهو أجل محلا- من أن یکذب علی عواطفه، و یفتری علی ما یجول فی صدره من نوازع الوجدان. یدلک علی هذا من بیان السید، إن کنت محتاجا فیه إلی بیان، أنک

تراه یتغزل، و أکثر شعره فی الغزل، فیطلع علیک بأرق الکلام، و أعذبه، حتی لیخیل إلیک أنه لا یقول شعرا، و لکنه ینفث سحرا!!! و مع هذا لا ترى فی نسیبه عنفا و لا عربدة، علی نحو ما یصنع متکلفو الغزل من الشعراء!!! ذلک بأنه ترجم عن حسه فحسب، فلم یتکلف، و لم یتعمل لاصطیاد المعانی النائیة، و لم یتعمد المبالغات النابیة، لیزین بها نظم القریض، و إذا کنت ممن یعرفون السید القایاتی و ما أوتی من وداعة الطبع، و ارتیاح النفس، آمنت من فورک بصحة هذا الکلام. و من مییزات شعره:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۸۹

التأنق فی اختیار اللفظ مع صفائه و عذوبته. و ابتداع صور من المعانی لم یسبق إلی أکثرها. و جمال التشبیهات المنتزعة من المدرکات الحسیة.

و استقلال کل بیت من قصیدة بفکرة مستقلة. و تخیر الأوزان و القوافی التی لم یطرقها کثیر من الشعراء.

و من غزل القایاتی فی صدر قصیدة وطنیة، و هو فی شرعة الأدب بدع من البدع لا شعر من الشعر، قوله:

هتفت باکیة یوم الظعن لیت هذا البین لم یملک حسن

غضبة اللّه علی یوم النوی إنه دل علی القلب الشجن

آه من وقفة بین لم تذردمعة فی مقلة الظبی الأغن

مقلة ملأی بسحر لم تبت لیلة فی الدهر ملأی من وسن

و فؤاد أسکنته لوعة ود من طول خفوق لو سکن

أقبلت مطلقة من قرطها زهرة أولی بها ذاک الفنن

تخلط الدل بمضنی حزن حر قلبی، من دلال فی حزن

الشیخ محمد الأسمر

الأسمر معروف فی شتی الأوساط الدینیة، فهو عالم من علماء الأزهر، و موظف فیه، کما هو معروف فی الأوساط الأدبیة، حیث یحبه الناس و یعرفونه بزیه الأزهری الأنیق، و بظرفه المشهور، و بأدبه و شعره الذائعین.

و قد ولد بمدینة دمیاط فی ۶ نوفمبر سنة ۱۹۰۰ میلادیة.

و فی الثامنة من عمره تقریبا دخل تلمیذا بإحدی المدارس الأهلیة بمدینة دمیاط و کان من العلوم التی یتلقاها فی المدرسة حفظ القرآن و قد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۰

حفظ نصفه بها. و بعض المحفوظات الأدبیة شعرا و نثرا، و النحو، و الإملاء و الحساب.

و تخرج فی هذه المدرسة سنة ۱۹۱۴ و زاول التدریس بها شهورا.

لم یسترح إلی التدریس، و کان فی قطرته حب الشعر و المیل إلیه، و مما ساعد علی إظهار ذلک المیل للمحفوظات الأدبیة التی کان یدرسها بالمدرسة الأهلیة، و ما کان یسمعه من قصة أبو زید الهلالی علی الربابة بمقاهی دمیاط، حیث کان یستمع إلیها و هو فی طفولته مع بعض الأطفال الواقفین بجوار المقهی و هو لا یجرؤ علی دخوله و لا تسمح له تربیته المنزلیة و المدرسیة بذلک الدخول، فلما شب قلیلا استغنی عن ذلک الوقوف بشراء قصة أبی زید و غیرها من القصص المعروفة فی ذلک الحین مثل قصة سیف بن ذی یزن، و غیرها و کان یقرأ هذه الأشعار و هذه القصص فی نهم شدید و نشوة تأخذ علیه کل مشاعره.

ثم أحس برغبته إلی الاستزادة من التعلم و حدث أن قابل بعض طلبة معهد دمیاط الدینی و أطلع علی ما بأیدیهم من الکتب فرأی علوما جدیدة بالنسبة له فشاقه ذلک إلی دراستها فالتحق بالمعهد طالبا فی سنة ۱۹۱۵.

و فی سنة ۱۹۲۰ غادر معهد دمیاط لیلتحق بمدرسة القضاء الشرعی و قد نجح فی امتحان المسابقة لدخول هذه المدرسة و ظل بها ثلاث سنوات ثم ألغت الحکومة المصریة لأسباب سیاسیة هذه المدرسة و کانت من خیر المعاهد العلمیة فالتحق طالبا بالأزهر بعد ذلک.

و زاول فی أثناء التحاقه طالبا بالأزهر التصحیح بجریدة السیاسة التی کان یصدرها حزب الأحرار الدستوریین بمصر یعمل بها مساء حتی الساعة الثانیة بعد نصف اللیل و فی الصباح یحضر دروسه طالبا بالأزهر، و استمر علی ذلک ثلاث سنوات ... کان فیها یجمع بین العمل لیلا و نهارا، فی اللیل مصحح بجریدة السیاسة، و فی النهار طالبا بالأزهر و فی ذلک الحین

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۱

کانت تنشر له جریدة «السیاسة الأسبوعیة» قصائده الشعریة و مقالاته الأدبیة، و کان یحبه و یعجب به المغفور له الشیخ مصطفی عبد الرازق و کان الشیخ مصطفی عبد الرازق فی ذلک الحین مفتشا بالمحاکم الشرعیة.

تخرج من الأزهر و نال العالمیة النظامیة سنة ۱۹۳۰.

ثم عین بعد ذلک أمین المحفوظات بإدارة المعاهد الدینیة، ثم معاونا لمکتبة الأزهر، ثم أمینا لمکتبة المعهد الدینی بالأسکندریة مع بقائه بالقاهرة منتدبا للعمل بمکتبة الأزهر، ثم أمینا لمکتبة الأزهر.

حینما غادر دمیاط إلی القاهرة سنة ۱۹۲۰، وجد أمامه آفاقا جدیدة فاتصل بأدبائها و شعرائها کما اتصل بالکثیرین من رجال السیاسة بها و عکف علی قراءة الکثیر من الکتب الأدبیة و دواوین الشعراء قدیمهم و حدیثهم، و استطاع بمثابرته أن یکون و هو طالب من شعراء مصر النابهین.

دخل مسابقات شعریة کثیرة نال فیها الجائزة الأولی و من هذه المسابقات المسابقة التی أقامتها إذاعة لندن بین شعراء البلاد العربیة أثناء الحرب العالمیة الثانیة فقد فازت قصیدته «الدیمقراطیة» بالجائزة الأولی بین شعراء العالم العربی، و قالت عنها جریدة الأهرام إن هذا الفوز الأدبی فوز لمصر، و هذه القصیدة فی دیوان الأسمر ص ۴۴۱ فی باب اجتماعیات.

کان بینه و بین انطون الجمیل رئیس تحریر جریدة الأهرام صداقة و مودة و کان أنطون الجمیل یعجب بشعره کثیرا، و کان لهذا الإعجاب و لجریدة الأهرام الأثر المحمود فی نفس الشاعر، کما کان للمغفور له الشیخ مصطفی عبد الرازق و لجریدة السیاسة الأسبوعیة أثرها المحمود فی أدبه قبل ذلک حینما کان الشاعر طالبا بالأزهر.

ندب مرتین- و هو موظف بالأزهر للعمل بوزارة الداخلیة فی قسم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۲

مراجعة الکتب لإبداء رأیه فیها من الناحیة الدینیة و الاجتماعیة، کما کان یؤخذ رأیه فی بعض الأفلام السینمائیة الأجنبیة قبل عرضها.

و اختیر عضوا فی لجنة النصوص بالإذاعة المصریة، و عمل هذه اللجنة بحث الأغانی من الناحیة الأدبیة و الاجتماعیة لإقرار أو اختیار الصالح للإذاعة أو تعدیله أو استبعاده.

کما اختیر عضوا فی کثیر من لجان المسابقات الشعریة.

و أنشأ فی جریدة الزمان المصریة بابا أسماه رکن الأدب کان یشرف علی تحریره، و کانت الرسالة الأولی لهذا الرکن الأخذ بید الناشئین من الأدباء و تمهید الطریق أمامهم و أمام الشعراء المغمورین للظهور، و قد لاحت لهذا الرکن ثمرات طیبة فی وقت قصیر، و کان له أثره المحمود. و توفی فی ۶ نوفمبر عام ۱۹۵۶.

و الأسمر لا یتعصب لأی لون من ألوان الشعر بل یری أنه من الحق الطبیعی لکل شاعر أن یغرد بما یتفق مع میوله و فطرته. و لکنه یری أن الشعر لا بد له من أمرین: أولهما وضوح المعنی و ثانیهما البراعة الفنیة فی صیاغة التعبیر ... و هو یعد هذین الأمرین جناحی الشاعر الذین یحلق بهما فی سماء الشعر، مثله فی ذلک مثل الطائر لا یستطیع التحلیق بغیر جناحین، لا بجناح واحد.

و من شعره الذی طبع: دیوان «تغریدات الصباح» طبعته و نشرته علی نفقتها دار المعارف و قد نفدت کل نسخه، و کتب مقدمة هذا الدیوان المغفور له أنطوان الجمیل ... و أخرج بعد ذلک مجموعته الکبری المعروفة باسم دیوان الأسمر و هو یقع فی سبعمائة صفحة تقریبا و قد تناولته بالبحث جمیع الصحف و المجلات فی العالم العربی، جمع الشاعر فی هذا الدیوان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۳

کل شعره تقریبا حتی سنة ۱۹۵۰ میلادیة: و الذی وضع مقدمة هذا الدیوان صدیقه الشاعر القائمقام عبد الحمید فهمی مرسی.

و لدی الشاعر مجموعة من الشعر معدة للطبع عنوانها بین الأعاصیر و هی مجموعة ما نظمه بعد سنة ۱۹۵۰.

و أما نثر الشاعر فالمعد للطبع لدیه کتاب «صور و مشاهدات» و هو مجموعة مقالات اجتماعیة ... و کتاب تعلیقات أدبیة.

و من شعر الأسمر قصیدته «الإنسان» أو «و رحلة شهوة».

من شهوة، من دافق بعدهامن دودة، من ذلک الدافق

أودعها الخالق فی ظلمةلم یدر ما فیها سوی الخالق

تحیا و تنمو فی دیاجیرهافی کنف المبدع و الرازق

حتی إذا ما تم تکوینهاو أقبلت من بیتها الضائق

و انحدرت من غیبها قطرةتهوی لبحر العیش من حالق

تعجب الکون لها دودةتجیئه فی منظر رائق

أصبحت الدودة طفلا لهما لزهور الروضة الناضره

تراه فی المهد له نظرةباسمة، مشرقة، باهره

یدیر فی غرفته عینهیسأل عما حوله ناظره

محدق فیما یراه بهایجیل فیها المقلة الحائره

کأنه فی مهده فاحص‌فکم له من نظرة سابره

ینظر فی عینی مستغربایا لجمال النظرة الساحره

بغامة أجمل فی مسمعی‌من بلبل غرد فوق الشجر

فی صوته العذب و أنغامهما لا أراه فی رنین الوتر

یبسم للدنیا و یشدو لهالم یدر من أحوالها ما استتر

محرک أطرافه راجیاإن لم أبادر محله لو طفر

أشرب راحا من سروری بهلم یحسها فی حانة من سکر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۴ فإن بکی کاد فؤادی لهیقفز من جنبیه أو ینفطر

ثم حبا، ثم مشی عابثابکل ما فی البیت لا یفتر

یردد الأقوال کالببغاو فعله تقلید ما ینظر

تضحکنا منه محاکاتهلکل ما یسمع أو یبصر

و هو علی ما فیه من رقةعناده الصخرة لا تکسر

فطبعه غیر مطاع فماأحلاه إذ ینهی و إذ یأمر

أصغر من فی البیت لکنه‌کأنه عائله الأکبر

ثم إذا بالطفل و هو الفتی‌مسترسل الوفرة غض الأهاب

یرنو إلی آماله باسمایمرح فی جیئته و الذهاب

مکتمل الصحة، بادی القوی‌مؤتلق کالسیف، أو کالشهاب

فی خفة الظبی و لکنه‌کأنه من عزمه أسد غاب

یجری کما شاء، و شاء الهوی‌له، و ینقض انقضاض العقاب

یضحک للدنیا ابتهاجا بهاو إنما یضحک فیه الشباب

و ربما أغرق فی کأسهو أذبل الزاهر من عمره

یعاقر الخمر و فیها له‌أنیاب ظمآن إلی عقره

یشربها جمرا مذابا و لایحسس لذع الجمر من سکره

نشوتهما أقدر من ساحریودع ما یودع من سحره

فهو علیها عاکف غافل‌عن شر ما یحسوه من خمره

شاربة شاربها!! لو دری‌ما أقرب الکأس الی ثغره

و ربما ألفیته فی الدجی‌مقامرا أعصابه تحرق

بینا تراه آملا باسماتراه و هو الیائس المحنق

فرحان حزنان معا، إن طفافإنه فی لحظة یغرق

فی حیرة، مضطرب، خائف‌فلیس یدری ما هو الأوفق؟!

کأنه یغشی علیه لمایلقی من التفکیر أو یخنق

و من یقامر فهو فی غنمه‌أو غرمه یسرق أو یسرق

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۵ و ربما ألفیته فی الهوی‌العوبة تلعب أنثی به

کأنه فی عشه کوکب‌یدور حول الشمس من جذبه

یسیر فی آفاقه قابعالسیرها یسبح فی صبه

هام بها فهو لها خاضع‌فی شرقه إن لاح أو غربه

یحیا علی هامشها مثلمایحیا سواء، و هی فی قلبه؟؟

فهی له دنیاه: إن أعرضت‌ضاق به الکون علی رحبه

إن و أصلته فهو فی وصلهایضمها أفعی إلی صدره

أو باعدته فهو فی بعدهایلقی الذی یلقاه من جمره

الحب، ما الحب؟ و ما سره؟أعیانی المکنون من سره

فأی شیء هو فی خیره؟و أی شیء هو فی سره؟

کل غرام فهو لیل له‌بدر فلا تأمن إلی بدره

کم خدعت أنواره عاشقاحتی رأی الصادق من فجره ..

و ربما لام الفتی معشریقال عنهم إنهم أتقیاء

أطرق فی مجلسهم صامتاو صاح فیهم منه طین و ماء

قال لهم إنی أنا داؤهفهل لدیکم للمریض الدواء؟

ألم یکن فی أصله دودةفکیف لا یغمره الاشتهاء

فی الأکل و الشرب، و فی لبسهو جاه دنیاه، و دنیا النساء؟

و مرت الأعوام فی سیرهامسرعة، فی صمتها و السبات

علی جوادین لها: أبیضو أسود، لا یعرفان الثبات

کرهما أصبح منه الفتییذوی کما یذوی نضیر النبات

و راحت العلات تنتابهحتی إذا صاح غراب الشتات

أدرکه ما لیس یخشی الفواتو رفرف الموت علیه فمات

و انتهت الرحلة بعد الذیکان بها من متعة أو عذاب

قد فعل الموت به مثلماتفعله شمس الضحی بالضباب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۶ فأین طفل الأمس؟ أین الفتی؟و أین من کان شابا فشاب؟

أصبح فی جوف الثری جثةحتی إذا طال علیها الغیاب

عادت إلی الأصل ثری فی الثریو حلت الفطرة بین العباب

و قرت الشهوة فی قبرهاو هی تراب أصله من تراب

هیئات التدریس فی کلیات الجامعة الأزهریة

اشارة

فی ۲۴ مارس سنة ۱۹۵۱ اعتمد مجلس الأزهر الأعلی تکوین هیئات التدریس فی کلیات الأزهر، و قد راعی الأزهر فی تکوینها الأسس الآتیة:

أولا: أن یرتب الأساتذة و الأساتذة المساعدون حسب الأقدمیة مع مراعاة الصلاحیة و الکفایة علی أن یختار الأساتذة من بین مدرسی الدرجة الأولی و الثانیة و الثالثة حسبما تقضی المصلحة.

ثانیا: التوسع فی عدد الأساتذة المساعدین بحیث لا یتجاوز فی اختیارهم مدرسی الدرجة الرابعة علی أن یقسم الأساتذة المساعدون إلی:

(أ)، (ب) بنسبة ۳: ۴ حسب ترتیبهم فی الأقدمیة.

ثالثا: یحتفظ للمندوبین خارج البلاد من الأساتذة ذوی الکراسی بکراسیهم، و یشغل مجلس الکلیة هذه الکراسی بمندوبین حتی یعود أصحابها.

رابعا: تکون هیئة التدریس علی الوضع الآتی.

۱- أستاذ حرف (أ)، أستاذ حرف (ب)، أستاذ حرف (ج).

۲- أستاذ مساعد حرف (أ)، أستاذ مساعد حرف (ب).

۳- مدرس (أ) مدرس (ب).

و علی هذا الأساس نظمت هیئات التدریس فی کل کلیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۷

و علی هذا أقر المجلس الأعلی أن تتألف هیئات التدریس فی کل کلیة علی حدة علی النحو الآتی:

فی کلیة أصول الدین

الأساتذة حرف (أ) محمد حبیب و الدکتور محمد ماضی.

و الأساتذة حرف (ب) عبد العزیز حطاب و محمد الشافعی الظواهری و الدکتور محمود حب اللّه و الدکتور عبد الحلیم محمود و عبد القادر خلیف.

و عین الأستاذ حسن أبو عرب و الأستاذ أحمد حسیب الریس أستاذین حرف (ج)

و تتألف هیئة الأساتذة المساعدین حرف (أ) فی کلیة أصول الدین من الأساتذة: إبراهیم جمال الدین و محمود الخضیری و محمود شاکر عبد الله و الشیخ محمد عبد الرحیم سلام و أحمد عیسی الجرجاوی و برکات أحمد برکات و الطیب النجار و محمود سلیمان سعد و أحمد علی و إبراهیم البرمالی و عبده محمد عیسی و حسن شحاته و السید القناوی و الإمام مصطفی و بسیونی نجم الشرقبالی و صالح شرف و محمد الدیناری و إبراهیم المحیص.

و تتألف هیئة الأساتذة المساعدین حرف (ب) فی هذه الکلیة من الأساتذة. حسن المشد و محمد الأودن و السنوسی أحمد و عبد الفتاح السرنجاوی و الدکتور محمد یوسف موسی و محمد أحمدین و عبد الحمید شقیر و إبراهیم زیدان و عبد الحمید الشاذلی و أبو بکر ذکری و محمد یوسف الشیخ و الدکتور محمد غلاب و یوسف عبد الرازق و عبد الرازق سلیمان و عبد الرحمن شاهین و أحمد صقر و حامد زین الدین و عبد السلام الزنفلی و محمود

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۸

العیسوی و منصور رجب و محمد سلیمان بدیر و أبو زید شلبی و محمد فتح بدران و طه الدسوقی العربی و محمد أبو العیون.

و تتألف هیئة المدرسین حرف (أ) فی هذه الکلیة من الأساتذة:

عبد الحمید إبراهیم و مصطفی یوسف موسی و صالح بکیر خورشید و محمد المتولی سعد و علی حموده و عبد الوهاب غزلان و بدوی عبد اللطیف و عبد الحمید بخیت و عبد الفتاح شحاته و علی مصطفی الغرابی و محمد علی أبو الروس و سلیمان دنیا و محمد السماحی و محمد بیصار و حمودة غرابة و محمد أبو شهبة، و عین المشایخ: علی حبر و محمود فیاض و سلیمان خمیس مدرسین حرف (ب).

فی کلیة اللغة العربیة

و تتألف هیئة التدریس فی کلیة اللغة العربیة من حضرات الأساتذة:

أستاذ حرف (أ) محمد محی الدین عبد المجید و عبد الحمید ناصف و الدکتور محمد البهی.

أستاذ حرف (ب) أحمد شرف و الدکتور محمد الفحام.

أستاذ حرف (ج) محمد علی النجار و محمد کامل حسن النفاض.

أستاذ مساعد حرف (أ) عبد المتعال الصعیدی و إبراهیم سلیم و حامد مصطفی و یوسف شبانه و عبد المعطی الفضالی و عبد السلام یوسف و أحمد عمارة و محمد طنطاوی کبیش و أحمد الجبالی الجنجیهی و عبد الهادی العدل و أحمد شفیع و محمود رزق سلیم و محمد صلاح الدین أبو علی.

أستاذ مساعد حرف (ب): عمر مرغنی و عبد الحمید عوض و حامد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۱۹۹

عونی و عبد الله الشربینی و محمد المبارک عبد الله و محمد سلیمان البحری و أحمد ابو غنیم و عبد الغنی إسماعیل و محمد داود البیهی و عبد السمیع شبانه و محمد عبد الجواد خضیر و محمود مکاوی و جابر إسماعیل و یوسف حسن عمر و إبراهیم أبو عطیة و أحمد إبراهیم موسی.

مـدرسون حرف (أ): أحمـد ریاض و علی عبد الجلیل و عبد الخالق سـلیمان و عبد العزیز أحمد و فهمی العنانی و بدیر عبد اللطیف و أحمد الحجار و حامد البلتاجی و محمد مصطفی شحاته و محمود جمیلة و یوسف الضبع و أحمد کحیل و یوسف البیومی البسیونی و عبد الحمید المسلوت و عبد اللطیف سرحان و حنفی عبد المتجلی و حنفی حسنین و محمد أبو النجا سرحان و زکی غیث و محمد أحمد عبد الرحیم و أحمد إبراهیم شعراوی و أحمد السید غالی و عبد الحسیب طه حمیده و محمد نایل أحمد و محمد عبد الخالق عضیمة و محمد کامل الفلاح و أحمد عبد العال أبو طالب و علی إبراهیم البطشة و محمد قناوی عبد الله و عبد المقصود السعداوی و إبراهیم علی شعوط و سلیمان ربیع و محمد رفعت فتح اللّه و إبراهیم محمد نجا و حسن محمد الشافعی الظواهری و محمد یوسف و أمین عبد الله فکری و یحیی محمد عبد العاطی و محمد جمعة حسنین و صادق خطاب و محمد السید نعیم و محمد کامل الفقی و عبد الحمید عبده عطوه و عبد العاطی محمد مصطفی و ریاض هلال و محمود محمد زیادة و حسن جاد حسن و محمد عبد المنعم خفاجی، و جاد محمد رمضان و عبد العظیم الشناوی و عبد السلام أبو النجا سرحان و محمد مصطفی النجار و أحمد مجاهد مصباح و عوض اللّه جاد حجازی و محمود فرج العقدة .

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۰

فی کلیة الشریعة

و تتألف هیئة التدریس فی کلیة الشریعة من حضرات الأساتذة:

أستاذ حرف (أ): محمد الجهنی و حامد جاد و عبد الحفیظ الدفتار.

و أستاذ حرف (ب): الدکتور علی عبد القادر و محمد الشایب و طه سلطان و عبد الله عامر.

و أستاذ حرف (ج): محمد عبد السلام القیانی و عثمان صبره و محمد عبد اللطیف السبکی.

أستاذ مساعد حرف (أ): محمد عبد المجید الشرنوبی و حسن علی مرزوق و محمد عبد الله الجزار و عبد الوهاب فره و محمد سامون و عبد ربه زیادة و محمد سید أحمد جاد و محمد هاشم الشیخ و حسین علی إدریس و محمد البسیونی زغلول و عبد المجید دراز و موسی اللباد و شبل یحیی و محمود عبد الغفار و محمود عبد الدایم و طه ناصر و سلیمان داود و أحمد نور الدین و محمد حبشی السعداوی و محمود شهاب و إسماعیل الدوی و سید شاهین و محمد یوسف البریری و عبد العزیز نور الدین و إبراهیم سعده.

أستاذ مساعد حرف (ب): محمد بدران و قطب سلامة و علی عبد المجید و علی الجنزوری و محمد جیرة اللّه و محمد علی السایس و حسن المرصفی و محمد الکشکی و سلیمان عبد الفتاح و محمد عیسی الشنتلی و عبد الحفیظ فرغلی و عبد الله المشد و یوسف المنیاوی و سید شرف و عبد الحمید حمدی و محمد إسحاق الحداد و محمد إبراهیم المحمودی و محسن أبو دقیقة و أحمد المسلمی و طه الدیناری و محمد حسن شبانه و محمد سلیمان حرب و عبد الرحیم فرغلی و عبد العظیم الرولی و عبد العظیم برکه و مصطفی عبد الخالق و یوسف علی یوسف و محمود خلیفة و عبد الحکیم علی مصطفی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۱

و محمد أبو النور زهیر و محمد السید طه.

مدرس حرف (أ): محمد محی الدین رزق و أبو العنین شحاته و مصطفی ماجد و عبد العزیز عیسی و بدر المتولی عبد الباسط و جاد الرب رمضان و إبراهیم أبو الخشب و طاهر عبد المجید عبد الله و شمس الدین عبد الحافظ و محمد عبد الوهاب بحیری و أحمد أبو سنه و سید جهلان و عبد الحکم عمارة و عبد الغنی عکاشة و عیسوی أحمد عیسوی و أحمد ندا و عبد الغنی عبد الخالق و إبراهیم الدسوقی الشهاوی و محمد عبد النبی عبد السلام و طنطاوی مصطفی و حسن مصطفی و هدان و عبد السمیع إسماعیل و یوسف شلبی و عبد الوهاب عبد اللطیف و عثمان مریزق و محمد عبد اللطیف الشافعی و عبد العظیم فیاض و عبد العال عطوه و زکی الدین شعبان

و محمد مصطفی شلبی و أحمد محمود الصاوی و إبراهیم عبد المجید.

مدرس حرف (ب): محمد حسن فاید و محمد أنیس عباده و عبد القوی عامر الزغبی و أحمد البهی و سید خلیل الجراحی و أحمد محمد سید الحصری و محمد محمد فرج سلیم ... و قد وافق المجلس بعد ذلک علی ما اقترحته اللجنة من نقل جمیع المندوبین من المعاهد فی الکلیات إلی الکلیات بصفة نهائیة و قبولهم ضمن هیئة التدریس بالکلیات و کذلک وافق علی تنظیم هیئة تدریس بالکلیات، علی أن یختار الأساتذة من بین مدرسی الدرجات الأولی و الثانیة و الثالثة، ثم قرر الوسع فی عدد الأساتذة المساعدین بحیث لا یتجاوز فی اختیارهم مدرسی الدرجة الرابعة کما قرر أن یکون اختیار المدرسین من الدرجتین الخامسة و السادسة.

أما المدرسون الذین لیست لموادهم کراسی فقد وافق المجلس علی أن یوضع لهم کادر مستقل عن الکادر الجامعی یطلق علیه اسم کادر المدرسین النظراء، و أن یکون حکمه فی الترقیة علی أساس الأقدمیة المشترکة بینهم.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۲

و منذ تکوین هیئات التدریس حتی الیوم و أساتذة الکلیات یطالبون بأن یکون لهم کادر جامعی علی غرار کادر الجامعات، و للأسف لم یستجب لطلبهم العادل حتی الیوم.

و مع ذلک فلم یحقق رجاؤهم فی فتح أقسام الدراسات العلیا المغلقة منذ ۱۹۴۰ حتی الیوم، و کان من المأمول افتتاحها لتظل صبغة الأزهر الجامعیة موفورة له، و لکن سیاسة الأزهر لا تزال هی سیاسة الرجعیة الثقافیة و العلمیة، و تعطیل شباب الأزهر من أداء رسالتهم.

أهداف الأزهر الجامعی

اشارة

إن هدف الأزهر الجامعی یجب أن یکون هو حمل نصیبه من المسئولیة فی ترقیة العلوم الإسلامیة و العربیة، و المساهمة فی نهضة البلاد العامة، و العنایة بالبحث العلمی و متابعة تطوره علی أتم وجه، و تنمیة الاستقلال الفکری، و أداء رسالته الدینیة أداء کاملا.

و یتصل بهذا أن یعمل الطالب الأزهری بنفسه لنفسه، و ألا یکون اعتماده علی الأستاذ إلا للتوجیه أو لتوضیح ما استعصی علیه من المسائل.

و أن یبذل الأزهر مزیدا من العنایة لتهیئة البیئة الجامعیة الصالحة للطلاب، و توفیر أسباب النشاط الدینی و الروحی و الثقافی و الاجتماعی و الریاضی لهم، و تکوین اتحاد عام ینظم شئونهم الاجتماعیة و الثقافیة.

و یجب أن یکون فی کل کلیة مجلس للأساتذة و الأساتذة المساعدین و المدرسین بإشراف عمید کل کلیة، و یکون من اختصاص هذا المجلس ما یلی:

الاختصاصات الإداریة:

(أ) ترشیح المعیدین و الأساتذة المساعدین و الأساتذة غیر ذوی الکراسی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۳

(ب) إعلان خلو مناصب المدرسین و الأساتذة ذوی الکراسی.

الاختصاصات الدراسیة:

(أ) وضع مناهج التدریس و توزیعها علی سنی الدراسة.

(ب) ترتیب الأعمال الدراسیة التی یقوم بها أعضاء هیئة التدریس فی کل عام.

(ج) الإشراف علی التدریس عن طریق الأساتذة و عن طریق تقدیم کل عضو تقریرا سنویا عن سیر الدراسة فی مادته، و ما عنده من مقترحات فی هذا الشأن.

(د) القیام بأعمال الامتحانات و متابعة أحوال الطلاب فی دراساتهم.

الاختصاصات العلمیة:

(أ) تهیئة المحیط العلمی و المکتبات و استقدام أساتذة زائرین للمحاضرة توجیها للبحث العلمی.

(ب) اقتراح البعثات و الإجازات المدرسیة لاعضاء هیئة التدریس، و الإجازات الدراسیة تکون إما داخلیة یتخفف بها العضو من التدریس، أو ینقطع عنه لبحث علمی بعده. و إما خارجیة یسافر إلی بلد أجنبی، لإعداد بحث علمی بعینه و یرسم خطته قبل السفر. و تخصص جوائز لمن یقوم ببحوث علمیة ممتازة. و یجوز تفرغ بعض قدماء الأساتذة للبحث العلمی و الاقتصار علی التدریس فی أقسام الدراسات العلیا، لتکوین الطلبة فی هذه الأقسام، بشرط أن یکون الأستاذ قد سبق له إنتاج علمی ممتاز متکرر، و أن یکون قد بلغ من العمر الستین. و أن توافق اللجنة العلمیة الدائمة علی تفرغه.

(ج) القیام علی نشر البحوث العلمیة.

و من الضروری کذلک فتح أقسام الدراسات العلیا فی الأزهر و تکون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۴

الدراسة فیها علی مرحلتین: مرحلة التحضیر للشهادة العالمیة، و مرحلة التحضیر لشهادة الأستاذیة (الدکتوراه) و أن یختار الناجحون من المرحلة الأولی معیدین فی الکلیات.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۵

الباب الحادی عشر

من تاریخ الأزهر الأزهر جامعا و جامعة

-۱-

أعرق الجامعات العلمیة فی العالم، فهی أطولها عمرا، و أجلها أثرا فی تاریخ الفکر الإنسانی، و فی تاریخ العقل العربی و الإسلامی بل فی تاریخ العلم و میراث الحضارة کافة.

و الأزهر منذ نشأته حارس التراث العربی، و حامل مشعل الثقافة الإسلامیة، و الملاذ الذی تأوی إلیه العلماء، و تهوی إلیه أفئدة المسلمین فی کل مکان، و الضوء الذی ینیر لهم الطریق، و یبصرهم سواء السبیل.

و للأزهر مکانته الخالدة فی مصر و العالم الإسلامی جمیعه، و آراؤه و فتاوی علمائه تقابل من کل مسلم فی جمیع الشعوب الإسلامیة بالتقدیر و الإجلال و الحب العمیق.

و لم تقم فی مصر الإسلامیة جامعة علمیة بالمعنی الصحیح قبل الأزهر، صاحب التاریخ الطویل، و الذکریات المجیدة، و الآثار العلمیة و الدینیة و العقائدیة.

و تاریخ العلم فی الإسلام یرتبط بالمسجد ارتباطا روحیا وثیقا؛

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۶

فالمسجد الحرام فی مکة، و المسجد النبوی فی المدینة، و الجامع الأموی فی دمشق، و جامع الفسطاط و جامع القیروان، و مسجد البصرة الجامع، و مسجد الزیتونة، و مسجد قرطبة الجامع، و مسجد القرویین بفاس، و الأزهر، و سواها؛ کلها کانت مأوی الحلقات العلمیة الجامعیة فی تاریخ الإسلام، و الجامعة کذلک نسبة إلی الجامع بمعنی المسجد، و فی ذلک تفسیر واضح لصلة المسجد بالثقافة، و لأهمیة الثقافة فی الإسلام.

-۲-

و الأزهر، أو جامع القاهرة، کما کان یقال، هذا المسجد الجامعی، قاهری البیئة، فاطمی التأسیسی، أنشأه جوهر العقلی قائد الخلیفة المعز لدین اللّه الفاطمی، بعد قیام دولة الفاطمیین فی مصر بنحو عام، و قد شرع فی بنائه یوم السبت لست بقین من جمادی الأولی سنة ۳۵۹ ه- ۹۷۰ م، و یذکر بعض المؤرخین أنه شرع فی بنائه یوم السبت الرابع من رمضان من العام نفسه؛ و کمل بناؤه لسبع خلون من رمضان عام ۳۶۱ ه- ۲۲ یونیو ۹۷۲ م. و کان الغرض من إنشائه أن یکون رمزا للسیادة الروحیة للدولة الفاطمیة، و منبرا للدعوة التی حملتها هذه الدولة الجدیدة إلی مصر، و أطلق علیه اسم الأزهر نسبة إلی السیدة فاطمة الزهراء التی ینتسب إلیها الفاطمیون، أو لأنه کان یحیط به قصور فخمة تسمی الزهراء، أو لأنه کان یظن أنه أکثر الجوامع فخامة و رواء، أو للتفاؤل بأنه سیکون أعظم المساجد ضیاء و نورا. و قد احتفل بافتتاحه فی رمضان عام ۳۶۱ ه، و أصبح مسجد الدولة الرسمی.

و قد حرص وزیر المعز و العزیز یعقوب بن کلس علی أن یقیما حلقة علمیة فی الأزهر، حیث کان یقرأ علی الناس فی مجلس خاص یوم الجمعة مصنفاته فی الفقه الفاطمی، کما کان یجتمع یوم الثلاثاء بالفقهاء و جماعة المتکلمین و أهل الجدل.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۷

و حرص الخلیفة المعز الفاطمی کذلک علی تکلیف کبار العلماء بإقامة حلقات علمیة فی أروقة الأزهر لتدریس الفقه الفاطمی، و کان یمنحهم مرتبات شهریة، و من ثم صار الأزهر جامعة علمیة، و ظهر ذلک جلیا واضحا حینما بدأت حلقاته تتحول إلی دراسات جامعیة علمیة مستقرة، و ذلک عام ۳۷۸ ه- ۹۸۸ م حیث استأذن ابن کلس الخلیفة الفاطمی العزیز باللّه (۳۶۵- ۳۸۶ ه) فی أن یعین بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة و الدرس من کل جمعة یعین بعد الصلاة حتی العصر، و کان عددهم ۳۷ فقیها

و فی عام ۳۸۰ ه- ۹۹۰ م رتب المتصدرون لقراءة العلم بالأزهر؛ و بذلک استکمل الأزهر صبغته الجامعیة، و أصبح معهدا جامعیا للعلم و التعلیم و الدراسة. و من هذا التاریخ بدأ الأزهر حیاته العلمیة الخصبة المنتجة.

و استمرت الحرکة العلمیة و الدینیة فی الأزهر قویة مزدهرة طیلة العصر الفاطمی، و وقفت علیه الدولة الأوقاف الضخمة، و أحاطته برعایتها و اهتمامها، و کان فی مقدمة و أوائل أساتذته المدرسین فیه بنو النعمان قضاة مصر.

و أول درس ألقی فی الأزهر کان فی صفر ۳۶۵ ه فی نهایة حکم المعز لدین اللّه، ألقاه قاضی القضاة أبو الحسن علی بن النعمان، حیث قرأ فیه مختصر أبیه فی فقه آل البیت المسمی «الاقتصار» و حضره العلماء و الأمراء، و أثبتت أسماء الحاضرین فی سجل خاص أما دروس ابن کلس فبدأت فی رمضان عام ۳۶۹ ه، و لکن جهوده فی سبیل تطویر الدراسة فی الأزهر کانت سابقة علی هذا التاریخ.

و لما أنشأ الحاکم الفاطمی دار العلم (دار الحکمة) لم تزدهر إلا قلیلا، و بخاصة فی عصر الحاکم نفسه. و بقیت للأزهر منزلته العلمیة الرفیعة، و قصده الطلاب من کل مکان، و کان العالم یفخر بأنه أحد أساتذته الأزهر فی ألف عام ؛ ج۳ ؛ ص۲۰۸

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۸

أو أنه قد حاضر فیه یوما من الأیام.

و یذکر المقریزی فی خططه أن النساء کن یحضرن حلقات العلم فی الجامع الأزهر [۲: ۲۲۶ الخطط للمقریزی].

و ممن ألقی محاضراته فی الأزهر: المؤید الشیرازی داعی الدعاة فی عهد المستنصر الفاطمی، و أولی محاضراته فیه تقرؤها فی کتاب

«الأزهر فی ألف عام» [۱: ۳۲].

و من أوائل الکتب التی درست فی الأزهر: الاقتصار للنعمان القیروانی (۳۶۳ ه)، و کان یدرسه ابنه علی بن النعمان؛ و الرسالة الوزیریة التی ألفها ابن کلس.

و کان التدریس فیه یجری وفق المذهب الشیعی، و شدد علی ذلک فی بادیء الأمر، حتی أنه فی عام ۳۸۱ ه فی عهد العزیز قبض علی رجل وجد عنده کتاب «الموطأ» للإمام مالک، و جلد من أجل إحرازه [۲: ۱۵۷ الخطط للمقریزی]. و فی عام ۴۱۶ ه أمر الخلیفة الفاطمی بتدریس کتاب «دعائم الإسلام».

و من أساتذته فی العصر الفاطمی کذلک: العلامة الحوفی (ت:

۴۳۰ ه) إمام العربیة، و صاحب کتاب «إعراب القرآن»؛ و ابن بابشاذ النحوی (۴۶۹ ه) صاحب کتاب «المقدمة» و «شرح الجمل»؛ و ابن القطاع اللغوی صاحب کتاب «الأفعال»، و المسبّحی الوزیر الکاتب (۴۲۰ ه)، و القضاعی (۴۵۴ ه) و هو من أقطاب الحدیث و الفقه، و ابن زولاق المؤرخ (۳۸۷ ه)، و ابن یونس المنجم (۳۹۹ ه) و غیرهم.

-۳-

کانت بیئة العلم فی مصر قبل الأزهر تترکز فی حلقات جامع عمرو، ففیها یتعلم الطلبة، و یحاضر الأساتذة، و یتخرج العلماء و الأدباء، و کان من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۰۹

أوائل الأساتذة الذین درسوا فیه: عبد الله بن عمرو بن العاص، و ابن لهیعة، ثم اللیث بن سعد، و عثمان بن سعید المصری و هو أصحاب القراءات.

و کان للأمام الشافعی حلقة علمیة فیه، یدرس فیها مذهبه، و یدوّن آراءه؛ و علی یدیه تخرج کثیر من تلامذته الذین نشروا مذهبه، کالربیع بن سلیمان، و المزنی و البویطی، و غیرهم، و من ثم أصبحت السیادة للمذهب الشافعی بعد أن کانت للمذهب المالکی، الذی کان أول من أدخله إلی مصر عثمان بن الحکم الجذامی (۱۶۳ ه).

و قد تخرج أبو تمام (۲۳۱ ه) فی الأدب و الشعر فی حلقات مسجد عمرو العلمیة، و کان ذو النون المصری (۲۴۵ ه) ممن تخرج فی حلقاته.

و لما أنشیء جامع ابن طولون عام ۲۶۳ ه فی عهد أحمد بن طولون (۲۵۲- ۲۷۰ ه) شارک هذا المسجد الجدید جامع عمرو فی رفع مشاعل العلم و الثقافة، و أملی الحدیث فیه الربیع بن سلیمان تلمیذ الإمام الشافعی، و صلی فیه القاضی بکار إماما، و خطب فیه أبو یعقوب البلخی.

و کان من أشهر العلماء قبیل انشاء الأزهر ممن کانوا یدرسون فی جامع عمرو (المسجد العتیق) و فی المسجد الطولونی: أبو القاسم بن قریر، و تلمیذه الکندی المؤرخ المشهور، و أبو القاسم بن طباطبا.

و لما وفد المتنبی إلی مصر عام ۳۴۶ ه کانت له حلقة فی مسجد عمرو، و کانت من أحفل حلقات العلم و الأدب و الشعر و اللغة.

و لما قام الأزهر فی عاصمة مصر القاهرة بدأ بفرض سیادته العلمیة علی کل البیئات الثقافیة فی مصر، و تأکدت هذه السیادة کذلک علی بیئات العلم فی مختلف أنحاء العالم الإسلامی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۰

-۴-

و انتهی العصر الفاطمی بعد أن بلغ الأزهر فیه قمة مجده العلمی.

و لم یکد العصر الأیوبی یبدأ حتی بدأت مکانة الأزهر الدینیة تتعرض لضغط الحکام و الأمراء، إذ کان الأیوبیون یحاولون القضاء علی کل مظاهر التشیع فی مصر، و لکن حلقات الأزهر العلمیة الجامعیة لم تتعرض لمثل ما تعرض له الأزهر جامعا و مسجدا فقد حولت عنه صلاة الجمعة و خطبتها إلی مسجد الحاکم، و لم تعد خطبة الجمعة إلی الأزهر إلا عام ۶۶۵ ه فی عهد بیبرس، و ظلت الشخصیة العلمیة للأزهر قویة.

و کان موسی بن میمون طبیب صلاح الدین الأیوبی یلقی دروسا فی الریاضة و الفلک و الطب فی الأزهر، و کذلک کان عبد اللطیف البغدادی یحاضر فی الکلام و البیان و المنطق و الطب. و کان لابن الفارض حلقة صوفیة فیه.

و من أشهر علمائه فی هذا العصر: الإمام المنذری المحدث و کان یلقب بشیخ الإسلام، و ابن أبی الإصبع، و القضطی الوزیر، و غیرهم.

-۵-

و فی عصر المالیک، ازدهرت حلقات الأزهر الجامعیة، و قصده أعلام الفکر العربی لذلک الحین من أمثال السهروردی، و ابن خلدون، و ابن منظور، و الفیروز أبادی، و غیرهم. کما أمّة الطلاب من مختلف أنحاء العالم العربی و الإسلامی، یقیمون حوله، و یقطنون فی أروقته، و یجلسون فی حلقاته، و یشارکون فی نشاطه العلمی، و قد بلغ عددهم فی أوائل القرن الثامن الهجری زهاء ۷۵۰ طالبا، و یقول عالم سودانی من خریجی الأزهر یمدح أحد ملوک الفونج فی سنار، و هو السلطان بادی أبو دقن:

أیا راکبا یسری علی متن ضامرإلی صاحب العلیاء و الجود و البر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۱ و یطوی إلیه شقة البعد و النوی و یقتحم الأوعار فی المهمة القفر

و ینهض من مصر و شاطیء نیلهاو أزهرها المعمور بالعلم و الذکر

و من أشهر علمائه فی ذلک الحین: العز بن عبد السلام الإمام العالم الثائر، صاحب المواقف المجیدة فی التاریخ الإسلامی، و ابن هشام النحوی، و ابن دقیق العید، و السبکی، و السیوطی، و شیخ الإسلام زکریا الأنصاری، و کذلک ازدان الأزهر بآلاف العلماء البارزین فی علوم الدین و العربیة و الأدب، و من بین من تخرج فیه فی ذلک العهد: القلقشندی، و الدمیری، و المقریزی، و غیرهم.

و استکمل الأزهر سیره فی العهد العثمانی کذلک، محافظا علی تراثه، اللغة و علومها، و علی الآداب و فنونه، إلی دراساته الإسلامیة العتیدة. و من کبار شیوخه فی هذا العهد: الإمام السنباطی (۹۵۰ ه) و مواقفه فی مقاومة طغیان الحکام خالدة، و الإمام المهناوی (۹۵۰ ه)، و العلامة البرماوی (۱۱۰۶ ه)، و الشیخ الخرشی المالکی أول شیخ للأزهر، و من عهده صار منصب مشیخة الأزهر من أکبر المناصب العلمیة فی العالم الإسلامی، و توفی عام ۱۱۰۱ ه. و خلفه البرماوی [۱۱۰۶ ه]، فالتشرتی (۱۱۲۰ ه)، فالقلینی، فالشیخ محمد شنن (۱۱۳۳ ه)، فالشیخ الفیومی (۱۰۶۲- ۱۱۳۷ ه)، فالشیخ عبد الله الشبراوی (۱۱۷۱ ه) و له شعر صوفی رفیع، فالشیخ الحفنی (۱۱۰۰- ۱۱۸۱ ه)، و له شعر صوفی رمزی باللغة العربیة و اللغة الشعبیة الدارجة؛ ثم الإمام السجینی (۱۱۸۲ ه)، فالدمنهوری (۱۱۹۲ ه).

و فی عصر الأتراک العثمانیین قاد الأزهر حرکات التحرر الکبری، و من بینها: ثورة الإمام الشیخ الدردیر التی قادها عام (۱۲۰۰ ه- ینایر ۱۷۸۶ م)، و ثورة الإمام الشیخ عبد الله الشرقاوی عام ۱۲۰۹ ه- ۱۷۹۵؛ و قد کسب الشعب المصری من الثورة الأولی مبدأ دستوریا جلیلا هو وجوب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۲

احترام الحاکم لإرادة المحکومین، و کسب من الثانیة مبدأ آخر هو أن الأمة مصدر السلطات، و کانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان سبق به شعب مصر غیره من الشعوب، کما اعترف بذلک المؤرخون فی الشرق و الغرب.

و قد حمل علماء الأزهر و طلابه عبء الجهاد لتحریر مصر من الاحتلال الفرنسی منذ دخل جیش نابلیون بلادنا فاتحا.

کما قام الأزهر بثورة أخری بقیادة عمر مکرم فی صفر ۱۲۲۰ ه:

۱۸۰۵ م لإنهاء النفوذ الترکی من مصر، و هی الثورة التی استغلها محمد علی، فحولها إلی مغانم شخصیة له و لأسرته.

و الثورة العرابیة هی فی الحقیقة ثورة قام بها أحد أبناء الأزهر و خریجیه، و هو الزعیم أحمد عرابی، و وقف علماء الأزهر معه یؤیدونه و یدعمون ثورته، و لکن خیانة توفیق جرت علی الوطن الاحتلال الانجلیزی البغیض.

و قامت ثورة شعبیة بقیادة أزهری آخر هو سعد زغلول، و ذلک فی مارس من عام ۱۹۱۹، لإنهاء الاحتلال الانجلیزی لمصر.

و من أعظم حرکات الإصلاح فی العالم الإسلامی فی العصر الحدیث حرکة الإمام محمد عبده، و هو من أجل شیوخ الأزهر، و أعظم علمائه، و من تلامذته: محمد مصطفی المراغی، عبد المجید سلیم، محمد الأحمدی الظواهری، مصطفی عبد الرزاق، إبراهیم حمروش، محمد مأمون الشناوی، و هم من أشهر شیوخ الأزهر فی العصر الحدیث.

-۶-

و قد أکد صبغة الأزهر الجامعیة شیخان جلیلان من کبار شیوخه فی العصر الحدیث هما: الشیخ محمد الأحمدی الظواهری الذی أصدر قانون رقم ۴۹ لسنة ۱۹۳۰ بإنشاء کلیات جامعیة فی الأزهر، و الشیخ محمد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۳

مصطفی المراغی، الذی أصدر قانون رقم ۲۶ لسنة ۱۹۳۶ بشأن إصلاح الأزهر و تأکید الصبغة الجامعیة له و إنشاء دراسات علیا فیه.

و کان أعظم حدث علمی فی تاریخ الأزهر الحدیث هو صدور قانون تطویر الأزهر المعروف بقانون رقم ۱۰۳ لعام ۱۹۶۱، و بمقتضی هذا القانون قامت فی الأزهر الجامعة العلمیة الکبری، تضم کلیات إسلامیة، و کلیات علمیة، و أخذت من القانون سند وجودها الرسمی، و إن کان لها من التاریخ سند وجودها الفعلی.

و کما تولی مشیخة الأزهر الشیخ حسن مأمون، و إدارة جامعة الأزهر الدکتور محمد البهی، و الشیخ أحمد حسن الباقوری

و حلقات الأزهر العلمیة الجلیلة تعیش الیوم کما کانت تعیش خلال الأجیال، لتحمل عن العالم الإسلامی رسالة الإسلام الروحیة و الدینیة و الثقافیة، و لتؤدیها ناصعة بیضاء کخیوط الفجر، مشرقة هادیة کضوء الشمس، و من هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الإسلامی القدیم، و یتخرج شباب المسلمین الیوم، لأن هذه الحلقات هی عن جدارة بمثابة مصنع یصنع الرجال و الأبطال فی کل عصر، و کل مکان من بلاد الإسلام و المسلمین.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۵

الجامع الأزهر

اشارة

کان بناء (المسجد) أول ما یفکر فیه المسلمون عند إنشاء مدینة جدیدة، أو استیلائهم علی مدائن غیرهم، و قد وضع هذه السیاسة الخلیفة الثانی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه الذی کتب إلی ولاة الأمصار باتخاذ مساجد للجماعة فی العاصمة.

و قد نفذت هذه السیاسة فی مصر منذ الفتح الإسلامی، حیث أسس عمرو بن العاص مدینة (الفسطاط) سنة ۲۱ ه، و بنی فیها جامعة العتیق.

و لما جاء العباسیون أسس صالح بن العباسی مدینة (العسکر) سنة ۱۳۳ ه، و بنی الفضل ابنه مسجد العسکر سنة ۱۶۹ ه، و کان قد ولی مصر من قبل الخلیفة المهدی علی صلاتها و خراجها، فدخلها سلخ المحرم سنة ۱۶۹ ه.

فلما استقل أحمد بن طولون بمصر بنى مدينة (القطائع) لتكون عاصمة لدولته سنة ۲۵۶ ه، ثم أنشأ بها جامعه المشهور سنة ۲۶۳ ه.

و لما استولى جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى على مصر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۶

أسس (القاهرة و بنى بها (الجامع الأزهر) سنة ۳۵۹ ه، فأنشىء الأزهر غداة ظفر الفاطميين بملك مصر، و مع قيام القاهرة العاصمة الجديدة ، فكان الأزهر خير ما خلفه الفاطميون لمصر، بل و للعالم الإسلامى أجمع، فكان بيتا من بيوت اللّه، يعمر النفوس بالإيمان، و يهديها سواء السبيل، ثم صار جامعة دينية إسلامية كبرى، يؤمها طلاب العلم من جميع الأقطار الإسلامية، و يتخرج فيها العلماء و الأئمة فى جميع العلوم و الفنون.

تاريخ إنشائه

و قد بدىء بإنشاء الأزهر فى ۲۴ من جمادى الأولى سنة ۳۵۹ ه (۹۷۰ م)، و تم بناؤه فى عامين و بضعة أشهر، و افتتح للصلاة فى يوم الجمعة السابع، أو التاسع من رمضان سنة ۳۶۱ ه (۹۷۲ م)، و سمى (بجامع القاهرة) اسم العاصمة الجديدة، أما تسميته (بالجامع الأزهر) فقد جاءت متأخرة بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عهد العزيز بالله (۳۶۵- ۳۸۶ ه) التى أطلق عليها اسم (القصورة الزاهرة) و من ثم أطلق اسم (الجامع الأزهر)، أو أنه سمى (الجامع الأزهر) تفاؤلا بما سيكون له من مستقبل زاهر، و مكانة سامية بازدهار العلوم فيه، و إن كان المرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ (الزهراء) لقب السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة و السلام، و زوج الإمام على رضى اللّه عنه التى نسبت إليها الدولة الجديدة، و سميت باسمها، و قد ظل المسجد الجديد يعرف (بجامع القاهرة، و الجامع الأزهر) ثم تلاشى الاسم الأول مع الزمن و غلب عليه اسم (الجامع الأزهر) إلى اليوم.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۷

و الغرض منه

و كان الغرض من إنشائه أن يكون المسجد الرسمى للدولة فى حاضرتها الجديدة، و ليكون موطن الدعوة الشيعية، و رمز سيادة الدولة الروحية، و كانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة، ففيه كان جلوس قاضى القضاة، و فيه مركز المحتسب العام، و فيه كان يعقد كثير من المجالس الخلاقية و القضائية.

فالجامع الأزهر عند إنشائه كانت له الصفة الدينية و الرسمية كسائر المساجد الأخرى، غير أنه لم يلبث أن اتخذ له صفة أخرى هى الصفة (العلمية التعليمية)، و ذلك عند ما فكر الخلفاء الفاطميون فى نشر مذهبهم الجديد، عن طريق دروس تلقى فى حلقاته، لأن جامع عمرو، و جامع ابن طولون قد جرت الدراسة فيهما، وفق تقاليد علمية، لا- تساير تعاليم المذهب الشيعى الجديد فكان من المناسب أن يكون المسجد الجديد (الأزهر) هو المكان المختار، لنشر تعاليم مذهبهم، و أصبح (الجامع الأزهر) مدرسة علمية يتلقى فيها طلاب العلم و رواده الذين قصدوه من كل صوب مختلف العلوم و الفنون، بجانب نشر دعوتهم، و مذهبهم الشيعى الجديد، و سبق الأزهر بصفته العلمية غيره من المساجد الأخرى، التى كانت تقوم إلى جانبه، و ظل مدى قرون، و لا يزال مقصد طلاب العلم من كافة أرجاء العالم الإسلامى.

أول درس فيه

و أول درس ألقى فى (الجامع الأزهر) ألقاه قاضى القضاة (أبو الحسن على بن النعمان) فى صفر سنة ۳۶۵ ه فى أواخر أيام المعز الفاطمى، قرأ فيه مختصر أبيه فى فقه آل البيت المسمى (الاقتصار)، و حضر درسه جمع حافل من العلماء، و الكبراء، و أثبتت أسماء

الحاضرين

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۸

فی سجل تخليدا لهذا الحدث الجديد، ثم توالت حلقات بنی النعمان، و قد أسهمت هذه الأسرة فی نشر المذهب الشيعی، و خدمت الفاطميين فی بث دعوتهم، و نشر مذهبهم فی المغرب و مصر ، و كانت فی الواقع دروسا مذهبية خالصة أعدت للدعاية السياسية و المذهبية.

ابن كلس

و فی رمضان سنة ۳۶۹ ه جلس (يعقوب بن كلس) وزير الخليفة العزيز بالله فی الجامع الأزهر، و قرأ علی الناس كتابا ألفه فی الفقه الشيعی علی مذهب الإسماعيلية، و توالی جلوسه بعد ذلك لقراءته فی الأزهر، و كان يحضر دروسه الفقهاء و القضاة، و كبار رجال الدولة، كما كانت له مجالس علم فی داره، يجتمع فيها الفقهاء و غيرهم من أهل العلم و المعرفة فی سائر العلوم و الفنون.

و لم تقف جهود ابن كلس عند هذا الحد، فأراد أن يجعل (الجامع الأزهر) معهدا للدراسة المنظمة المنتظمة، فطلب من الخليفة العزيز بالله تعيين جماعة من الفقهاء للدرس و القراءة فی أوقات منتظمة مستمرة و ذلك سنة ۳۷۸ ه، علی أن تعقد حلقاتهم فی الأزهر، و أن يجری عليهم الأرزاق، فاستحسن الخليفة الفكرة، و أجابه إلی ما طلب، و كانوا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۱۹

نيفا و ثلاثين فقيها، فكانوا يحضرون فی كل يوم جمعة للصلاة بالأزهر، و يأخذون فی قراءة الفقه، و مدارسة الحكمة، و عقائد الدين إلی صلاة العصر.

و هكذا بدأت الدراسة فی (الجامع الأزهر)، و اتخذ منذ ذلك التاريخ صفته التعليمية، و قصده الطلاب من كل صوب، و أصبح به طلبة متفرغون للدراسة، و قد وفرت الدولة للمدرسين و الطلاب ما يعينهم علی الدراسة و التحصيل حتی لا تشغلهم مطالب الحياة، أو السعی وراء الرزق، فرتبت لهم الأرزاق و الجرايات، و بنت لهم المساكن، و قدمت لهم الكسوة فی كل عيد، و يسرت لهم سبل الركوب و الانتقال احتراما لهم، و تقديرا لعلمهم، و استطاع (الأزهر) بما فيه من أساتذة رسميين، و طلاب منتسبين تجری عليهم جميعا الأرزاق الدائمة أن يكون معهدا للدرس، و أن يبدأ حياته العلمية الحافلة المديدة.

و كان الصبغة المذهبية هی الغالبة علی الدراسة فی الأزهر و لا سيما فی أول عهده، لأنه كان مركزا لمجالس الحكمة التی كان يعقدها الدعاة فيه، و التی كانت غايتها بث الدعوة الفاطمية، و توطيد إمامتها، فكانت علوم الشيعة و فقه آل البيت تحتل من حلقاته الدينية المقام الأول، غير أن هذا لم يمنع من تدريس علوم الدين، و اللغة و فروعها، و كان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر نصيب، كما كانت تدرس به علوم: الفلسفة، و المنطق، و الطب، و الرياضيات و إن كان ذلك فی حدود ضيقة.

دار العلم أو دار الحكمة

ظل الجامع الأزهر المركز العلمی الرئيسی للثقافة الشيعية، و العلوم الدينية، و العربية، و الكونية حتی ظهر له منافس خطير هو (دار العلم) التی أنشأها الخليفة الفاطمی الحاكم سنة ۳۹۵ ه ، فقد انتزعت منه الكثير من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۰

رواده، و تفوقت عليه، و أثرت فی سير الدراسة به، بسبب ما وجد بها من دراسات مختلفة للغة، و المنطق، و الفلسفة، و الطب و الرياضيات فی حرية و انطلاق، و لتشجيع الخليفة الحاكم لطلابها، غير أن ازدهار (دار العلم) كان قصيرا، لما انتابها من اضطرابات أخلت بالتعليم فيها، و بقی الأزهر ملاذا للعلوم الدينية، و العربية، و لم يقلل قيام (دار العلم) من شأنه كمعهد للقراءة، و الدرس.

و بقیت الصفة (التعلیمیة) ممیزة للجامع الأزهر طوال العصر الفاطمی، فزاد عدد طلابه و أساتذته، و کثرت أروقته، و حلقات التعلیم به، و نمت الدراسة فیه و ازدهرت، حتی بدأ یجتذب إلیه الطلاب و العلماء من خارج مصر، و استطاع أن یکون (جامعة علمیة) جلیلة القدر، و أن یسدی إلی الدین و اللغة أجل الخدمات علی مر السنین، حتی غدا کعبة لقصاده من سائر الأقطار الإسلامیة، کما قال المقریزی فی خططه. «و لم یزل فی هذا الجامع- الأزهر- منذ بنی عدة من الفقراء یلازمون الإقامة فیه، و بلغت عدتهم فی هذه الأیام- سنة ۸۱۸ ه- سبعمائة و خمسین رجلا ما بین عجم، و زیالعة- نسبة إلی زیلع- و من أهل ریف مصر، و مغاربة و لکل طائفة رواق یعرف بهم، فلا یزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن، و دراسته، و تلقینه، و الاشتغال بأنواع العلوم، و الفقه، و الحدیث، و التفسیر، و النحو، و مجالس الوعظ، و حلق الذکر، فیجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله، و الارتیاح، و ترویح النفس ما لا یجده فی غیره، و صار أرباب الأموال یقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب و الفضة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۱

و الفلوس، إعانة للمجاورین فیه علی عبادة اللّه تعالی، و کل قلیل تحمل إلیه أنواع الأطعمة و الخبز و الحلاوات لا سیما فی المواسم.

فی عهد الدولة الأیوبیة

استمر الأزهر فی أداء رسالته العلمیة، یحمل مشعل المعرفة الوهاج، حتی غدا منار العلم و موئل العلماء طوال العهد الفاطمی، فلما قامت الدولة الأیوبیة بدأ نجمه فی الأفول، لأن السلطان صلاح الدین الأیوبی قد عمل منذ اللحظة التی استقل فیها بحکم مصر سنة ۵۶۷ ه علی محاربة التشیع، و نشر المذهب السنی، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر مرکز الدعوة الشیعیة أبطلها قاضی القضاة الشافعی فی عهد السلطان صلاح الدین الأیوبی، المسمی: (صدر الدین عبد الملک بن درباس)، لأن الشافعیة لا یجیزون إقامة خطبتین للجمعة فی بلد واحد، و أقرها فی جامع الحاکم، و بقی الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فیه نحو مائة عام، إلی أن أعیدت إلیه فی عهد الممالیک (الظاهر بیبرس البندقداری) سنة ۶۶۵ ه.

فی أیام الممالیک

غیر أن هذه المحنة لم تؤثر فیه، فقد تابع حیاته العلمیة، و وجد فی ظل الممالیک الرعایة الکاملة، و برزت صفته العلمیة بروزا واضحا فی عصرهم، و تمکن من المحافظة علی التراث الإسلامی خلال المحنة التی حلت بالشرق الإسلامی من جراء الغزو المغولی، ثم ما أصیبت به معاهد العلم و المساجد فی الأندلس، و بلاد المغرب من ذبول و ضعف، مما جعله مقصد العلماء و الطلاب من المشرق و المغرب، یجدون فی رحابه الملجأ و الملاذ، و غدت القاهرة- مقر الجامع الأزهر، و کرسی الخلافة الإسلامیة- قلب العالم الإسلامی النابض، و أمل العروبة و الإسلام، و اعتبر عصر الممالیک بحق. «العصر الذهبی للجامع الأزهر» من حیث الإنتاج العلمی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۲

الممتاز، و محافظته علی التراث الإسلامی، و قیامه علی أداء رسالته العلمیة و التعلیمیة للمسلمین کافة، و احتلاله مرکز الزعامة.

فی عهد الأتراک

و أصل الأزهر سیره، یؤدی واجبه فی خدمة الدین و الثقافة بهمة فائقة، و نشاط کبیر، حتی منیت البلاد بالفتح الترکی العثمانی سنة ۹۲۳ ه (۱۵۱۷ م) فحلت بالدیار المصریة الکارثة، و اغتصب السلطان سلیم الأول خیر ما فیها من تحف و آثار، و کتب نفیسة، و سلب البلاد عمالها و صناعها، و بعث بکل ذلک إلی القسطنطینیة العاصمة، و کان طبیعیا أن یصیب الأزهر ما أصاب البلاد من أضرار جسیمة، فاختفت من رحابه الصفوة الممتازة من علمائه الأعلام، و خفت صوته و انکمشت أهدافه و برامجه الدراسیة، و اقتصرت

الدراسة فيه على العلوم الدينية، و العربية، و اختفت العلوم الرياضية، و الفلسفية، و الطبية و غيرها من سائر العلوم الكونية، و خيم عليه ركود طويل كاد يقضى عليه، و يخمد أنفاسه.

و حين جاءت الحملة الفرنسية

و على غير انتظار احتل الفرنسيون الديار المصرية سنة ۱۲۱۳ ه (۱۷۹۸ م) فأيقظت حملتهم الأزهر من سباته، و نبهته من غفوته، و وجد نفسه تحت ضغط الظروف و الحوادث، تشارك فى الحركة القومية بتعبئة قوى الكفاح الشعبى ضد المستعمر الجديد، و غرس الكراهية فى النفوس ضد الفرنسيين، الدخلاء، فلعب دورا سياسيا خطيرا إبان الاحتلال الفرنسى، و احتل موضع القيادة الروحية، و الزعامة السياسية فى البلاد، فكانت يقظة قومية وطنية قبل أن تكون يقظة علمية، قادها كبار رجال الأزهر بزعامة شيخ الأزهر (الشيخ عبد الله الشرقاوى)، و ثارت القاهرة مرتين فى وجه الفرنسيين، ثم قتل (كليبر) نائب نابليون بيد (سليمان الحلبى) المنتمى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۳

إلى الأزهر و ازعجت هذه الأحداث الفرنسيين، فنزحوا عن البلاد نهائيا بتسليم الجنرال (مينو) فى شهر ربيع الآخر سنة ۱۲۱۶ ه (سبتمبر سنة ۱۸۰۱ م) بعد أن مكثوا بها ثلاث سنوات و بضعة أشهر، أرهقوا فيها أهل البلاد عامة من أمرهم عسرا، و نالوا من قداسة الجامع الأزهر و كرامة أهله.

فى عهد محمد على

فلما آل حكم الديار المصرية إلى «محمد على» سنة ۱۲۲۰ ه (۱۸۰۵ م) لم يجد الأزهر عطفا من النهضة القومية فى بادىء الأمر، و لم يحفظ سيد البلاد الجديد الجميل لعلماء الأزهر الذين ارتقى على أكتافهم إلى منصب الولاية، و ابتدأ عهده بالاستيلاء على أملاك الأزهر الخاصة الواسعة، و فقد الأزهر بسبب اغتصاب أوقافه أهم موارده المالية، و مع ذلك فإن رغبة محمد على فى الإصلاح، و فى إقامة بناء دولته الجديدة على أسس سليمة جعلته يرغب فى الاسترشاد بالأفكار الأوروبية، فاتجه إلى إرسال البعوث العلمية إلى الخارج، فأنشأ فى سنة ۱۲۴۲ ه (۱۸۲۶ م) البعثة العلمية إلى باريس، و اختار لها نخبة من أنجب طلاب الأزهر ليتلقوا العلم على أساليب جديدة ، فكانت هذه خطوة عملية نحو إصلاح الأزهر و إدخال أساليب البحث الحديث فيه، و الاهتمام بالعلوم الحديثة التى كانت مهملة، غير أن الأزهر لم يستجب لهذه المحاولة، و ظل متمسكا بأسلوبه القديم، كما عارض رجاله بشدة دعوة الزعيمين جمال الدين الأفغانى، و الشيخ محمد عبده فى إصلاح الأزهر، و ضاعت جهودهما فى سبيل إصلاح الأزهر هباء، و إن كانت دعوتهما قد أثمرت فى خارجه حيث وجدت استجابة من بعض شباب البلاد، و نشأ جيل من المفكرين الأحرار شارك فيما بعد فى إصلاح الأزهر.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۴

لم يحل جهود الأزهريين دون بذل عدة محاولات لإصلاح الأزهر بإصدار القوانين المنظمة له، فصدر أول قانون سنة ۱۲۸۸ ه (۱۸۷۲ م) فى عهد مشيخة الشيخ محمد العباسى المهدى، و أدخلت بمقتضاه عدة إصلاحات على مناهج الدراسة، و نظام الإدارة، و يقرر إدخال (امتحان الشهادة العالمية، و امتحان الطلاب الراغبين فى الحصول عليها، أمام لجنة بعينها شيخ الجامع الأزهر من بين علمائه).

ثم فى عهد مشيخة الشيخ سليم البشرى صدر القانون رقم ۱۰ لسنة ۱۹۱۱ م الذى يعتبر من أهم قوانين إصلاح الأزهر فى حينه، و أكثرها عناية بمناهجه، و خطة الدراسة فيه، و بمقتضاه حددت اختصاصات شيخ الأزهر، و أنشىء مجلس الأزهر الأعلى، و جماعة كبار العلماء، و شيوخ المذاهب الأربعة، و أدخلت العلوم الحديثة فيه.

كما صدر فى عهد مشيخة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى المرسوم بقانون رقم ۴۹ لسنة ۱۹۳۰ م، الخاص بإعادة تنظيم الجامع الأزهر، و المعاهد الدينية العلمية الإسلامية، و الذى حولت بموجبه الدراسة العالية بالأزهر (القسم العالى) إلى كليات ثلاث، و إلى

إنشاء أقسام للتخصص فى المادة، و المهنة بعد الحصول على الشهادة العالية من إحدى الكليات، و لذا فإن هذا القانون يعتبر بحق أول خطوة رسمية فى تمكين الجامع الأزهر من مسايرة التقدم العلمى و الاجتماعى فى العصر الحاضر فى تزويد طلابه بما يجب أن يحيط به رجل الدين الحديث من العلوم و من الاتجاهات.

مشيخة الشيخ المراغى

ثم كانت خطوة أوسع نحو الإصلاح على عهد مشيخة الشيخ محمد مصطفى المراغى الثانية (۱۹۳۵- ۱۹۴۵ م) بصدور المرسوم بقانون رقم ۲۶ لسنة ۱۹۳۶ م، و قد نجح هذا القانون فى معالجة الكثير من مشاكل

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۵

الإصلاح فى الأزهر، و فى النهوض بالأزهر إلى مستوى الجامعات الحديثة الكبرى، و قد أرفق الشيخ المراغى مشروع هذا القانون بمذكرة أوضح فيها وجهة نظره، و أنه يريد للأزهر أن يساير الحياة المعاصرة عن فهم و إدراك، كما أنه يريد بهذا الإصلاح أن يفى الأزهر بالأغراض التى تحقق آمال المسلمين فيه، و ترجع به إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمى السليم، و التفكير الحر، و دراسة الفنون التى تتفق مع طابعه القديم، و تطابق مقتضيات العصر، و تلبى رغباته، و أن يتصل بالنهضة الحديثة فى الغرب عن طريق تعلم اللغات الأجنبية ليرد شبهات المضللين، و يدفع التهم الموجهة إلى الدين فى كتابات الأجانب المغرضين، و يفيد من طريقة وضعهم للكتب، و معالجتهم للمسائل العلمية، و نورد فيما يلى بعض فقرات من تلك المذكرة، فقد جاء فيها. «.. و نحن إذ نحاول إصلاح الأزهر نريد أن نوجد طالبا يفهم مسائل العلم فهما صحيحا، و يفهم أغراضها، و صلتها بأدلتها، و صلتها بعضها ببعض، و يستطيع التطبيق على الجزئيات، و يستطيع الاستنباط و التدليل، و يستطيع فهم الكتب القديمة التى ألفت فى العصور المختلفة فى جميع الفنون الإسلامية، ...، و أحب أن توجد كتب فى جمع الفنون الحديثة على أسلوب عربى صحيح مناسب لأذواق الأجيال الحاضرة، تهذب فيه المسائل على أحسن ما وصل إليه التحقيق العلمى، و أن تحيا الكتب القديمة الجيدة فى الأسلوب و الوضع، ...، هذا الذى نحاوله بالتجديد. يجب- على ما أرى- أن يضعه الناس أمامهم، و أن يجدوا للوصول إليه، ...، و لقد كان أسلافنا أشد الناس عناية بالعلم، فلم يمض الزمن القليل حتى أخذوا علم اليونان، و أدب الفرس، و حكمة الهند و استعانوا بذلك كله فى تفسير القرآن، و فى وضع علم الكلام على الأسس التى نراها فى مثل المواقف و المقاصد، و استعانوا به فى تنظيم مسائل العلوم جميعها، فلم يخل علم من أثر الفلسفة و المنطق، و لقد كانت لهم محاولات جديرة بالإعجاب فى التوفيق بين الدين

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۶

و نظريات الفلسفة، ... و تغيرت نظريات الفلسفة، و حدثت نظريات أخرى، و كان من شأن هذا كله أن توجه على الأديان جملة، و على الإسلام خاصة حملات، و صار من الواجب الحتم على علماء المسلمين أن يحيطوا علما بكل ما يوجه إلى الأديان عامة، و إلى الإسلام خاصة من مطاعن، و أن يردوا تلك المطاعن التى توجه إلى الإسلام، و يذودوا عن عقيدتهم بأدلة ناصعة، و أسلوب مقنع ممتع، ليجنبوا المتعلمين تعليما مدنيا الشبه الزائفة، و ليضموا إلى الإسلام أفرادا و شعوبا من الأمم التى تتطلع إلى الإسلام، و تبتغى الوقوف على خصائصه و مزاياه، و هذا لا يتم لهم على ما ينبغى إلا بالاتصال بغيرهم اتصالا علميا، و بتعرف اللغات الحية التى يكثر فيها الانتاج العلمى، و التى يتناول بها العلماء مسائل الإسلام، و مسائل اللغة العربية، لذلك وجب أن يكون لأهل الأزهر نصيب من هذه اللغات، و هنالك فائدة أخرى لتعلم اللغات، و هى أنها تساعد على معرفة طريقة وضع الكتب، و على معرفة الأسلوب الحديث فى التأليف و التفكير، و طريقة عرض المسائل على أنظار المتعلمين ..... الخ ..».

بهذا الإصلاح يكون الشيخ المراغى قد أتم ما بدأه الشيخ محمد عبده، و قد كرس الشيخ المراغى فترة السنوات العشر التى أعقبت صدور القانون رقم ۲۶ لسنة ۱۹۳۶ م على تنفيذ هذه الإصلاحات حتى لقى ربه فى الثانى و العشرين من أغسطس سنة ۱۹۴۵ م رحمه

اللّه.

و قد تعاقب على كرسى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ المراغى عدد من جلة شيوخ الأزهر هم. الشيخ مصطفى عبد الرزاق، و كان مؤمنا بالإصلاحات التى أدخلها الشيخ المراغى، غير أن المنية قد عاجلته سنة ۱۹۴۷ م ثم الشيخ محمد مأمون الشناوى، و الشيخ عبد المجيد سليم للمرة الأولى، و الشيخ إبراهيم حمروش، و الشيخ عبد المجيد سليم للمرة الثانية، و الشيخ محمد الخضر حسين، و الشيخ عبد الرحمن تاج، و الشيخ محمود شلتوت، و قد صدرت خلال هذه الحقبة عدة قوانين معدلة للقانون

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۷

رقم ۲۶ لسنة ۱۹۳۶ م، و القانون رقم ۴۰ لسنة ۱۹۵۶ م، ثم القرار الجمهورى رقم ۱۵۲۵ لسنة ۱۹۵۹ م، و كلها تستهدف إصلاح الأزهر و النهوض به، و الارتفاع بمستواه العلمى و المادى.

و هكذا تقلبت الأحوال بالأزهر من عسر و يسر، و ذاق خلالها حلاوة العزة و القوة، و مرارة الوهن و الضعف خلال فترة تجاوزت الألف عام من عمره المديد، و رغم الظروف و الأحداث التى مرت به لم يقصر فى أداء واجبه، و ظل عامرا بالطلاب، زاخرا بالعلماء يؤدى رسالته العلمية و الوطنية فى ثقة و اطمئنان، و أخيرا صدر القانون رقم ۱۰۳ لسنة ۱۹۶۱ م بشأن إعادة تنظيم الأزهر، و الهيئات التى يشملها فى عهد الشيخ محمود شلتوت، و أصبح الجامع الأزهر لأول مرة بموجب هذا القانون (جامعة)، و أضيف إليه عدد من الكليات بجانب كلياته الثلاث السابقة، و أصبحت كليات (جامعة الأزهر) الجديدة اليوم هى، المعاملات و الإدارة (التجارة) و البنات الإسلامية، و الهندسة و الصناعات، و الطب، و الزراعة، و التربية، و قد ترك الباب مفتوحا لإنشاء كليات أخرى- غير الكليات التسع- و معاهد عالية طبقا لحاجة التطور و مسايرته.

و كان هذا التطور الجديد ضرورة تحتمها الحياة المعاصرة، و تقتضيها ظروف المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى الذين ينظرون إلى الأزهر على أنه من بين مقدساتهم، لجليل نفعه، و عظيم أثره فى خدمة علوم الدين و اللغة، و حفظ تراث الإسلام و العروبة.

و قد نوهت المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ۱۰۳ لسنة ۱۹۶۱ م بمكانة الأزهر، و ما يرجى له من مستقبل، و بما يمكن أن يؤديه من خدمات جليلة فى جميع أجراء العالم الإسلامى بعد إعداد أهله وفق أهداف هذا القانون، فقد جاء فيها: «... لقد قام الأزهر بدور عظيم فى تاريخ العلم، و فى تاريخ الإسلام، و فى تاريخ العروبة، و فى تاريخ الكفاح القومى على توالى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۸

العصور، و وقف قلعة شامخة فى وجه كل المحاولات لاستعبادنا، و السيطرة علينا، و تحطيم كياننا القومى و الروحى»، «و كانت التقاليد العلمية فى الأزهر أساسا للنظام الجامعى، و التقاليد الجامعية فى كل بلاد الدنيا، فهو أقدم جامعة فى العالم، و إن لم يكن اسمه بين أسماء جامعاتنا».

(و من علم الأزهر شع نور الإسلام فى بلاد كثيرة من أفريقيا، و من آسيا، و أزداد عدد المسلمين عشرات الملايين، و كانت بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر سببا لتوثيق علاقاتنا ببلاد كثيرة، و شعوب كثيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم، و قد اكتسب اسم الأزهر بذلك قدسية، و اكتسب المنتسبون إليه احتراما، و صار رأيه هو الرأى فى كل ما يتعلق بالعقيدة و الشريعة، و صار هو الجامعة الإسلامية الكبرى فى الشرق و الغرب، لا يطلب أحد علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر، و لا تتجه قلوب المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها إلى معهد يفد إليه أولادهم للتزود من أسباب المعرفة غير الأزهر .... الخ).

ثم تناولت المذكرة بالتفصيل المبادىء التى تحقق ما يهدف إليه القانون من إصلاح الأزهر حتى يعود إليه شبابه، و ترتفع مكانته، و ينهض برسالته فى الداخل و الخارج و يصبح ابن الأزهر قادرا على المشاركة بدور إيجابى نافع لمجتمعه خاصة، و المجتمع الإسلامى عامة، «و حتى يتوافر للأمة نوع من الخبرات التى تملك إلى جانب العقيدة الواعية كفاية عملية و مهنية و علمية، تشارك فى مجالات العلم و الإنتاج فى نفس الوقت الذى تدعو فيه إلى سبيل اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة».

فالأزهر اليوم سيد جامعات الإسلام دون منازع، و إليه يرجع الفضل فی صيانة الثقافة الإسلامية العربية فی ظلمات العصر التركی العثمانی بمصر، و فی مقدور الأزهر اليوم أن يشق طريقه فی ظل هذا التطوير، و تلك الرعاية التی تظله بها الدولة ليؤدی إلی العالم الإسلامی أعظم الخدمات،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۲۹

و يضيف إلی مآثره القديمة مجدا جديدا إذا جدد نفسه، و فهم رسالة الإسلام العلمية كما كان يفهمها سلفنا العظيم، حتی تتأكد زعامته، و تتألق مشاعل المعرفة من أرجائه، حتی يعم نورها أرجاء المعمورة، ذلك ما نرجوه، و اللّه ولی التوفيق.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۱

بين الأزهر و جامعة القرويين

هناك التشابه بين الأزهر الذی قام بالقاهرة و جامع القرويين الذی قام بفاس فی نقطة البداية. كل منهما قام علی أنه مسجد، ثم أصبح بعد ذلك مسجدا جامعا لفترة من الفترات، ثم مقرا للدراسات الإسلامية و العربية.

و عند ما صار كل منهما مقرا للدراسات الإسلامية و العربية تناولت الدراسة فيهما جميع فروع المعرفة المختلفة التی يتكون منها التراث الإسلامی و العربی.

فبجانب علوم اللغة و الفقه و علوم التفسير و الحديث و العلوم الأخری الدينية كانت الطبيعة و كان الطب و كانت الرياضة و كانت الفلسفة، كل منها يكون جانبا من جوانب فروع المعرفة التی عنی بها الأزهر و جامع القرويين.

و كان لكل فرع من هذه الفروع علماء مبرزون هنا و هناك يرحل إليهم طلاب العلم و يقيمون لديهم فترة طويلة أو قصيرة للتلمذة عليهم فی موضوع المعرفة و التعرف علی منهجهم فی البحث. و كان من أشهر العلماء فی الأزهر الأئمة العلماء: ابن الحاجب، و خليل و الخرشی، و الزرقانی، و العدوی، و الدردير، و الأمير، و البنانی، و ابن السبكی، و جلال الدين المحلی، و السيوطی، و شيخ الإسلام زكريا الأنصاری، و ابن حجر، و العينی،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۲

و الأسنوی، و الأشمونی، و الصبان، و الملوی، و ابن الهيثم الذی وضع الأسس العلمية لنظريات نيوتن فی علم الطبيعة. و كان من أشهرهم فی القرويين: الأئمة العلماء الحافظ أحمد بن علی بن قاسم الزقاق، و المفتی محمد بن قاسم القصار، و الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجی، و المتكلم أبو عمرو السلالجی و هو من طبقة أبی المعالی الجوينی فی الشرق، و المحدث ابن رشيد السبتی و الحافظ أبو العلاء العراقی، و اللغوی ابن زاكور، و الرياضی ابن البناء المراكشی، و الطبيب أبو القاسم الوزير

و كان هناك تشابه بين الأزهر و جامع القرويين فی طريقة الدرس و فی منهاج البحث: فكانت هناك الحلقة، و كانت هناك المناقشة، و كانت هناك المحاضرة و التعقيب عليها، و كان أسلوب الدراسة فی واقع أمره أسلوبا لتربية العقل، و تخطيط طريق التفكير و الوصول إلی الحق فی ذاته. و ما كان للجامع الأزهر و لجامع القرويين من أسلوب فی البحث إذ ذاك هو ما للجامعات المعاصرة اليوم فی منهج البحث.

و هناك التشابه فيما طرأ علی التعليم فی كل منهما من تغيير و ما أصابه من تقلبات، تبعا للعهود السياسية التی مرت علی كل من القاهرة و فاس:

فنجد تشابها فی طابع التعليم أيام أن حكم الفاطميون فی مصر و الأدارسة فی المغرب، و تشابها فی طابع التعليم أيام حكم الأيوبيون بمصر و الموحدون بالمغرب. كما نجد تشابها فی إطار المعرفة نفسه: اتسع فترة فشمل جميع الفروع المختلفة التی يضمها اسم التراث الإسلامی و العربی، و ضاق فی فترة أخری فلم يشمل علوم الرياضة و الطبيعة و الطب و الفلسفة.

و هناک تشابه کذلک بین الأزهر و القرویین فیما مر علی التعلیم فی کل منهما من مراحل الإصلاح و التطور: سواء فی طریقة التعلیم أو فی نظام الاختبار أو فی تعدد المراحل أو فی منهاج المواد، أو فی تغییر الکتاب:

فقسمت مراحل التعلیم فی کل منهما إلی ثلاث، و أخذ بنظام المحاضرة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۳

بجانب نظام الحلقة فی طریقة التدریس، و رتبت کتب التعلیم علی حسب ما بینها من اختلاف فی الحجم و فی أسلوب التعبیر، و علی أیة حال لم ینتقل التعلیم فی کل منهما طفرة لیساير الوضع الغربی سواء بسواء بسبب ما لکل منهما من طابع المحافظة علی ما ورثناه من تراث روحی و فکری و علمی، و ما لهما من طابع التمسک بالقیم التی خلفها آباؤنا فی حیاتنا و توارثناها جیلا بعد جیل. و ربما کان لهذا الطابع الذی للأزهر و جامع القرویین علی السواء دخل کبیر فی مقاومة الغزو الفکری، و الغزو السیاسی و الاقتصادی للوطن العربی.

و یسوقنا من أجل ذلک الحدیث عن وجه التشابه بین الأزهر و جامع القرویین فی موقف کل منهما تجاه المستعمرین الغازین، و فیما قام به کل منهما من حمل رایة الجهاد و الکفاح ضد المستعمر الأجنبی، و فیما أصاب کلا منهما من نقمة المستعمر و عنته، و فیما سببه المستعمر لحملة التراث الإسلامی و العربی فی کل منهما من أذی و أضرار مادیة و أدبیة فی المجتمع العربی الخاص و العام، و فیما ضیقه من خناق علی هؤلاء و أقامه من عقبات فی سبیل سعیهم فی الحیاة، و فی الحصول علی وضع فی المجتمع یجعل منهم مواطنین لهم ما لمواطنیهم الآخرین من حقوق، و علیهم ما علیهم من واجبات.

و هناک التشابه بین الأزهر و القرویین فی حفظ التراث الإسلامی و العربی و صیانته من التبدید و الضیاع، فلم تفتر عنایة کل منهما عن رعایة حفظ القرآن الکریم و درسه و تفهم معانیه و لم تفتر رعایة کل منهما عن نقل ما کان للأولین العرب و المسلمین إلی خلفائهم من بعد جیلا بعد جیل من أفهام فی القرآن، و من حلول لمشاکل الحیاة و من معارف کانت تدور فی محیطهم الثقافی. و قد کانت صدور علماء و طلاب کل من الأزهر و جامع القرویین مقرا للقرآن الکریم، و کانت عقولهم مرجعا لتفکیر المسلمین، و کانت

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۴

ألسنتهم تنطق بأسلوب کتاب اللّه، و هو الأسلوب العربی المبین، فحفظوا القرآن من التحریف، و حفظوا التفکیر من الضیاع.

و هناک التشابه بین الأزهر و القرویین فی تأثر الأزهر بعلماء بغداد الذین وفدوا فی عهد المالیک إلی القاهرة فی سنة ۶۵۶ ه بعد سقوط بغداد، و فی تأثر القرویین بعلماء الأندلس الذین وفدوا إلی المغرب بعد سقوط الأندلس فی القرن الرابع عشر المیلادی.

و هناک التشابه فی حرکة الإصلاح القویة التی قام بها محمد عبده فی الأزهر فی نهایة القرن التاسع عشر و الشیخ أبو شعیب الدکالی فی القرویین فی أوائل القرن العشرین.

و هناک التشابه بین الأزهر و جامع القرویین فی تربیة الحماس القومی، و ننمیة الروح الوطنی، و القیام بالحرکات المعبرة عن سخط الوطن و تکوین الرأی العام، و الدفع إلی بقائه فی النضال بین الدخلاء الغاضبین و بین أصحاب الوطن المعتدی علیهم.

کل هذه الأوجه من التشابه بین الأزهر و جامع القرویین تجعل لجامع القرویین فی القاهرة صدی قویا لا یتضاءل و لا یضعف مهما فرق الاستعمار فیما مضی بین أجزاء الوطن الواحد و مهما حاول بأسالیبه المختلفة أن یضعف من الصلات الثقافیة و الترابط الروحی بین فاس و القاهرة، و مهما حاول و بذل فی وضع العقبات المادیة و المعنویة فی طریق لقاء العربی القاهری بالعربی المغربی.

و جامعة القرویین من أقدم جامعات العالم بعد الأزهر إذ أن مسجد القرویین لم یتحول إلی جامعة للتدریس إلا سنة ۵۳۸، أما الأزهر فقد هیيء لتدریس الفقه و العلوم فی الرابع الأخیر من القرن الرابع الهجری. و علی ذلک تکون الجامعة الأزهریة أقدم جامعات العالم علی الإطلاق. و یعزی إلیها- و إلی شقیقتها: «الزیتونة» فی تونس، و «الأزهر الشریف» فی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۵

القاهرة، أكبر الفضل فی نشر الإسلام الحنيف و الحفاظ على تعاليمه السمحة و حماية لغة القرآن و آدابها و العمل على إثرائها فی جميع فروع المعرفة ... بالإضافة إلى ما قامت به هذه الجامعات الإسلامية الكبرى من تزويد شعوبنا العربية خلال مراحل تطورها بالقادة و العلماء و المرشدين الروحيين طوال القرون الماضية.

و تاريخ جامعة القرويين بالذات يرتبط أوثق ارتباط بتاريخ مدينه «فاس» التی كانت منذ إنشائها عاصمة للدولة المغربية فی عهد الآدارسة و من خلفهم إلى مستهل القرن الهجری الحالی، حيث أخذ الاستعمار يتسلل إليها. و قد سارت هذه الجامعة فی تاريخها الطويل العامر، ككل كائن حی، تنهض و تنمو آنا، و تجمد و تتعثر آنا آخر ... و لكن الأمر الذی لا يمكن أن ينكره أحد عليها، أنها ظلت- فی كل الأحوال- تحمل علم الدراسات الإسلامية و ما يتصل بها عن جدارة، فی هذا الجزء الهام من وطننا العربی الكبير. و استطاعت أن تثبت حقا أنها منارة الهدى و العرفان، و أساس الارتكاز الروحی عند المسلمين كافة فی المغرب العربی.

و الفصول الأولى لقصة إنشاء القرويين، تبدأ- كما يجمع المؤرخون- مع هجرة ثمانمائة عائلة أندلسية، تبعتها هجرة ثلاثة آلاف عربی من القيروان بتونس، إلى مدينة فاس، و اتخاذهم لها وطنا ثانيا فی أوائل القرن الثالث للهجرة.

و قد استقر المغتربون من الأندلس فی شرقی المدينة بضاحية عرفت فيما بعد، باسم «عدوة الأندلسيين». أما المغتربون من القيروان، فقد استقر بهم المقام فی الجهة المقابلة بضاحية على الضفة اليسرى كانت تسكنها القبائل، و سميت أيضا باسم «عدوة القرويين».

و كان بين المغتربين التونسيين رجل ورع، يعيش فی بسطة من الرزق بسبب ما حمله معه من المال، هو «محمد بن عبد الله الفهری

القيروانی». و قد توفی عقب فترة وجيزة من وصوله إلى فاس. و خلف ثروة طائلة لابنته «فاطمة أم البنين» و شقيقتها «مريم».

و عقدت الشقيقتان العزم على إنفاق جزء كبير مما ورثتاه عن أبيهما فی بناء مسجد يخلد اسم أسرتهما و اسم البلاد التی نزحتا منها. و كان من أهم الدوافع لهما على ذلك علمهما بحاجة الناس الملحة فی كل «عدوة» من فاس إلى مساجد يؤدون فيها الصلاة، نظرا لضيق المسجدين القديمين القائمين فيها بالناس.

و لم يطل تفكير الشقيقتين، فشرعت «مريم» فی بناء مسجد «الأندلس» فی شرق المدينة. و بدأت «فاطمة» فی بناء مسجد «القرويين» فی جنوبها. و كان ذلك فی يوم سبت- و هو يصادف غرة رمضان من سنة ۲۴۵ الموافق ۳۰ نوفمبر من سنة ۸۵۹ و هو المسجد الذی عرف بعد ذلك باسم «جامعة القرويين».

و لقد كانت الطريقة التی سلكها البناءون فی البناء أنهم التزموا أن يأخذوا كل حاجاتهم من الرمال و الحجارة من نفس البقعة دون غيرها. كما أنهم عثروا على عين ماء غزيرة تجاور الموقع الذی اختير لإقامة المسجد.

و كان ذلك كله تحريا من المشرفين على البناء كی لا تدخل فی بناء المسجد شبهة- على ما يقول «ابن أبی زرع» فی كتاب «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى». و ظلت «فاطمة» صائمة منذ أن شرع فی بنائه، إلى أن تم و اكتمل و أقيمت فيه الصلاة.

و قرويين الأمس، ليست هی قرويين اليوم ... إذ لم تكن القرويين عند نشأتها الأولى، تشتمل إلا على أربع صحون و على محراب و فناء غرست فيه بعض الأشجار .. و حينما بنيت لم تكن بها حلقات للدرس كما أصبحت فيما بعد، بل كانت مجرد مسجد يحضره الناس الذين يؤدون فيه صلاة الجمعة، و كانت الفكرة فی إنشائها- كما يروی «أبو الحسن على

الجزنائی» فی كتابه «زهرة الآس فی بناء مدينة فاس»- هی ضيق المساجد التی يصلی فيها أهل العدوة و افتقارهم إلى مسجد جامع يلم شعثهم و يجمع شملهم و تلقى من فوق منبره الخطبة الرسمية.

و لقد تطلب تزايد عدد السكان و اتساع نطاق المدينة إدخال إصلاحات جمة على مبانی القرويين القديمة و استحداث مبان و صحون جديدة ألحقت بها ... فلم يكد ينقضی إلا نحو قرن حتى أصبحت مساحتها أربعة أضعاف ما كانت عليه بعد بنائها. كما ذكر مؤلف

كتاب «القرطاس فى أخبار ملوك المغرب و تاريخ فاس».

و كان من أوائل الـذين لهم فضل السبق فى إدخال هـذه الإصـلاحات على مسـجد القرويين الخليفة عبد الرحمن الأموى الذى أسـهم بمال كثير فى تجديده، و كان شديد الشغف بالمبانى و المنشآت، و كذلك السلطان على بن يوسف بن تاشفين، و غيرهما من الأمراء الـذين عملوا على توسـعة رقعته بشـراء الأملاـك و الأراضـى المجـاورة له و ضـمها إلى القرويين، حتى صـار أعظم مسـجد فى أفريقيا الشـمالية. و بدأت مع حلول سنة ۵۳۸ هجريـة، تعقـد فيه حلقات التدريس فى علوم الفقه و الشـريعة على أيدى علماء أجلاء وفدوا من القيروان و نقلوا معهم جل العلوم الدينية، و إليهم يعزى الفضل فى تحقيق هذه الخطوة التى تأخرت قرنين أو يزيد!

و تـدور عجلة الأيام دوراتها السـريعة و يزداد ازدهار القرويين فى عهد المرابطين الذين بنوا فيها للعلم أمجادا و صـروحا شامخة خلدها التاريخ.

و اسـتطاعت الجامعة أن تخرج عظماء و علماء أحالوا المغرب فى مدى قصـير من «دويلة» كانت تتهاوى من الضـعف، و أمة يشـيع فيها التأخر و الجهالة، إلى دولة يحكمها دستور السماء الكريم الذى أنزل على محمد عليه السلام.

و ظلت القرويين معهد دراسة و علم، و تخرج فيها ملايين من المغاربة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۸

فى أجيال مختلفة. و ظلت على مر القرون حصنا للعروبة و الإسلام.

و اجتذبت شـهرتها التى طبقت الآفاق عددا كبيرا من العلماء الأجانب من أنحاء أوروبا و منهم الرحالة «جريريتا» و البابا «سلفستر» الذى نقـل الأرقـام العربيـة إلى الغرب، كمـا نقل نظريات الفقه الإسـلامى و اسـتخدمها فى تطوير القانون الرومانى، و كثير غيرهم من العلماء الأـوروبيين الـذين توافـدوا على مر السـنين- على القرويين- للإفادة من خزانتها التاريخيـة المملوءة بالمؤلفات و الكتب و المخطوطات النفيسـة النادرة، فى مختلف فروع العلوم و المعرفـة، و أطلعوا العالم بعد عودتهم إلى بلادهم على الحضارة التى تغمر البلاد الإفريقية و المغرب العربى بنوع خاص!.

و لعل أزهر عهد تحقق فيه للقرويين ما كانت تصـبو إليه من أسـباب النمو و التقدم، كان عهد السلطان «أبى عنان المرينى» ففيه أنشأت الجامعة أضـخم مكتبة مزودة بالمخطوطات النادرة، و شـيدت مساكن خاصة للطلاب الذين يردون عليها من أطراف البلاد، كما أجرى السـلطان عليهم «جرايات» شـهرية تكفيهم ليتفرغوا لطلب العلم ... كما كان للعلماء دور خاصـة لسـكناهم، و خـدم معينون يوفرون لهم كل وسائل الراحة حتى يستطيعوا التوفر على أداء رسالتهم نحو طلابهم على أكمل وجه.

و كـان علمـاء القرويين من أغنى طبقـات الشـعب، بسـبب مـا كـان يسـبغه عليهم الملـوك من الهـدايا و مـا يجرونه عليهم من الرواتب الضخمة!.

و اسـتمرت جامعة القرويين تقوم بواجبها، فى حرية تامة ... إلى أن ابتلى المغرب بالاسـتعمار الفرنسـى، و أوجس الفرنسيون منها خيفة ...

أرادوا فى مبـدأ الأـمر أن يوصـدوا أبوابها أمام الطلاب، أو يحـددوا عـددهم، زاعمين أن فى ذلك ترقيـة للبلاد ... و لكنهم اصـطدموا بمعارضة شديدة ... إذ فطن «المولى يوسف» الجالس على عرش البلاد لغرض المستعمرين من ذلك .. و أدى الصراع بينه و بينهم إلى انتباه جماعة من

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۳۹

العلمـاء و اتجـاههم إلى بعث الحركـة السـلفية و محاربـة الجمود، و تطوير الـدراسات لتسـاير روح العصـر .. و كانت الخطوة الإيجابية لتحقيق ذلك الغرض، عند ما عين جلالة الملك محمد الخامس فى سـنة ۱۹۳۷، الأسـتاذ «محمد الفاسى»، و هو من علماء القرويين، و من الذين اسـتكملوا دراستهم فى جامعة باريس، مديرا للقرويين فأدخل العلوم العصرية و اللغات الأجنبية فى مناهج التعليم، إلى جانب

المواد الدينية، كما أنشأ قسما خاصا بالقرويين لتعليم الفتيات، و قد تخرجت فيه إلى الآن عشرات منهن يحملن شهادة «العالمية»!.

و يزدان تاريخ الحركة الوطنية فى المغرب بأنصع الصفحات التى سجلها كفاح علماء القرويين و طلابها ضد القوى الاستعمارية ... و دورها فى تحرير المغرب يماثل تماما دور الأزهر الشريف فى ثورة سنة ۱۹۱۹ و ما بعدها ...

و أصبحت اليوم تضم ألافا من الطلاب، فضلا عن فروعها التى تتمثل فى المعاهد الدينية المنتشرة فى أنحاء المغرب، سواء فى «تطوان» أو «طنجة» أو «مراكش» أو منطقة «سوس».

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۱

بين الزيتونة و الأزهر

الزيتونة أزهر تونس، و الزيتونيون أزهريون كما يقول الزيتونيون أنفسهم اعتزازا بالأزهر و كما يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور و أنفاس من الأزهر ما تزال تسرى و تداخل جسم الزيتونة، و أخرى من الزيتونة ما تزال ترجع على الأزهر .

و جامع الزيتونة أقيم فى أوائل القرن الثانى للهجرة على يد بانيه عبيد الله بن الحبحاب السلولى، و قد كان واليا على مصر، و منها قدم إلى تونس، بعد أن استخلف ابنه أبا القاسم على مصر - و كانت مدينة الفسطاط، دار ابن الحبحاب، و جامعها، جامع عمرو، الذى هو أبو الجامع الأزهر، قد كان ابن الحبحاب إمام محرابه، و خطيب منبره، فلا ضير أن ابن الحبحاب كان واقفا على تخطيط جامع الزيتونة بتونس، و فى ذهنه صورة جامع الفسطاط، و فى قلبه حنين إليه، و اهتمام به، و حنين و اهتمام بابنه أبى القاسم، و قد خلفه فيه.

و كانت صحبة على بن زياد التونسى لليث بن سعد، و روايته عنه

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۲

بمصر، ثم انتصابه بجامع الزيتونة محدثا و مدرسا فى منتصف القرن الثانى حلقة أولى فى سلسلة من الاتصالات العلمية، ظهرت فى مصر القديمة ثم امتدت إلى القاهرة و أزهرها، و ارتبطت بها حلقات كان منها ما هو واضح إشعاعا، و أتم ظهورا. فالإمام سحنون: عبد السلام بن سعيد التنوخى ، و القاضى أسد بن الفرات، بعد أن تخرجا بابن زياد فى تونس بجامع الزيتونة، قد شدا الرحلة إلى مصر. فأخذا عن ابن القاسم، و أشهب، و ابن وهب، و ابن الحكم، و تكونت بذلك المدونة، فكانت أصل المذهب المالكى، و انعكست الرحلة من القيروان على مصر، و تتابع العلماء من تونس و القيروان و غيرهما من البلاد الإفريقية، على الرحلة إلى مصر يسمعون و يهتفون، مثل: عبد الله بن أحمد التميمى، نسيب بنى الأغلب، و حمد يس الأشعرى، و القاضى عيسى بن مسكين، و جبلة بن حمود، و غيرهم من أهل القرن الثالث الذين أخذوا فى مصر عن بنى عبد الحكم، و يونس بن عبد الأعلى، و ابن المواز، على ما فصله القاضى عياض فى «المدارك» و من بعده فى كتب الطبقات.

و قامت الدولة العبيدية فى أواخر القرن الثالث، و كان الاتصال بين علماء تونس و علماء مصر، مقويا أهل السنة، و لا سيما المالكية بتونس و بمصر، و بدأ العبيديون يحاولون إغراء العلماء بموالاتهم.

نقل عياض فى المدارك عن أبى الحسن القابسى: «أن المعز الفاطمى أرسل قبل دخوله مصر إلى أبى إسحاق بن شعبان صلة من مائة مثقال و كتابا، فقرض ابن شعبان من الكتاب «بسم اللّه الرحمن الرحيم» و أحرق باقيه فى الشمعة أمام الرسول. ورد المائة عليه.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۳

و جاء القرن الرابع: قرن أبى عثمان الحداد و ابن أبى زيد و الجبلياني و القابسى و ابن شبلون و ربيع القطان و تأكدت الصلات بين مصر و تونس و القيروان بما كان بين ابن شعبان و ابن أبى زيد، و بين التلبانى المصرى و أبى الحسن القابسى و بين أبى بكر الحويكى و أبى الحسن القابسى أيضا، و التهبت نار الثورة بمدينة تونس، على العبيدين، و على أمير القيروان باديس الصنهاجى لموالاته إياهم و طاعتهم، و تولى أمر أهل تونس فى ذلك صالح المدينة و عالمها و عابدها الشيخ محرز بن خلف الصديقى فكان

لفقهاء مصر فی وجه بنی عبید مثل ما کان لفقهاء تونس و القیروان، و أصبح القول المتردد علی ألسنة المتفقهین فی حلق جامع الزیتونة و جامع القیروان و جامع الفسطاط قولا متصادقا متجاوبا و کان بعضه صدی لبعض، فکانت حلقات أبی بکر بن نصر، أبی الذکر التمار، و أخیه مؤمل و ابن الأسوانی، و ابن أبی حجرة القرطبی. فی جامع الفسطاط بمصر القدیمة، و قد ذکرها عیاض فی الطبقة الخامسة، صورة من حلقات أبی عثمان الحداد بالقیروان و الشیخ محرز بن خلف و الشیخ معاویة بن عتیق بتونس. و هکذا امتدت فکرة مقاومة الدعوة العبیدیة، و الامتناع عن مطاوعتها، من المغرب إلی المشرق، حتی بلغت البلاد الشامیة.

ذکر عیاض فی المدارک ترجمة أبی بکر النابلسی، شهید مصر سنة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۴

۳۶۴ ه: «کان شدیدا علی بنی عبید حین ملکوا مصر و الشام ذامّا لهم، منفرا العامة منهم، قالیا لهم، و نقل عن الرقیق أن أبا بکر «کان یفتی فی المحافل باستحلال دم من أتی من المغرب، و یستنفر الناس لقتالهم». یرید بنی عبید، ثم قال عیاض: «و إنما سلک فی هذا مسلک شیوخ القیروان فی خروجهم علیهم ... و لم یستقر للفاطمیین بسبب ذلک قرار، ففرضت ثورة تونس علی خلیفتهم المعز بن بادیس الصنهاجی أن ینقض طاعتهم حتی فعل و تتابعت مظاهر التمرد علیهم، و الاستخفاف بهم فی مصر من ولایة العزیز بن المعز الفاطمی ثم ولایة الحاکم و اغتیاله بعد أن أعلن الرضوخ لقوة الأمة فی الدفاع عن عقیدتها، و صلابتها فی التمسک بسنتها فکتب سجله بما فیه، و أتی الیوم بما یقتضیه، یطوی ما کان فیما مضی، فلا ینشر، و یعرض عما انقضی، فلا یذکر، و لا یقبل علی ما مر و أدبر، من إجراء الأمور علی ما کانت علیه فی الأیام الخالیة: أیام آبائنا ...» ثم کانت ولایة الظاهر الذی بدأت الدولة تتضعضع فی مدته، إلی أن انتهی حکمهم الحقیقی فی ولایة المستنصر و استبداد بدر الجمالی بأمرهم، و تلاشی سیادتهم فی ظلمة العدوان الصلیبی

.

و الروح التی کانت تعمر الزیتونة بتونس و جامع الفسطاط فی مصر، هی الروح التی ملأت الأزهر و إن کانت السلطة التی أمرت ببنائه نابیة عن تلک الروح؛ لنستنتج من ذلک کله: إن الإخاء قد کان تاما وثیقا بین جامع الزیتونة و الجامع الأزهر من یوم أنشیء الأزهر، إخاء کان فی الباطن و الروح، و إن لم یبد فی الظاهر و الشکل، فیبقی الأزهر وفیا لروح العابدین العاکفین فیه، مزورّا عن روح الحاکمین المباهین به.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۵

و کذلک أقام بنو عبید بالقاهرة ما أقاموا، و زال ملکهم عنها بعد استقراره فیها مائتی سنة و خمس سنین من دخول المعز إلیها سنة ۳۶۲ ه إلی وفاة العاضد سنة ۵۶۷ ه فبقیت القاهرة بعدهم، و بقی جامعها الأزهری کما قال أبو العلاء:

تفنی الملوک و مصر بعد فقدهممصر علی العهد و الإحساء إحساء

و قام حکم السلطان صلاح الدین، و عاد التواصل و الامتزاج بین الأزهر و جامع الزیتونة، و أنشئت المدارس الصلاحیة و الخوانق، و انتظمت الدراسة العلمیة علی الخطة الجامعة بین السنة و الکلام و الفقه و التصوف، و هی الخطة التی درج علیها، منذ القرن الرابع، الأشعری، و الماتریدی، و الباقلانی، و إمام الحرمین، و القشیری: یجمعون بین أبی حنیفة و مالک و الشافعی و أحمد بن حنبل و الجنیدی، و هی التی برزت واضحة مستعلنة فی حکمة الغزالی و بخاصة فی کتابه «إحیاء علوم الدین».

و کانت المدارس التی أنشأها صلاح الدین فی مصر علی مثال المدرسة النظامیة فی بغداد، و المدارس التی أنشأها الملک العادل نور الدین فی دمشق. أما الذی أنشأه العبیدیون بمصر فلم یکن یعدو مجالس مرتبة فی الجامع الأزهر و جامع الفسطاط، و کان یظلها حکم الدولة، و یتحین لها اجتماع الناس یوم الجمعة فعمرت المدارس، و توافر فیها الشیوخ و الطلاب، و انتظمت حلق العلم فی جامع الفسطاط، و شاع الفقه علی المذاهب الأربعة، و سارت الدراسة فی العلوم علی المناهج المتصلة بتلک المذاهب.

و لکن الجامع الأزهر قد اعتراه انطواء امتد إلی أواسط القرن السابع، فلم یکن لهذه الحرکة العلمیة فیه مجال. و طال کسوف الأزهر

قرنا كاملا، إذ لم تقم فيه الجمعة إلا سنة ۷۶۵ ه أيام الملك الظاهر بيبرس و بدأ من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۶

يومئذ يستعيد مجده، حتى انتظم أمره، و علا شأنه فی منتصف القرن الثامن على يد الأمير بشير الجامدار فی عهد الناصر بن قلاوون .

أما فی تونس ففی نحو عام ۴۴۱ ه جاء خطاب الخليفة العباسی من بغداد بتقليد المعز بن باديس ولاية أفريقية . و أعقب ذلك زحف العرب الهلالية، فسقطت القيروان، و خربت، و جلا عنها المعز و آوى إلى المدينة. و انتشر الاضطراب فی البلاد، و قامت إمارات الطوائف: فی صفاقس، وسوسة، و قابس، و قفصة، و بنزرت، و طبرقة، و الكفاف، و غيرها، أما مدينة تونس فقد خلعت طاعة المعز، و قرر أهلها الانضمام إلى ملك الفرع الصنهاجی الآخر الذی كانت عاصمته قلعة بنی حماد، جنوبی بجاية، فتوجه وفد من مشيخة مدينة تونس إلى بجاية، و لقوا ملكها الناصر بن حماد، فولی بإشاراتهم على مدينة تونس أحد أبنائها و هو عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان فقامت به فی تونس دولة أساسها الشورى، و عمادها إسناد الأمر إلى أهل المدينة؛ لتدبير حمايتها من هجمات القبائل، و من غزوات الولاة. و عظم شأن بنی خراسان، و سما مظهر ملكهم بتونس، و كان لعلمائها عندهم منزلة مرعية. فكان أهل تونس و بخاصة علماؤها، و هم أهل جامع الزيتونة، فی منعة و ظهور أمر، إلى أن مضى الثلث الأول من القرن السادس، إذ امتدت إليهم يد أمير بجاية، ثم كانت الطامة الكبرى باحتلال النصارى النرمانديين أصحاب صقلية السواحل الشرقية للبلاد الأفريقية، فتحركت الثورة من جديد، للاستعداد لمقاومة الاحتلال الأجنبی، و انعكست روح الثورة على المدينة، فتقاتل ربضاها:

الجنوبی ربض باب الجزيرة، و الشمالی ربض باب السويقة إلى أن دخلها عبد المؤمن بن على سنة ۵۵۲ ه، ثم استنقذ جميع البلاد الساحلية من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۷

المغيرين الإفرنج، و استنقذ بقية البلاد من أمراء الطوائف، و وحد البلاد المغربية كلها فی ملكه الذی امتد من الأندلس إلى حدود برقة .

و فی صدر القرن السابع كانت البلاد الإفريقية قد ازدهرت برد غارات الإفرانج النرمانديين، و صارت تونس عاصمة البلاد باستقرار الدولة الحفصية و صارت حلق الوعظ و التعليم القائمة بجامع الزيتونة مزدهرة و كذلك كان شأن مدينة القاهرة قبل ذلك بخمسين سنة تقريبا. لما ردت عنها الغارات الصليبية، و قامت فيها الدولة الأيوبية، و صارت الحلق فی الجامع الأزهر لا تختلف عن الحلق التی يقبلون عليها فی جامع الفسطاط: كلها حلق سنية، لا شائبة فيها للأهواء، ترعاها الدولة، و يغشاها الناس غير مكرهين، و لا وجلين. إلا أن هذا المعنى لم يظهر ظهوره التام فی الجامع الأزهر، و إن ظهر حواليه، فلم يظهر فی الأزهر بذاته إلا فی منتصف القرن السابع لما جددت عمارته، و أقيمت فيه الجمعة على مذهب أهل السنة و الجماعة، و رتبت فيه دروس الحديث و الفقه .

فجامع الزيتونة لما قام الأزهر فی منتصف القرن السابع برسالته العلمية السنية، قد كان قائما على تلك الرسالة نفسها، شديد الساعد فی الاضطلاع بها فالتحمت بذلك الصلات بين الجامعين، و زاد فی تأكيد اللحمة تشابه المناهج العلمية، و تقارب الأساليب التدريسية، و الاتحاد فی أكثر مواد الدراسة، و التفاضل المطرد بين شيوخ المعهدين: أخذا و عطاء.

فالمذهب المالكی بعد أن انقطع علماؤه من الديار المصرية، فی أواخر القرن الرابع تحت حكم الفاطميين، بدأ يعاود منزلته فی أواخر القرن السادس بمن رحل إلى مصر من الأفارقة و الأندلسيين و الصقليين الذين رفعوا لواء المذهب المالكی فيها من جديد، مثل أبی محمد التونسی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۸

و محمد بن الفرح القروی الطليلی- و قد ذكرهما عياض فی المدارك، و مثل أبی بكر الطرطوشی محمد بن مسلم الصقلی المازری و ابن الحكار العقلی و غيرهم. فشاعت بذلك الكتب المغربية، و مناهج الدراسة الأفريقية و الأندلسية، مثل المدونة، و تهذيبها، و كتب

ابن أبی زید، و کتب أبی الولید الباجی، و انبعثت فی أصول الدین و أصول الفقه طریقة الأشعری، و الباقلانی و إمام الحرمین، و الغزالی، و المازری، و توصلت بذلک المذاهب السنیة و لا سیما المذهبان المالکی و الشافعی و کان لشیوع دعوة الغزالی إلی وصل التصوف بعلوم الشریعة، أثرها فی تقریب المحدثین و الفقهاء و المتکلمین من الصوفیة، و تأثر هؤلاء بهؤلاء، تأثرا ظهر فی طریقة الشیخ عبد القادر الجیلانی و انتشر فی المغرب کله بأبی مدین و أصحابه، ثم تأصل بتونس فی طریقة الشیخ أبی الحسن الشاذلی التی أوصلها هو أصحابه إلی مصر، و عم انتشارها من تونس و من مصر غربا و شرقا.

فهذه الأسس هی التی کانت قوام طریقة التخرج فی مصر و تونس علی السواء، علیها مضی القرن السادس، و علیها سار القرن السابع حتی منتصفه لما قامت الدراسة فی الجامع الأزهر، و استمرت- علیها مناهج الدراسة فی الأزهر بقیة القرن السابع و القرون بعده.

فکانت الدراسات بالأزهر و بالزیتونة طیلة هذه القرون، تسیر علی منهج واحد، و تعتمد مادة من الکتب مشترکة، و سندا من العلماء متحدا:

فیهم المصریون، و فیهم الأفارقة و فیهم غیر المصریین و غیر الأفارقة: من الأندلسیین و المغاربة، أو من الشامیین و العراقیین و الأعاجم و علماء الروم.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۴۹

ففی فجر القرن السابع ظهرت المدارس بمصر و اتسع إلیها نطاق التدریس بعد أن کان مقصورا علی المساجد. و کان إنشاء المدارس الأولی بمصر فی الفسطاط حول جامع عمرو. فهنالک أنشئت المدرسة الصلاحیة، و المدرسة القمحیة فکان فیها مدارس أنشئت للفقهاء المالکیة مثل القمحیة، و کانت الدراسة فیها بالاعتماد علی أمهات المذهب المالکی المشهورة: من کتب العراقیین و الأفریقیین و الأندلسیین، و من بینها کتب ابن أبی زید و القابسی و المازری و ابن بشیر و غیرهم من أبناء البلاء التونسیة. یشهد لذلک ما ذکره ابن فرحون فی الدیباج فی ترجمة أبی محمد ابن شاس المتوفی سنة ۶۱۰ ه أنه کان مدرسا بالمدرسة المجاورة للجامع العتیق، مع ما ورد فی کتاب الجواهر الثمینة لابن شاس من اعتماد علی ابن أبی زید و یسمیه الشیخ، و ابن بشیر و یسمیه أبا الطاهر، و المازری و یسمیه الإمام أبا عبد الله، زیادة علی أمثال أبی الولید الباجی، و ابن رشد، و ابن العربی، من الأندلسیین و عبد الوهاب و الأبهری، و ابن القصار، من العراقیین.

فلما ظهرت المدارس بتونس فی أوائل القرن السابع، کانت الدروس فیها، و فی حلق جامع الزیتونة، سائرة علی نفس ذلک المنهج، و معتمدة نفس تلک الدواوین. زیادة علی ما کانت تتلافی فیه المناهج العلمیة بین مصر و تونس، فی الفنون الأخری غیر الفقه المالکی، من الحدیث و الأصول و التصوف، و فنون العربیة، مما زاد له تأکد الصلات، و قوة الامتزاج، و رواج الأخذ و العطاء، طردا و عکسا، بین المرکزین.

و ظهر فی ذلک القرن فی مصر العلامة ابن دقیق العید، و الإمام عز الدین بن عبد السلام و الحافظ المنذری، فصربت سمعتهم إلی تونس، و أخذ عنهم من رجال الزیتونة مشاهیر منهم أبو یحیی بن جماعة التونسی أخذ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۰

عن ابن دقیق العید و القاضی أبو القاسم بن زیتون أخذ عن المنذری و عن عز الدین بن عبد السلام و القاضی عبد الحمید بن أبی الدنیا أخذ عن عز الدین بن عبد السلام و ظهر فی تلک الحقبة بتونس الإمام النحوی أبو الحسن بن عصفور، و ظهر کتابه «المقرب» فی النحو و کتابه «الممتع» فی التصریف، و غیرها من کتبه فطار صیتها إلی مصر، و تلقاها عنه بتونس الشیخ أبو حیان، فروجها فی مصر و التزمها و هو الذی اختصر المقرب و وفد علی مصر الإمام الصوفی الشهیر أبو الحسن الشاذلی بطریقته التی کان قد أسسها بتونس من أواخر القرن السادس و فیها ربی أصحابه، و لقن أحزابه و کان له مجلس بجامع الزیتونة، ثم تردد هو بنفسه علی مصر و أخذ عنه فیها و صارت الأسکندریة المرکز الثانی لطریقته و استقر بها خلیفته أبو العباس المرسی، و عنه أخذها ابن عطاء الله و انتقل

بها إلی مصر، و اشتهرت الطریقة الشاذلیة فی مصر، و انتشرت منها انتشارها الشرقی کما انتشرت انتشارها الغربی من تونس .

و کذلک استمر هذا التواصل بین القاهرة و تونس یزید ثباتا و توثقا بابن الحاجب، و القرافی، و ابن جماعة، إذ کان من الآخذین علیهم: ابن راشد، أخذ عن القرافی و ابن جابر الوادناشی، أخذ عن ابن جماعة و ناصر الدین الزواوی، أخذ عن ابن الحاجب. الذی نشر مختصره الفرعی فی أفریقیا و المغرب و إبراهیم التنسی المطماطی، أخذ عن القرافی ..

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۱

و قابل ظهور هؤلاء بمصر أن ظهر بتونس أمثال ابن هارون الطائی، و ابن الغماز، و التجانی و ابن هارون الکنانی، و ابن عبد السلام، فاعتمدوا کتب المصریین و رووا عنهم، و رووا عن المتخرجین بهم، مثل ابن زیتون، و ابن راشد.

و کان، فی القرن السابع، و الذی بعده، للرحالین المشاهیر، الذین رحلوا من تونس إلی مصر أثر فی إشاعة أسماء الأعلام من القطرین، کل فی القطر الآخر و نعنی بهؤلاء أمثال ابن جابر الوادناشی، صاحب الفهرس المفصل الممتع الذی یوجد مخطوطا بالأسکوریال، جمع فیه تراجم شیوخه و الکتب التی أخذها عنهم، و أسانیدهم فی تلک الکتب إلی مؤلفها، و بواسطته اتصل کثیر من شیوخ مصر بالتونسیین، کما اتصل کثیر من شیوخ تونس بالمصریین من طریقه مباشرة أو بواسطة ابن رشید الفهری السبتی المتوفی بفاس سنة ۷۲۱، صاحب الرحلة الشهیرة التی شملت الأندلس و المغرب الأقصی و القطر الجزائری و القطر التونسی و مصر و الشام و الحرمین الشریفین، فاتسعت روایاته، و کثرت لقاءاته، و جمع أحادیث ذلک کله فی رحلته الحافلة التی سماها «ملء العیبة بما جمع طول الغیبة فی الوجهة الوجیهة إلی الحرمین مکة و طیبة» و قد جمع فی مشایخه أعلاما من التونسیین: مثل ابن هارون الطائی و ابن زیتون، و أعلاما من المصریین:

مثل الحافظ المنذری و ابن دقیق العید، و تواصلت بواسطته أسانید هؤلاء، کما تلاقت فیه کثیر من الأسانید المغربیة و الأسانید المشرقیة، و خالد البلوری الذی رحل أواسط القرن الثامن بعد أن أقام بتونس، و دخل مصر، و جمع من أخبار مشیخته فی القطرین، و أورد عنهم من فوائد العلوم و نکت

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۲

الآداب ما طفحت به رحلته التی سماها «تاج المفرق فی تحلیة علماء المشرق» و توجد منها نسخ عدیدة فی مصر و فی تونس و غیرهما- مراجع أیضا للمدرسین و القضاة و المفتین.

و فی القرن الثامن بلغ التواصل العلمی بین مصر و تونس أوجه، فتأکد اشتراک المشیخات، و تبادل الإفادة و الاستفادة، و تناقل التألیف و الروایات، و استمر ذلک ممتدا متسعا مغرقا فی القرون الموالیة. فکان ظهور الشیخ خلیل بن إسحاق، الفقیه المالکی، فی القرن الثامن، و بروز شرحه علی مختصر ابن الحاجب، الذی سماه «التوضیح» ثم بروز مختصره الفقهی الجامع الذی نال إعجاب أهل المغرب، ممکنا لمصر منزلتها عند فقهاء المالکیة بتونس، کما کان فی کتاب التوضیح أثر ظاهر للمشیخة التونسیة فی اعتماده علی شراح ابن الحاجب الزیتونیین: ابن عبد السلام و ابن هارون، و ابن ولید و فی المختصر أثر واضح لمتقدمی الفقهاء الأفارقة، مثل:

اللخمی، و ابن یونس، و المطرزی، و هم ثلاثة من الأربعة الذین بنی علی اختیاراتهم مختصر خلیل، کما هو مبین فی خطبته.

و ما ظهر مختصر خلیل حتی أقبل الناس علیه بالحفظ و الدراسة، و تعلیق الشروح و رسخت مکانته فی دراسات جامع الزیتونة، رسوخا لم ینقطع بعد. و شرح مختصر خلیل أول ما شرح، فی مصر: شرحه القاضی بهرام الدمیری : شرحیه الکبیر و الصغیر، فاقترن الشرحان بالأصل فی اتساع السعة، حتی أصبح بهرام یلقب بین جمیع الکاتبین علی مختصر خلیل، من بعد، بلقب «الشارح» و درس المختصر بتونس و جمیع البلاد المغربیة، فکان من أشهر من اعتنی به تدریسا و شرحا: العلامة ابن مرزوق الحفید و هو تونسی زیتونی، بالطلب و المجاورة و التدریس، و تتابع علیه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۳

الشراح و الدارسون و المعلقون من بعد، فكان من أصول كتب الدراسة بجامع الزيتونة، قرونا متتالية، و مرجع القضاء و الفتوى الذى لا محيد عنه و كان حفظه متنا عن ظهر قلب شائعا بين الطلبة. و صارت شروحه التى صنفت من بعد بمصر.

و قابل ظهور خليل بمصر ظهور شيخ الزيتونة و إمامها: ابن عرفة بتونس و اشتهاره بتحقيق الفقه المالكى، نظرا و نقلا، و تصنيفه المختصر الذى قال فيه الأبى: «ما وضع فى الإسلام مثله لضبطه فيه المذهب مسائل و أقوالا مع زوائد مكملة و التنبيه على مواضع مشكلة و تعريف الحقائق الشرعية»: فكانت سمعة ابن عرفة و شهرة كتبه بالغة إلى مصر، ثم كانت رحلته بنفسه، و أخذ الكثيرين بمصر عنه، و منهم الحافظ ابن حجر، و رحلة طلبته من بعده، و أخذهم عن المصريين، و أخذ المصريين عنهم، ذات أثر فى وصل ما بين الطريقتين طريقة ابن عرفة، و طريقة خليل، وصلا ظهر بصورة جليلة فى شرح ابن مرزوق على المختصر، إذ كثيرا ما اعتمد فى شرح كلام خليل على استظهارات ابن عرفة، كما ظهر الاتصال بين الطريقتين أيضا فى كتاب الشامل للشيخ بهرام، كثيرا ما أشار إلى تحقيقات ابن عرفة، كما نبه على ذلك شراحه و من يومئذ أصبح لا يرى شرح لمختصر خليل، و لا حاشية على شرح له، إلا و مدار التحقيق على كلام ابن عرفة.

و هذا الذى حصل فى الفقه المالكى، فى القرن الثامن، من التواصل الأزهرى الزيتونى قد حصل مثله أيضا فى علوم العربية. فقد ظهر بمصر، فى ذلك القرن، إمام العربية: أثير الدين أبو حيان، و قد مر ذكر أخذه عن ابن عصفور بتونس، و جمال الدين بن هشام، فأظهرا فى علم النحو آثارهما

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۴

الجليلة جمعا و تحقيقا و حسن تصنيف فكانا فرسى رهان فى خدمة العربية مواصلة لطريق ابن مالك، و اتقانا لأثره، و كان ما بينهما. من كثرة المخالفة و تراد المباحث عتنا مع أبى حيان بابن عصفور، يضع مباحث ابن عصفور بينهما على بساط المجادلة.

و اختصت كتب ابن هشام بالإقبال عليها، و لا سيما كتاب «مغنى اللبيب» فقد اشتهر و ذاع صيته بالزيتونة منذ القرن الثامن، فى حياة مؤلفه الذى يقول ابن خلدون عنه : «وصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب فأتى من ذلك بشىء عجيب دل على قوة ملكته و اطلاعه» فدخل «مغنى اللبيب» فى كتب الدراسة بالزيتونة من أوائل القرن التاسع، درسه الحفيد ابن مرزوق، و كان قد تلقاه بمصر عن ابن المؤلف الشيخ محيى الدين بن هشام و اشتهرت دراسة المغنى و الاعتماد عليه، و قد ألف الشيخ محمد الرصاع، فى منتصف القرن التاسع كتابه فى ترتيب آى مغنى اللبيب، فنوه فيه باشتهار كتب ابن هشام، و لا سيما المغنى، و تتابع العلماء على التسليم بعظيم قيمته من قديم، كما صرح بما يشهد لرواج كتب أبى حيان، و خصوصا تفسيره البحر المحيط، و الاعتناء بما فى جامع الزيتونة و اعتماد المدرسين عليه و على الزمخشرى فى تفسير القرآن و كان ذلك فى الوقت الذى يدرس فيه المغنى بالجامع الأزهر: فقد ذكر بدر الدين الدمامينى فى حاشيته على المغنى، المعروفة بالحواشى المصرية أنه قرأ المغنى بالأزهر فى مدة مائة و ثلاثين يوما سنة ۸۱۲ ه.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۵

و كذلك كان القرن الثامن أيضا ظرفا للتواصل الأزهرى الزيتونى فى مجال العلوم العقلية و الأدب فكانت شهرة آل السبكى، بمصر، حاملة أهل العلوم على الرغبة فى الاتصال بهم، و الأخذ عنهم كما ترى ذلك فى رحلة خالد البلوى، و كانت شهرة ابن خلدون فى تونس و المغرب، ثم رحلته إلى مصر، و تصدره للاقراء بالجامع الأزهر مهيأة لأخذ أعلام الأزهر عنه مثل ابن حجر و المقريزى و الأقفهسى، و زائدة فى ذيوع شهرته؛ و شهرة الزيتونة، و علمائها بالمشرق.

و جاء القرن التاسع بأعلامه الذين علا بهم مجد الأزهر فكان للزيتونيين تطلع إليهم، و اتصال بهم، فظهر الحافظ ابن حجر، الذى أخذ عن ابن عرفة و ابن خلدون، فشدت إليه الرحلة من المشرق و المغرب و كان مدرس الأزهر و خطيبه. و قد اتصل به من التونسيين الزيتونيين و أخذ عنه: أبو عبد الله التريكى و أبو الحسن القلصادى الأندلسى الأصل، و الكفيف ابن مرزوق و هو كأبيه ابن مرزوق

الحفید، زیتونی بالطلب و ظهر الجلال المحلی، و السراج البلقینی و غیرهما من الذین حفل بدروسهم و تآلیفهم و إسنادهم القرن التاسع، فکان رجوع کثیر من الزیتونیین إلیهم، و أخذهم عنهم ملاقیا بینهم و بین أعلام الزیتونة من أهل أواخر القرن الثامن و أوائل التاسع. فقد أخذ الحفید ابن مرزوق عن الجلال المحلی و جمع بینه و بین ابن عرفة و أخذ القاضی ابن فرحون المدنی، و هو تونسی الأصل عن ابن عرفة فی حجته کما أخذ عن السراج البلقینی، و اعتمده فی مواضع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۶

کثیرة من کتابه «تبصیر الحکام».

و خلف القرن التاسع لمطلع القرن العاشر الإمام الحافظ جلال الدین السیوطی بمجده العالی فی ذیوع التآلیف الکثیرة المهمة، فتأثرت الدراسة فی جامع الزیتونة فی القرن العاشر باسمه تأثرا قویا امتد إلی القرون التالیة، و حطت الرحال علی کتبه، و ثار تحقیق المباحث من رسالته، و دارت الروایات علی أسانیده و تأثرت الدراسة الزیتونیة فی القرن العاشر، بأعلام القرن التاسع من الأزهریین و کتبهم، فشاع تفسیر الجلالین، و کثیر من کتب المحلی، و لا سیما شرحه علی جمع الجوامع، و شرح العینی علی البخاری، و کتب الشیخ خالد الأزهری، مثل التصریح و شرح الأجرومیة، و قد ورد ذکرهما کلها فی المشیخات و الإجازات و التراجم، کما شاع التحدیث فی الإجازات بأسانید شیخ الإسلام زکریاء الأنصاری: آنا بروایة التونسیین عن تلامیذه المصریین مثل روایة الشیخ أحمد بن إبراهیم الأندلسی عن الشیخ زین العابدین البکری عن أبیه عن الشیخ زکریاء. و آنا بروایة التونسیین عمن لقوا الشیخ زکریاء من الفاسیین مثل روایة الشیخ خروف عن سقین العاصمی، کما فی کثیر من الإجازات التونسیة، و المغربیة بعامة، بسند الشیخ عبد القادر الفاسی المشهور. و ظهر بالأزهر فی القرن العاشر أیضا أمثال الناصر اللقانی، و البدر القرافی، و القسطلانی، و ابن نجیم، فشاعت کتبهم بتونس فی القرن نفسه، و لا سیما شرح القسطلانی علی البخاری، و کتاب المواهب اللدنیة له و شرح العلامة الشنشوری، خطیب الجامع الأزهر علی متن الرحبیة فی الفرائض.

و کان من الذین طلعوا بتونس فی أفق الزیتونة فی القرن العاشر:

الشیخ محمد خروف و الشیخ محمد مغوش. أما الشیخ خروف فقد رحل إلی مصر، و أخذ عن الناصر اللقانی، و الشمس اللقانی و الشیخ أبی الحسن شارح الرسالة، بعد أن أخذ عن جماعة من التونسیین مثل الزندیری، و سلیطن و محمد مغوش و قد شاع الأخذ عن الشیخ خروف فی الأسانید

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۷

الفاسیة بروایة أبی عبد الله القصاری و أبی المحاسن الفاسی و بواسطة خروف تتصل الأسانید الفاسیة بکثیر من الشیوخ الأزهریین و کتبهم و أما الشیخ مغوش فقد نشأ بتونس و عظم شأنه فیها أواخر العهد الحفصی، ثم خرج إلی المشرق قبل منتصف القرن العاشر، و استقر بمصر، و توفی فیها، و قد انتشرت سمعته العلمیة، فی المشرق و المغرب، و أخذ عنه المشارقة و المغاربة. و من أشهر المصریین الذین أخذوا عنه شهاب الدین الخفاجی .

فهؤلاء هم الذین زادوا بتلاواتهم و کتبهم و أسانیدهم، فی تقویة الصلة و کان انتظام القطرین المصری و التونسی، فی سلک الخلافة العثمانیة فی هذا القرن، معینا علی زیادة التواصل بین الأزهر و الزیتونة، کما کان ظهور المذهب الحنفی فی تونس، باستقرار النظام العثمانی، مهیئا لأسباب الاتصال بأعلام من فقهاء المذهب و أساتذته بالأزهر، و ممهدا لانتشار کتبهم فی تونس و دخولها فی مناهج الدراسة مثل کتب ابن نجیم التی کان بعضها متابعة لدروسه بالأزهر مثل شرحه علی المنار. و کتب الشیخ حسن الشرنبلالی التی کانت کذلک ناشئة من دروسه فی الأزهر.

و بذلک کان کثیر من مدرسی الزیتونة فی القرن الحادی عشر تلامیذ لأعلام الأزهر: الشیخ إبراهیم اللقانی، و الشیخ عبد الباقی الزرقانی، و ابنه الشیخ محمد، و الشیخ الشبراخیتی، و شیخ الإسلام محمد الخرشی، فالشیخ المفتی محمد بن مصطفی کان تلمیذ

الشیخ إبراهیم اللقانی و الشیخ محمد بن شعبان قرأ علی الشیخ إبراهیم اللقانی جوهرته فی التوحید

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۸

بالجامع الأزهر و هو الذی أقرأها بتونس، کما ذکر ذلک متلقیها عنه الشیخ محمد قویسم، فی خاتمة کتابه: «سمط للآل» .

و کذلک الشیخ محمد زیتونة و الشیخ محمد الصفار و الشیخ محمد العوانی و الشیخ أحمد برنار و الشیخ محمد سعادة و السید أحمد الشریف إمام دار الباشا و الشیخ علی النوری الصفاقسی إمام القراءات المشهور و الشیخ محمود مقدیش الصفاقس کانوا کلهم من تلامیذ أولئک الأعلام الأزهریین و بواسطتهم دخلت کتب هؤلاء الأئمة إلی تونس، و شاعت دراستها، و لا سیما شروح الشبراخیتی و الزرقانی و الخرشی علی مختصر خلیل و شرح الزرقانی علی الموطأ، و شرحه علی المواهب، و توجد خطوط هؤلاء الشیوخ إلی الآن فی المکاتب بتونس: ففی المکتبة العبدلیة إجازة الشیخ إبراهیم اللقانی بخطه، و فی المکتبة العبدلیة أیضا نسخة من شرح الأبی علی صحیح مسلم بخطه أیضا کتبها سنة ۱۰۱۲ ه، و فی تونس نسخة بخط الشیخ إبراهیم من کتاب مغنی اللبیب لابن هشام، و نسخة من شرح الشیخ عبد الباقی الزرقانی علی المختصر هی أصله الذی بخطه.

و فی المکتبة العبدلیة جزء من شرح المواهب اللدنیة للشیخ محمد الزرقانی، کانت من أملاک الأمیر حسین باشا و قد قوبلت بإذنه علی نسخة منسوخة من أصل المؤلف، المکتوب بخطه، الذی قرأه بدرسه علی طلبته بالأزهر فی آخر عمود.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۵۹

و کذلک شاعت الروایة بأسانید أعلام المحدثین بالأزهر فی ذلک القرن: مثل أسانید الشیخ الطولونی یروی بها الشیخ محمد زیتونة، و أسانید الشیخ الشبراوی یروی بها السید أحمد الشریف و الشیخ علی النوری .

و کان للعلامة التونسی محمد زیتونة رحلتان إلی مصر سنة ۱۱۱۴ ه و سنة ۱۱۲۴ ه خلفا صدی بعیدا و أثرا حمیدا، فی توثیق الصلات بین علماء الأزهر و علماء الزیتونة، بما عرف أهل الأزهر و علماء الأسکندریة من فضله و علمه، و ما أظهر فی دروسه و مجالسه، مما نال ثناءهم، و جلب اعتناءهم لا سیما درسه فی تفسیر الآیة الأولی من سورة الإسراء لیلة المعراج فی رجب من سنة ۱۱۱۴ ه بجامع تربانة بالأسکندریة، الدرس الذی نوه بذکره حسین خوجه فی ذیل کتابه بشائر أهل الإیمان و کان ممن أخذ عن الشیخ زیتونة من علماء مصر المحدث الشیخ أحمد الصباغ الأسکندری، صاحب الثبت المشهور.

و کثیرا ما تصدت رحاب الأزهر بطلب الفتوی، فی حوادث تنزل بالبلاد التونسیة، أو قضایا یدق محل النظر فیها، کما وقع سنة ۱۰۴۶ ه فی إمارة یوسف دای، أن وجه سؤال إلی علماء الأزهر فی قضیة حال تتعلق بتوریث زوجة شهد بطلاقها بعد موت الزوج، و کتب فی (المسألة) رسالة الشیخ عمر بن علی الفکرونی الأزهری، و هو تونسی الأصل، من مدینة سوسة، و کان قاضیا مالکیا بمصر شیخا لرواق المغاربة بالأزهر- و من تلامیذ الشیخ سالم السنهوری.

و اتصلت سلاسل الروایة، و الملاقاة، و تلقی الدروس، کامل القرن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۰

الثانی عشر، قویة نامیة متتالیة، و فیه شد کثیر من التونسیین الرحلة إلی الأزهر لاستکمال تخرجهم فیه بالأساتذة الأعلام الذین کانت سمعتهم السائرة تجلب إلیهم الشادین فی طلب العلم من الآفاق، لا سیما و قد أثرت القرون الماضیة فی تشابه مناهج الدراسة، و اتحاد الکتب التی یزاولها الدارسون، و یعتنی بتقریرها و التعلیق علیها المدرسون، و الشراح، و المحشون، فمختصر خلیل، و کتب القرافی، و البیضاوی، و کتب ابن هشام، و شرح الأشمونی علی الألفیة، و کتب العضد، و التفتازانی، و کتب ابن حجر و السیوطی، و القاضی زکریاء، و أسانید هؤلاء الثلاثة الأخیرین ذکرا، هی التی کان علیها مدار الدرایة و الروایة، علی السواء، بمصر و بتونس، و علیها عکف الطلبة، و بها تخرج العلماء فی المعهدین العظیمین: الأزهر و الزیتونة. ففی الوقت الذی أقبل فیه الشیخ محمد بن سعید الحجری، الملقب بالنحم الثانی علی جامع الزیتونة، آتیا من قریة أبی حجر، فی الساحل الشرقی التونسی، کان اثنان من تلک البلاد الساحلیة

نفسها قد وفدا على الجامع الأزهر: و هما الشيخ محمد سعادة و الشيخ عبد الرحمن بن جاد الله البنانى. أما الشيخ محمد سعادة فقد رجع إلى تونس مملوء الوطاب، متين الأسباب، من دروس الشيخ محمد الزرقانى، و الشيخ أحمد الفقهيه، و الشيخ عبد الرءوف البشبيشى، و من أسانيد الشيخ على الطولونى، و الشيخ عبيد النمرسى .

و أما الشيخ البنانى فقد أقام بمصر، و كان من أعظم علماء الأزهر و أكثرهم طلبة و أبعدهم شهرة، ناهيكم بشرحه على المحلى، و تقريراته على شرح التفتازانى على التلخيص.

و لقد كانت الكتب التى اعتنى بها كل واحد من هؤلاء الثلاثة: هى الكتب التى اعتنى بها بقيتهم فى الزيتونة و فى الأزهر: الأشمونى، و مختصر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۱

السعد، و تهذيب المنطق. فقد كتب الشيخ أبى سعيد و الشيخ سعادة كل منهما، حاشية على الأشمونى. أما حاشية الشيخ سعادة فكانت قبل حاشية الصبان، و لكنا لا نعرفها إلا ذكرا. و أما الشيخ ابن سعيد، و حاشيته مشهورة مطبوعة، فقد كان تدريسه الأشمونى بتونس، و كتابته «حاشيته عليه فى مدة تدريس الشيخ الصبان الأشمونى بالأزهر، و وضع حاشيته عليه، فقد أتم الصبان حاشيته سنة ۹۳ و أتم ابن سعيد حاشيته سنة ۹۷ و كان الاتصال بين الحلقتين، بتردد الطلبة محققا، حتى أن الشيخ ابن سعيد كثيرا ما يجاذب الشيخ الصبان أبحاثه، و يعرض طريقته، و زيادة على اعتماد كل منهما على حاشية الشيخ يوسف.

و توجد بتونس كتب من ممتلكات الشيخ الصبان عليها خطة يقرب أن يكون هو- رحمه اللّه- مكن منها بعض طلبته و فى مكتبتنا نسخة من كتاب النكت للسيوطى عليها تمليك الصبان سنة ۱۱۸۷ و بقيت صلات الود وثيقة بين الشيخ ابن سعيد و الشيخ البنانى، و المراسلة بينهما متسقة و هما من قريتين متجاورتين (زينان، و بو حجر). ففى ديوان الشيخ ابن سعيد الذى سماه «الفلك المشحون» رسالة من الشيخ البنانى إليه بمناسبة سفر والده الشيخ ابن سعيد للحج و مروره بمصر، يجيبه فيها عن طلبه نسخة من حاشيته على المحلى بأنه سيكتبها بيده و يوجهها إليه فيما بعد، إلى أغراض أخرى. كل ذلك فى أسلوب بليغ من خطاب المودة و التعظيم. و كذلك كان جواب ابن سعيد الذى تضمن، فيما تضمن من ثناء و تنويه استنجازا للوعد بإرسال حاشية المحلى.

و قد اشتهر اسم الشيخ ابن سعيد بمصر، و اعتنى بكتبه، مع أنه لم يعمر طويلا، حتى أن الشيخ حسن العطار، فى منتصف القرن الثانى عشر اعتمد على حاشيته على شرح الخبيصى على التهذيب و جاذبه كثيرا من

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۲

مباحثها، فى ما كتب هو أيضا على نفس الكتاب، كما صرح بذلك فى خطبة حاشيته و فى ختامها.

و قد طبعت الحاشيتان معا، كتابا واحدا، فى بولاق سنة ۱۲۹۶.

و لم يكن الراحلون إلى الأزهر من الزيتونيين فى هذا القرن الثانى عشر محصورين فى البنانى و سعادة، بل غيرهما كثيرون. منهم الشيخ محمد بن على الغريانى الطرابلسى الأصل الذى أخذ عن الشيخ محمد بن سالم الحفناوى، و السيد البليدى، و الشيخ محمد العشماوى و الشيخ أحمد العمارى، و بعد زيارة- الحرمين الشريفين، و الأخذ عن أعلام البلد الحرام أمثال الجمال الأخير الطبرى، و تاج الدين القلعى، و ابن عقيلة، رجع إلى الزيتونة و انتصب للتدريس و كان أستاذ الأساتذة و به اتصلت رواية الزيتونة بالأزهريين، و عنه يروى بتلك الأسانيد الشيخ عمر المحجوب فى إجازته شيخ الإسلام محمد بن الخوجه التى فى ثبته ، و منهم الشيخ محمد بن حسين الهدة، صاحب الحاشية على شرح الورقات فقد أخذ عن الشيخ على الصعيدى و السيد البليدى، و الشيخ الدمنهورى.

و انتصب للتدريس بجامع الزيتونة ، و كان يروى عن الشيخ الحفناوى و أجاز بسنده و عنه يروى به الشيخ عمر المحجوب كما فى ثبت الشيخ ابن الخوجه أيضا. و منهم الشيخ إبراهيم بن على شعيب الذى روى عن الحفناوى أيضا، و عنه روى الموطأ و الصحيحان بذلك السند فى جامع الزيتونة، روى عنه الشيخ حمودة إدريس، الذى حدث عنه الشيخ المحجوب، كما فى إجازة الشيخ إسماعيل

التمیمی .

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۳

و زاد فی قوة انجذاب الزیتونیین إلی الأزهر فی هذا القرن الثانی عشر أن حفلت مصر بمقدم أسانید فی البلاد الشرقیة بلغت سمعتهم عنان السماء، یعتبر فی مقدمتهم شهرة و علو مقام الحافظ محمد مرتضی الزبیدی فقد تسابق الناس للأخذ عنه، و تزاحموا علی مجالس إملائه، حتی کان القاصدون إلی الحج- و لو من غیر خاصة الطلبة یغتنمون إقامتهم بمصر عابرین لحضور مجالسه الجامعة و یکتب لهم الشهادة بالسماع، و الإجازة، و بذلک شاعت الروایة عنه، و انتشر خطه فی الإجازات و الأثبات و کتب السنة المقروءة علیه. و من أخص تلامیذه من شیوخ الزیتونة الشیخ عمر بن المؤدب، و الشیخ محمد بن حمودة الصفار، و أبناء الشیخ الغریانی، بل إن عامة طلبة جامع الزیتونة فی ذلک العصر یعتبرون طلبة له، لأنه کتب فی إجازته لأبناء الشیخ الغریانی: کذا أجزت لطلبة العلم الملازمین فی حلقة دروس والدهم و سائر أحبابهم و أصحابهم ممن فیه أهلیة التحمل لهذا العلم و قد کان الشیخ مرتضی أخذ عن الشیخ الغریانی، کما أخذ عن الشیخ أحمد بن عبد الله السوسی من علماء الزیتونة و عن هذا الاتصال المحکم بین الأزهر و الزیتونة، فی القرن الثانی عشر، تولدت صلات أشد إحکاما، و روابط أتم انتظاما، فی القرن الثالث عشر؛ فقد استهل ذلک القرن و سمعة أعلام من الأزهریین قد ضربت ما بین المشرق و المغرب؛ بکتبهم القیمة التی شاعت فی عصرهم و عم الإقبال علیها: مثل الشیخ محمد بن عرفة الدسوقی، الذی عظمت شهرة دروسه و أسانیده و کتبه و اعتمدت حواشیه، و لا سیما حاشیته علی شرح الدردیر علی المختصر الخلیلی، التی اعتمدها فقهاء الزیتونة، فی الدروس و الفتاوی و الأحکام، و علقوا علیها، و جاذبوا مؤلفها بحوثه و نقوله: و تحقیقاته فکان شیخ الإسلام أحمد بن حسین، و الشیخ المفتی محمد الشاهد، و غیرهما من شیوخ المذهب المالکی فی أواسط القرن الثالث عشر، یعتمدون کلام الشیخ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۴

الدسوقی، و یستندون إلیه فی فتاویهم و تحاریرهم، کما هو ثابت فی الوثائق و منقول فی الأخبار و کان للطباعة فی القرن الثالث عشر، و لا سیما فی النصف الأخیر منه، أثر فی سرعة ایصال الکتب و بسط شهرتها فعرفت کتب الشیخ الخضری، و الشیخ علی الصعیدی، و الشیخ الباجوری، و الشیخ العطار، و شاعت فی مناهج الدراسة الزیتونیة فقوی بذلک تشابه المناهج بین الزیتونة و الأزهر، حتی لم یبق فرق یذکر، لا فی المناهج، و لا فی صورة التکوین العلمی للخریجین. ففی الربع الأخیر من القرن الماضی کان شیخ الإسلام سالم أبو حاجب یدرس الأشمونی بجامع الزیتونة، درسا اشتهر و شدت له الرحال، و کان یتتبع حاشیة الصبان. و یکثر البحث فیها و یکتب بحوثه و تقریراته، أو یکتبها طلبته، و کان الشیخ الأنبانی، فی تلک الأیام نفسها، یدرس الأشمونی بالجامع الأزهر، و یکتب علی حاشیة الصبان و کان بعض الطلبة یتردد بین الدرسین: مثل الشیخ مصطفی بن خلیل، فکانت المباحث التی تثار فی أحد الدرسین یبلغ صداها إلی الآخر حتی أنه لما طبعت تقریراته الشیخ الإنبابی علی الصبان، قضی الشیخ سالم العجب من توارد الخواطر، حتی عدل عن طبع تقریراته، إذ أصبح غالبها مستغنی عنه بما طبع من تقریرات شیخ الإسلام المصری، سمعت ذلک من کثیر من أساتذتنا تلامیذ الشیخ سالم، کما سمعت منه شیئا یرجع إلی هذا المعنی فی أسلوب حدیثه الفکه و هو فی العقد العاشر من حیاته رحمه اللّه و انتهی القرن الثالث عشر بما کان من الروابط موصولا بین الأزهر و الزیتونة فی ذات الفقیه الکبیر الشیخ محمد علیش، الذی أخذ عن الشیخ محمود مقدیش و روی عن الشیخ محمد بن ملوکة و عنه أخذ کثیر من الزیتونیین منهم الشیخ مصطفی بن خلیل و کثیرا ما کانت تعرض المسائل عن الحوادث

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۵

و الأحکام علی الشیخ محمد علیش لأخذ فتواه فیها.

و قد کان من أجل الراجلین من الزیتونة إلی الأزهر فی القرن الثالث عشر: الشیخ مصطفی بن خلیل فقد کان أکمل تحصیله بالزیتونة و

سمی عدلا بتونس، ثم سافر إلی مصر، فقرأ بالأزهر علی الشیخ إبراهیم السقاء، و الشیخ علیش، و الشیخ الإنبابی، و أجازة الشیخ أحمد بن عبد الرحیم الطهطاوی. و یوجد نص إجازته له بخطه فی دار الکتب المصریة، ثم رجع الشیخ مصطفی إلی تونس فی أواخر القرن الثالث عشر، و سمی مدرسا من الطبقة العلیا بجامع الزیتونة، و علت منزلته، و أخذ عنه و تخرج به کثیر من علماء النصف الأول من القرن الحاضر.

و إنه لیکفی لإظهار الامتزاج الذی اکتمل فی القرن الماضی بین الأزهر و الزیتونة الرجوع إلی قوانین التعلیم فی المعهدین، حتی یتبین أن الکتب التی تدرس فی مراتب التعلیم الثلاث: الابتدائیة و المتوسطة، و العالیة، إنما کانت متحدة بصفة غالبة، لا یستثنی من ذلک إلا عدد قلیل جدا، علی ما جاء فی الفصول ۳، ۴، ۵، من الأمر العالی الصادر بضبط قانون التعلیم فی جامع الزیتونة سنة ۱۲۶۲ مع مقارنتها بما أثبته المرحوم الشیخ منصور رجب من أسماء أشهر الکتب التی تدرس بالأزهر فی کتابه: «الأزهر بین الماضی و الحاضر» علاوة علی أن الکتب التی کانت تدرس- بجامع الزیتونة و ضبطها قانون ۱۲۹۲ و هی مائة و خمسون کتابا یوجد من بینها ستة و أربعون کتابا هی مصریة أزهریة و کذلک ارتبط القرن الحاضر بالقرن قبله، إذ انعقدت من القرنین أسباب امتدت من السابق منهما و شدت باللاحق».

نعم «کانت العروة الوثقی لا انفصام لها» الجمعیة التی أنشأها السید جمال الدین الأفغانی، بعد خروجه من مصر سنة ۱۲۹۹ الوثاق الذی شدت به الصلات المتینة بین رجال من علماء الأزهر، انتصبوا لقیادة حرکة الإصلاح فی العالم الإسلامی، و آخرین من علماء الزیتونة، ساروا معهم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۶

فی ذلک السبیل فیهم الشیخ محمد بیرم، و الشیخ محمد السنوسی، و الشیخ أحمد الوربانی، و استمر ذلک الاتصال یملأ قرننا الحاضر حرکات متحدة المصادر، متشابهة المظاهر. بین الأزهر و الزیتونة و زار الشیخ محمد عبده تونس زیارته الأولی سنة ۱۳۰۲ و امتزج بعلمائها ثم عاد بعد عشرین سنة و ألقی محاضرته القیمة «العلم لطرق التعلیم» و کان لمجلة المنار رواج واسع فی تونس و أثر قوی فی إشاعة دعوة الشیخ محمد عبده الإصلاحیة.

و لا نرید أن ندخل فی صلة هذه الحرکة بالأزهر: و ما کان بین المنار و الأزهر، مما کتب فیه صاحب المنار کتابا خاصا. و لکننا نکتفی بأمرین هامین یتضح بهما ما کان لهذه الحرکة من انتساب متین إلی الأزهر؛ یجعل انتشار دعوتها بتونس داخلا فی موضوعنا أولهما أن قوام مجلة المنار، و أعظم مادتها، إنما کان ما تنشره من تلخیص دروس الشیخ محمد عبده فی تفسیر القرآن العظیم، و هی دروس أزهریة کانت تلقی فی الرواق العباسی، و ثانیهما أن أهم ما تحدده المنار، من دعوة الشیخ محمد عبده، هی دعوته إلی إصلاح التعلیم فی الأزهر، و أقصی ما تقصد إلی تحقیقه هو أن یتولی الأستاذ الإمام أمر الأزهر، أو أن یکون مشارکا فیه مشارکة ذات نال، فکان من هنالک منشأ الأحداث التی شطرت الأزهر شطرین: بین مناصرین لدعوة الشیخ محمد عبده، و معارضین لها. و کان ذلک الانقسام ساریا إلی جامع الزیتونة فنشأت فیه حرکة فکریة قویة شطرت رجاله أیضا إلی شطرین بین أنصار دعوة الشیخ محمد عبده و المنار و خصومها، و جعلت أکثر الطلبة من شیعة مفتی الدیار المصریة، و مطالبین بإصلاح التعلیم الزیتونی علی المبادیء التی طالب بها لإصلاح التعلیم الأزهری، و کانت حرکات الطلبة فی الأزهر مثالا موجها لحرکات الطلبة فی الزیتونة فلما أضرب الطلبة فی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۷

الأزهر سنة ۱۳۲۷ لم یتأخر الطلبة الزیتونیون أکثر من أربعة أشهر حتی ابتدأوا المظاهرات و الاضرابات و دخلت بذلک الحیاة الزیتونیة، تبعا للحیاة الأزهریة فی طور جدید .

و إلی جانب هذا التواصل فی الحرکة الإصلاحیة، کان جانب آخر من التواصل الزیتونی الأزهری یتمثل فی ما کان متمثلا فیه من قبل من البحث العلمی و الدراسة لقد استمر طلبة من الزیتونة یقصدون الأزهر، و آخرون من الأزهر یأتون الزیتونة و أصبحت الحیاة

النظاميـة فى المعهدين تمهد لهؤلاء و هؤلاء سبيل الالتحاق بكل من المعهدين باعتبار ما بلغ إليه الطالب من درجة فى المعهد الآخر. و إن من أشهر الأزهريين الذين آووا إلى الزيتونة فاعتبرت له دراسته الأزهرية. و سمح له بذلك الاعتبار أن يتقدم إلى امتحان «التطويع» مباشـرة بدون أن يتدرج فى مراحل الدراسة العلامة المرحوم، شـهيد حركة العلماء المسـلمين فى الجزائر الشـيخ محمد العربى التبسـى الذى تخرج بشهادة التطويع عقب رجوعه من الأزهر سنة ۱۳۴۰.

كما استمرت آثار الدروس الأزهرية العليا محل الاعتناء و الإقبال من الأساتذة الزيتونيين، و الرواية متصلة الأسانيد بينهم أيضا.

فكـان لشـيخ الإسـلام عبـد الرحمن الشـربينى فى حياته، رواج عظيم لكتبه فى الزيتونـة حتى أن حاشـيته على البنانى على المحلى على جمع الجوامع كان يدرسـها تـدريسا شـيخ شـيوخ الزيتونة يومئذ أسـتاذنا شـيخ الإسـلام محمد بن يوسف فضـلا عن أعلام الزيتونة من تلاميذه مثل أسـتاذنا المحقق الشيخ محمد الصادق القاضى، كان ذلك و الشيخ الشربينى حى، و قد علت سمعة تلك الحاشية، و اهتم الناس بها، و أصبحت مناط البحث و التحليل، حتى أن اتقان تـدريس المحلى كان يقاس فى الزيتونة باتقان تحليل الشـربينى و تأصـل ذلك فى مقايس دروس المناظرات التى يتقدم بها خريجو الزيتونة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۸

لنيل منصب التـدريس من الطبقة الثانية. و كذلك كان مفتى الديار المصـرية الشـيخ محمد بخيت معتنى بتحاريره و أسانيده متلقاة من أكفائه سـنا و مقاما- فقد اجتمع به الشـيخ محمد بن يوسف فى رحلته إلى مصـر و الشام سنة ۱۳۲۷ و روى عنه، و حدث بسـنده و قد حدثنى به- رضـى اللّه عنه- فى إجازته إياى المكتوبة بخطه سـنة ۱۳۴۲ عن الشـيخ عبد الرحمن الشربينى عن الشيخ إبراهيم السقا عن الشيخ الأمير الصغير عن الشيخ الأمير الكبير ...

و أخـذت سـهولة الموصـلات، و تيسـير وسائل الحـج تنمو بعد الحرب العالمية الأولى، فنمت معها الاتصالات الأزهرية الزيتونية و كثر سفر شيوخ الزيتونة للحج و العمرة، و كثرت بذلك زياراتهم للأزهر و التقاؤهم بعلمائه.

و حـدثت بعـد الحرب العالميـة الثانيـة صور من التلاقى لم تكن تعرف من قبـل، إذ نشـأ التواصـل الرسـمى بين الجامعتين الأزهريـة و الزيتونية فيما ربطت المواصـلات بين الشـيخين على عهد الشـيخ محمد الطاهر بن عاشور و الشـيخ مصطفى عبد الرازق، و ما اتسق من صور التعاون الرسمى بين الجامعتين حتى أنه لما توفى شيخ الأزهر سنة ۱۳۶۷ أعلن شيخ جامع الزيتونة نعيه فى الصحف ببلاغ رسمى، و عطلت الدروس فى جميع المعاهد الزيتونية بالقطرين التونسى و الجزائرى و كذلك اتبع الأمر فى المناسبات المشابهة.

و لم تزل مظاهر الاتصال تبرز فيما بين المعهـدين متعاقبة فقد ولى الشـيخ محمد الخضـر حسـين التونسـى مشـيخة الأزهر الشـريف عام ۱۳۷۴ ه، ثم كانت زيارة الأسـتاذ مـدير الجامعة الأزهرية الشـيخ أحمد حسن الباقورى، و التف حوله علماء الزيتونة و عظموا مقدمه، و قد خطب فى جامع الزيتونة و قد انتدب غير مرة أسـتاذا زائرا للكلية الزيتونية المرحوم الشـيخ منصور رجب الذى وافاه الأجل فى مدينة تونس فى ذى الحجة ۱۳۸۴- ۱۵ أبريل ۱۹۶۵ بعد أن ترك فيها جمهورا من التلاميذ و الأحبة، و قد صلى عليه

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۶۹

شيوخ الزيتونة صفوفا بإمامة شيخهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور قبل نقل جنازته إلى مصر.

و طالما اعتزت الكليـة الزيتونيـة بتوالى زيارة الدكتور الشـيخ عبد الحليم محمود الذى كانت زيارته الأولى سـنة ۱۳۸۲، و جلس تحت قبة جامع الزيتونة الأعظم. ثم ترادف فضيلته على الكلية و أبنائها حتى أصبحت مشيخته للزيتونيين لا تضيق عن مشيخته للأزهريين.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۱

الباب الثانى عشر

شخصيّات .. و مواقف

ابن السّبکی

عرف تاریخ الثقافة العربیة کثیرا من البیوتات العلمیة التی استفاض العلم فیها، و کان إرثا طیبا یؤول إلی الأبناء فیما یؤول إلیهم من عقار و حطام، فکان علم الأبناء امتدادا ناضجا لعلم الآباء. و قد صان هؤلاء الأبناء ذلک الموروث العلمی العظیم، و عملوا علی إثرائه و إخصابه.

و بحسبنا فی هذا المقام أن نذکر الامام أبا حاتم الرازی، محمد بن إدریس بن المنذر، المتوفی سنة ۲۷۷ ه. و ابنه عبد الرحمن بن أبی حاتم، المتوفی سنة ۳۲۷، من أئمة علم الجرح و التعدیل. و الإمام ضیاء الدین خطیب الری، عمر بن الحسین بن الحسن، و ابنه الفخر الرازی، محمد بن عمر، المتوفی سنة ۶۰۶ ه من فرسان علم الکلام.

علی أنه لم یستعلن تأثیر والد فی ولده کما استعلن فی تاریخ الإمام العلامة تقی الدین علی بن عبد الکافی السبکی، المولود فی سنة ۶۸۳ ه و المتوفی فی سنة ۷۵۶ ه. و ولده العلامة تاج الدین أبی نصر عبد الوهاب بن علی، المولود فی سنة ۷۲۷ ه، و المتوفی فی سنة ۷۷۱ ه.

و قد أجمع المؤرخون علی فضل الوالد وسعة علمه، فیقول عنه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۲

الذهبی- فیما ینقل عنه السبکی:

«القاضی الإمام العلامة الفقیه المحدث الحافظ فخر العلماء، کان صادقا ثبتا خیرا دینا، من أوعیة العلم، یدری الفقه و یقرره، و علم الحدیث و یحرره، و الأصول و یقربها، و العربیة و یحققها». و یکفی دلیلا علی علم هذا الرجل أنه کان الوحید من بین علماء عصره الذی تصدی لابن تیمیة- علی عنفه و شدته- ورد علیه فی مسألتی الطلاق، و زیارة قبر النبی علیه الصلاة و السلام، و هما المسألتان اللتان زعزع بهما ابن تیمیة کیان العلماء فی عصره. فرد علیه الإمام السبکی فی مسألة الطلاق برسالتین: رافع الشقاق فی مسألة الطلاق. و التحقیق فی مسألة التعلیق. ورد علیه فی الزیارة برسالة: شفاء السقام فی زیارة خیر الأنام. أو شن الغارة علی من أنکر السفر للزیارة. و یقول فیه ابن تیمیة: «لقد برز هذا علی أقرانه».

و قد نبغ صاحبنا تاج الدین فی منتصف القرن الثامن الهجری- عصر الموسوعات العلمیة، هذا العصر الذی کان بمثابة الصحوة الفارهة بعد النکسة التی أصابت العالم الاسلامی، و التی کادت تأتی علی تراثه الضخم العریض، إبان الغزو التتری الکاسح.

و قد ولد تاج الدین بالقاهرة، و نسب إلی قریة سبک من أعمال المنوفیة. و لم ینصرف الفتی فی صباه إلی اللهو و اللعب، کما یفعل لداته و أترابه، فقد هدهد سمعه فی سن تفتحه وفود العلماء، تفد إلی بیت أبیه، تنشد العلم و تطلب الفتیا. فأقبل علی ألوان المعرفة یحصلها علی مهل و اتئاد فی الأزهر الشریف حتی اکتملت له أدوات العالم المجتهد. و کان مجلی هذه الثقافة الواسعة العریضة فی نهایة الشوط موسوعة علمیة ضخمة، لمت أطراف الثقافة العربیة، و جلتها علی نحو معجب خلاب، علی امتداد سبعة قرون فی کتابه الخالد «طبقات الشافعیة الکبری».

لقد انفسح هذا الکتاب العظیم من خلال ترجمته لرجال المذهب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۳

الشافعی- لکثیر من المباحث الفقهیة و الفتاوی الشرعیة، و المقالات، و المناظرات، و النوادر و الملح، کما حفل بالضوابط اللغویة و مسائل علم الکلام و الأصول. کما کان مصدرا أدبیا لکثیر من الکتب التی عالجت شؤون الحب.

و کان أیضا مرجعا أصیلا فی جمع أشعار الشعراء. علی أن أهمیته الکبری بعد کل ذلک ترجع إلی أنه حفظ لنا کثیرا من النصوص التی ضاعت أصولها. کتاریخ نیسابور، للحاکم النیسابوری محمد بن عبد اللّه، المعروف بابن البیع، المتوفی سنة ۴۰۵ ه و تاریخ مصر

لابن یونس، عبد الرحمن بن أحمد المتوفی سنة ۳۴۷ ه، و غیر هذین الکتابین کثیر من هذه الأمهات التی عبث بها الزمان.

و قد عالج ابن السبکی فی کتابه هذا ذلک المنهج العلمی، الذی عرف فیما بعد، و نسب إلی ابن خلدون، ذلک المنهج القائم علی تمحیص الأخبار، و التنبه لما تفعله المعاصرة و العصبیة فی المذهب.

استمع إلیه یقول فی ترجمة أحمد بن صالح المصری، فی الطبقة الثانیة: «و مما ینبغی أن یتفقد عند الجرح حال العقائد، و اختلافها بالنسبة إلی الجارح و المجروح، فربما خالف الجارح المجروح فی العقیدة، فجرحه لذلک». و لم تقف تلمذته للإمام الذهبی حائلا دون نقده مر النقد لمخالفته هذا المنهج القائم علی الحیدة و التجرد، فیقول عنه: «و هو شیخنا و معلمنا، غیر أن الحق أحق أن یتبع، و قد وصل من التعصب المفرط إلی حد یسخر منه».

و لکن هذه الحیاة العلمیة المخلصة لم تشغل صاحبنا عن أن یلمس مظاهر الضعف و العسف التی استعلنت فی الحکم المملوکی الجائر.

فظهرت دعواته الإصلاحیة النقدیة فی کتابه القیم: «معید النعم و مبید النقم». لقد کان هذا الکتاب ثورة عاتیة علی نظم الحکم، و أخلاق الناس

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۴

فقد أتیح لابن السبکی من خلال مشارکته فی الحیاة العامة- مدرسا و خطیبا و قاضیا- أن یری و یحس مدی التمزق الذی شمل الأمة نتیجة للحکم المملوکی البغیض، الذی نبتت فیه فکرة «ترکی و فلاح». و الذی استأثر فیه الممالیک بالمناصب الکبری، و ترکوا أصحاب الأرض الحقیقیین یشربون العرق و یقتاتون السهد. و قد وضع ابن السبکی کتابه هذا ردا علی سؤال ورد علیه، أو وضعه هو بین یدی کتابه، موضوعه: «هل من طریق لمن سلب نعمة دینیة أو دنیویة إذا سلکها عادت إلیه، وردت علیه» و أجابه عن هذا السؤال راح ابن السبکی ینقد بقسوة و صراحة طوائف الأمة، ابتداء من السلطان إلی أرباب الحرف، آخذا فی طریقة نواب السلطان و القضاة و المدرسین و رجال الدین من العلماء و الصوفیة.

استمع إلیه یلخص رأیه فی الأتراک عموما، فیقول: «و قد اعتبرت کثیرا من الأتراک یمیلون إلی أول شاک، و ما ذاک إلا للغفلة المستولیة علی قلوبهم» ثم یسخر من هؤلاء الأتراک و تعلقهم من الإسلام بالمظاهر الفارغة، فیقول: «و أما أنک ترتکب ما نهی اللّه عنه و تترک ما أمر به، ثم تریید أن تعمر الجوامع بأموال الرعایا، لیقال: هذا جامع فلان، فلا و اللّه لن یتقبله اللّه تعالی أبدا». ثم یتکلم عن السلطان و یحدد اختصاصاته فیقول:

«إن اللّه لم یوله علی المسلمین لیکون رئیسا آکلا شاربا مستریحا، بل لینصر الدین و یعلی الکلمة». و حین یتحدث عن العلماء و المفتین یأخذ علی بعض هؤلاء و أولئک تعصبهم لمذاهبهم، و أضاعتهم الوقت فی الخلافیات، فیقول مخاطبا العلماء: «لو أن الشافعی و أبا حنیفة و مالکا و أحمد أحیاء یرزقون لشددوا النکیر علیکم و تبرأوا منکم فیما تفعلون» ثم یأتی إلی المفتین فیقول: «و منهم طائفة تصلبت فی أمر دینها، فجزاها اللّه خیرا، تنکر المنکر و تتشدد فیه، و تأخذ بالأغلظ، و تتوقی مظان التهم، غیر أنها تبالغ فلا تذکر لضعفة الایمان من الأمراء و العوام إلا أغلظ المذاهب، فیؤدی ذلک إلی عدم انقیادهم و سرعة نفورهم. فمن حق هذه الطائفة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۵

الملاطفة و تسهیل ما فی تسهیله فائدة لمثل هؤلاء إلی الخیر، إذا کان الشرع قد جعل لتسهیله طریقا، کما أن من حقها التشدید فیما تری أن فی تسهیله ما یؤدی إلی ارتکاب شیء من حرمات اللّه».

و یرسم ابن السبکی المعلم للمدرس منهجا تربویا راشدا حین یقول:

«و حق علیه أن یحسن إلقاء الدرس و تفهیمه للحاضرین، ثم أن کانوا مبتدئین فلا یلقی علیهم ما لا یناسبهم من المشکلات، بل یدربهم و یأخذهم بالأهون فالأهون، إلی أن ینتهوا إلی درجة التحقیق و إن کانوا منتهین فلا یلقی علیهم الواضحات، بل یدخل بهم

فی المشکلات». و تتجلی دعوة صاحبنا الإصلاحیة فی أبهی صورها حین یأسی للفلاح الذی یستهلک فی السخرة و الإقطاع. فحین یتکلم عن منصب ناظر الجیش و تحدید اختصاصاته یقول: «و من قبائح دیوان الجیش الزامهم الفلاحین فی الإقطاعات بالفلاحة. و الفلاح حر، لا ید لآدمی علیه، و هو أمیر نفسه».

و بعد ... ألا تعتقد معی أیها القارىء الکریم أن هذا الرجل إنما یتکلم بلغة عصرنا، کمصلح اجتماعی، و کعالم نفسانی، بصیر بالنفس الإنسانیة، عالم بضعفها.

و کان طبیعیا بعد هذا النقد المر الجارح لنظام الحکم و أخلاق الناس أن تتعرض حیاة الرجل و مصیر أسرته للزوابع و الأعاصیر. فیعزل عن منصب القضاء، لأسباب واهیة ذکرها الحافظ ابن حجر فی «الدرر الکامنة» و تجری له محاکمة، یحکم علیه فیها بالحبس سنة. و لکن هل ضعف ابن السبکی، أو تخاذل؟ استمع إلی معاصره الحافظ ابن کثیر یقول: «جری علیه من المحن و الشدائد ما لم یجر علی قاض قبله. و حصل له من المناصب و الریاسة ما لم یحصل لأحد قبله، و إبان فی أیام محنته عن شجاعة و قوة علی المناظرة، حتی أفحم خصومه، ثم لما عاد عفا عنهم، و صفح عمن قام علیه».

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۶

و بعد هذه الحیاة الخصبة الزاخرة بالعلم و الإصلاح انطفأت هذه الشعلة التی توهجت عبر أربع و أربعین سنة. و حق لابن السبکی أن یقول فی زهو و رضا، فی ورقة کتبها إلی نائب الشام: «و أنا الیوم مجتهد الدنیا علی الإطلاق، لا یقدر أحد یرد علی هذه الکلمة».

توفی تاج الدین شهیدا بالطاعون (بالدهشة) ظاهر دمشق، فی ذی الحجة. خطب یوم الجمعة، و طعن لیلة السبت رابعه، و مات لیلة الثلاثاء سابعه سنة ۷۷۱ ه و دفن بتربة السبکیة بسفح قاسیون، عن أربع و أربعین سنة، بعد أن جلا صفحة مشرقة فی تاریخ علماء المسلمین.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۷

الشیخ محمد الحفنی شیخ الأزهر

الشیخ الإمام العلامة، أوحد زمانه علما و عملا، المشهود له بالتحقق و الکمال، و المجمع علی تقدمه فی کل مجال أبو الأنوار شمس الدین محمد الحفنی بن السید سالم بن علی الحفناوی، الأزهری، الشافعی الخلوتی، الذی ینتسب إلی الإمام الحسین بن علی رضی اللّه عنهما، و هو الثامن من الأئمة الکبار، الذین تولوا مشیخة الأزهر الشریف.

ولد رضی اللّه عنه علی رأس سنة ۱۱۰۰ ه بقریة حفنا التابعة لمرکز بلبیس بمحافظة الشرقیة، و نسب إلیها، حتی صارت هذه النسبة علما علیه بالغلبة، و صار لا یذکر إلا بها.

نشأ بقریته، و حفظ بها من القرآن الکریم إلی سورة الشعراء، و کان أبوه وکیلا لأحد الأمراء، و یقطن بالقاهرة. مقر عمله، فأبقاه لدیه. و لما أکمل حفظ القرآن الکریم، اشتغل بحفظ المتون: کألفیة ابن مالک، و السلم، و الجوهرة، و غیرها، ثم جاور بالأزهر الشریف و أخذ عن شیوخه العلم- و کلهم أئمة بنورهم ینجلی الظلام، و أقطاب ببرکتهم یدرک المرام- منهم: محیی السنة الشیخ أحمد الخلیفی، و الشیخ أحمد الملوی،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۸

و الشیخ محمد الدیربی، و الشیخ عبد الرءوف البشبیشی، و الشیخ محمد السجاعی، و الشیخ یوسف الملوی، و الشیخ عبده الدیوی، و الشیخ محمد الصغیر.

و من أجل شیوخه، الذین سمع منهم: شیخ المحدثین الشیخ محمد البدیری الدمیاطی الشهیر بابن المیت. أخذ عنه التفسیر و الحدیث و الإحیاء للإمام الغزالی، و صحیح البخاری و مسلم و سنن أبی داود، و سنن النسائی، و سنن ابن ماجه و الموطأ و المعجم الکبیر و

الأوسط و الصغير للطبرانی، و صحيح ابن حبان، و الحلية للحافظ أبی نعيم، و غير ذلک.

و اجتهد و لازم، حتی شهد له شيوخه جميعا بالتفوق، و أثنوا علی دقة فهمه، و رجحان عقله، و سعة معرفته و أجازوه بالإفتاء و التدريس، و هو لم يتجاوز الثانية و العشرين من عمره المبارک، فکان أمره عجبا يلفت النظر، لقصر هذه المدة، التی حفظ فيها القرآن، و أتم طلب العلم فصار أهلا للإفتاء و الجلوس للتدريس، و لکن ابن العناية ملحوظ فأقرأ الکتب الدقيقة فی حياة شيوخه، و شهد له معاصروه بالبراعة، و الإجادة فی الإفادة و لازم درسه أکثر طلبة العلم.

و کان إذ ذاک فی ضيق من العيش. و فی ذلک يقول:

إنی أقول لنفسی و هی ضيقةو قد أناخ عليها الدهر بالتعب

صبرا علی شدة الأيام، إن لهاوقتا و ما الصبر إلا عند ذی الحسب

و لکن هذا الحال، لم يخرجه عن القناعة و الرضا، و لم يبد منه أن لدنيا عنده قدرا فقد أنشد:

خبز و ماء و ظل‌هو النعيم الأجل

جحدت نعمة ربی‌إن قلت إنی مقل

ثم أخذ بالأسباب لزيادة دخله، فاشتغل بنسخ الکتب بالأجر، و إن کان ذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۷۹

قد شق عليه، خوفا من أن يشغله النسخ عن متابعة إقراء العلم، و لکنه لم يستمر طويلا حتی أذن اللّه فجاءه الفرج و أقبلت الدنيا عليه، و صار رزقه فيضا إلهيا، فاتجه بکليته إلی العلم و عقد الدروس، و قرأ جمع الجوامع للعلامة السبکی، و الأشمونی علی الألفية و مختصر السعد، و حاشية حفيده عليه. و ابن عبد الحق علی البسملة، و غيرها.

و اشتغل بعلم العروض، حتی برع فيه و أجاد نظما و نثرا، حتی عرف بالفصاحة، و جودة البيان، و کثيرا ما کان يرتجل الشعر، فمن ذلک قوله:

أتطلبون رضائی الآن عن نفرقلوبهم بنفاق لم تزل مرضی

تجاهروا بقبيح الفسق، لا ربحواإن کنت أرضی، فإن اللّه لا يرضی

و من نثره: من رسالة لبعض تلاميذه فی الطريق، و قد جمعت بين قوة الأسلوب و عذوبة اللفظ، و ضمت إلی حسن التوجيه، نهجا عاليا فی التربية و التهذيب، قال فيها:

«.. و من زاد عليک إقباله، و توجهت إليک بالصدق آماله، فاصرف قلبک إليه، و عول فی التربية عليه، و من عنک بهواه صد، بعد أخذک عليه وثيق العهد، فدعه و لا تشغل به البال، و أنشده قول أستاذنا (أی السيد مصطفی البکری) لمن عن طريقنا قد مال:

ألم تدر أنا من قلانا سفاهةترکناه غب الوصل يعمی بصده

و من صدعنا حسبه الصد و الجفاو إن الردی أصماه من بعد بعده

و من فاتنا يکفيه أنا نفوتهو أنا نکافيه علی ترک حمده

و إنا غدا لما نعد محبناو اتباعنا لسنا نهم بعده

و من أردت زجره للتربية و إرشاده، فليکن ذلک علی انفراد، إذ هو أرجی لإسعاده، و لا تزجر بضرب و لا نهر بين الناس، فإن ذلک ربما أوقع المريد من اليأس، و لا تلتفت لمن أعرض، و لا لمن يصحبک لغرض،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۰

و عليک بالرفق للإخوان، سيما أخوک فلان، فالخير لمن صاحب بإحسان، و الأدب و اللطف محمودان، و الغلظة و الحقد موبقان، فاصرح القال و القيل، و اصفح الصفح الجميل، و لک و لکل من أخذ عنک أو حبک، منا و من أهل سلسلة طريقتنا ما سرک، فابشر

إن عملت بما أشرنا بكل خير، و مزيد الفتح، و المسير فی السير».

و قد تخرج عليه غالب أهل عصره و طبقته، و من دونهم: كأخيه الشيخ يوسف الحفناوی، و الشيخ إسماعيل الغنيمی صاحب التآليف البديعة، و التحريرات الرفيعة، و شيخ الشيوخ علی الصعيدی العدوی، و الشيخ محمد الغيلانی، و الشيخ محمد الزهار، و غيرهم، و كانت علی مجالسه هيبة و وقار قلما يسأله أحد لجلالته.

و من مؤلفاته المشهورة التی أتحف بها المكتبة العربية فی كل علم و فن:

۱- الثمرة البهية فی أسماء الصحابة البدرية: فی التاريخ.

۲- حاشية علی شرح الأشمونی علی الألفية: فی النحو.

۳- حاشيته علی شرح الهمزية لابن حجر الهيثمی: فی الأدب.

۴- رسالة فی التسبيح و التحميد: فی الفضائل و الآداب.

۵- رسالة فی التقليد فی الفروع: فی أصول الفقه.

۶- رسالة فی الأحاديث المتعلقة برؤية النبی صلی اللّه عليه و سلم.

۷- حاشية علی الجامع الصغير للسيوطی فی جزءين: فی الحديث.

۸- حاشية علی شرح الشنشوری علی الرحبية: فی المواريث.

۹- حاشية علی مختصر الشيخ التفتازانی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۱

۱۰- حاشية علی شرح الحفيد علی مختصر جده التفتازانی: فی البلاغة.

و كان الشيخ الحفنی، حسن السمت، مهيب الطلعة، معتدل القامة، لا بالطويل البائن و لا بالقصير، عظيم الهامة، كث اللحية أبيضها، مقوس الحاجبين، رحب الراحتين، سواء الظهر و البطن، أبيض اللون مشرب بحمرة، كأن علی وجهه قنديلا من النور.

و كان كريم الطبع، جميل، السجايا لم يضبط عليه مكروه، علی جانب عظيم من الحلم، ما جهل عليه أحد إلا قابل السيئة بالحسنة. يعظم كل الناس، و يتمثل قائما لكل قادم، و يخاطب كل إنسان علی قدر عقله، و يصغی لكلام كل متكلم و لو كان تافها، و لا يضجر إن أطال عليه، بل يظهر له المحبة، حتی يظن أنه أعز الناس عليه، و أقربهم إلی قلبه. و كان لا يعلق نفسه بشیء من الدنيا فلو سأله إنسان أعز حاجة عليه أعطاها له، كائنة ما كانت و يجد لذلك أنسا و انشراحا و إذا دعی أجاب، إلا أنه كان يعتذر من عدم حضور الولائم. لأنه يری أنها غير مضبوطة بالأمور الشرعية.

و له صدقات و صلات خفية، و كان يتولی الصرف علی بيوت كثير من أتباعه المنتسبين إليه و لا ينقطع ورود الواردين عليه ليلا و نهارا، و قد قيل إن راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب. و يجتمع علی مائدته ما لا يقل عن الأربعين.

و لما بلغ الثلاثين من عمره، كثر انقطاعه للعبادة. و تهيأ للسلوك و الاندماج فی الطريق فأخذ عن الشيخ أحمد الشاذلی المعروف بالمقری و تلقی منه بعض الأحزاب و الأوراد و كان يتردد علی زاوية سيدی شاهين الخلوتی بسفح المقطم و يمكث فيها الليالی متحنثا. و قد ذكر الشيخ حسن شمه: أنه كثيرا ما كان ينشد فی الدياجی.

خل الغرام لصب دمعة دمه‌حيران توجده الذكری و تعدمه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۲ و اسمح له بعلاقات علقن به‌لو اطلعت عليها كنت ترحمه

و قال: سمعته مرة ينشد من شعره:

لو فتشوا قلبی لا لفوا به‌سطرين قد خطا بلا كاتب

العلم و التوحيد فی جانب‌و حب آل البيت فی جانب

و لما قدم السید مصطفی البکری عمدة أهل الطریقة الخلوتیة من الشام سنة ۱۱۳۳ ه اجتمع علیه و حصل بینهما الارتباط القلبی حال المشاهدة، فأخذ علیه العهد فی أول لقاء، ثم اشتغل بالذکر و المجاهدة و لما علم السید صدق حاله، و حسن فعاله، قدمه علی خلفائه، و أولاه حسن ولائه، و دعاه بالأخ الصادق.

و فی سنة ۱۱۴۹ ه حن إلی زیارة شیخه البکری، فسافر إلی القدس الشریف، و أقام عنده أربعة أشهر، عاد بعدها إلی القاهرة، و أدار مجالس الأذکار، باللیل و النهار، و أحیا طریق الخلوتیة، المؤیدة بالشریعة الغراء، فی الدیار المصریة و لم، یزل أمره فی ازدیاد و انتشار حتی شاع ذکره و أقبل علیه الوافدون من کل فج، و صار الکبار و الصغار، و الرجال و النساء، یذکرون اللّه بطریقته، و أصبح قطب الوقت بحق، و لم یبق ولی من أهل عصره إلا أذعن له.

و کان من تلامیذه: شیخ القراء المحدثین، و صدر الفقهاء المتکلمین العابد الزاهد الشیخ محمد السمنودی المعروف بالمنیر، و علامة وقته الشیخ حسن الشبینی، و الشیخ محمد السنهوری و الشیخ محمد الزعیری، و الشیخ خضر رسلان، و الشیخ محمود الکردی. و الشیخ عبد اللّه الشرقاوی الذی تولی مشیخة الأزهر، و الإمام الأوحد الشیخ محمد بدیر، و الشیخ محمد الهلباوی الشهیر بالدمنهوری، و الشیخ محمد السقا، و الشیخ محمد الفشنی، و الشیخ عبد الکریم المسیری الشهیر بالزیات، و أبو البرکات الشیخ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۳

أحمد محمد الدریر العدوی، و الشیخ حسن بن علی المکی المعروف بشمة.

قوم إذا جن الظلام علیهمقاموا هنالک سجدا و قیاما

و للشیخ الحفنی رضی اللّه عنه، کرامات و بشارات و خوارق و عادات یطول شرحها ذکر بعضها تلمیذه الشیخ حسن شمه، الناظم الناثر فی کتابه الذی ألفه فی نسبه مناقبه و قد ضمنه مقامة فی مدحه، أسماها: فیض المغنی فی مدح الحفنی، جمع فیها سائر فنون الشعر، و لتلمیذه العلامة الشیخ محمد الهلباوی الدمنهوری کذلک مؤلف فی مناقبه و من قصیدة له فی مدحه:

سبحانک اللّه ما الحفنی ذا بشرلکنه ملک قد جاء للبشر

محجب عن عیون الواصلین فمابال الخلیین من سر و من ثمر

هذا الفرید الذی نادی الرفاق بهفسار کل أسیر نحو مقدر

جلت محاسنه عن کل ما وصفوافلیس یحصرها لب من الغرر

و هو الذی ورثته الأنبیا رتبافضلا من اللّه لا بالجد و السهر

علما و حلما و توفیقا و مکرمةو حسن حال مع التسلیم للقدر

و قد تولی مشیخة الأزهر فی سنة ۱۱۷۱ ه و مکث فیها حتی وافاه داعی السماء، بعد أن ملأ الدنیا نورا و برکة، قبل ظهر یوم السبت ۲۷ ربیع الأول سنة ۱۱۸۱ ه، و صلی علیه فی الأزهر یوم الأحد، فی مشهد عظیم جدا و دفن بقرافة المجاورین القدیمة مع أخیه العلامة الشیخ یوسف الحفناوی المتوفی سنة ۱۱۷۸ ه.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۵

أزهریون خالدون

اشارة

کانت للعلماء، فی جمیع عصور الإسلام، الریادة و القیادة: یرودون الحیاة أمام الناس و یقدمون لهم ثمرة هذه الریادة من العلم و التجربة و الثقافة و الفضائل و التقوی. و یقودونهم- أفرادا و جماعات- إلی طریق الخیر و الفلاح. و فی بعض عصور التاریخ نجد

لهؤلاء العلماء ريادة أخرى و قيادة للسياسة و الثورة فى سبيل رفع الظلم و رد العدوان. كان ذلك أوضح ما يكون الوضوح فى مصر فى القرن الثامن عشر، حين أفحش الظالمون فى ظلمهم و اعتدى المعتدون على وطنهم.

فى هذا القرن كانت تقوم ثورات شعبية كثيرة يهب فيها أهل مصر لرد عدوان الظالمين- و عقابهم أيضا- و كان علماء الأزهر يشاركون الشعب إحساسه و ثورته، بل كثيرا ما كانوا يقودونه فى ثورته، و يحرضونه.

الشيخ الدردير يقود ثورة:

و للشيخ أحمد الدردير- و كان مفتيا للمالكية و من أكبر علماء عصره- فى ذلك مواقف كريمة نذكر بعضا منها:

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۶

فى يوم من أيام ربيع الأول من سنة ۱۲۰۰ ه (يناير ۱۷۸۶ م) قام حسين بك شفت أحد كبار المماليك، و معه طائفة من جنوده قاصدا منطقة الحسينية و اقتحم دار رجل اسمه أحمد سالم الجزار، كان رئيسا على دراويش الشيخ البيومى، و نهب الأمير حسين دار هذا الشيخ. و فى صباح اليوم التالى ثار جماعة من الحسينية، و خرجوا إلى الأزهر، و شكوا أمرهم إلى الشيخ أحمد الدردير، فشجعهم فى ثورتهم، و غضب لهم و قال لهم: أنا معكم. فقام الغاضبون إلى أبواب الأزهر فغلقوها، و صعدت طائفة منهم على المآذن يصيحون، و يدقون الطبول، و انتشر الناس فى الأسواق و قد ظهر عليهم الغضب و التحفز، و أقفل التجار متاجرهم. فلما رأى الشيخ الدردير ثورتهم هذه قال لهم: موعدنا غدا لنجمع الناس من أطراف المدينة، و بولاق و مصر القديمة، و أسير معكم إلى بيوت هؤلاء الأمراء ننهبها كما ينهبون بيوتنا. و سينصرنا اللّه عليهم، أو نموت شهداء. و بعد ساعات من النهار أرسل إبراهيم بك: شيخ البلد و كبير المماليك، نائبه، و أميرا آخر إلى الشيخ الدردير يرجوه أن يرسل إليه قائمة بجميع ما نهب من بيت الشيخ الجزار حتى يرده إليه.

و فى شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها كان مولد السيد البدوى، فى طنطا، و كان الشيخ الدردير فى المولد، و جاء كاشف الغربية، من قبل إبراهيم بك، ففرض على الناس مغارم ثقيلة، و أخذ إبلا لبعض الأعراب كانوا يبيعونها فى المولد، فشكوا أمرهم إلى الشيخ، فأمر بعض أتباعه أن يذهبوا إلى الكاشف، فخشوا بطشه و لم يذهبوا، فركب الشيخ بنفسه و معه بعض أتباعه، و كثير من العامة. فلما أقبل على خيمة الكاشف ناداه فحضر إليه. و كلمه الشيخ، و هو على ظهر بغلته، و قال له: إنكم لا تخافون اللّه، و اشتد عليه بالزجر و التأنيب. فلما رأى الناس ذلك خرجوا عن

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۷

طورهم، و ضربوا نائب الكاشف، و قامت فتنة بينهم و بين الجند ضرب فيها و أسر واحد من أتباع الشيخ، و ذهب كاشف المنوفية و كاشف الغربية بعد ذلك يعتذران إلى الشيخ، و لما عاد إلى القاهرة قدم إبراهيم بك بنفسه إلى منزله معتذرا و معه كبار المماليك.

الشيخ عباس و وقف المغاربة:

و قبل ذلك بعشر سنوات آلت بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم إلى طلبة المغاربة، و لكن واضع اليد جحد هذه الأيلولة و أبى أن يسلم الحق لأصحابه، و لجأ فى ذلك إلى الأمير يوسف بك أمير الحج فنصره هذا على باطله، و أقام المغاربة دعواهم أمام القاضى فأثبت لهم حقهم، و لكن الأمر كبر على يوسف بك، و أبى أن يمتثل لحكم القضاء، بل أمر بالشيخ عباس- زعيم المطالبين بوقف المغاربة- أن يساق إلى السجن. فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر لأخذ الشيخ عباس طردهم الأزهريون و سبوهم و لم يمكنوهم منه، ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر، فكتب الشيخ إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم، و ألا يعاند فى حكم أصدره القاضى، و أرسل الشيخ كتابه هذا إلى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك. فلما وصل الشيخان برسالة الدردير

أمر يوسف بک بالقبض عليهما و زجرهما زجرا شديدا ثم سجنهما.

و وصل خبر ذلک إلى الشيخ الدردير، و أهل الأزهر، فاجتمعوا عند الصباح و أبطلوا دروس العلم، و الأذان، و الصلاة. و أقفلوا أبواب الجامع.

و جلس العلماء عند القبلة القديمة. و كان الأزهر يموج بالناس، فصعد الصغار منهم إلى المنارات و المآذن يكثرون من الدعاء على الأمراء. و شارک الشعب أهل الأزهر شعورهم بالسخط و احتجاجهم على الظلم، فغلقت الحوانيت و المتاجر، و عرف الأمراء ما جرى فأرسلوا إلى يوسف بک ليطلق سراح الشيخين، فأطلقهما، و أرسل شيخ البلد إبراهيم بک، كبيرا من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۸

رجاله إلى العلماء، فلم يستطع إرضاءهم، و جاء كبير آخر يطلب إلى الناس أن يفتحوا متاجرهم، و ينصرفوا لشأنهم. فذهب إليه طلبة الأزهر، و جموع من الشعب بأيديهم العصى و المساوق، و ضربوا أتباع هذا الكبير و رجموهم بالحجارة. فأطلق عليهم هو و رجاله الرصاص. و قتل ثلاثة من الطلبة، و جرح بعض أفراد الشعب و خشى الأمراء بعد ذلک أن يتفاقم الخطب، و تزيد ثورة الشعب و العلماء اشتعالا، فأرسلوا فی اليوم التالی كبيرا منهم، مع الشيخ السادات، و آخرين من الأمراء. و رأوا من الحكمة ألا يذهبوا إلى الأزهر، فی وسط هذه الفتنة فجلسوا فی مسجد الأشرف، و أرسلوا إلى أهل الأزهر و من معهم من الثائرين، أن طلباتهم أجيبت، فلم يقنعهم ذلک، و لم يتركوا أماكنهم. فلم ير إسماعيل بک، كبير الأمراء، بدا من أن يذهب بنفسه إليهم، فنزل مع الشيخ السادات، و لم يستطع أن يواجه الثائرين داخل الأزهر، فجلس مع السادات فی مسجد المؤيد، و أرسلا إليهم كتابا تعهد فيه إسماعيل بک أن يجيب رغائبهم و يقبل جميع ما يطلبون، و قال: إن ضمينه فی ذلک الشيخ السادات، و ظل إسماعيل بک يراسل المتترسين داخل الأزهر يوما كاملا حتى استجابوا، و فتحوا أبواب الأزهر، و كان مما شرطوه على إسماعيل بک ألا يمر الأغا، و لا الوالی، و لا المحتسب قريبا من الأزهر.

الشيخ السادات يقود الثورة:

كان الشيخ السادات، من أكبر الشيوخ مقاما، و أعظمهم شأنا، و أوسعهم جاها و ثروة، و أعزهم منزلة لدى الناس، و لدى الأمراء على السواء. و لكنه، مع اختيار نابليون له عضوا فی الديوان، و زيارته له فی بيته، كان من أكبر خصوم الفرنسيين، و المحرضين على الثورة عليهم.

فعند ما قامت ثورة القاهرة الأولى تبين أن زعيمها الأول هو الشيخ السادات. و ثبت لديهم ذلک حتى أمر الجنرال كليبر بإعدامه، و لكن نابليون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۸۹

رده عن ذلک، مع يقينه من زعامته للثورة، و قال: إن قتل شيخ فی مكانة السادات يضر أبلغ الضرر بمركز الفرنسيين، و يزيد فی حقد المصريين و كراهتهم له.

ثم قامت ثورة القاهرة الثانية على الجنرال كليبر. و كان السادات من المحرضين عليها. فجاءت فرصة كليبر لشفاء ما فی نفسه من السادات.

و كان يذكر نصيحة نابليون فلم يقتله. و لكنه أوقع به من العذاب و المهانة شيئا كثيرا. حيث فرض عليه ضريبة فادحة، قدرها مائة و خمسون ألف فرنک. فلما رفض أن يدفعها أمر بسجنه فی القلعة. و كان ينام على التراب، و يمشون به على قدميه فی شوارع القاهرة، و يضرب فی صباح كل يوم خمس عشرة عصا، و مثلها فی كل مساء و حبسوا أتباعه و خدمه. و طلبوا زوجه و ابنه فلم يجدوهما. فعذبوا خادما له عذابا شديدا حتى دل على مكانهما، فسجنوهما. و وضعوا معه زوجته فی سجن واحد، فكانوا يضربونه أمامها، و هی تبكی. و هاجموا داره، ففتشوها و نهبوا ما كان فيها من مال و متاع و حفروا أرضها للبحث عما فيها من سلاح و مال. و جعلوا على بيته

عشرین حارسا. و عندما أعادوا تشکیل «الدیوان» أخرجوه منه.

و بعد أن أنزلوه من القلعة عادوا فسجنوه فیها مرة أخری خمسین یوما، ثم أخرجوه بعد أن أتم دفع ما فرضوا علیه، و لکنهم عادوا فصادروا جمیع ممتلکاته و إقطاعیاته- و کانت شیئا کثیرا- و حبسوا مرتباته و أوقافه و أوقاف زوجاته، و ریع الأوقاف التی کانت محبوسة علی زوجة أجداده. و شرطوا علیه ألا یجتمع بالناس، و ألا یخرج إلا بإذنهم، و أن یقتصد فی نفقاته، و ینقص عدد أتباعه و خدمه.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۰

و یخاف منه الأتراک أیضا:

و عند ما قدمت الحملة الترکیة الإنجلیزیة لحرب الفرنسیین و إخراجهم من مصر، سنة ۱۸۰۱، و علم الجنرال مینو، نائب نابلیون و قائد الجیوش الفرنسیة، أنها نزلت أبی قیر فی الأسکندریة، أمر، للمرة الرابعة، بالقبض علی الشیخ السادات حتی لا یثیر المصریین علیهم. و سجن فی القلعة، و بقی فیها سجینا حتی بارح الفرنسیون مصر.

و قد مات ابن الشیخ السادات و هو فی السجن فلم یسمحوا له بالخروج لیراه، بل أذنوا له بالسیر فی جنازته تحت الحراسة، ثم أعادوه إلی السجن.

و من مواقف الشیخ السادات الوطنیة الکریمة، أنه عند ما ضرت الحرب و الحصار بالثائرین فی القاهرة، التزم بالإنفاق علی المحاربین و المجاهدین فی المنطقة التی کان یقیم فیها، عند قناطر السباع.

و مات الشیخ السادات بعد ذلک فی مارس سنة ۱۸۱۳ فی عهد محمد علی بعد أن عرف له الناس و سجل التاریخ هذه الشجاعة و هذا البذل.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۱

الأزهری الشیخ سلیمان الجوسقی

فرغ الشیخ سلیمان الجوسقی من صلاة الفجر فی الجامع الأزهر علی عادته فی کل یوم، و لکنه فی ذلک الیوم کان یبدو علی غیر عادته فی کل شیء، فهو ساهم واجم یستغرقه تفکیر عمیق ثقیل، و هو فی تفکیره منصرف عن کل شیء من حوله، حتی کان إخوانه یتلقونه بتحیة الصباح فلا یجیبهم، و کان طلابه یکبون علی یده یقبلونها فیلقیها إلیهم فی إغفال و استسلام کأنه لا یبالی شیئا من أمرهم.

و مضی الشیخ الجوسقی إلی حلقة الدرس و هو علی هذه الحال، ساهم واجم، مستغرق فی ذلک التفکیر العمیق الثقیل، و لقد أخذ مکانه فی حلقة الدرس و الطلاب یحفون به منصتین، و لکنه جلس صامتا واجما لم یتکلم بکلمة، و لم یعنه أن یسأل الطلاب فیما حققوا من مسائل الدرس أو صادفوا من مصاعبه کشأنه معهم فی کل یوم.

و ما کان الشیخ الجوسقی هکذا أبدا، و لا عرف طلابه عنه هذه الحال فی یوم من الأیام، فقد کان شیخا مکفوف البصر، یتولی شئون طائفة العمیان و التدریس لهم فی الأزهر، و لکنه لم یکن یری فی تلک المحنة حدا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۲

یعوقه عن أی شأن من شئون الحیاة، فکان معروفا بین إخوانه بقوة الشکیمة و الصرامة فی الحق، یحرص کل الحرص علی مصالح طائفته، و یبذل کل الجهد لاستخلاص حقوقهم، و لو أدی ذلک إلی الاعتماد علی القوة، و الالتحام فی المعرکة، و کان إلی جانب هذا متفتح النفس، یهش للدعابة، و یطیب له التبسط فی الحدیث مع طلابه و مریدیه، و یعنیه أن یتحقق بنفسه شئونهم العامة، و

مسائلهم الخاصة، و من ثم كان طلابه يخشونه أشد الخشية، و يحبونه أعظم الحب، و كان إذا ما أقبل على الدرس فى كل يوم بعد الصلاة الأولى أقبلوا عليه، فيفضون إليه بما فى نفوسهم، و يسمعون منه بما يشير به عليهم، ثم يفرغون معه لدرس التفسير فى كتاب اللّه الكريم، و ما يزالون حتى ترتفع الشمس، ثم ينصرفون للاستعداد لدرس آخر.

و لكن الشيخ أقبل على طلابه فى ذلك اليوم، و هو على تلك الحال التى لم يألفوها منه، و لم يعرفوها عنه، و أشفق الطلاب أن يكون قد نزل بشيخهم مكروه فى نفسه أو فى أسرته، فقال قائل منهم: لا بأس على مولانا الشيخ فيما نرى، فقد فات موعد الدرس و هو منصرف عنا!

قال الشيخ فى صوت محتبس أجش: كيف و هذا هو اليأس يأخذ بنواصينا و أقدامنا، و هذا هو الكرب يشد على خناقنا شدا عنيفا، فليس لنا منه متنفس. و فيم أنتم و هذا الدرس، و ما هو إلا كلام تلوكونه بألسنتكم، و تخورون به خوار البقر، و لكنكم و اللّه لا تحسونه بقلوبكم، و لا تعرفون فيه حق دينكم، و هل حسبتم أن الإسلام هو تلك الكلمات التى ترددونها و تناقشونها ثم تنصرفون بها إلى الناس، و كأنها تجارة كلامية، حسبكم من الربح فيها تلك الفضلات التى تقيم أودكم، و تمسك رمقكم، إذن فيا ضيعة الإسلام فيكم، و يا خسارته بكم، و لست أدرى أهى نهاية الزمان، أم أن اللّه مقيض لهذا الأمر من ينهض به و يبعثه بعثا جديدا فى عقول هذه الأمة و قلوبها؟!

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۳

قال الطالب: و هل عرف شيخنا على أحد منا سوءا فى دينه، أو تفريطا فى حق من حقوقه؟!

قال الشيخ: و ما ذا بقى هناك من حقوق دينكم؟ و أى أثر لذلك فى نفوسكم؟ لقد جل الخطب حتى أوشك أن لا يبقى من هذا الدين بقية تتصل بأرواحكم، هؤلاء هم الفرنسيون الكفار قد وطأوا بلادكم فسكتم، ثم انتهبوا دوركم و أموالكم فأذعنتم، ثم انتهكوا حرماتكم و أعراضكم فرضيتم و صبرتم، و ها هم أولاء- فيما عرفت- يعمدون إلى تغيير نظام المواريث فى دينكم، فيجعلون حق الإرث كله للبنت و ليس للولد منه شىء كما هو شرعهم، و متى بطل جزء من الشريعة فإنها جميعها لا بد صائرة إلى المسخ و الزوال، و إنكم لصائرون غدا أرقاء فى خدمة هؤلاء الفرنسيس الكفار، و بكم تكون نهاية هذا الدين، و زوال الملة، و نعوذ باللّه من هذا الزمان.

و سرت بين الطلاب همهمة و غمغمة، و ارتفعت الصيحات استنكارا لتلك النازلة الساحقة التى حلت بالمسلمين فى دارهم، و وقف بعض الطلاب يتكلمون، فمنهم من يلقى اللوم على أولئك المماليك الجبناء الذين فروا من مواجهة العدو و تركوا الشعب يتلظى فى أتون المعركة، و منهم من يعتب على دولة بنى عثمان التى تركت الفرنسيين يصلون إلى فتح هذه الديار، و منهم من يسب الخائنين و المارقين من أبناء الطوائف الدخيلة على البلاد لأنهم تعاونوا مع العدو و مكنوه من رقاب الشعب، و منهم من يقول:

إنه غضب اللّه على المسلمين جزاء ما فرطوا فى دينهم، و حقوق ملتهم.

و عاد الشيخ الجوسقى يتكلم فقال: حسبكم يا أبنائى هذا الضجيج على غير طائل، إننا اليوم لسنا فى مقام توزيع التبعات و ليس من الحكمة أن نترك السفينة تهوى إلى القاع و نحن مشغولون بمعرفة الملوم فى هذه الكارثة، و إنما الواجب أن نفزع لدفع النازلة التى حلت بنا ثم نصفى أمورنا

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۴

إذا بقى لنا أمر بعد ذلك، فحرام عليكم طعامكم و شرابكم، و حرام عليكم أن تقيموا على الضيم فى وطنكم، و أن تجلسوا فى هذا المكان باسم الإسلام و الفرنسيون يصنعون بإسلامكم ما شاءوا أن يصنعوا.

قال قائل منهم: و ما ذا فى طاقتنا أن نصنع إزاء حرب الفرنسيين. و قد حرمنا نعمة البصر فما ندرى إلى أين نسير، و اللّه يقول: «ليس على الأعمى حرج».

و لم يكد الطالب بتم قولته حتى انفجر الشيخ كالبركان قائلا: ألا لعنة اللّه عليكم إن كان هذا هو مدى إدراككم و يقينكم، نعم لا حرج عليكم فيما هو من شئونكم الخاصة، و لكنكم اليوم إزاء كارثة حلت بدار الإسلام، و إنها لآخذة برقابكم جميعا، و اللّه يقول: «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»، فانفروا إلى الناس فى دورهم، و حيث هم فى أعمالهم، و تفرقوا على أبواب الطرق و الحارات، و قولوا لكل من لقيتم إنكم اليوم بين شقى الرحى، و إن الفرنسيين قد استباحوا حرماتكم، و أهانوا شرفكم، و نهبوا أموالكم، و بدلوا دينكم، فلا عزة لكم بين الأمم، و لا كرامة لكم عند ربكم إذا ما رضيتم بهذا الأمر فيكم.

و وقف الشيخ فى انفعال و قوة، و أخذ يصرخ قائلا و الدموع تنحدر على خديه: و اللّه ما قام عمود هذا الدين إلا بالجهاد، و لا أزهرت شجرة الإسلام إلا بدماء الشهداء، و لقد خاض رسول اللّه الحرب حتى شج وجهه و كسرت رباعيته، و فى سبيل اللّه استشهد سادتنا من الصحابة و التابعين، فلعنة اللّه علينا إن كنا من القاعدين بعد اليوم .. ثم اندفع الشيخ و اندفع معه طلابه إلى الخارج و هم يصيحون: إلى الجهاد و الاستشهاد، إلى الموت فى سبيل اللّه .. و كانت الثورة.

كانت الشمس ترتفع للضحى، و كانت القاهرة تبدو هامدة واجمة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۵

تحت وطأة ذلك الكابوس الفرنسى الذى جثم على قلبها فجأة، و كان الناس يغدون و يروحون و هم لا يدرون من أمرهم شيئا لليوم أو الغد، فما هى إلا ساعات من نهار حتى كانت القاهرة تغلى كالمرجل، و كان الناس يقفون فيها على قدم و ساق متوثبين متحفزين لأمر له ما بعده، فقد تفرق شيوخ الأزهر و طلابه على أبواب الطرق، و تغلغلوا فى الحارات و الأزقة بحى الأزهر و الحسينية، و راحوا يتحدثون إلى الناس بشأن هؤلاء الفرنسيين الذين استعمروا بلادهم و نهبوا أموالهم، و اسباحوا حرماتهم، و أخذوا يذكرونهم بحق الدين فى الجهاد و الاستشهاد، و كأنها كانت الشرارة قد اندلعت فى الهشيم، فإذا بالجموع تتداعى من كل ناحية، و الصيحات ترتفع من كل جانب: إلى الجهاد، إلى الاستشهاد، النصر للإسلام.

و اتصل الخبر بالسلطات الفرنسية، فركب الضابط «ديوى» على رأس قوة كبيرة من الفرسان و الجنود، و مر بشارع الغورية، و عطف على خط الصنادقية، ثم قصد إلى بيت القاضى فوجد جموعا كبيرة من المصريين و هم يصيحون و يتوعدون، فتراجع أمامهم و أراد أن يخرج من بين القصرين، و لكنهم أدركوه و التحموا به فى معركة عنيفة أسفرت عن جرح «ديوى» بجراح بالغة و قتل أكثر فرسانه و جنوده، و لم يفلت القائد الفرنسى من براثنهم إلا بأعجوبة ... و أيقن أبناء القاهرة أن هذه المعركة ليست إلا بداية موقف حاسم بينهم و بين الفرنسيين، و أخذوا من وقتهم يستعدون لهذا الموقف، فرابطت الجموع عند الأطراف و على مداخل القاهرة عند باب الفتوح و باب النصر و البرقية و باب زويلة و باب الشعرية، و أقاموا المتاريس فى كل مكان مفتوح للهجوم، و أخرجوا ما عندهم من السلاح و الذخيرة، و باتوا الليل ساهرين منتظرين.

و أصبح الصباح، و كانت القوات الفرنسية قد أخذت أماكنها فوق تلال البرقية و القلعة، و هى مستعدة بالعتاد الكامل، و المدافع الثقيلة، ثم أخذت تقصف القاهرة بالقنابل و ركزت الضرب على حى الأزهر بصفة خاصة،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۶

و تساقطت القنابل على الدور و فوق السكان، و لم يكن دوى القنابل مألوفا لعامة الشعب، فسار بينهم الفزع و الرعب، و لكن المرابطين على المتاريس وقفوا ثابتين يدافعون فى شجاعة و عناد، و أمضت القاهرة ليلة مظلمة لم تعهدها من قبل، فكنت لا تسمع فى وسط ذلك الظلام الخانق الرهيب، إلا دوى القنابل و هى تتساقط فى كل مكان، و إلا صيحات المجاهدين و المدافعين و هى تتجاوب بالثبات و الإقدام، و طال الترقب، و الفريقان يتبادلان الرمى و الضرب، و أرسل الفرنسيون إلى شيوخ الأزهر أكثر من مرة لعلهم يتدخلون لتهدئة الثورة، و لكن المواطنين أصروا على الكفاح إلى آخر رمق من حياتهم.

و استمرت المعركة دائرة يومين و ليلة و تساقط القتلى من الجانبين فى الشوارع و الطرقات و تهدمت الدور فى كثير من المواقع، و بقى

المواطنون فى أماكنهم صامدين، يناضلون و يدافعون حتى فقدت الذخيرة منهم، فوقفوا عن الضرب و الرمى، و انفتحت الأبواب أمام الفرنسيين، فانحدروا إلى القاهرة بخيلهم و رجلهم و هم يمعنون فى الأهالى العزل قتلا و فتكا، و عاثوا فى حى الأزهر جميعه، ثم اقتحموا الجامع الأزهر بخيولهم، و استباح أولئك الذين جاءوا يبشرون فى الشرق بمبادىء الثورة الفرنسية ذلك الحرم المقدس، فربطوا فيه خيولهم، و شربوا فيه الخمور، و عاثوا بكل ما فيه من المصاحف و الكتب و الخزائن فسادا و تلفا و داسوها بنعالهم.

و أصبح الصباح فى اليوم التالى، و كانت القوات الفرنسية كلها قد تجمعت فى حى الأزهر و فى جميع الأحياء التى عضدت الثورة، و أخذوا ينهبون الدور و يبحثون عن السلاح فى كل مكان، ثم أخذوا يبحثون عن الشيوخ الذين تزعموا الثورة و اعتقلوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان، و الشيخ أحمد الشرقاوى، و الشيخ عبد الوهاب الشبراوى، و الشيخ يوسف المصيلحى، و الشيخ إسماعيل البراوى، و حبسوهم فى بيت البكرى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۷

بعض الوقت، ثم نقلوهم إلى القلعة ..

و قصد الشيخ السادات و معه بعض كبار المشايخ بالأزهر إلى القائد الفرنسى و طلبوا منه العفو عن الشيوخ المعتقلين فأمهلهم بعض الوقت، و فى كل يوم كانوا يذهبون إليه متشفعين فيمهلهم حتى يستقر الأمن، و بعد خمسة عشر يوما انكشفت الحقيقة فى صنع الاستعماريين، فقد وجدت جثث الشيوخ الخمسة وراء سور القلعة، بعد أن قتلهم الفرنسيون و مثلوا بهم أشنع تمثيل، ذلك لأنهم ارتكبوا أشنع جرم فى حق أبناء المدنية الفرنسية، فطالبوا بحق أمتهم فى الحرية و الحياة ...

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۲۹۹

رفاعة رافع الطهطاوى

* رفاعة رافع الطهطاوى .. ولد فى ديسمبر سنة ۱۸۰۱ ببلدة طهطا محافظة جرجا و يختلف المؤرخون حول يوم مولده.

* كان والده تاجرا صغيرا توفى و رفاعة فى سن الخامسة عشرة فرحل إلى القاهرة طلبا للعلم و التحق بالأزهر و قد كانت وسيلة سفره سفينة شراعية فاستغرقت الرحلة أسبوعين.

* فى عام ۱۸۲۴ عين واعظا و إماما لإحدى فرق الجيش النظامى الذى أسسه محمد على و كان قائدا لفرقة حسن المانسترلى «بك».

* سافر إلى فرنسا عام ۱۸۲۶ إماما للبعثة التعليمية المصرية بباريس و تقرر له مرتب يوزباشى .. و حضر قيام الثورة الفرنسية ضد شارل العاشر سنة ۱۸۳۰.

* تأثر بالعلوم السياسية الفرنسية فترجم الدستور الفرنسى «دستور ۱۸۱۴» معلقا على مواده بما يدل على فهم دستورى صحيح.

* عاد إلى مصر سنة ۱۸۳۱ فتولى منصب أستاذ ترجمة و تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۰

* فى عام ۱۸۳۳ نقل من مدرسة الطب إلى المدفعية برتبة أميرلاى و عهد إليه بترجمة العلوم الهندسية و الفنون الحربية.

* أنشأ مدرسة الألسن سنة ۱۸۳۶ بسراى الألفى بالأزبكية.

* فى عام ۱۸۵۱ أرسله الخديو عباس الأول إلى السودان بعد أن أغلق مدرسة الألسن بحجة توليه إدارة مدرسة أنشئت بالسودان و كان القصد إبعاده.

* عاد من السودان عام ۱۸۵۴ بعد وفاة الخديو عباس و تقلب فى عدة وظائف حتى أسندت إليه سنة ۱۸۵۵ وكالة المدرسة الحربية.

* أسس أول مدرسة لتعليم البنات سنة ۱۸۷۳.

* من أشهر كتبه .. «تخليص الإبريز فى تلخيص باريس».

* توفی فی ۲۷ مایو سنة ۱۸۷۳ .. و نشر نعیه بالوقائع السریة جریدة الدولة الرسمیة.

إن أول صحفی فی مصر بل و فی العالم العربی کله، کان أزهریا و هو المرحوم الشیخ إسماعیل بن سعد الشهیر بالخشاب قال عنه: (الفیکونت فیلیب دی ترازی) فی کتابه (تاریخ الصحافة العربیة) عند حدیثه عن البعثة العلمیة التی رافقت حملة نابلیون بونابرت إلی مصر أنها أحضرت معها مطبعة من باریس ثم یقول:

(و أول عمل باشرته هذه البعثة العلمیة أنها نشرت ثلاث جرائد فی المطبعة المذکورة إحداها (الحوادث الیومیة) کان یحررها إسماعیل بن سعد الخشاب و هی جدة الصحف فی لغة الناطقین بالضاد).

و یقول عنه الجبرتی فی کتابه التاریخی المعروف: (تولع السید إسماعیل بحفظ القرآن ثم بطلب العلم و لازم حضور السید علی المقدسی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۱

و غیره من أفاضل الوقت و أنجب فی الفقه الشافعی و المعقول و تثقیف اللسان و الفروع الفقهیة الواجبة و الفرائض.

إلی أن یقول:

و لما رتب الفرانساویة دیوانا لقضایا المسلمین تعین المترجم فی کتابة لتاریخ لحوادث الدیوان، و ما یقع فیه من ذلک الیوم .. لأن القوم کان لهم مزید اعتناء بضبط الحوادث الیومیة فی جمیع دواوینهم و أماکن أحکامهم ثم یجمعون المتفرق فی ملخص، یرفع فی سجلهم، بعد أن یطبعوا منه نسخا عدیدة یوزعونها فی جمیع الجیش ... حتی لمن یکون منهم فی غیر المصر من قری الأریاف، فتجد أخبار الأمس معلومة للجلیل و الحقیر منهم.

فلما رتبوا ذلک الدیوان، کما ذکر کان هو المتقید برقم کل ما یصدر فی المجلس: من أمر و نهی، أو خطاب أو جواب، أو خطأ أو صواب، و قرروا له فی کل شهر سبعة آلاف و نصف فضة.

فلم یزل متقیدا فی تلک الوظیفة مدة ولایة عبد الله جاک مینو، حتی ارتحلوا من الإقلیم. و لقد جمع من سجلات الحوادث عدة کراریس و لا أدری ما فعل بها.

هذا هو إسماعیل الخشاب، أول صحفی عربی علی الإطلاق، خرج من الأزهر إلی الصحافة، و کانت صحیفته صغیرة لا یقرؤها إلا القلیلون.

و یجیء من بعده المغفور له الشیخ (رفاعة رافع الطهطاوی) و هو المقصود بحدیثنا و صاحب أکبر فضل علی النهضة العلمیة و الأدبیة و الاجتماعیة فی مصر، و لقد ولد عام ۱۸۰۱ و توفی عام ۱۸۷۳ و کانت مسقط رأسه مدینة (طهطا) فی الصعید و لقد نشأ فی أسرة کانت من أهل الیسار ثم أخنی علیها الدهر فمضی والده فی طلب الرزق إلی مدینة (قنا) و بعدها إلی مدینة (فرشوط).

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۲

و قد سافر إلی فرنسا و رأی حریة هناک جعلته یشعر بالطغیان الذی یعانیه أبناء وطنه مصر و رأی ما یمکن أن یقدمه الفکر الراجح من أسالیب النشاط الإنسانی فی شتی مناحی الحیاة، و فی فرنسا رأی الصناعة الزاخرة بالخیر و النفع علی الفرنسیین أجمعین فدعا إلی التصنیع فی بلاده.

و لقد دعا رفاعة الطهطاوی، المصریین إلی الحفاظ علی نعمة الحریة و إعلاء شأن الفکر و إنشاء المصانع لتنافس أمتهم أرقی شعوب العالم فی الحضارة و المدنیة، و لتعود إلیها سیرتها الأولی فی التقدم و الازدهار.

و عاد رفاعة الطهطاوی إلی مصر و کله شعلة من الوطنیة المتأججة، فأشار علی محمد علی بأن یصدر صحیفة «الوقائع المصریة» و تولی الشیخ رفاعة ریاسة تحریرها و راح یکتب فیها المقالات التی تحث علی استنهاض الهمم و بعث الشعور القومی و شحذ العزائم فی سبیل خدمة الوطن.

و هی أقدم جریدة عربیة علی الإطلاق إذ لم تسبقها جریدة عربیة أنشأها عربی فی وطننا العربی الکبیر.

و ما صنعه رفاعة الطهطاوی لأمته یکثر إحصاؤه علی المغرمین بالأرقام، فقد ترجم عشرات الکتب من الفرنسیة إلی العربیة و أودع ثمراتها عقول أولئک المتعطشین إلی العلم و المعرفة، و بارک اللّه فی جهوده فألف و صنف، و کانت غایة جهاده أن یرتقی بأمته إلی المکان الذی رأی فیه فرنسا.

و لقد خلف رفاعة الطهطاوی وراءه ثروة أدبیة ضخمة هی طراز لما یجب أن یقوم به الرائد العظیم نذکر منها: (خلاصة الإبریز) و الدیوان النفیس) و (التعریبات الشافیة لمرید الجغرافیة) و (جغرافیة ملطبرون) و (قلائد المفاخر فی غریب عوائد الأوائل و الأواخر) و (المرشد الأمین فی تربیة البنات و البنین) و (التحفة المکتبیة) و (مواقع الأفلاک فی أخبار تلیماک) و (مباهج الألباب المصریة فی مناهج الألباب العصریة) و

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۳

(مختصر معاهد التنصیص) و (المذاهب الأربعة) و (شرح لامیة العرب) و (القانون المدنی الإفرنجی) و (توفیق الجلیل و توثیق بنی إسماعیل) و (هندسة ساسیر) و (رسالة فی الطب) و (جمال الأجرومیة) و (نهایة الإیجاز فی سیرة ساکن الحجاز).

و هکذا عاش رفاعة الطهطاوی حیاته کلها خادما أمینا للدین و للعلم و للمعرفة باذلا غایة جهده فی تحریک موجات الفکر فی بحرنا الآدمی المتلاطم.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۵

صورة عن الامام الشیخ محمد عبده

نسبه و مولده و نشأته:

هو محمد بن عبده بن حسن خیر الله، من أسرة مصریة ریفیة متوسطة الثراء، فی قریة من إقلیم البحیرة بشمال مصر تسمی محلة نصر، و کان أبوه یشتغل بالزراعة شأنه شأن سکان الریف جمیعا. و ولد له ابنه محمد فی عام ۱۲۶۶ ه. و نشأ فی أول الأمر مدللا ثائرا علی وضعه الاجتماعی، فأبی أن یشارک أباه فی عمله، و عزف عن التعلیم فی مکتب القریة علی عادة أمثاله ولداته، و ظل کذلک حتی بلغ العاشرة من عمره، و اشتد القلق بوالده فأحضر له فقیها لازمه حتی حفظ القرآن الکریم. و تعلم مبادیء القراءة و الکتابة، ثم أرسل به إلی طنطا فجود القرآن و أحسن تلاوته، ثم ألحقه بمعهدها الدینی. و قد بلغت سنة خمسة عشر عاما، و لکن محمدا لم یتفتح قلبه لطرق الدراسة حینذاک، ففر من معهده مرارا، و أبوه یحاوله و یعالجه، و هو یلج فی العناد و الإباء. و أخیرا نزل ضیفا علی خال لأبیه فی إحدی القری المجاورة لبلدته، و کان عالما ذکیا استطاع أن ینفذ إلی قلبه، و أن یحبب إلیه العلم و الدراسة، فلقنه تفسیر القرآن. و قرأ علیه عدة کتب فی الحدیث من أشهرها موطأ الإمام مالک، ثم عاد بعد ذلک إلی معهده فأتم الدراسة فیه، و انتقل إلی الأزهر فی عام ۱۲۸۲ ه و رأی أن ینتقل من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۶

مذهب مالک إلی مذهب أبی حنیفة لأنه المذهب الرسمی للحکومة و علیه القضاء و الفتیا، و ظل ینازع نفسه، و یغالب السأم و الملال من الدراسات المعقدة و الأسالیب الملتویة، حتی حصل علی شهادة العالمیة فی عام ۱۲۹۴ ه، و قد انتزعها انتزاعا بعد معارضة بعض العلماء فی منحة إیاها لجرأته و صراحته، و زرایته بنظم الأزهر و طریقة التدریس فیه فی ذلک الوقت، و اصطدامه ببعض شیوخه و مخالفتهم فی کثیر من الآراء و العقائد.

ثقافته و أساتذته:

کان الإمام ذکیا ألمعیا یتمتع بذهن متوقد، و فکر ثاقب، و نفس طلعة متحررة، لا تحب القیود، و لا تخضع لما تواضع علیه الناس، فمال إلی التزود بجمیع أنواع الثقافات، و فتن بالعلوم العقلیة و اللسانیة و الأدبیة، و استقی الدین من منابعه الأولی، ضاربا صفحا عما ابتدعه العلماء من مذاهب و عقائد، و ما أدخلوه فی الدین من بدع و أساطیر و خرافات.

اقتنع الشیخ بانحراف العلماء عن سنة السلف، و مال إلی الدراسة الاستقلالیة الحرة، و شغف بالتاریخ و المنطق و الفلسفة الإسلامیة، و الریاضة و الفلک، و تلمس السبل لفهم ما استعصی علیه، فاتصل و هو طالب بعالم فحل اسمه الشیخ حسن الطویل، و لازمه و أفاد منه، و وجد عنده ما افتقده عند غیره من العلماء فلم یظفر به، و اتصل کذلک بجمال الدین الأفغانی منذ وفد علی مصر و أخذ عنه الأدب و التوحید و المنطق و أصول الفقه و الفلسفة و غیر ذلک من العلوم- کما أخذ عنه آراءه فی السیاسة و الاجتماع، و ثورته علی ظلم الحکام و استبداد الولاة، و دعوته إلی نظام شوری إسلامی یقضی علی المطامع و النفعیة و الاستغلال.

بیئته و أثرها فی حیاته:

نشأ الشیخ فی عصر یموج بالأحداث و الأعاصیر، و تتوالی فیه الکوارث السیاسیة و الاقتصادیة و الاجتماعیة. فقد کبل إسماعیل البلاد

الأزهر فی ألف عام ؛ ج۳ ؛ ص۳۰۷

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۷

بأغلال الدّین، و مکن للأجانب من التدخل فی شئونها، و الإشراف علی مواردها و منحهم امتیازات سیطروا بها علی الوطنیین و انتشروا فی المدن و القری یبیعون الخمر و السموم، و یتعاملون بالربا، و تسقط الثروات فی أیدیهم کما تسقط أوراق الشجر أدرکه الخریف، ثم کان عهد توفیق و قیام الثورة العرابیة، و استعانة هذا الحاکم الخائن بالإنجلیز لیحتلوا البلاد و ینکلوا بقادتها و زعمائها، و یلقوا بهم فی السجون و المعتقلات، و یقذفوا ببعضهم إلی خارج البلاد لیذوقوا مرارة النفی و ألم البعاد و التشرید، و کان للشیخ دور بارز فی مقاومة البغی و العدوان، و جاهد بقلمه و لسانه فی صفوف الثورة، و أفتی بخلع الخدیو فحکم علیه بالنفی، و قضی عدة سنوات بسوریا و فرنسا و تونس، و لقی من الشدائد و الأهوال ما اللّه به علیم.

و لکن الإمام أفاد من هذا الکفاح، و اکتسب خبرة بشئون الحیاة لم تتهیأ لغیره من القادة و الزعماء، و لم یکّف عن أداء رسالته الدینیة و الوطنیة، فتولی التدریس بسوریا و تونس، و اشترک مع جمال الدین الأفغانی فی إنشاء صحیفة العروة الوثقی بفرنسا، و عاد من النفی أمر عودا و أصلب مکسرا، و کانت له بعد ذلک جولات و صولات.

تقلبه فی مناصب الدولة:

تولی الشیخ عقب تخرجه فی الأزهر دراسة التاریخ الإسلامی بدار العلوم، و دراسة اللغة العربیة بمدرسة الألسن، ثم عزلته الحکومة من عمله مخافة انتشار آرائه و أفکاره بین التلامیذ، و قوة تأثیره فی الأوساط الوطنیة و الشعبیة، ثم اختیر بعد ذلک لریاسة تحریر الوقائع المصریة، و بعد عودته من النفی أبعد عن التدریس، و عین قاضیا بالمحاکم الأهلیة، و عضوا فی مجلس الأزهر الأعلی، ثم اختیر لمنصب الإفتاء و عضویة مجلس الأوقاف الأعلی، کما کان عضوا بمجلس الشوری، و رأس جمعیة إحیاء العلوم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۸

العربیة التی أسست سنة ۱۳۱۸ ه، و إلیه یرجع الفضل فی نشاط هذه الجمعیة و إحیاء کثیر من کتب الأدب و الدین و غیرهما.

وطنیته و دعوته للحریة السیاسیة و الفکریة:

عاش الشیخ طول حیاته مجاهدا مکافحا، داعیا للتحرر الوطنی، و إرساء قواعد الحکم الشوری، و مقاومة المحتلین و أذنابهم، و عمل علی نشر الوعی القومی فی نفوس النشء، و تحریر الفکر العربی من شوائب الجهالة، و تکوین مجتمع إسلامی یتعاون أبناؤه لإقامة وحدة تعمل علی ترقیة شئونهم السیاسیة و الاجتماعیة، و قد ألهب عواطف الوطنیین بقلمه و لسانه، و بث بذور الثورة علی الطغیان الترکی، و فساد أداة الحکم فی مصر. و لو أن العرابیین استمعوا لنصحه، و تریثوا قلیلا حتی یستکملوا عدتهم و عتادهم لبلغت الثورة هدفها، و آل حکم البلاد إلی بنیها، و نجت مصر من الاحتلال الإنجلیزی الذی جثم علی صدرها طویلا.

إصلاحاته و آراؤه. و الصراع بینه و بین علماء عصره:

کان الشیخ یری أن إصلاح المجتمع الاسلامی یجب أن ینبع من الأزهر، و أن یکون علماء الدین هم رسل النهضة و قادة الإصلاح، و لکی یقوم الأزهر برسالته لا بد له من الخروج عن عزلته و جموده، و أن یوثق صلته بالشعب، و یجدد فی نظمه و طرق التدریس فیه، و یطهر الدین من الشوائب و الخرافات، و أن یعید النظر فی الآراء الاجتهادیة التی أثبت العلم بطلانها، و یعالج المشاکل التی نبتت فی العصور الحدیثة و یبین حکم الدین فیها، و أن یعنی بالتقویم الخلقی و محاربة البدع و الضلالات، و الرد علی ما أثاره خصوم الإسلام من شبه تتناول أصوله و فروعه، و أن یعد أبناءه للاضطلاع بوظائف الدولة، و تولی شئون القضاء و التدریس علی النظم الحدیثة.

و قد وضع رحمه اللّه نظاما لإصلاح المحاکم الشرعیة، و مشروعا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۰۹

لإصلاح الأزهر فی النواحی الإداریة و العلمیة، و أراد أن یجدد فی منهج التدریس بطریقة عملیة بارعة حببت إلی الناس طلب العلم، و غشی حلقته کثیر من الأزهریین و غیرهم، کما درس التفسیر و المنطق و الحکمة و الفلسفة و علم الکلام بأسلوب بلیغ و عبارات جزلة فیاضة. و قوة فی الدلیل و الترجیح بین الآراء، و نفی ما یثبت بطلانه و عدم جدواه.

و قد ثار بعض المتزمتین من الأزهریین و المتصوفة علی الشیخ و رموه بالإلحاد و الزندقة، و الخروج عما تواضع علیه العلماء و المؤلفون. و أقاموا من حوله سیاجا من الشک و الشبهات، و لجوا فی معارضته و الطعن علیه، و هو صابر محتسب، یقابل أذاهم بالتسامح، و معارضتهم بالحجج الدامغة و البراهین الواضحة. و إلی هذا یشیر حافظ إبراهیم فی رثائه للإمام إذ یقول:

و آذوک فی دین الإله و أنکروامکانک حتی سودوا الصفحات

رأیت الأذی فی جانب اللّه لذؤو رحت و لم تهمم لهم بشکاة

لقد کنت فیهم کوکبا فی غیاهبو معرفة فی أنفس نکرات

أبنت لنا التنزیل حکما و حکمةو فرقت بین النور و الظلمات

و وفقت بین الدین و العلم و الحجافأطلعت نورا فی ثلاث جهات

وقفت لهانوتو و رینان وقفةأمدک فیها الروح بالنفحات

و إنما کان غضب بعض الأزهریین علیه لأنه کشف عن جهلهم و عجزهم عن أداء رسالة الدین و العلم- کما کان غضب الصوفیة علیه لأنه سلفه طرقهم و أوضح دجلهم و تضلیلهم لعقول الناس، حتی أحالوا الدین إلی خرافات و أوهام لا تتصل به من قریب أو بعید.

و یعد الأستاذ الإمام مجدد الأدب النثری فی العصر الحدیث. و محرره من القیود التی أثقلته و جنت علیه فی العصور الوسطی. جدد الشیخ فی أسلوب النثر، و فی معانیه و موضوعاته، و امتازت کتابته بالوضوح و حسن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۰

الترتیب و سلامة التراکیب، و البراءة من الغریب و الحشو و التوعر.

و المتأمل فی أدبه یراه قد تنقل فی أطوار عدة، فقد کان أول أمره یمیل إلی السجع و التکلف و الصنعة، و بعض المحسنات البدیعیة و المصطلحات العلمیة. و یستعمل ألفاظا دخیلة من اللغات الأوروبیة أو الترکیة، ثم أخذ یتحلل من قیود الصنعة شیئا فشیئا بعد تضلعه فی الأدب العربی، و الإکثار من قراءة الکتب القدیمة، ثم سما و عذب ورق بعد دراسته اللغة الفرنسیة و الآداب الأوروبیة الحدیثة- و قد شاعت طریقته بین المتأدبین فی هذا العصر فترسموا خطاه و ساروا علی نهجه.

مؤلفاته العلمیة و الأدبیة:

لم تدع الأحداث السیاسیة و الحرکات الإصلاحیة لدی الأستاذ الإمام متسعا من الوقت للإنتاج و التألیف، و لکنه استرق من وقته فترات ألف فیها رسالة التوحید و تفسیر جزء عم، الإسلام و النصرانیة مع العلم و المدنیة، و شرح نهج البلاغة، و مقامات البدیع، و هو فی جمیع هذه الکتب محقق، واسع الأفق، عمیق الفکرة، واضح الحجة، فخم العبارة، قوی الأسلوب.

و لم یعن الإمام بقرض الشعر مع کثرة حفظه له، و استشهاده به، و لم یسمع عنه سوی أبیات نسبت إلیه، و زعم بعض المتصلین به أنه قالها و هو یستقبل الموت، و هی:

و لست أبالی أن یقال محمدأبلّ أو اکتظت علیه المآتم

و لکن دینا قد أردت صلاحهأحاذر أن تقضی علیه العمائم

فیا رب إن قدرت رجعی قریبةإلی عالم الأرواح و انفض خاتم

فبارک علی الإسلام و ارزقه مرشدارشیدا یضیء النهج و اللیل قاتم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۱

و إنما کانت عنایته منصرفة إلی النثر فی جمیع فنونه و أغراضه، و هذه نماذج منه:

۱- کتب فی رسالة إخوانیة إلی بعض أصدقائه، و فیها سجع متخیر مقبول، قال:

تناولت کتابک و لم یذکر منی ناسیا، و لم ینبه لذکرک لاهیا، فإنی من یوم عرفتک لم یغب عنی مثالک، و لا تزال تتمثل لی خلالک، و لو کشف لک من نفسک ما کشف لنا منها لفتنت بها، و لحق لک أن تتیه علی الناس أجمعین، و لکن ستر اللّه عنک منها خیر ما أودع لک فیها لتزینها بالتواضع، و تجملها بالوداعة، و لتسعی إلی ما لم یبلغه ساع، فتکون قدوة فی علو الهمة، و بذل ما یعز علی النفس من نفع الأمة، زادک اللّه من نعمه، و أوسع لک من فضله و کرمه، و متعنی بصدق ولائک، و جعلک لی عونا علی الحق الذی أدعو إلیه، و لا أحیا إلا به و له. و السلام.

۲- و کتب إلی حافظ إبراهیم حین أهداه کتاب «البؤساء»، و معه رسالة تقدیر و إطراء، فقال:

لو کان لی أن أشکرک لفن بالغت فی تحسینه، أو أحمدک لرأی لک فینا أبدعت فی تزیینه، لکان لقلمی مطمع أن یدنو من الوفاء بما یوجبه حقک، و یجری فی الشکر إلی الغایة کما یطلبه فضلک، لکنک لم تقف بعرفک عندنا، بل عممت من حولنا، و بسطته علی القریب و البعید من أبناء لغتنا.

زففت إلی العربیة عذراء من بنات الحکمة الغربیة، سحرت قومها، و ملکت فیهم یومها، و لا تزال تنبه منهم خامدا، و تهز فیهم جامدا، بل لا تنفک تحیی من قلوبهم ما أماتته القسوة، و تقوم من نفوسهم ما أعذرت فیه الأسوة، کلمة أفاضها اللّه علی رجل منهم فهدی إلی التقاطها رجلا منا، فجردها من ثوبها الغریب، و کساها حلة من نسج الأدیب، و جلاها للناظر،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۲

و جلاها للطالب، بعد ما أصلح من خلقها، و زان من معارفها، حتی ظهرت محببة للقلوب، رشیقة فی مؤانسة البصائر، تهش للفهم، و تبش للطف الذوق، و تسابق الفکر إلی مواطن العلم، فلا یکاد یلحظها الوهم إلا و هی من النفس فی مکان الإلهام، فما أعجز قلمی

عن الشكر لك، و ما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء.

۳- و كتب إلى أحد أصحابه و هو فى السجن كتابا يفيض بالألم، استهله بقول الشاعر:

تقلدتنى الليالى و هى مدبرةكأننى صارم فى كف منهزم

ثم قال بعد قليل:

رأيت نفس اليوم فى مهمه لا يأتى البصر على أطرافه، فى ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء، فتكاثف ركاما ركاما، لا أرى إنسانا، و لا أسمع ناطقا، و لا أتوهم مجيبا، أسمع ذئابا تعوى، و سباعا تزأر، و كلابا تنبح، كلها يطلب فريسة واحدة، هى ذات الكاتب، ذهب ذوو السلطان فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشبه، و مقذوفات من التهم، و سواقط من اللمم، ليموهوها بمياه السفسطة، و يغشّوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها فى معرض السطوة، و يغشوا بها أعين الناظرين.

و قال فى آخره:

آه ما أطيب هذا القلب الذى يملى هذه الأحرف، ما أشد خطبه للولاء، و ما أغيره على حقوق الأولياء، و ما أثبته على الوفاء، هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم، هو الذى سر قلوبهم بالترقية، و ملأها فرحا بالتقدم.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۳

۴- و من رسالة له إلى بعض علماء الشام حين هنأه بمنصب الإفتاء، قال:

أما قومى فأبعدهم عنى أشدهم قربا منى، و ما أبعد الإنصاف منهم، يظنون بى الظنون، بل يتربصون بى ريب المنون، تسرعا منهم فى الأحكام، و ذهابا مع الأوهام، و ولعا بكثرة الكلام، و تلذذا بلوك الملام، أدعو فلا يستجيبون، و أعمل فلا يهتدون، و أريهم مصالحهم فلا يبصرون، و أضع أيديهم عليها فلا يحسون بل يفرون إلى حيث يهلكون، شأنهم الصياح و العويل، و الصخب و التهويل، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل:

لكن قومى و إن كانوا ذوى عددليسوا من الشر فى شىء و إن هانا

و أقول: و لا فى الخير

و إنما مثلى فيهم مثل أخ جهله إخوته، أو أب عقته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه و عمومته، مع حاجة الجميع إليه، و قيام عمدهم عليه، يهدمون منافعهم بإيذائه، و لو شاءوا لاستبقوا باستبقائه، و هو يسعى و يدأب، ليطعم من يلهو و يلعب، على أنى أحمد اللّه على الصبر، و سعة الصدر، إذا ضاق الأمر، و قوة العزم، و ثبات الحلم، إذا اشتد الظلم، و إن كنت فى خوف من حلول الأجل، قبل بلوغ الأمل ... الخ.

۵- و من أمثلة كتابته العلمية قوله فى أحد فصول رسالة التوحيد:

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه و لمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه، فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى صلى اللّه عليه و سلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة، بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته، و لو فى مثل أقصر سورة منه، و قص علينا من صفات اللّه ما أذن اللّه لنا، أو ما أوجب علينا أن

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۴

نعلم، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، و لكنه أقام الدعوى و برهن، و حكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة، و خاطب العقل، و استنهض الفكر، و عرض نظام الأكوان و ما فيها من الإحكام و الإتقان على أنظار العقول، و طالبها بالإمعان فيها لتصل إلى اليقين بصحة ما ادعاه و دعا إليه، حتى أنه فى سياق قصص أحوال السابقين. كان يقرر أن للخلق سنة لا تغير، و قاعدة لا تتبدل فقال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا و صرح سبحانه إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ،

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.

و اعتضد بالدليل فى باب الأدب فقال (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم)، و تآخى العقل و الدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل، و تقرر بين المسلمين كافة- إلا من لاثقة بعقله و لا بدينه- أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود اللّه و بقدرته على إرسال الرسل، و علمه بما يوحى به إليهم، و إرادته لاختصاصهم برسالته، و ما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، و كالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل.

دفاع الشيخ عن الإسلام، و تفنيد مزاعم المبشرين:

شمر الشيخ عن ساعد الجد، و انبرى للمبشرين المسيحيين الذين تناولوا الإسلام بالطعن و التجريح، و سفهوا عقائد المسلمين، و حاولوا النيل من الرسول و صحبه، و شوهوا تعاليمه و مبادئه، و من ورائهم جمعيات مزودة بالمال و المطابع و الصحف، كى يزعزعوا يقين المسلمين فى دينهم، و يصدوا عنه من أراد الدخول فيه من غير أهله- انبرى الشيخ لهؤلاء جميعا

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۵

و من بينهم رينان و هانوتو و إضرابهما، و أخذ يفند مزاعمهم، و يبطل حججهم و يبين أكاذيبهم و خدعهم، حتى صرعهم و فضحهم فى المجال الدولى، و عرف العالم الإسلام على حقيقته، و قال بعض فلاسفتهم: إذا كان الإسلام كما يقول الشيخ محمد عبده فأحرى بنا جميعا أن ندخل فيه، و نستظل برايته.

كتب رحمة اللّه حين سخر هانوتو من تشريع الحج عند المسلمين، و كتب بعض الكاتبين مقالة يرد بها عليه و رأى الأستاذ الإمام أنها تحتاج إلى دعم و توضيح فكتب يقول:

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين فى حكمة الحج، و يقول:

إنه صلة بين المسلمين فى جميع اقطار الأرض، و من أفضل الوسائل للتعاون بينهم، فعليهم أن يستفيدوا منه- و هو كلام حق، لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه، فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم، أو أضل من أعمالهم، و فى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء، و هو معهود عند جميع الأمم التى تدين بدين واحد، خصوصا عند الأوربيين.

و كتب إلى الفيلسوف تولستوى حين حرمته الكنيسة لدعوته إلى التوحيد:

أيها الحكيم، لم نحظ بمعرفة شخصك، و لكنا لم نحرم التعارف مع روحك، لقد سطع علينا نور من أفكارك، و أشرقت فى أفقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء و نفسك، و نظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد، و وصلت بها إلى حقيقة التوحيد، و رفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك إليه اللّه.

و حقا لقد كان الشيخ محمد عبده عالما فذا، و مصلحا قديرا،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۶

و مجاهدا إسلاميا عظيما، و قد عاش مسلما صادقا، و مات و هو فى صفوف المجاهدين المؤمنين- و قد توفى رحمه اللّه فى عام ۱۳۲۳ ه، ۱۹۰۵ م و لا يزال المصلحون يترسمون خطاه إلى اليوم.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۷

الشيخ مصطفى عبد الرازق ۱۸۸۵- ۱۵ فبراير ۱۹۴۷

ولـد رحمه اللّه عام ۱۳۰۴ ه- ۱۸۸۵ م بـأبی جرج من أعمـال مدیریـة المنیـا، و هو الابن الثـانی من أولاد المرحوم حسن عبـد الرازق (باشـا)، و بعـد أن أتم تعلیمه الأولی حفظ القرآن الکریم و جوّده، ثم التحق لطلب العلم بالأزهر الشـریف، و تخرج فی سـنة ۱۹۰۶، و حصل علی شـهادة العالمیة من الدرجة الأولی بین زملائه الشافعیة، و عین للتدریس فی مدرسة القضاء الشـرعی، و فی سنة ۱۹۰۹ سافر إلی فرنسا و التحق بجامعة السـربون لیضم إلی ثقافة الشـرق ثقافة الغرب، و ندبه مسـیو لابییر لتدریس بعض المباحث الإسلامیة بجامعة لیون، ثم عاد من فرنسا فی أوائل الحرب الکبری، و عین سـکرتیرا لمجلس الأزهر، و کان ذلک فی سـنة ۱۹۱۶، و فی سنة ۱۹۲۱ عین مفتشا فی المحاکم الشرعیة، ثم عین سنة ۱۹۲۷ أستاذ للفلسفة بکلیة الآداب بجامعة القاهرة، و ظل فی کرسی الأستاذیة، حتی اختیر فی سنة ۱۹۳۸ وزیرا للأوقاف فی وزارة محمـد محمود (باشا) الثانیة، اختیر عدة مرات فی وزارات مختلفة لتولی هذا المنصب، حتی انتقل المغفور له الشـیخ المراغی شـیخ الأزهر إلی جوار ربه، فاختیر لهذا المنصب و هو وزیر للأوقاف، و صدر الأمر بتعیینه شیخا للأزهر فی ۲۷ دیسمبر سنة ۱۹۴۵، و اختیر أمیرا للحج فی العام الذی توفی فیه، فکان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۸

خیر مبعوث لمصر بین أبناء البلاد الإسلامیة عند البیت الحرام، و توفی فی ۱۵ فبرایر سنة ۱۹۴۷، و یقول عنه محمد فرید وجدی:

«کان الأسـتاذ الأکبر بشخصیته الممتازة، وسعة أفقه الثقافی، خیر من یدرک آثار هذا العهد فی حیاة الأمم، و أصلح من یوکل إلیه أمر التوفیق بینهما لمصـلحة الدین و الدنیا معا، فلا غرو إن ساور الهلع کل نفس تنتظر عهد الاسـتقرار و الهدوء و التقدم، لم أر فیمن قابلت من القادة و الأعلین. أکرم خلقا فی غیر اسـتکانة، و لا أهدأ نفسا فی غیر وهن، و لا أکثر بشاشة فی غیر رخوة، من الشیخ مصطفی عبد الرازق، و کل ذلک إلی حزم لا یعتوره لوث، و احتیاط لا یشوبه تنطع، و أناة لا یفسدها فتور، و إدمان علی العمل ینسـی معها نفسه، و هی صـفات کبار القادة، و علیـة المصـلحین، ممن خلقوا لمعالجة الشـئون المعقدة، و حسم المنازعات الشائکة، و التوفیق بین المطالب المتنافرة، و هذه مواقف کما تقتضی مضاء العزیمة، تحتاج إلی هوادة الأناة، و کما تستدعی سرعة البت، لا بد لها من القدرة علی إزالة الحوائـل، و قـدیما قـالوا: رب عجلـة أورثت ریثـا، و رب إقـدام جر إلی نکوص، فکـان بما حباه بارئه من هـذه المواهب النادرة، کفاء المهمـة التی وفق المسـئولون فی إسـنادها إلیه، و کنت لاـ أشک فی أنه بما جبل علیه من حب الإصـلاح، و ما اتصف به من الصـفات التی سـردناها آنفـا، سـیصل إلی حل مشـکلة الأزهر حلا حاسـما، یعیش تحت نظامه آمنا شـر العوادی، و فی منجاة من عوامل القلق و الاضـطراب، ذلک أنه بما تضـلع من إلمام بنظم الجامعات، و ما حصل من علم بمقوماتها و حاجاتها، لتمضیته فی صمیمها سنین طوالا من حیـاته طالبـا و مـدرسا، یعرف من أسـرار حیاتها و بقائها و بواعث عللها و أعراضـها، ما لا یعلمه إلا الأقلون، و الأزهر لا یخرج عن جامعـة قدیمة فی دور انتقال، تتفاعل لتتناسب و العهد الذی تعیش فیه، فهی فی حاجة إلی أن تحصل علی المقومات التی تؤاتیها بهذا التناسب، و هو لا ینحصر فی زیادة میزانیتها، و لا فی تهذیب برامج دراستها، و لکنه یتعداهما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۱۹

إلی ما هو إیجاد المجال الحیوی لخریجیها، و هو أمر لا یسـتطاع حله إلا بعـد تمهید الطریق إلیه، و رفع العقبات دونه. و الشـیخ الراحل لما اتصف به من بعـد النظر، و تخیر الظروف، کان أجـدر الناس بإصابـة هـذا الغرض البعیـد، و لکن اللّه آثر له الـدار الآخرة، فکان ما أراد، و ترک الأمر لمن یخلفه، و للّه فی ذلک حکمة، و هو یتولی الصالحین.

و مما هو جدیر بالذکر أن جمیع مدرسی الفلسفة فی عهدنا الحاضر بجامعتی القاهرة و الأسکندریة من تلامیذه، لم تنقطع صلتهم به، و قـد أسـندت إلیه وزارة الأوقـاف مرتین، و لمـا توفی الأسـتاذ الشـیخ محمـد مصـطفی المراغی، و عز وجود من یملأـ مکـانه، أسـندت المشیخة إلیه فی ۲۷ من دیسمبر سنة ۱۹۴۵، و من مؤلفاته العدیدة:

۱- ترجمة فرنسیة لرسالة التوحید تألیف الشیخ محمد عبده، وضعها بالاشتراک مع الأستاذ میشیل، و حلاها هو بمقدمة طویلة.

۲- رسائل صغیرة بالفرنسیة عن المرحوم الأثری الکبیر بهجت بک، و عن معنی الإسلام و معنی الدین فی الإسلام.

۳- كتاب التمهيد لتاريخ الفلسفة.

۴- فيلسوف العرب و المعلم الثانى.

۵- الدين و الوحى فى الإسلام.

۶- الإمام الشافعى.

۷- الإمام محمد عبده، و هو مجموعة محاضرات ألقيت فى الجامعة الشعبية سنة ۱۹۱۹، و كلها مؤلفات تعتبر غاية فى الإفادة.

و له كتب لم تنشر، منها: مؤلف كبير فى المنطق، و كتاب فى التصوف، و فصول فى الأدب تقع فى مجلدين كبيرين، و كان رئيسا لمجلس إدارة الجمعية الخيرية، التى كان والده من مؤسسيها، و كان عضوا فى مجمع اللغة العربية، و المجمع العالمى المصرى.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۰

و فى ۲۷ مارس عام ۱۹۴۷ أقيمت حفلة لتأبينه فى جامعة القاهرة، ألقى فيها لطفى السيد، و عبد العزيز فهمى، و الدكتور حسين هيكل، و منصور فهمى، و إبراهيم دسوقى أباظة، و طه حسين، و أمين الخولى، و العقاد و غيرهم كلمات و قصائد فى الإشادة بمناقبه.

و من كلمات الشيخ كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيسا فخريا لجمعيات المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراغى، قال فيها: القرآن مصقلة القلوب كما ورد فى الحديث، و ما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها، و يجلو منها الصدأ، و القرآن هدى و نور، فهل إلا القرآن لما يغشى العالم اليوم من ظلام و ضلال؟ و القرآن من بعد هذا ثقاف للألسن، يقوم عوجها، و يصلح عجمتها، و يغذى من البلاغة مادتها، فمن عملى على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن و ترتيله و مدارسته، فإنما يصلح القلوب، و يقوم الأخلاق، و يخدم العربية، و ما أشرف ذلك مقصدا و أعظمه نفعا! و يتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوى بعد وفاة الرئيس الفخرى السابق رضى اللّه عنه أن نذكر مآثره الباقيات فى خدمة القرآن الكريم: كان رحمه اللّه مسلما صادقا، و كان يحب القرآن حبا جما، و قد عنى فى أكثر دروسه الدينية بالتفسير فى أسلوب يلائم جلال كتاب اللّه، و يوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الإمام «الشيخ محمد عبده»، و وجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالمية لعلوم القرآن، و قد أنشأ معهد القراءات و التجويد، و المرجو أن يتابع الأزهر السير فى هذه السبيل، فيقوى معهد القراءات و يكمله، و ينشىء إلى جانبه دراسات عالية للحديث و علومه، حتى يستوفى الأزهر جميع الوسائل التى تعده لأن يكون كعبة المسلمين فى كل ما يتصل بالقرآن و الحديث ... و فى مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق الشاعر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۱

الأزهرى يرد على اسماعيل باشا

نشبت الحرب بين مصر و الحبشة فى عصر الخديو إسماعيل .. و على غير ما كان يتوقع الخديو توالت الهزائم على مصر و تواردت الأخبار كل يوم من ميادين المعارك تحمل إليه مزيدا من الأسى و اليأس .. و الخلاف و الخلاف الذى يدب بين قواده!!

و ضاق صدر الخديو يوما بما يتلقاه من أنباء سيئة فاستدعى شريف باشا و ركب معه محاولا أن يرفه عن نفسه .. و فجأة التفت الخديو إلى شريف باشا و قال له:

- ما ذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها؟!

قال شريف باشا:

- يا أفندينا إن اللّه عودنى إذا حاق بى شىء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخارى يقرأه لى علماء أطهار الأنفاس فيفرج اللّه عنى!

انزاح الهم عن صدر الخديو و اتسعت الابتسامة على وجهه .. فإذا كان الأمر كما يقول شريف باشا فبمقدوره أن يحول الهزائم إلى انتصارت دون أن يكلف خزانته شيئا!!

عاد الخديو إلى قصره و أرسل فى استدعاء الشيخ العروسى شيخ

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۲

الأزهر وقتئذ و طلب منه أن يجمع له جمعا من العلماء الصالحين ليقوموا بتلاوة البخارى إمام القبلة القديمة فى الجامع الأزهر بنية دفع الهزيمة عن مصر!

نفذ الشيخ العروسى أمر الخديو و جلس جمع العلماء، المختارين بعناية .. أمام القبلة يتلون البخارى أناء الليل و النهار، و لكن دون جدوى .. فالهزائم لم تتوقف ساعة واحدة .. و أخبارها تتوالى دون انقطاع!!

و استبد الغضب بالخديو فصحب شريف باشا إلى العلماء .. و قال لهم.

- أما أن هذا الذى تقرأونه ليس صحيح البخارى، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح فإن اللّه لم يدفع بكم و لا بتلاوتكم شيئا؟!

و جم العلماء و لم يجد أحدهم جوابا .. و وسط الصمت الرهيب الذى ساد المكان ارتفع صوت شيخ من أخر الصف موجها حديثه للخديو:

- منك يا إسماعيل .. فإنا روينا عن النبى صلى اللّه عليه و سلم أنه قال: «لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر أو ليسلطن اللّه عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»!

ركب الفزع وجوه المشايخ لهذه الجرأة من صاحبهم و توقعوا عقابا صارما يشملهم جميعا .. إلا أن الخديو لم ينبس بكلمة و سارع بالانصراف هو و شريف باشا!

التف العلماء حول صاحبهم و أخذوا فى تأنيبه و لومه .. و بينما هم كذلك أقبل شريف باشا يسأل عن الشيخ الذى رد على الخديو .. ثم صحبه معه و زملاؤه يودعونه وداع الذاهب إلى حتفه ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۳

دخل شريف باشا و معه الشيخ على الخديو فى قصره فطلب من الشيخ أن يجلس على كرسى بجواره و قال له: أعد يا أستاذ ما قلته لى فى الأزهر، فأعاد العالم قوله و شرح للخديو حديث الرسول الكريم .. فقال الخديو:

- و ما ذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟

قال الشيخ:

- يا أفنديا أ ليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا؟

أ ليس الفجور برخصة، أ ليس الخمر مباحة ..

و أخذ يعدد للخديو أنواع المنكرات التى تجرى دون أن ينكرها أحد .. ثم قال: فكيف تنتظر النصر من السماء؟!

قال الخديو:

- و ما ذا نصنع و قد عاشرنا الأجانب و هذه مدينتهم؟!

- إذن فما ذنب البخارى و ما حيلة العلماء؟!

قال الشيخ:

سكت الخديو و أطرق طويلا .. ثم قال له:

- صدقت .. صدقت .. عاد الشيخ إلى زملائه بعد أن يئسوا من لقائه فى الدنيا، و قد رتب له الخديو مبلغا كبيرا يتقاضاه كل شهر!!!

و انتهت قصة الشيخ الذى حقق قول رسول اللّه: «لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه» ..

أما التاريخ فلم ينته .. إنه ماض فى طريقه يضع بصمته على مصير الشعوب!!

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۵

مفتی .. قبرص!

عـاش طالبـا فی الأـزهر منـذ سـنوات و عـاد هـذا الشـهر إلی القـاهرة یحمل لقب مفتی قبرص .. خامس مفتی للأتراک رشـح لمنصـبه بالانتخـاب فی الجزیرة الاستراتیجیـة فی البحر الأـبیض المتوسـط .. عـاد یحمـل لقب دکتور فی الشـریعة الإسـلامیة من جامعـة أنقرة .. دکتور مصطفی رفعت مصطفی ۴۳ سـنة، أحد الوجوه التی اشترک لأول مرة فی القاهرة فی المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسـلامیة فی الأزهر.

«بدأ التاریخ الإسـلامی فی قبرص أیام الخلیفة عثمان بن عفان عند ما أرسل معاویة إلی الشام فی حملة استولت علی جزیرة قبرص عام ۲۸ ه.

و کانت الحملة تضم السیدة أم حرم بنت ملحان خالة النبی فی الرضاعة و التی کان النبی یجلها کثیرا و یعتبرها کأمه و کممرضة أولی فی الإسـلام کما جاء فی الحـدیث النبوی الشـریف و عنـد ما تقدم الجیش الإسـلامی الذی فتح الجزیرة من سواحلها الجنوبیة سـقطت بنت ملحان من فوق فرسـها و ماتت علی الفور و دفنت فی المکان الـذی توفیت فیه و أصـبح ضـریحها هـذا منـذ ذلک التاریـخ البعید مکانا مقدسا یحج إلیه المسـلمین و یتبرکون به ثم جلب معاویة إلی الجزیرة ۱۲ ألفا من المسـلمین و أسکنهم فیها و أنشأ مدنا إسلامیة مختلفة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۶

فی الجزیرة و بعد الأمویین جاء العباسیون و الفاطمیون و الأیوبیون إلی أن جاءت دولة المماليک حیث فتحوا الجزیرة و أسروا ملکها و أخذوه معهم إلی مصـر و بعد مدة أعادوه ملکا علی الجزیرة عند ما تأکدوا من إخلاصه لهم و أصبح کل الملوک الذین حکموا بعده تابعین لأوامر المماليک فی مصر حتی عام ۵۷۱ عند ما استولی العثمانیون علی قبرص و بقیت تحت حکمهم و إدارتهم أکثر من ثلاثة قرون».

و جمیع الأـتراک مسـلمون فی الجزیرة علی مـذهب السـنیة و یقیمون جمیع شـعائر الإسـلام بل أن رکعات صـلاتهم کثیرة فهی تضـم الفروض و السنن المؤکدة و السنن غیر المؤکدة فمثلا رکعات صلاة الجمعة ۱۶ رکعة.

و أسماؤهم محمد و أحمد و إبراهیم و مصطفی و عائشة و أم کلثوم و فاطمة.

أکبر التزامات الأسـرة التی تنجب أنثی أن تـدخر من أجلها الکثیر لتقـدم بها عقد زواجها منزلا مسـتقلا و عربة لتنقلاتها مع زوجها .. و الطفل یبـدأ صـلاته فی سن الخامسة و صـیام رمضان فی السابعة .. المرأة غیر محجبة لکنها لا تذهب إلی الجامع بل تصـلی فی بیتها .. صلواتهم و دعاؤهم باللغة العربیة الفصحی و تحیتهم «السلام علیکم».

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۷

مسیرة الألف عام مجلة الاذاعة المصریّة ۲۵/ ۱۱/ ۱۹۷۲

کل مسـیرة تبـدأ بخطوة .. کـذلک بدأت رحلة الألف عام من ۱۴ رمضان سنة ۳۵۹ هجریـة .. عند ما بدأ القائد جوهر الصـقلی- بعد التمکین للفاطمیین فی مصر- من بناء الجامع الأزهر ..

و هـذه الأـلف سـنة، لیست عمر .. المـآذن و الصـحن و القبـاب فحسب، و لکنهـا عمر مصـر أیضا، بکل ما تمثله من ریادة فی مختلف نواحی الحیاة الدینیـة و الاجتماعیـة و السیاسـیة، و کمرکز إشـعاع یفیض بنوره الـذی یصل إلی أرکان الـدنیا، فقد امتزج تاریخ الأزهر امتزاجا عضویا بتاریخ «الشعب المصری» علی توالی الحقب و القرون، بحیث یصعب الفصل بینهما ..

و شمخ الأزهر طوال حياته المديدة و العامرة .. بوصفه أقدم و أعظم جامعة فى دنيا الإسلام، و كان أعتى المتاريس التى تصدت لكل احتلال طمع فى مصر، و معقلا من أهم معاقل القومية العربية، ثم ها هو يستجيب لدواعى التطور و أسبابه فيصبح جامعة عصرية .. تضم جنباته مختلف الكليات العلمية، و تستوعب مدرجاته طلابا من ۶۵ دولة إسلامية ..

و لم يكن دور الأزهر، مقصورا منذ البداية، على إقامة الشعائر فقط، بل كان مدرسة لعلوم الدين و الفقه .. و ارتبط فى أذهان العالم الإسلامى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۸

كجامعة إسلامية .. حملت لواء الفكر الإسلامى و الإنسانى، و مشعلا من المشاعل التى أضاءت للبشرية طريقها على امتداد القرون، و لمع فى صحنه و أروقته .. كثير من الأسماء الخالدة .. التى أعطت و ألهمت و غذت مسيرة الإسلام .. مثل «ابن الفارض» .. و «ابن خلكان» و «البوصيرى»، و «ابن دقمان» المؤرخ المصرى، و «المقريزى» صاحب الخطط و «السيوفى» و له ۵۰۰ مؤلف من بينها تاريخ الخلفاء، و «ابن إياس» المؤرخ المصرى و تألق بجانب هؤلاء .. مفكرون جاءوا إلى مصر ليتلقوا العلم فى الأزهر ... مثل «ابن خلدون» .. و «ابن بطوطة» ..

و «الجبرتى».

و لا شك أن الفكر المصرى و الإسلامى .. يدين بالكثير للأزهر ..

الذى تخرج فيه «ابن الهيثم» العالم الذى يشيد بفضله الأوروبيون خصوصا فى الطبيعة و طب العيون. و «الشعرانى» إمام المتصوفة فى مصر، و مؤرخ! ... «رفاعة الطهطاوى» مؤسس الفكر المصرى الحديث ..

خصوصا فى الترجمة و الصحافة. و «الشيخ محمد عبده» و «عبد الله النديم» و «أحمد عرابى» زعيم الثورة العرابية .. و «سعد زغلول» قائد ثورة ۱۹۱۹. و «الدكتور طه حسين» .. عميد الأدب العربى ... و ..

و ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۲۹

و فى رسالة الدكتوراه عن دور الأزهر فى الحياة المصرية أثناء الحملة الفرنسية التى كتبها د. مصطفى رمضان

أبرز الباحث حركة علماء الأزهر قبل الحملة فى مجالين: المعارضة الدستورية فى الديوان العثمانى، مما يدل على أن علماء الأزهر شاركوا فى قضايا المجتمع، و قيادة علماء الأزهر للحركات الشعبية الثورية ضد الحكام الظالمين من العثمانيين و المماليك، و بذلك نظموا كفاح الشعب المصرى قبل مجىء الحملة الفرنسية ..

و أبرزت الرسالة شخصية الأزهر أثناء الحملة الفرنسية، و بروز الزعامة الشعبية فى مجال الدفاع الداخلى، و استشهاد عدد كبير من زعماء الأزهر:

و قد دبرت خطة لاغتيال كليبر قائد الحملة الفرنسية و كان المنفذ سليمان الحلبى، و هو من أبناء حلب بالشام.

و تتضمن الرسالة عدة نقاط أهمها:

إبراز دور الأزهر بعد الحملة الفرنسية حيث عاشت مصر فى ظل عهد من الفوضى السياسية و الاجتماعية و تعددت مراكز القوى فى البلاد و حمل الأزهر لواء المعارضة و إظهار الكيان المصرى مهما كان الثمن:

حارب الأزهر الابتزاز التركى للشعب.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۰

- عارض علماء الأزهر سياسة الممالك فى استغلال الشعب، و تزعموا حركة لطردهم من القاهرة سنة ۱۸۰۴.

- عند ما جاء «خورشید» إلی الحکم، یدفعه جشع شدید لابتزاز الأموال، نظم الأزهر حرکة ثوریة بقیادة «عمر مکرم»، و حاصرت خورشید بالقلعة ۱۸۰۵، و أجبرته علی التخلی عن الحکم، و عینت «محمد علی» والیا علی مصر، متوسمة فیه الحرص علی مطالب الشعب .. و لکن «محمد علی» خان مبادیء الشعب و زعماءه، و لعب دورا فی تصفیة الزعامة الشعبیة، بعد أن استفاد بها فی المجالات الآتیة:

جمع الضرائب و خداع المماليك و عدم السماح لهم بدخول القاهرة.

مقاومة الحملة الانجليزية بقيادة فريزر عام ۱۸۰۷.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۱

حوار بین العلماء و الوالی

فی عام ۱۸۹ جاء إلی مصر وال ترکی جدید هو «أحمد باشا» المعروف بکور وزیرا و کان الوزیر کما یقول الجبرتی من «أرباب الفضائل و له رغبة فی العلوم الریاضیة ... و قابله صدور العلماء فی ذلک الوقت و هم الشیخ عبد الله الشبراوی شیخ الجامع الأزهر، و الشیخ سالم النفراوی و الشیخ سلیمان المنصوری، فتکلم معهم و ناقشهم و باحثهم ثم تکلم معهم فی الریاضیات فأحجموا و قالوا: لا نعرف هذه العلوم فتعجب و سکت».

و یواصل الجبرتی روایة هذه الحادثة الهامة الطریفة معا «فی الجزء الأول من عجائب الآثار ص ۱۹۴، و قد نقل الدکتور حسین فوزی النجار هذه الفقرة عن الجبرتی فی کتابه عن رفاعة الطهطاوی ص ۹» .. یقول الجبرتی:

إن الشیخ الشبراوی دخل علی الباشا فی یوم جمعة یحادثه کعادته فقال له الباشا: المسموع عندنا بالدیار الرومیة أن مصر منبع الفضائل و العلوم و کنت فی غایة الشوق إلی المجیء إلیها، فلما جئتها وجدتها کما قیل: تسمع بالمعیدی خیر من أن تراه، فقال له الشیخ هی یا مولانا کما سمعتم معدن العلوم و المعارف: فقال و أین هی و أنتم أعظم علمائها و قد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۲

سألتکم عن مطلوبی من العلوم فلم أجد عندکم منها شیئا، و غایة تحصیلکم الفقه و المعقول و الوسائل و نبذتم المقاصد، فقال له: نحن لسنا أعظم علمائها و إنما نحن المتصدرون لخدمتهم و قضاء حوائجهم عند أرباب الدولة و الحکام، و غالب أهل الأزهر لا یشتغلون بشیء من العلوم الریاضیة إلا- بقدر الحاجة الموصلة إلی علم الفراض و المواریث کعلم الحساب و الغبار فقال له: و علم الوقت کذلک من العلوم الشرعیة بل هو من شروط صحة العبادة کالعلم بدخول الوقت و استقبال القبلة و أوقات الصوم و الأهلة و غیر ذلک فقال: نعم معرفة ذلک من فروض الکفایة إذا قام به البعض سقط عن الباقین، و هذه العلوم تحتاج إلی لوازم و شروط و آلات و صناعات و أمور ذوقیة کرقة الطبیعة و حسن الوضع و الخط و الرسم و التشکیل. و الأمور العطاردیة، و أهل الأزهر بخلاف ذلک غالبهم فقراء و أخلاط مجتمعة من القری و الآفاق فیندر فیهم القابلیة لذلک، فقال: و أین البعض، فقال: موجودون فی بیوتهم یسعی إلیهم، ثم أخبره عن الشیخ الوالد «یقصد أباه الشیخ حسن الجبرتی» و عرفه عنه و أطنب فی ذکره، فقال التمس منکم إرساله عندی، فقال یا مولانا إنه عظیم القدر و لیس هو تحت أمری فقال: و کیف الطریق إلی حضوره؟ قال: تکتبون له ارسالیة مع بعض خواصکم فلا یسعه الامتناع ففعل ذلک، و طلع إلیه و لبی دعوته و سر برؤیاه و اغتبط به کثیرا و کان یتردد علیه یومین فی الجمعة و هما السبت و الأربعاء، و أدرک منه مأموله و واصله بالبر و الإکرام الزائد».

ثم یقول الجبرتی بعد ذلک «و کان المرحوم الشیخ الشبراوی کلما تلاقی مع المرحوم الوالد یقول له: سترک اللّه کما سترتنا عند هذا الباشا فإنه لو لا وجودک کنا جمیعا عنده حمیر».

هذه هی القصة الواقعیة التی یرویها الجبرتی عن مصر فی منتصف القرن الثامن عشر، فمصر آنذاک لم یکن فیها سوی عالم واحد

استطاع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۳

باجتهاده الخاص أن يتعلم بعض أصول الرياضيات، أما بقية علماء مصر فلم يكونوا يعرفون أكثر من العلوم التی تدور حول اللغة و الدين مثل الفقه و النحو و ما إلى ذلك.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۵

الأزهر أكسفورد الشرق

تذكرت الأزهر .. و أنا أطوف فی أرجاء «أوكسفورد» .. صور الأساقفة ذكرتنی بشيوخ الأزهر الذين عاصروا الحملة الفرنسية، و سجنتهم الثورة الفرنسية فی القلعة، و انتهز فنان الجيش المناسبة، فخلدهم فی لوحات، قبيل إعدامهم أو جلدهم أو تغريمهم.

المدينة حول الجامعة، يعيش فيها الطلاب و الأساتذة، ذكرتنی بجو الأزهر فی عصور سالفة .. يوم كان قلب القاهرة النابض يعيش فيه العلماء فی منازل مستقلة، طابقها الأسفل مفتوح باستمرار للضيوف من العلماء أو الطلبة (المجاورين) يتجادلون و يتبادلون المعرفة و الأحاجی ..

القاعات و الخزائن و الردهات، و بقايا مساكن الطلبة فی القرون الماضية كلها منقولة عن أروقة الأزهر ..

«فأوكسفورد» التی قامت بعد الأزهر بقرنين .. إنما أنشئت على نظام الأزهر و وفق تقاليده، بل و بكتب مترجمة عن مؤلفات علماء الأزهر، بعد أن عاد الصليبيون من الشرق، و قد تعلموا عادتين: الاستحمام و العلم ...

و حملوا أول ورقة كتابة إلى أوروبا من إنتاج مصانع الورق العربية!.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۶

فلم تكن «أوكسفورد» فی البداية، إلا مكانا يلتقی فيه بعض العارفين، ببعض الراغبين فی المعرفة ثم تطورت إلى جامعة لعلوم اللاهوت، تنقسم إلى أروقة لكل رواق «ماستر» أو «شيخ الرواق»، كما كان الحال فی الأزهر، و يسكن فيها الطلبة الذين كان سنهم لا يزيد على ۱۳ سنة عند الالتحاق .. و قد استمر نظام الأروقة حتى القرن الخامس عشر ..

و لكن الكليات كانت قد ظهرت منذ أواسط القرن ال ۱۳ بينما استمر نظام الأروقة فی الأزهر إلى القرن العشرين.

و كان لكل رواق شيخ .. يضم الرواق أبناء جهة واحدة، فهناك رواق للمغاربة و رواق للشوام، و آخر للصعايدة .. و كان لكل رواق جراية (أی راتب) خاصة، يوقفها عليه الأمراء و الأغنياء، و نفس النظام فی «أوكسفورد» ..

و كانت الجراية فی الأزهر تدفع خبزا، و هی درجات: رغيفان للطالب المنتسب، و الذی يتحقق انتسابه بحصوله على خزانة يضع فيها كتبه، و انتسابه إلى رواق ينام فيه، و جراية «أوتوزبير» (اسم مملوك) و هی أربعة أرغفة لا تعطى إلا لمن يجتاز امتحانا خاصا .. و جراية زينب هانم خمسة و عشرون رغيفا .. و تعطى للعلماء .. و كانت هناك جرايات نقدية بعضها يصل إلى ثلاثمائة جنيه فی السنة، و أبطل الجراية الشيخ المراغی ..

و هذه الوقفيات، مكنت الأساتذة من التفرغ للعلم، و العيش مع الطلبة .. و كانت الدراسة حرة على أحدث النظم الجامعية الحالية، أو بمعنى أصح، كما نقلت النظم الجامعية المعاصرة عن الأزهر ..

فالأستاذ ذو الكرسی .. أو بتعبير العصر القديم: «من له عامود فی الأزهر» هو الذی امتحنته لجنة من العلماء .. و أجازت له حق التدريس، و يتم الامتحان علنا أمام جمهور من الطلبة، و على يد لجنة من شيوخه ..

فإذا جاز الطالب الامتحان سمح له بأن يضع مقعدا بجوار أحد أعمدة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۷

المسجد و بدأ فى تلاوة درسه، و ينضم لحلقته من يشاء من الطلبة الذين يحضرون ما يحلو لهم من دروس بلا تقييد .. و يتقدمون للامتحانات متى وجدوا فى أنفسهم استعدادا .. و كانت تدرس فى الأزهر شتى العلوم من الفقه إلى ضرب العود و الكمان كما كان يفعل الشيخ العطار فى مطلع القرن التاسع عشر ..

أبراج الكنائس التى يعتليها طلبة «أوكسفورد» فى شهر مايو (أيار) من كل عام يتلون من فوقها صلاة لاتينية تمجد الثالوث المقدس .. ذكرتنى بمآذن الأزهر التى كان يعتليها المجاورون (الطلبة) يتلون الابتهالات و المدائح النبوية فى أيام الرضا .. و يكبرون فى غير أوقات الصلاة، إذا ما نشب خلاف بين الأزهر و سلطات المدينة، أو قاد الأزهر ثورة الأهالى ضد استبداد السلطة .. تماما كمعارك طلاب «أوكسفورد» و «كمبريدج» مع سلطات المدينة منذ سبعة قرون .. لقد نشأت أوكسفورد فى القرن الثانى عشر .. بينما وضع حجر الأساس فى بناء الأزهر فى نيسان (ابريل) ۹۷۰ و تم بناؤه فى حزيران (يونيو) ۹۷۲، أى أنه أكمل ألف عام .. شهد فيها الفصل الدرامى من تاريخ حضارتنا .. تألقها .. فجمودها .. ثم انهيارها ..

و لا شك أن كل الذين قارنوا بين تاريخ الأزهر، و «أوكسفورد»، و عرفوا كيف قامت جامعات أوروبا الحديثة على غرار الأزهر و وفق نظمه، بل و بالمعرفة التى نقلتها أوروبا عن الأزهر.

يدركون أن أقدم كتاب فى جامعة «أوكسفورد» مكتوب سنة ۱۳۷۹ ..

و عند ما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر- و هى أكبر فصل فى تاريخ الأزهر كمؤسسة قيادية- كان أحدث الكتب التى تدرس فيه قد كتبت حول هذا التاريخ! ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۸

فالأزهر كان ذروة تألق حضارة بدأت رحلة الانهيار .. أما «أوكسفورد»، فكانت بداية حضارة جديدة فى طريق النمو و الازدهار .. فنمت الجامعات مع المجتمع النامى من حولها.

عند ما بنى الأزهر كانت الحضارة العربية قد امتلكت كل أسس المعرفة اللازمة لانطلاق الثورة الصناعية، لو لا أن هب على العالم الإسلامى اعصاران .. الحروب الصليبية، ثم الخراب المغولى .. فتحول المجتمع المدنى المتحضر، إلى مجتمع عسكرى خشن .. و تراجع العلماء ليحكم العسكر .. و حشدت موارد البلاد و استنزفت فى القتال .. و أحرقت المدن و المزارع و كل آثار الحضارة على يد الفاتح المتقدم، أو المنهزم المنسحب ..

و انتقلت شعلة الحضارة من الشرق المغزو، إلى الغرب الغازى و هناك افرخت و نمت، و تطورت إلى الحضارة الحديثة ..

و كان الثمن فادحا:

تخلفت مسيرة الحضارة العالمية، حوالى خمسة قرون، قضتها أوروبا فى النقل الحذر المستريب للعلوم الإسلامية مع حصر المعرفة بها فى دوائر خاصة .. ثم التوسع فى الترجمة و الدرس و الفهم و التمثل و أخيرا التطور .. و لو استمرت شعلة الحضارة فى النمو على شواطئنا، لما كانت هناك هذه الفجوة ..

كذلك اقترن النمو الحضارى الجديد بالاستعمار، و لو مضت حضارتنا فى نموها لما كانت البشرية قد عرفت الاستعمار، و لا كان التخلف قد فرض على ثلاثة أرباع شعوب العالم، من أجل تقدم و رفاهية الربع ..

فحضارتنا لم تعرف الاستعمار، بل قامت مراكز المدنية و الرفاهية فى كل البلدان، و على قدم المساواة، و وفق إمكانات كل بلد، و لعل أقلها حظا كانت الجزيرة، بلاد الفاتحين ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۳۹

ألف عام .. بدايتها الأزهر .. الجامع الجامعة، و الأصل فى المسجد أنه جامعة .. و من المسجد و فى المسجد ظهر و نبغ كل العلماء، و درست كل العلوم ..

و إن كان الجيل المعاصر، يحفظ أسماء طلاب أوكسفورد و كمبريدج عن ظهر- قلب من اسحق نيوتن إلى سبنسر، و جون ميلتون .. فليسمحوا لنا فی الذكری الألفية للأزهر أن نقدم لهم أحد العلماء الذين درسوا فيه سنة (۱۰۳۸) .. تعرفنا به كاتبة ألمانية هی الدكتورة «سيجريد هونكة» فتقول:

«إن الحسن بن الهيثم توصل إلى نظرية فی علم الضوء خاصة بالأشعة و انكسارها كانت نقطة تحول فی أبحاث الطبيعة و بخاصة علم الضوء .. و هو الذی أثر فی أوروبا تأثيرا بعيدا و عرفته باسم «الهزن» و كان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها فی هذا المضمار من البحوث. فقد وضع نظرية حول حركة الأفلاك .. و قد ظلت هذه النظرية تدرس بغير تعديل فی أوروبا أربعة قرون، فوجدت مائدة فی ألمانيا محفورة سنة ۱۴۲۸ عليها نظرية «الحسن» فی حركة الأفلاك».

«و قد نقد الحسن سنة ۱۰۳۸ نظرية اقليدس و بطلميوس فی علم الضوء، فقال: إن الأجسام المرئية هی التی يصدر منها شعاع الضوء فتراه العين و ليس العكس». «و كانت هذه النظرية قفزة فی علم الضوء. و هو مؤسس العلم التجريبی و ليس روجيه بيكون أو باكوفون فرولام أو ليوناردو دهفينشی أو جاليليو .. و أصبح اسم الحسن بن الهيثم هو النجم الذی أضاء الطريق و مهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوروبا إليها» ... و هو الذی فسر خسوف الشمس و القمر، و اكتشف أن القمر جسم مظلم بعكس النجوم، و هو أول من اخترع صندوقا للضوء يشبه آلة التصوير، و هو أول إنسان رأی صورة العالم مقلوبا من خلال مرور الصورة فی جهازه العجيب .. و هو الذی فسر انكسار الضوء فی الهواء و الماء و استطاع تحديد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۰

ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية. «و الجدير بالذكر أنه توصل إلى تحديدها بدقة، و عرف أنها خمسة عشر كيلومترا» ..

«و فسر قوس قزح الذی عجز أرسطو عن تفسيره، و اخترع أول نظارة للقراءة .. و حتی يومنا هذا تعرف فی جامعات أوروبا المسألة المعقدة المتصلة بالإلمام بالطبيعة و الرياضة معا و التی حلها الحسن بن الهيثم بمعادلة من الدرجة الرابعة أظهرت نبوغه الرياضی فی الجبر .. إذ حسب البعد البؤری لمرآة مقعرة .. تعرف هذه المسألة باسم «مسألة الهزن» (الحسن)».

و كتابه المتضمن لهذه النظريات لا وجود له بالعربية، بل بقت ترجمته اللاتينية .. ضاع الأصل العربی مع ضياع الحضارة، و نفی العالم العربی و كتابه: «كتاب المناظر» إلى أوروبا حيث ساهم فی بناء العلم الحديث.

و إذا كانت جامعة «أوكسفورد» قد بدأت مكتبتها بكتابين لا زالا مربوطين بالسلال إلى الآن كما كان وضعهما فی القرن الثالث عشر .. فإن مكتبة الأزهر فی القرن العاشر كان بها مليون و ستمائة ألف كتاب .. و لكن الانهيار الحضاری جعل الخليفة يسدد مرتبات الجند و الموظفين بالكتب ..

و كان «الفرنجة» يشترون هذه الكتب بالرطل، و ينقلونها إلى كنائس و أديرة .. فجامعات أوروبا.

فالأزهر لم يبدأ بالفقه و النحو و العروض وحدهم كما يتصور البعض، بل كانت تدرس فيه كل علوم العصر، من علوم الدين و الفلسفة و المنطق إلى الرياضيات و الطب و الهندسة و الفلك .. و استمر الحال علی ذلك رغم التدهور الحضاری .. ذلك أن الإسلام، بطبيعته، يحتم دراسة حد أدنی من العلوم التطبيقية، فنظام الميراث يحتم دراسة الحساب بل و يقود إلى الجبر و كذلك الزكاة، و ضبط الكيل و الميزان يفتح الباب لدراسة الأثقال و الحجوم و الروافع و خواص المواد التی تصنع منها. و مراقبة الهلال لمعرفة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۱

أوائل الشهور و دراسة حركة الشمس و الظل لتحديد مواقيت الصلاة، و تحديد العدة، و القبلة .. كلها تحتم دراسة الفلك و تقسيم الزمن، و تفتح الباب لدراسات عن الجغرافيا و الهندسة و الطب، و قادت إلى اكتشاف البوصلة.

و قد تمركزت الزعامة الشعبية فی العلماء، و كان الأزهر هو مركز القيادة الشعبية، و حلقة الوصل بين السلطة و العامة، و قائد مقاومة الجماهير ضد استبداد السلطة و انحرافها .. و قد سلمت السلطة بهذه المكانة لشيوخ الأزهر، و التفت الجماهير حول الشيوخ .. الذين

قادوها فى أكثر من معركة سجل منها تاريخ القرن الثامن عشر معارك تتعلق باستقلال الجامعة الأزهرية، فعند ما حاول السلطان و الأمراء تعيين شيخ للأزهر من المذهب الحنفى، و هو المذهب الرسمى للدولة، رفض الشيوخ، لأن ذلك اعتداء على استقلال الأزهر، و العرف المقرر فيه أن يكون شيخ الأزهر شافعيا ..

و فشلت كل جهود الدولة فى حماية مرشحها و مذهبها الرسمى، و انتصرت إرادة المشايخ .. و إذا كان عمدة «أوكسفورد» قد أحرق كل وثائق الملكية الخاصة بعلماء و طلبة جامعة «أوكسفورد» عام ۱۳۸۱ .. فإن علماء الأزهر فى ذلك التاريخ كانوا يملكون بيع سلطان مصر فى المزاد العلنى (حادثة العز بن عبد السلام) .. و بعد ذلك بأربعة قرون (۱۷۳۵) حاول السلطان العثمانى أن يعيد تنظيم الأوضاع المالية، بما يشكل اعتداء على الحقوق المكتسبة لبعض الفئات، و ليس المشايخ منهم. فاعترض المشايخ و ألغوا قرار السلطان معلنين أنه «ليس من حق السلطان تجاوز التشريعات لقائمة». و كان ذلك قبل سقوط الباستيل بنصف قرن و قبل أن يفكر عقل فى لقارة الأوروبية بتحدى سلطة الملوك الإلهية.

و أخيرا قاد المشايخ ثورة فلاحين لانتزاع أول دستور مكتوب ..

۱۷۹۴ .. فى الوقت نفسه الذى كان العامة فى فرنسا يبحثون هل دم لأمراء أزرق؟).

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۲

فعند ما جاء نابليون بأول احتلال غربى للوطن العربى .. كان الأزهر هو القلعة التى اصطدم بها، بعد انهيار المؤسسة العسكرية (المماليك)، و قاد الأزهر المقاومة العربية ضد الاحتلال الفرنسى، فكانت ثورة القاهرة الأولى، التى قادتها لجنة من مشايخ الأزهر بقيادة الشيخ السادات استطاعت أن تشكل تنظيما دقيقا يمتد من صحن الأزهر إلى أصغر قرية فى الريف المصرى، و هو تنظيم عجز العالم العربى عن تكرار مثله لأكثر من قرن بعد تنحى الأزهر .. و عرف نابليون، ممثل الثورة الفرنسية، خصمه الحقيقى، فصب هجومه على الأزهر، و ضرب المسجد .. الجامعة .. القيادة ..

التراث .. التاريخ .. و أهم من ذلك أنه كان إمكانية المستقبل .. ضرب ذلك كله بالمدافع، و احتله الجنود و دخلته الخيل لأول مرة فى تاريخه ..

معلنة هزيمة الحضارة التى يمثلها ..

و أصدر نابليون أمره بأن «يباد كل من فى الجامع»، و دخلت الجند المسجد: «و هم راكبون الخيول، و بينهم المشاة كالوعول، و تفرقوا بصحنه و مقصورته و ربطوا خيولهم بقبلته، و عاثوا بالأروقة و الحارات، و كسروا القناديل و السهارات، و هشموا خزائن الطلبة و المجاورين، و الكتبة. و نهبوا ما وجدوه من المتاع، و الأوانى و القصاع، و الودائع و المخبآت بالدواليب و الخزانات، و رشقوا الكتب و المصاحف و على الأرض طرحوها، و بأرجلهم و نعالهم داسوها، و أحدثوا فيه و تغوطوا، و بالوا و تمخطوا، و شربوا الشراب، و كسروا آوانيه، و ألقوها بصحنه و نواحيه، و كل من صادفوه به عروه و من ثيابه أخرجوه».

و أعدم نابليون ثمانين شيخا من قيادة الثورة ..

صحيح أن عدوان نابليون على الأزهر، قضى على كل آماله فى الشرق، و لكنه أيضا كشف للأمة العربية أنها عزلاء، لا تستطيع حماية قيادتها، و مقدساتها ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۳

و أصبحت القضية مطروحة على النحو التالى: من وجهة نظر الاستعمار الغربى .. لا بد أن تتحطم قيادة الأزهر لكى تخضع الأمة العربية للاستعمار.

و من وجهة نظر الأمة العربية، لا بد من حركة بعث قادرة على مواجهة الغرب الاستعمارى.

و أدرك الاستعمار أن تحطيم الأزهر بالمدافع لا- يجدى .. فبعد ضربه و احتلاله فى الثورة الأولى، عاد و نظم ثورة القاهرة الثانية

(۱۸۰۰)، و هی الثورة الکبری المعروفة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۵

الأزهر و أثره فی الحیاة الإنسانیة

إن الأزهر الشریف یرجع فی قیامه إلی ألف سنة مضت. و قام لیؤدی رسالة و یحتفظ بتراث. أما الرسالة فهی تنویر المسلمین بمبادیء الإسلام. و أما التراث الذی یحتفظ به فهو تراث المسلمین العقلی و الروحی و الأدبی علی السواء.

و ظل یقوم بهذه الرسالة و یحتفظ بهذا التراث طوال هذه المدة الطویلة التی مضت علی قیامه. و قد مرت به أحداث، و عاصر ظروفا و خرج من هذه و تلک دون أن یفقد هذه الرسالة، و دون أن یبدد هذا التراث.

فهو مدرسة و سجل للتاریخ معا. تری فی بحوثه و دراساته آثار المسلمین الذهنیة، و تسمع من خلال هذه الآثار مبادیء الإسلام کما ذکرنا.

و لأنه قام لمهمة مرتبطة بالبحوث الإسلامیة کان لا یحتک به من الأحداث إلا تلک التی تتصل بکیان الأمة الإسلامیة و الشعوب العربیة، و فی مقدمة هذه الشعوب شعب الاقلیم المصری.

و التحول الذی طرأ علی التوجیه فیه من أنه کان مدرسة لتعالیم

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۶

الفاطمیین ثم تغیر الوضع فیه إلی أن یکون التوجیه الذی یباشره یتصل بتوجیه أهل السنة- هذا التحول لا یغیر من مهمته الأصلیة و هی العنایة بنشر مبادیء الإسلام و الاحتفاظ بتراث المسلمین العقلی و الروحی. و لذا فمحاولة وضع هوة فی تاریخه بین عهدین له، و إبراز مراحل تطوره علی أنه کان لاتجاه معین انقلب إلی ضده فیما بعد- لا تقلل من شأن رسالته فی واقع الأمر من حیث أنها رسالة الأمة الإسلامیة و الشعب العربی.

و الأزهر بما له من هذا الماضی الطویل و بما وضع لنفسه من رسالة احتل فی العالم الإسلامی منزلة کبیرة و خالدة فی الوقت نفسه. و أصبح مرکز تنویر المسلمین بمبادیء دینهم و أصبح أمر الاحتفاظ بالتراث الثقافی و الروحی و الأدبی للمسلمین مرتبطا ارتباطا قویا بمهمة الأزهر و بما یباشره من وظیفة و رسالة.

و إذا کان قد مرت علی الأزهر أحداث تأثر بها و هی الأحداث التی تتصل بالوطن الإسلامی أو العربی، و إذا کانت هذه الأحداث قد غیرت من اتجاهه و تحول بسببها من جانب إلی جانب، فإن الشیء الذی یمکن الوقوف عنده فی تاریخه هو سیر الحرکة العلمیة و تغیر طریقة البحث و الدرس فیه. فحرکة التألیف العربی التی وجدت فی آخر القرن الأول الهجری و ازدهرت فی القرنین التالیین له مالت رویدا رویدا إلی الضعف من جانب و الرکود من جانب آخر، و کان للأحداث الخارجیة و هی أحداث المغول و التتار فی الشرق و أحداث الصلیبیین من الغرب أثر آخر بجانب ما لضعف حرکة التألیف و رکود النشاط فیه. و هذا الأثر سواء أ کان عن طریق الأحداث الخارجیة أم طریق العوامل الداخلیة و المحلیة هو تقویة روح التبعیة للخصومات المذهبیة و للمؤلفین فیما کتبوا فی العهود المتأخرة فی تاریخ التألیف العربی.

و الأزهر عند ما قام یؤدی رسالة تنویر المسلمین اعتمد فی ارسال

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۷

إشعاعه و فی بحوثه و نشر تعالیمه علی قسط کبیر من کتب أولئک المؤلفین الذین تأخر بهم الزمن فی تاریخ التألیف و تأثروا بموجة الضعف و الرکود الداخلیة و الخارجیة. و لأن مهمة الأزهر تتصل بالدین، أخذ خصیصة التقالید و هی عدم قبوله لمبدأ التطور لا فی الدین نفسه و لکن فیما صنعه الإنسان المسلم المفکر حول الدین و فیما سطره من آراء یخرج بها بعض أفکاره. و هنا کان تقبل الأزهر

للخروج عن نطاق هذه الكتب التى تمثل ظاهرة الضعف و الركود الفكرى فى تاريخ التأليف العربى أمرا ليس هينا، و إن تقبل مبدأ التغير و الانتقال من عهد إلى عهد فى التعرف على مبادىء الإسلام و آراء المسلمين فإنه يتقبلها فى احتياط و فى بطء.

و من ثم كانت مسايرة الأزهر- لا أقول لمبدأ التطور، و إنما أقول لفكرة الانتقال من عهد إلى عهد فى تاريخ التأليف العربى، أى الانتقال من عهد الضعف و الركود مثلا إلى عهد القوة و الأصالة فى العصور السابقة على هذا العهد- مسايرة تجمد تارة و تبطىء فى سيرها تارة أخرى.

و من هنا كان لتوجيهه أثر على الشعوب الإسلامية ينعكس فى هذا الأثر ما يتلزمه هو فى دائرة التوجيه من الركون إلى آراء معينة أو الوقوف فى استمداد التعاليم الإسلامية من بعض مصادر التأليف فى الحقبة الأخيرة.

و بمقدار ما يتحرك الأزهر فى دائرة التأليف العربى الإسلامى بمقدار ما يكون لتوجيهه من أثر إيجابى أو سلبى.

و الحركات الإصلاحية التى قامت فيه و التى باشرها بعض شيوخ الأزهر من أمثال الشيخ محمد عبده لم تقصد إلى الخروج عن دائرة التراث الثقافى و الروحى للمسلمين كلية. و إنما قصدت إلى شىء واحد هو محاولة الانتقال- كى يفهم الإسلام فهما صحيحا- من عهد الركود إلى عهد الإمامة و الأصالة فى تاريخ التأليف العربى الإسلامى. إذ أن تأليف المتقدمين من علماء المسلمين كان أقرب إلى أصول الإسلام و إلى التعبير عما يهدف إليه القرآن مما كان للمؤلفين المتأخرين.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۸

و هذا معناه أن يكون للعالم الأزهرى فرصة فى اختيار الرأى من بين آراء المسلمين. كما تكون له فرصة عرض بعض آراء المسلمين اعتمادا على القرآن الكريم و السنة الصحيحة. و أى الآراء من بينها أقرب إلى روح القرآن و السنة الصحيحة هو أقواها وضوحا فى التعبير عن رأى الإسلام و أكثرها قبولا للمسلم فى حياته اليومية.

و النتيجة الحتمية لهذه الحركة الإصلاحية هى وضع العلماء فى مواجهة القرآن وضعا مباشرا دون وسيط يلتزم رأيه و ينفذ حكمه على أداء القرآن لأحكام اللّه و للطريق العملى الذى يسلكه المسلم. و هنا يكون مبدأ التوجيهات حقيقة واقعية يمارسها القادرون فى فهم القرآن أو تحت ضوء القرآن و ضوء السنة الصحيحة.

و بمقدار ما تعبر التعاليم التى يرسلها الأزهر إلى خارجه فى نطاق الشعوب العربية و الإسلامية بمقدار ما تتحقق روح الإسلام فى حياة المسلمين. و روح الإسلام هى روح الإنسانية الصافية فى معاملة المسلم للمسلم و معاملة المسلم لغير المسلم من أهل الكتاب و معاملة المسلم لمن ليس بذى دين أو لمنكر الدين و الإيمان.

و معاملة المسلم للمسلم- كما تملى روح الإسلام- هى معاملة الأخ للأخ و الصديق للصديق و معاملة الإنسان للإنسان فى دائرة دفع الأذى و الضرر و تحقيق السلم و الرخاء العام. و معاملة المسلم لغير المسلم ممن ليس بذى دين أو لمنكر الدين هى معاملة الإنسان لمن يتحدى خصائص الإنسانية و يتحدى علاقة السلم و تبادل النفع و الرخاء بين الناس جميعا. إذ الذى ينكر الدين و الإيمان باللّه ينكر على البشر أن يسلكوا طريق الحق، و سبيل الاستقامة و سبيل الإنسانية مذعنين لتوجيه القادر العليم مدبر الكون كله.

ينكر على البشر أن يطيعوا اللّه خشية منه، و يحرضهم فى الوقت نفسه على أن يتمردوا على القيم البشرية بدعوى ممارسة الحرية الفردية، أو بدعوى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۴۹

سمو الإنسان عن خالقه، أو بدعوى الاستجابة لوحى الطبيعة و ما تمليه من توجيه و ما ترسمه من قدر و مصير.

و الإنسان مهما سما فى تفكيره و إدراكه لا يصل إلى تحديد المنهج المستقيم تحديدا واضحا لا خلط فيه، أو تحديدا مستمرا صالحا لجماعة معينة فضلا عن أن يكون صالحا لجماعات و شعوب كثيرة. و الطبيعة أن ترك الإنسان نفسه يطيع ما ترسمه من توجيه فإنها ستجعله يطيع دوما ما تمليه مظاهر الحس المختلفة و عندئذ يكون شأن الإنسان شأن الحيوان فى تبعيته لما يحس و عدم ارتفاعه عن

هذا الذى يحس للسيطرة عليه و توجيهه.

و من هنا كان أثر الأزهر الدينى فى توجيه المسلمين أثرا إيجابيا فى علاقة المسلم بالمسلم، و فى علاقة المسلم بأهل الكتاب، و فى موقف المسلم من الالحاد و التحدى بإنكار الإيمان، ما يعبر فى تعاليمه التى، ينشرها عن الإسلام فى صفاء آرائه و وضوح هدفه.

أما الأثر الأدبى للأزهر و رسالته فهو خدمة الإنسانية و خدمة المستوى الفاضل لها. فالإسلام إذا سار المسلمون على مبادئه يكون من الدعائم القوية فى تركيز خصائص الإنسانية فى نفوس البشرية. فهو رسالة كرسالة اللّه فيما أوحاه إلى موسى و إلى عيسى عليهما السلام تساوق الطبيعة الإنسانية فى أخص صفاتها و مقوماتها. و أخص هذه الصفات و المقومات التى تدعو إليها الرسالة الإلهية هى: المحبة، الأخوة، السلام. و لا شك أن هذه الغايات لا تتحق إلا إذا ارتفع الإنسان عن مستوى الخصومة و مستوى الحقد و الضغينة بسبب التهالك على المادة أو بسبب الانطواء تحت مظاهر الحس التى يدعو إليها الالحاد، و يدعو إليها التحدى للإيمان.

و الدين الإلهى لذلك ضرورة لضمان تحقيق هذه الأهداف الثلاثة فى حياة الإنسان. و إذا ما تحققت هذه الأهداف فى حياة الإنسان أصبحت البشرية فى أوضح مظاهرها حقيقة عملية، و بالتالى أصبح الناس سعداء لأن

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۰

الشر أو الشقاء لا يكمن إلا فى الخصومة و فى القلق و الاضطراب و الحيرة.

و ليس من أسباب الخصومة و القلق و الاضطراب و الحيرة سوى تنافس الناس على ما فى أيدى بعضهم بعضا، و هنا كان الطمع و الجشع أمرا مكروها لذلك فى كل رسالة إلهية. و كان البر و الإحسان أمرا مطلوبا فى كل رسالة إلهية.

إن رسالة الأزهر فى تمكين السلام العالمى و استقرار النفوس البشرية و توكيد الترابط الأخوى و الإنسانى و دفع شرور الالحاد و تحدى الإيمان باللّه، و هو لذلك ضرورة فى حياة مجموعة الشعوب العربية و الإسلامية كضرورة الدين نفسه فى حياة الإنسانية.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۱

قرارات لمؤتمر البحوث الإسلاميّة

فى الدورة الثانية لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الذى عقد بالأزهر و استمر شهرا كاملا .. كانت هذه الدورة مقصورة على أعضاء المجمع فى المؤتمر الذين عهد إليهم بدراسة صورة المجتمع الإسلامى. و انتهت الدراسات إلى حصر المشكلات التى تواجه المجتمع الإسلامى المعاصر تحت أربعة عناصر رئيسية هى: مقاومة العدو المشترك للإسلام و المسلمين.

و تجريد الإسلام مما علق به من الفضول و الشوائب.

و تنظيم العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية بين المسلمين على أساس إسلامى سليم العمل على توحيد كلمة المسلمين و محو أسباب التقاطع بينهم و إزالة أسباب الخلافات المذهبية.

و قد اتخذ المؤتمر أربعة قرارات هامة تدور حول هذه العناصر، و هى:

أولا- يقرر المؤتمر أن الاستعمار- سواء فى البلاد التى لم تزل ترزح تحت نيره أو فى البلاد التى جلا عنها مخلفا آثاره- هو الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفرادا و جماعات و دولا أن يجاهدوه بالمقاومة الجادة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۲

المستمرة حتى يتم تحرير المسلم قلبا و ضميرا و وطنا و معرفة، و أن كل تقصير فى ذلك هو عصيان للّه- تعالى- و إثم كبير لأنه يقوى يد العدو على إنزال الأذى بالمسلمين.

و إن الصهيونية التى يحاول الاستعمار بعد أن تحطمت أسبابه الظاهرة أن يغلف بها أهدافه تحت ستار جديد، هى داء استعمارى خبيث يستهدف به الاستعمار أن يتمكن بآثاره فى حياة المسلمين لاستمرار سيطرته عليهم، و من ثم كانت مجاهدتها فرضا كذلك على كل

مسلم حيثما كان .. و كل تخلف عن ذلك عصيان للّه ..

ثانيا: يقرر المؤتمر أن الكتاب الكريم و السنة النبوية هما المصدران الأساسيان للأحكام الشرعية، و أن الاجتهاد لاستنباط الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة، كما أن السبيل لمراعاة المصالح و مواجهة الحوادث المتجددة هى أن يتخير من أحكام المذاهب الفقهية ما يفى بذلك، فإن لم يكن فى أحكامها ما يفى به فالاجتهاد الجماعى المذهبى، فإن لم يف كان الاجتهاد الجماعى المطلق.

ثالثا: أن موضوع الزكاة و الموارد المالية فى الإسلام و طرق الاستثمار و علاقتها بالأفراد و المجتمعات و حقوق الملكية الخاصة و العامة، هى موضوعات الساعة لأنها ملتقى شعبتين من شعب الشريعة الإسلامية و هما العبادة و السلوك الاجتماعى.

و من أجل ذلك يقرر المؤتمر أن تكون هذه الموضوعات محور نشاط المجمع فى دورته المقبلة.

و يقرر المؤتمر، بعد الدراسة المستفيضة لموضوع الملكية، أن حق التملك و الملكية الخاصة من الحقوق التى قررها الإسلام و كفل حمايتها ..

و أن من حق أولياء الأمر فى كل شلدان يحدوا من حرية التملك بالقدر الذى يكفل درء المفاسد و تحقيق المصالح و أن أموال المظالم و سائر الأموال

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۳

المشبوهة يجب أن ترد إلى ذويها أو إلى الدولة .. بل أن المال الطيب، إذا احتاجت المصلحة العامة إلى شىء منه، أخذ من صاحبه نظير قيمته يوم أخذه و أن تقدير المصلحة من حق أولياء الأمور ..

رابعا: يقرر المؤتمر أن واقع المجتمع الإسلامى المعاصر يفرض على مجمع البحوث الإسلامية أن يلتمس الوسائل لتوثيق الصلة بين المسلمين فى شتى بلادهم ليجمعهم كلمة و يوحدهم رئيسا و ينظمهم للتعاون أفرادا و جماعات على ما فيه خيرهم و خير الإنسانية من غير إقليمية و لا مذهبية و لا تنازع.

كما يقرر أن استكمال المجمع لأجهزته اللازمة لنشر المبادىء الإسلامية و تجليتها أمر ضرورى تجب المبادرة إليه لينهض المجتمع الإسلامى بمسئولياته التى يفرضها عليه واقعه.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۵

قصّة الأزهر الجامعى بعد عشرين عاما

الأزهر القديم حافل بالذكريات المجيدة الخالدة المشهورة، التى فصل الحديث فيها المؤرخون و الباحثون.

أما «أزهرنا» اليوم فلا حول و لا قوة إلا باللّه، فليس فيه من الأزهر القديم شبه، و ليس بينه و بينه صلة، و هو حائر الرأى، متبعثر الخطى، كأنما يريد أن ينقض إشفاقا على حملة تراثه، من جسامة المئولية، و فداحة التبعة، و هول الحساب .. و أما «أزهرنا» فى الغد، فأتخيله منارة مشرقة، و جامعة تعود إلى فهم رسالتها، و إلى أدائها، و إلى الجهاد مرة أخرى من أجل الإسلام و المسلمين و تقدم النهضة الفكرية، و من أجل ازدهار حركة الأحياء و التجديد و الإصلاح الدينى .. و سيكون الفضل فى ذلك راجعا إلى يقظة الرأى العام فى الأزهر بعد سبات، و إلى انتباه الشباب فيه بعد غفلة، و إلى حرص الأمة و المسئولين على إصلاح الأزهر و تجديد معالم النهضة الدينية و العلمية فى أروقته و محاربيه.

سيكون الأزهر بعد عشرين عاما جامعة هيكلا و روحا و رسالة، بعد أن كان فى القديم جامعة بهيكله، و بعد أن كان فى عصرنا الراهن جامعة اسما

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۶

فحسب .. و ستؤدى هذه الجامعة الأمانة العلمية و الدينية الملقاة على كاهلها على خير الوجوه و أجلها، و ستعود حلقات الدرس فى الأزهر إلى نشاطها العلمى من جديد، منقحة و محققة و مجددة مبتدعة، و سيحفل الأزهر آنذاك بعديد الأعلام من بنيه، الذين سيكونون خير سند لنهضته الفكرية و الروحية.

و ستمتلىء نفوس الأزهريين بعد عشرين عاما بالعزة و الكرامة، فلا تجد فيهم ضعيف الرأى، أو منافق اللسان، أو هداما يستر عيوبه بالحقد على الناس، أو أنانيا يسعى لنفسه و لو كان فى ذلك الهلاك للجماعة ..

و ستقوى صلة الأزهر بالأمة، فتنزله منها منزلة الرائد الأمين، و يحلها من نفسه مكانة عزيزة بالتوجيه و الإيثار و النصح، و الدعوة إلى المثل العليا الكريمة التى يدعو إليها الإسلام الكريم.

أما مناهج الأزهر و كتبه و كنوزه القديمة فسينالها ثورة العصر الجديد، فتعود كنوزنا العلمية إلى التأثير فى العقل العربى الحديث تأثيرا قويا نافعا، و تصبح مناهج الأزهر و كتبه و نظمه محققة لرسالته الجامعية الصحيحة ..

و سيكون منصب «شيخ الأزهر» بالانتخاب من حملة الدكتوراه أو ما يعادلها من الأزهر، و سيعود لمنصب المشيخة سالف مجده و عظمته و هيمنته الروحية الكبيرة على العالم الإسلامى كافة، و ستنال جماعة كبار العلماء و لجنة الإفتاء و مجلة الأزهر و مكتبته و أروقته و معاهده و كلياته و بعوثه الإسلامية نصيبها من الإحياء و البعث و التجديد، و ستسهم البعوث الإسلامية الأزهرية فى ميادين النشاط الدينى و العلمى بنصيب كبير، و ستحمل مدرجات الأزهر أسماء الخالدين من أبنائه .. و يطلق على الكراسى العلمية المنشأة فى كلياته كذلك أسماء الأعلام من علمائه .. و سترى مدينة الأزهر الجامعية، و اتحاد الأزهر الجامعى، و حفلات الذكرى الألفية لإنشاء الأزهر، و اللغات الحية التى تدرس فى جميع أقسامه و فروعه، و قلوبنا يملؤها البشر و الفخر و الإعجاب.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۷

و سوف تقيم كليات الأزهر مواسم علمية و أدبية ضخمة، و سيعلن آنذاك عن رحلات لطلبة كليات الأزهر فى البلاد العربية و الإسلامية خلال إجازة نصف السنة و فى الإجازة الصيفية.

و سيكون فى كلية اللغة العربية عدة كراسى علمية، للنقد الأدبى و مذاهب الأدب و أصول النحو و البلاغة و اللغات السامية و اللهجات القديمة و الحديثة و سيتبعها معهد للصحافة، و تنطق باسمها مجلة علمية ضخمة، و سيعلن عن مناقشة رسالة للدكتوراه فيها آنذاك، عنوانها: «مذهب أدبى جديد» يبشر صاحبها فيها بالمثالية الأدبية. و فى كلية أصول الدين ستنشأ كراسى أخرى للفلسفة و التصوف الإسلامى و علم الأخلاق الدينى و علم الاجتماع و مناهج الوعظ، و سواها. و سيعلن آنذاك عن مناقشة رسالة للدكتوراه. فيها موضوعها «فلسفة الشك بين ابن عربى و ديكارت»، و عن مناقشة رسالة ثانية موضوعها «علم الاجتماع بين أرسطو و الفارابى و ابن خلدون و غوستاف لوبون» و سيعكف أحد طلبة الدكتوراة فيها آنذاك على كتابة رسالة عن «الذرة عند فلاسفة الإسلام» .. و فى كلية الشريعة ستنشأ كذلك كراسى علمية جديدة لأصول الاجتهاد و القانون «المقارن» و الشريعة الإسلامية و مذاهب المجتهدين و سواها، و سيعلن عن قيام طلبة الدكتوراة فى الكلية بنشر مجموعات القوانين الجنائية و المدنية و الاقتصادية و القانون الدولى فى الشريعة الإسلامية، و ستناقش رسالة للدكتوراه عنوانها أصول مذهبى الأوزاعى و الليث بن سعد .. و ستتبادل الجامعات فى الشرق و الغرب رسائل الأزهر العلمية.

و من أهم حركات التجديد فى الأزهر توطيد النظام الجامعى و رفع مستوى الكادر الجامعى فى كلياته و تبادل الأساتذة بين الأزهر و شتى جامعات العالم، و ستقوم الدول الإسلامية بعبء الأموال اللازمة للبعوث الإسلامية الأزهرية، و سيتولى الأزهر الإشراف على المساجد و المعاهد الكبرى فى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۸

العالم الإسلامى، و ستعلن جامعة «هارفرد» عن قدوم أستاذ أزهرى زائر فيها لتدريس «أصول التشريع الإسلامى و أثرها فى نشأة علم

الاجتماع و فی الحضارة العالمیة».

و یومذاک سیکون للأزهر معاهد علمیة ثقافیة فی الخرطوم و إشبیلیة و القدس و کراتشی و بغداد و لندن و برلین و باریس و نیویورک، و سترسل ثلاثون بعثة علمیة لشتی جامعات الغرب .. و ستستعین جامعة إیران و جامعة موسکو و برلین و لندن و السوربون و جامعات الهند و الصین و باکستان و سواها بأساتذة من الأزهر. و من أهم ما سنراه فی الأزهر بعد عشرین عاما تبادل الطلاب بین کلیة اللغة و کلیات الآداب فی مصر و الغرب، و بین کلیات الشریعة و کلیات الحقوق، و بین کلیة أصول الدین و کلیات الفلسفة فی العرب، و کذلک اعتراف الجامعات فی العالم بشهادات الأزهر العلمیة، و سیدرس الطب العربی القدیم فی الأزهر، و سیباح لخریجی کلیة أصول الدین فتح «عیادات» نفسیة للطب النفسی العلاجی. و سیکون لخریجی الأزهر دخول الکلیة الحربیة عاما واحدا یمنحون بعده رتبة عسکریة و یعملون فی الجیش فی شتی وحداته، و سیکون القائد العام للجیش المصری آنذاک أزهری التعلیم، و سینشیء الأزهر کلیة الجامعیة للفتاة المصریة .. و ستنال المعاهد الابتدائیة حظها من الرعایة و التجدید و الإصلاح، و یباح تبادل الطلاب بین الأزهر و المدارس الابتدائیة و الثانویة، و سیوحد الزی بین الأزهر و الجامعات المصریة.

و یومئذ سیکون الأزهر الصرح الإسلامی الأکبر فی البلاد الإسلامیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۵۹

الأزهر حصن العربیة

یعنی الأزهر فیما یعنی المعقل الذی حفظ الثقافة العربیة ألف سنة و نیفا، یسهر علیها و یزید فیها و ینفق منها علی طلاب المعرفة فی الشرق و الغرب، علی حین دمر الجهل و الکفر حصونها فی بغداد و الأندلس.

و یعنی الأزهر فیما یعنی، الحصن الذی اعتصمت به اللغة العربیة من عدوان الشعوبیة و العامیة و الترکیة حین استعجم اللسان و استترک السلطان و فشت الجهالة، و ضعفت الخلافة و عز الناصر و ذل الأهل.

و یعنی الأزهر فیما یعنی القبلة الثانیة التی یوجه المسلمون فی جمیع أقطار الأرض قلوبهم إلیها یتلمسون علی هداها الطریق إلی الحق و السبیل إلی اللّه.

و یعنی الأزهر فیما یعنی الملاذ للشعب المظلوم کلما عسفه الطغیان و بغی علیه الحکم فیأوی منه إلی رکن شدید و حام قادر.

و یعنی الأزهر فیما یعنی الجامعة العالمیة التی یؤمها الطلاب من کل أرض و من کل جنس و من کل لون لیتفقهوا فی الدین و لینذروا قومهم إذا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۰

رجعوا إلیهم، لا یبغون من وراء ذلک مالا و لا جاها و لا شهرة.

و یعنی الأزهر فیما یعنی الخانقاة التی آوت العباد و الزهاد و الوعاظ و حفظة القرآن و حملة البرکة.

و یعنی الأزهر فیما یعنی القاعدة الروحیة التی کان یخشاها المستعمرون فحاولوا سرا و علنا أن یدمروها لیتقوها، فلما استیأسوا من تدمیرها أو إضعاف تأثیرها سالموها و نافقوها. ثم جهدوا أن یستمیلوها لیستغلوها.

و یعنی الأزهر فیما یعنی، الصرح الوطنی الذی أجج الثورات علی الفساد، و خرّج القیادات للجهاد، و قام من نهضة العرب الحدیثة مقام الرأس و الید، یمدها بالروح و یرفدها بالقوة. ثار علی الغزو الفرنسی بقیادة ستة من علمائه، و ثار علی الطغیان الترکی بقیادة شیخه عبد الله الشرقاوی، و ثار علی الظلم الخدیو بقیادة ابنه أحمد عرابی، و ثار علی الاحتلال البریطانی بقیادة ابنه سعد زغلول.

کل أولئک یعنیه لفظ الأزهر، و أکثر من أولئک یلازم معنی الأزهر، و لکنی بسبیل الحدیث عن نصیب اللغة العربیة من فضل الأزهر فلا أخوض فی حدیث غیره.

إن فضل الأزهر على اللغة العربية مستمد من فضل القرآن الكريم عليها؛ و بعض فضله أنه كسبها عذوبة فى اللفظ و رقة فى التركيب و دقة فى الأداء و قوة فى المنطق و ثروة فى المعانى. و كان سببا فى استحداث العلوم الشرعية و الأدبية التى حفظت مادتها بالقواعد و فى المعجمات، و وسعت دائرتها بالألفاظ و المصطلحات، كالنحو و الصرف و الاشتقاق لدفع اللحن عنه، و المعانى و البيان و البديع لتقرير الإعجاز فيه، و على اللغة و الأدب لتفسير غريبه و توضيح مشكله، و الحديث و الأصول و الفقه و التفسير لاستنباط أحكام الشرع منه، و هو الذى وحدها على كل لسان، و نشرها معه فى كل

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۱

مكان. و حفظها أربعة عشر قرنا إلا قليلا لا تفسد و لا تجمد و لا تتغير مصداقا لقول اللّه تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» و حفظ القرآن يستلزم حفظ لغته، و الناظر فى تاريخ الأديان السماوية و الأرضية لا يجد دينا حملته لغته التى أنزل بها أو كتب فيها إلى أقصى الشرق و أقصى الغرب فى مدى ۱۳۸۰ سنة ثم بقيت محافظة على قوتها وجدتها و وحدتها و طبيعتها إلا دين الإسلام و لغة العرب، أما سائر الأديان فلا تقرأ كتبها الأصلية إلا فى لغة البلد الذى ظهرت فيه. فإذا نقلت إلى بلد آخر عن طريق الدعوة قرئت مترجمة إلى لغته، و اختص بمعرفة الأصل طائفة قليلة من رجال ذلك الدين، فمدونة الأسفار البوذية المسماة بالسلات الثلاث لا يقرأها أتباع هذه الملة فى الصين و اليابان إلا منقولة إلى الصينية و اليابانية، و التوراة و الإنجيل- و هما كتابان منزلان- لا يقرآن فى العالم المسيحى إلا فى لغة كل قطر من أقطاره، لذلك ظل تأثيرهما فى الآداب الأخرى ضئيلا حتى ترجما إلى اللاتينية و التوتونية القديمة فظهر أثرهما قويا فى الآداب الأوروبية.

و ليس كذلك الحال فى القرآن، فإن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغته جزء من حقيقة الإسلام، لأنها كانت ترجمانا لوحى اللّه و لغة لكتابه و معجزة لرسوله و لسانا لدعوته، ثم هذبها النبى الكريم بحديثه و نشرها الدين بانتشاره و خلدها القرآن بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآنا إلا فيها، و الصلاة لا تكون صلاة إلا بها، لذلك سارعوا إلى تعلمها و التكلم بها و التأليف فيها و التعصب لها و الدفاع عنها و الدعوة إليها حتى حلت محل الفارسية فى العراق و الرومية فى الشام و القبطية فى مصر و البربرية فى المغرب، و أصبحت فى عصر بنى العباس و هو عصرها الذهبى لغة الدين و الأدب و العلم و السياسة و الإدارة و الحضارة فى أكثر الدنيا القديمة، و أصبح المسلم على اختلاف جنسه ينتقل من قطر إلى قطر فى عالمه الإسلامى كما ينتقل من بلد إلى بلد فى وطنه الأصلى، لا يجد مشقة فى التفاهم، و لا صعوبة فى التعامل، و لا شدة فى المعيشة ثم شغل المسلمون- عربهم و عجمهم- بالقرآن و فرغوا له، فكان

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۲

دعاءهم فى المسجد، و نظامهم فى البيت، و منهاجهم فى العمل، و دستورهم فى الحكومة، فسرى هدية منهم مسرى الروح، و جرى وحية فيهم مجرى الطبع، و أثر فى ألسنتهم و أفئدتهم و أنظمتهم تأثيرا لم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله و من هنا كانت ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسيين هما الدين بعلومه المختلفة و اللغة بفنونها المعروفة، و هذان الركنان يشد احدهما الآخر و يمسكه، فالإسلام بغير العربية ينبهم و يضمحل، و العربية من غير الإسلام تنكمش و تزول، و اللغات السامية مدينة ببقائها للدين، فلو لا اليهودية ما بقيت العبرية، و لو لا المسيحية ما بقيت السريانية، و لو لا الإسلام ما بقيت العربية، و لكن الفرق بين بقاء العربية و بقاء العبرية و السريانية هو الفرق بين الروح و الذماء أو بين العين و الأثر. و الأزهر و هو وارث النبوة و حامى العقيدة و ناشر الدعوة لا يمكن أن تقوم رسالته إلا على هذين الركنين، و قد أداها بتأييد اللّه و توفيقه تأدية أحلته من العالم الإسلامى كله محل الزعامة.

على أن فضله على علوم القرآن و علوم اللسان قد يشاركه فيه بالكثير أو بالقليل طائفة من المدارس و الجوامع أنشأها السلاطين فى القاهرة و دمشق و حلب و بغداد و النجف و قرطبة و القيروان و الزيتونة، كالناصرية و القمحية و الصلاحية و المؤيدية و المنصورية و الشيخونية و الظاهرية و الكاملية و النظامية؛ و لكن هذه المدارس التى عفى على أكثرها الزمن لم تستطع فى حياتها منفردة أو مجتمعة أن ت (اول الأزهر فضله الخالد على اللغة العربية فى بقائها لسانا للعلم و رباطا للمسلمين إلى اليوم.

تحیفت الخطوب السود لغة القرآن فی محنتین أشفت فیهما علی الموت لو لا أن تداركها اللّه بفضله: محنة الغزو المغولی فی منتصف القرن السابع حین انتکث فتل العباسیین فی العراق بتنافس الفرس و الترک، و تحارب الشیعة و السنة، و ذهاب جلال الخلافة من النفوس، فقوص هولاکو عرشها سنة ۶۵۶ ه، و تضعضع أمر الأمویین فی الأندلس بتغلب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۳

البربر و الموالی علی ملکهم و تقسیمه بینهم إلی دویلات سهل علی الفرنج ازدرادها قطعة قطعة حتی ابتلعوها لقمة سائغة سنة ۸۹۸ ه .. و دالت دولة الفاطمیین فی مصر و الشام فوقعتا فی أیدی الأیوبیین، ثم صارتا إلی المماليک و ظلتا تحت سلطانهم حتی دخلتا فی حکم الأتراک العثمانیین سنة ۹۲۳ ه، فأتی علی العرب ستون و خمسمائة عام لم یکن لهم فیها سلطان و لا ملک، فأصبحت دیارهم و آثارهم نهبا مقسما بین المغول و الترک و الفرس و الجرکس ثم الأسبان بعد قلیل، و کان أکثر هؤلاء الأعجام وحشیین أمیین فخربوا الدور و هتکوا الخدور و فجعوا اللغة و آدابها و علومها بتحریق المکاتب و تعطیل المدارس و تقویض المراصد و تقتیل العلماء. ناهیکم بما فعله التتار فی بخاری و بغداد، و الصلیبیون بالشام، و الإفرنج بالأندلس، فلو أن الزمان عفی علی اللغة العربیة و ألحقها بأخواتها الساميةلما کان ذلک خارقا لطبیعة الأشیاء و لا بدعا فی منطق التاریخ، و لکنها بقیت علی الرغم من هذه الخطوب لسانا للدین و العلم، و لغة للحکومة و الأمة فی بلاد المغرب و مصر و الشام و بلاد العرب و الجزیرة، و لو لا نعرة الترک و عصبیة الفرس لکانت لغة المسلمین کافة. و الفضل فی بقائها بعد إدبار الزمان و السلطان عن أبنائها، إنما کان لهذا الأزهر الجلیل الذی اختصه اللّه بمزایا تمیز بها علی غیره، منها صبغته العربیة الخالصة بحکم نشأته و بیئته، و موقعه الوسط بین الشرقین الأدنی و الأوسط، فکان ملتقی المسلمین من هنا و من هناک، و منها قربه من الحجاز فکان طریق الحجاج و الرحالین من علماء إفریقیة و الأندلس. و منها تخریجه طائفة کبیرة من أعلام الفقه و أعیان الأدب جمعوا شتات اللغة و العلوم و الآداب فی أسفار أشبه بدوائر المعارف، و منها مکانته التی بلغت من قلوب المسلمین و الحاکمین مبلغ القداسة و کان لها أثر بالغ فی حل بعض المشکلات السیاسیة و الاجتماعیة، و منها کفایته الأساتذة و الطلاب مؤونة العیش بأن کفل لهم الغذاء و الکساء و المأوی و الکتاب، و منها إیواؤه الناجین بحیاتهم و دینهم و علمهم و أدبهم و کتبهم من غارة المغول حین

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۴

اکتسحوا خراسان و الفرس و العراق، فکان من مهاجرة هؤلاء العلماء من الشرق و الغرب إلی القاهرة من البحث و الابتکار ما کان لمهاجرة علماء المسیحیة من القسطنطینیة إلی روما من البعث و الازدهار. و منها مناصرة الأیوبیین له بالمال و التعضید؛ لأنهم و إن کانوا أکرادا قد تکلموا بلغة العرب و تأدبوا بأدب العرب و نبغ من بینهم الشاعر و العالم و المؤرخ، کالملک المؤید عماد الدین أبی الفداء، و الملک الأفضل علی بن صلاح الدین، و کان هذا الملک ضعیف الرأی کثیر الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بکر و أخوه العزیز عثمان علی ملک الشام و مصر، فکتب إلی الخلیفة الناصر العباسی کتابا یشکو إلیه فیه ذلک و قد بدأه ببیتین من الشعر أجاد فی نظمهما کل الإجادة و هما:

مولای إن أبا بکر و صاحبهعثمان قد أخذا بالسیف حق علی

فانظر إلی حرف هذا الاسم کیف لقیمن الأواخر ما لاقی من الأول

یرید بأبی بکر عمه، و بعثمان أخاه، و بعلی نفسه، فأجابه الخلیفة الناصر بقوله:

وافی کتابک یا ابن یوسف معلنابالصدق یخبر أن أصلک طاهر

غصبوا علیا حقه إذ لم یکنبعد النبی له بیثرب ناصر

فاصبر فإن غدا علیه حسابهمو أبشر فناصرک الإمام الناصر

و الجزالة ظاهرة فی شعر الملک الکردی ظهور الرکاکة فی شعر الخلیفة العربی!.

کذلک أقول فی المماليک فقد أيدوه و أمدوه؛ لأنهم اتخذوا مصر وطنا، و الإسلام دينا، و العربية لغة، و كان من بينهم شعراء عالجوا القريض و أجادوه كالسلطان الغورى، هؤلاء المماليک قد عضدوا العلماء و قربوا الأدباء، و شدوا أزر المعلمين و المؤلفين، حتى خرّج الأزهر فی ظلمهم أولئک الأئمة الذين استودع اللّه صدورهم ذخائر العلم و الحكمة فأودعوها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۵

الكتب، و أخرجوها للناس: كجمال الدين بن منظور، و جمال الدين بن هشام، و شمس الدين النويرى، و ابن فضل الله العمرى، و شمس الدين الذهبى، و الحافظ بن حجر العسقلانى، و أبى العباس القلقشندى، و تقى الدين المقريزى، و بدر الدين العينى، و سراج الدين البلقينى، و بدر الدين الدمامينى و شمس الدين السخاوى، و كمال الدين الدميرى، و جلال الدين السيوطى، و تقى الدين الدميرى، و جلال الدين السيوطى، و تقى الدين القشيرى المعروف بابن دقيق العيد.

لهذه المزايا انتهت إلى الأزهر فی القرون الثلاثة السابع و الثامن و التاسع زعامة الثقافة فی جميع البلاد العربية و الإسلامية، فحفظ وجود اللغة، و رفع سقوط الأدب، و جمع شمل العلم، و لولاه لا انقطع ما بين الأدبين القديم و الحديث.

أما المحنة الأخرى التی امتحنت بها العربية و كان للأزهر الفضل فی وقايتها و سلامتها فهی محنة الغزو التركى فی أوائل القرن العاشر حين استولى السلطان سليم على مصر و الشام سنة ۹۲۳ ه فأصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، و عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، و اللغة الرسمية التركية لا العربية، و مكث الغازى سليم فی مصر بعد الغزو ثمانية أشهر سلبها فيها أنفس أعلاقها من الكتب و التحف و الآثار لنوابغ الفنانين و المؤلفين الذين تخرجوا فی الأزهر و أنتجوا فی مصر مدى القرون الثلاثة التی سبقت الغزو العثمانى، و أخذ الغزاة يغلبون لغتهم على اللغة العربية فی الدواوين، و يطاردونها فی المدارس، حتى كانوا يعلمون قواعد اللغة العربية باللغة التركية فی الشام و العراق! ففشا فی اللغة العامى و الدخيل، و ذهبت أساليبها من النظم و النثر، و خيم الظلم و الظلام على النفوس فخمدت القرائح، و ضعفت رغبة الحكام فی العلم، و انقطعت أسباب الطلب له، و استطاع الترک أن يتركوا كل شیء فی مصر من سياسة و إدارة و تعليم و جيش إلا الأزهر، فقد راعهم ما أحسوا من جلاله و ما سمعوا عن مجده، فوقفوا على

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۶

أبوابه خاشعين يلتمسون منه العون على ما ينجم من أحداث، و الرأى فيما يشكل من الأمور.

و السلطان سليم نفسه قد زاره مرارا فصلى فيه و تبرک به. و من قبل قد غزا الأزهر بلاد الأتراک بعلمه و أدبه و كتبه فعرب طائفة منهم تعلموا العربية و تكلموا بها و ألفوا فيها كالفيروز أبادى و أبى السعود و الفنارى و ملا خسرو و الجامى و الخيالى و خوجه زادة و ملا مسكين و ملا لطفى و حاجى خليفة و طاشكيرى زاده و ابن كمال باشا و كان سلاطين العثمانيين أنفسهم يدرسون العربى و آدابها كما كانوا يدرسون التركية و آدابها، و منهم من قرض الشعر العربى و رواه كالسلطان أحمد الأول فقد رووا له قصيدة غزلية مطلعها.

ظبى يصول و لا وصول إليه‌جرح الفؤ بصارمى لحظيه

و لم تضعف عناية علماء الترک بالعربية إلا فی عهد السلطان محمود الثانى و ابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحيا اللغة التركية و قربا مواردها و بسطا قواعدها و سمياها اللغة العثمانية، فأنتم ترون أن اللغة العربية قد أتى عليها ستة قرون قضتها بين الاحتضار و الموت، ثلاثة منها فی العصر المغولى، و ثلاثة أخرى فی العصر العثمانى، أمحت فيها من الهند و خراسان و العراق و بلاد الروم و الأندلس، و بقيت فی الأقطار العربية بقاء المريض أشرف على الموت و لم يبق منه إلا رمق ذلک الرمق هو الذى كفله الأزهر و تعهده فغذاه و قواه و رعاه، حتى إذا انجاب عن مصر قتام الحكم العثمانى و أراد اللّه لشمس الحضارة أن تشرق مرة أخرى على وادى النيل زايل اللغة الوهن و سرت فيها الحياة، ففی الأزهر كان ملاذها و غياثها، و فی الأزهر كان بقاؤها و انبعاثها.

كان الأزهر بعد انتهاء تلک الغمرة باحتلال نابليون، و ابتداء هذه النهضة باستقلال محمد على، قائد الشعب فی الكفاح و رائد الحكومة فی الإصلاح، تمثلت قيادته فی شيوخه الأجلاء خليل البكرى، و عبد الله

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۷

الشرقاوی، و محمد المهدی و سلیمان الفیومی، و حسن العطار. و تجلت ریادته فی طلابه النجباء الذین أرسلوا إلی أوروبا لیستفیدوا و یستزیدوا، کإبراهیم النبراوی، و أحمد حسن الرشیدی، و محمد علی البقلی، و رفاعة الطهطاوی، و علی مبارک، و تلک ید أخری لهذا المعهد الجلیل علی اللغة العربیة، ساعدها علی النهوض، کما حماها من قبل دون السقوط.

هاتان هما المحنتان اللتان عانتهما العربیة فی عهدین متواليین، ثم جعل اللّه نجاتها منهما بفضل الأزهر حفظا لکتابه و صونا لدینه.

و هناک محنة ثالثة تجتازها اللغة الیوم و توشک أن تبلبل اللسان و تعطل القرآن و تقطع الدین عن أصله، و تفصل العربی عن أهله، و تهبط بالأدب من جبل الوحی و هیکل عطارد حیث الترفع و السمو و النبل، إلی حضیض المادیة حیث التسفل و التبذل و الفحش.

تلک هی محنة الإباحیة اللغویة التی تغلب العامیة علی الفصحی، و تؤثر أدب العامة علی أدب الخاصة، و تفضل الموضوع المثیر علی الموضوع المنیر، و ترید أن یکتب الکاتب و ینظم الشاعر کما یشاء، لا یتقید بقاعدة من نحو و لا قیاس من صرف و لا نظام من بلاغة و لا وزن من عروض و لا مثال من خلق. و لهذه المحنة أو المشکلة أصلان: الاستعمار و الجهل.

أما الاستعمار فلأنه رأی أن الرابطة بین المسلمین علی اختلاف أقطارهم و تباعد دیارهم هی الدین و اللغة، و ما دامت أمة محمد روحا واحدا بالإسلام، و لسانا واحدا بالعربیة، فإن استغلالها موقوت و إن طال، و إن استقلالها آت و إن تأخر، لذلک سعت فرنسا سعیها الدائب فی الجزائر لفتنة البربر عن دینهم بإصدار الظهیر المعروف، و قطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس و الدواوین. و لکن دین اللّه کان أقوی من ظهیر فرنسا، و لغة المصحف کانت أمضی من لغة السیف. و اکتفت انجلترا علی عادتها من الدهاء و الکیاسة بمحاربة الفصحی فدعت إلی العامیة بلسان موظفیها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۸

و مبشریها و مستشرقیها؛ لأن اللغات العامیة تختلف فی البلاد العربیة اختلافا شدیدا یکاد یجعل من کل لهجة منها لغة مستقلة. و إذا انهزمت أمامها اللغة المشترکة و هی الفصحی استحال التفاهم و ضعفت العقیدة و انقطعت الصلة و تفرقت الوحدة و تبددت القوة و استطاع المستعمر أن یلتقمها لقمة لقمة فلا یغص و لا یشجی. و لکن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار فی الشرق، و قوة الوعی فی العرب. و أما الجهل و هو الأصل الآخر لمحنة اللغة العربیة فقد خلف الاستعمار فی هذه الدعوة المجرمة، و المراد بالجهل جهل أبناء العربیة بها، و عزوفهم عن علومها و أدبها، و هو جنایة المدرسة المدنیة الحدیثة، فقد فشلت بعد طول الزمن و کثرة التجارب فی تخریج القارىء الذی یقرأ بفهم، و الکاتب الذی یکتب عن علم، و المفکر الذی یفکر عن أصالة، و لیس أدل علی هذا الفشل من أن الطالب یتعلم النحو عشر سنین دأبا ثم لا یستطیع بعد ذلک أن یعبر عن فکره تعبیرا صحیحا لا بلسانه و لا بقلمه، فإذا دفعه استعداده الأدبی إلی الکتابة آثر العامیة علی الفصحی و دعا إلی التحلل من القواعد و القیود لیجعل الفوضی نظاما و الخطأ مذهبا و العجز شرکة. کانت علوم العربیة تدرس فی الأزهر و دار العلوم و مدرسة القضاء الشرعی و فیما یجری علی منهجه من معاهد لبنان و سوریة و العراق و المغرب دراسة عمیقة تمکن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما یقرأ و فقه ما یعلم و تعلیل ما ینقد و تحلیل ما یذوق. فإذا اتصل النظر بالعمل و اقترن الحکم بالتطبیق و صادف ذلک استعدادا فی المتعلم ظهر الکاتب الذی یکتب فیجید، و الشاعر الذی ینظم فیبدع، و الناقد الذی یحکم فیصیب، أما إذا فتر الاجتهاد و ضعف الاستعداد ظهر الأدیب العالم الذی یهیء الوسائل و یقرب المناهل و یوجه المواهب و یسدد الخطی، و من هاتین الفئتین تستمد الحرکة الأدبیة عناصرها الحیویة فتقوی لتزدهر و تنمو لتنتشر و تسمو لتخلد.

و کان من خریجی هذا المنهج القدیم أولئک الأدباء الأصلاء الذین حفظوا تراث اللغة و جددوا شباب الأدب و أسسوا هذه النهضة الأدبیة الحدیثة، و لا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۶۹

یزال من هذه الطبقة الکریمة فئة قلیلة فی أقطار العروبة تستبطن لغتها و تتعمق أدبها و تعرف لماذا تکتب الجملة علی وضع دون آخر،

فإذا خلا المجتمع بعد أجل طويل أو قصير فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة و يبلغون رسالة الأدب؟

الجواب عن هذا السؤال عند الأزهر وحده؛ فهو بحكم طبيعته و علة وجوده معتصم اللغة و منجاها فی الماضی و المستقبل، أما المعاهد الأخری فکل شیء فیها یبعث علی التشاؤم: منهج تطبیقی یکاد یخلو من القواعد، و تعلیم سطحی مقتضب لا هدف له إلا اجتیاز الامتحان العام بأیة وسیلة، فالمطولات تختصر، و المختصرات تختزل، فلا یبقی بعد ذلک فی ذاکرة الطالب إلا رموز علی معان عائمة غائمة لا هی مستقرة و لا هی واضحة.

ذلکم إلی زهادة فی الجدی النافع من ثقافة اللسان و القلم تقعد النشء عن تعمق الأصول و تقصی الفروع، و تقنعهم بالقدر الذی ینقلهم من سنة إلی سنة أو من شهادة إلی شهادة، فإذا ما تخرج الناشیء بهذا الحظ المنکود من اللغة و کان فی نفسه میل إلی الأدب، و فی طبعه استعداد للکتابة، انصرف عن کنوز الأدب العربی، لأن مفاتیحها لیست عنده، و أقبل علی روائع الأدب الغربی یحاکیها و یستوحیها حتی إذا امتلأ ذهنه و فاض شعوره و أراد أن ینتج شیئا یفید الناس وجد فی نفسه الملکة التی تخلق و فی حسه الصورة التی تمتع، و لکنه لا یجد فی لسانه اللغة التی تعبر، و لا فی قلبه الأسلوب الذی یؤثر، فیضیق و یسخط و یثور، و یزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ، و أن إعراب الکلمة عقبة لا تذلل، ثم یتطرف فیدعو إلی إطلاق الحریة للکاتب فیکتب کما یشاء.

تلک حال المتخرج الأدیب بطبعه أما المتخرج العادی فإنه یعود أمیا کما بدأ، لا یقرأ إذا قرأ إلا السهل، و لا یطلب هذا السهل إلا فی قصة عامیة تخدر الشعور، أو فی مجلة فکاهیة تنبه الشهوة، حتی نشأ من إفراط القراء فی هذا الطلب، إفراط الکتاب الخفاف فی عرض الأدب اللذیذ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۰

الذی لا ینفع، أو الأدب الماجن الذی لا یرفع، ذلکم إلی طغیان الأدب الأوروبی بمذاهبه و نزعاته و ترهاته علی عقول النائین الذین ثقفوا هذه الثقافة الأدبیة الهشة ففتنتهم عن أدبهم و صرفتهم عن تاریخهم، فالمتفرنسون منهم یعرفون هوجو و لا یعرفون المتنبی، و یدرسون فولتیر و لا یدرسون الجاحظ، و یقرءون لا مرتین و لا یقرءون البدیع، و من هنا نشأت هذه التبعیة التی فرضها الشباب علی أدبنا لأدب الغرب، فأسالیبهم الکتابیة الیوم هی أسالیب الکتابة فی الغرب، و مذاهبهم الأدبیة هی مذاهب الأدب فی الغرب، و مقاییسهم النقدیة هی مقاییس النقد فی الغرب، حتی الرمزیة و هی بنت الأفق الغائم و النفس المعقدة و اللسان المغمغم یریدون أن تتبناها العربیة بنت الصحراء المکشوفة و الشمس المشرقة و الطبع الصریح، و حتی الوجودة و هی بنت الخلق المنحل و الذوق المنحرف و الغریزة الحرة، یحاولون أن تتقبلها العربیة لغة الرسالة الإلهیة التی کرمت الإنسان و فصلته من سائر الحیوان بحدود من الدین و الخلق لا یتعداها و هو عاقل، و لا یتحداها و هو مؤمن.

لیس الأمر فی الأدب کالأمر فی العلم، الأدب للنفس و العلم للناس، الأدب مواطن و العلم لا وطن له؛ الأدب روح فی الجسد و دم فی العروق یکون شخصیة الفرد فیحیا مستقلا بنفسه، و یبرز شخصیة الشعب فیحیا متمیزا بأفراده، الأدب جنس و لغة و ذوق و بیئة و عقلیة و عقیدة و تاریخ و تقالید. و العلم شیء غیر أولئک کله، فإذا جاز طبعا أن نأخذ من غیرنا ما یکمل نقصنا من العلم، فلا یجوز قطعا أن نأخذ من هذا الغیر ما یمثل أنفسنا من الأدب.

إن دراسة العربیة علی النهج الصحیح المنتج بعد المدرسة لا یکلف المتأدبین من الجهد و الزمن أکثر مما تکلفهم دراسة الفرنسیة و الإنجلیزیة:

و لکنهم فی عصر السرعة یطلبون القریب و یتوخون السهل و یتخطفون العلم و یتعجلون الإنتاج، ثم یحقدون علی من یلزمونهم التأنی و یجشمونهم الدرس و یقولون لهم إن أحدا لا یعرف فی تاریخ الآداب القدیمة و الحدیثة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۱

من یعد فی لغته کاتبا أو شاعرا أو قصاصا أو مؤلفا، و هو لا یعرف من قواعدها الأساسیة ما یقیم لسانه و قلمه، و إذا کان الناس یقرءون

الصحيفة أو الكتاب و لا يقعون فيها على الخطأ الذى يفضح المستور و يكشف الغش فالفضل لأولئك الجنود المجهولين من الأزهريين الذين يرابطون ليل نهار فى دور الصحافة و النشر و يسمونهم المصححين؛ فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم، و على المعجم فيعرب، و على الركيك فيقوى.

لا بأس أن ييسر النحو و الصرف و البلاغة على الطلاب: و لكن البأس كله فى المدى الذى بلغه هذا التيسير، لا بأس أن نخفف على غير المتخصصين من عبء التقديرات و التعليلات التى فلسف بها النحاة النحو، و من حفظ وجوه الإعراب التى بقيت فى اللغة أثرا لاختلاف اللهجات فى الجاهلية فهو شت القواعد و جعلت كل خطأ صوابا و كل صواب خطأ، و لكن البأس كله فى أن تجرد علوم العربية من خصائص القوة و الخصوبة و البراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمى، فيه الخفة و البساطة و الشكل، و ليس فيه العضل و العصب و الروح. إن ما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان، لا تحيا به لغة و لا يبقى عليه أدب، فإذا استطاع يوما أن يجيز امتحانا أو ينيل شهادة فلن يستطيع أبدا أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر بشيوخه و كتبه، كمحمد عبده، و سعد زغلول، و المنفلوطى، و البشرى، و طه حسين، و لا أمثال من خرجتهم دار العلوم كشاويش، و المهدى، و الخضرى و السكندرى و الجارم و لا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء الشرعى. كأحمد أمين و عزام و الخولى. و لا أمثال من خرجتهم دار المعلمين العليا، كالمازنى و شكرى و أبو حديد. و لا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد، و الرافعى، و شوقى، و حافظ فى مصر. و كالبستانيين و اليازجيين و الشدياق و مطران و الخورى فى لبنان. و كالمغربى و الشهابى، و جبرى، و الطنطاوى، فى سوريا. و كالرصافى، و الزهاوى و كاشف الغطاء، و الشبيبى، و الأثرى فى العراق، و كالنشاشيبى و السكاكينى فى فلسطين.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۲

إنى أدعو إلى التوفيق بين الفصحى و العامية، و مذهبى فى مجمع اللغة العربية إمداد الفصحى بما تزخر به العامية من ألفاظ الحضارة و تراكيبها التى دخلت فى الحياة العامة حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين و ينتهى بهما الأمر بفضل الصحافة و الإذاعة و التعليم إلى لغة واحدة عامة فيها من الفصحى السلامة و الجزالة و البلاغة و السمو، و فيها من العامية الدقة و الطبيعية و الحيوية و التجدد و الوضوح. أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لا تقوم على قواعد، و لا تجرى على أنظمة، و لا تشعرنا بجمال، و لا تحفزنا لكمال، و لا تربطنا بماض، و لا تصلنا بمستقبل، و لا تجمعنا فى وحدة، فذلك مذهب لا يقول به رجل و هو جاد، و دعوة لا يستجيب لها إنسان و هو عاقل.

فإذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية لأن أساليبها غالبة على السمع، و قواعدها جارية على الطبع، فلا يحتاج تحصيلها إلى كتاب و معلم و مدرسة، و إنما يحتاج إلى بواب و خادم و شارع و تغلب الأساليب العامية معناه كما قلت فصل الأدب عن الدين و قطع الحاضر عن الماضى و توهين الصلات بين العرب. و فى يقينى أن أمر العربية لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله: فقه أسرارها كل الفقه، و فهم قواعدها أدق الفهم، و حفظ أدبها أشد الحفظ، و ذلك يستلزم الجهد و الجد فى إعداد المعلم، و العلم و الخبرة فى وضع المنهج، و المنطق و الذوق فى تأليف الكتاب، و الكتاب الأزهرى الذى تخرجنا عليه و ما زلنا نرجع إليه كنز من المعارف لا يعوزه إلا سهولة مأخوذة و حسن تنسيقه و جمال عرضه، فالفرق بينه و بين الكتاب الحديث فى العرض كالفرق بين حانوت من حوانيت العطارة فى الغورية، و بيت من بيوت التجارة فى قصر النيل، قد يكون فى الحانوت القديم ما ليس فى المتجر الحديث من السلع التواجر و الطرف النوادر؛ و لكن اختفاءها فى ركن غير ظاهر، و عرضها فى معرض غير لائق، يضعف الإقبال عليها و يقلل الاستفادة منها، فإذا عرضت الكنوز

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۳

الأزهرية عرضا جميلا مشوقا فى الدروس و المحاضرات و المذكرات و الكتب كان ذلك عسيا أن يدنى قطوفها من الطلاب على غير مؤونة و لا كد ذهن.

إن رسالة الأزهر قائمة كما قلت على ركنين من دين و لغة، و لكن الأمر فى تأديته إياها جد مختلف. الدين كامل لأنه من عمل اللّه، و اللغة ناقصة لأنها من عمل الإنسان، و الكامل الإلهى لا يتأثر بالمكان و لا بتغير بالزمان و لا يضيق بالحضارة و لا يبرم بالعلم، فهو جديد أبدا، صالح أبدا، ثابت أبدا. أما الناقص فهو عرضة للفساد و الجمود و التخلف، و موضع للزيادة و التجديد و التطور، لذلك كان الاجتهاد فى اللغة و علومها أمرا تحتمه الضرورة و تقتضيه الطبيعة؛ لأن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين، و لا أن تستقل استقلال الحى، فهى ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، و الأغراض لا تنتهى، و المعانى لا تنفذ، و الناس لا يستطيعون أن يظلوا خرسا، و هم يرون الأغراض تتجدد و المعانى تتولد، و الحضارة ترميهم كل يوم بمخترع، و العلوم تطالبهم كل حين بمصطلح، و لا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين فى حدود الزمان و المكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء، و لم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء.

نشأ من إنكار حق الوضع اللغوى على المولدين و حصره فيمن يعتد بعربيتهم من عرب الأمصار حتى آخر المائة الثانية، أو أعراب البوادى حتى آخر المائة الرابعة، أن طغت اللغة العامية طغيانا جارفا حصر اللغة الفصحى فى طبقات العلماء و الأدباء و الشعراء و الكتاب يكتبون بها للملوك، و يؤلفون فيها للخاصة، و سيطرت على حياة الأمة فى شئونها العامة و أغراضها المختلفة؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد، و طبيعية تنفر من الصنعة، فهى تقبل من كل إنسان، و تستمد من كل لغة، و تصوغ على كل قياس. و الناس فى سبيل التفاهم يؤثرون السهل، و يستعملون الشائع، و يتناولون القريب.

و تخلف اللغة عن مسايرة الزمن و ملاءمة الحياة معناه الجمود. و النهاية

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۴

المحتومة لجمود اللغة اندراسها بتغلب لهجاتها العامية عليها و حلولها محلها، و قد تنبه مجمع اللغة العربية لهذا الخطر فقرر فيما قرر استجابة لاقتراح عرضته، فتح باب الوضع اللغوى للمحدثين بوسائله المعروفة من الاشتقاق و التجوز و الارتجال، و إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل و ما لم يقس. و تحرير السماع من قيود الزمان و المكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالبنائين و النجارين و غيرهم من أرباب الحرف و الصناعات، و اعتماد الألفاظ المولدة و تسويتها بالألفاظ القديمة، و على هذه المبادىء و غيرها وضع معجمه الوسيط الذى سيظهر قريبا.

أما الاجتهاد فى الدين فقد فتحت أبوابه أول الأمر لمن تجهز بجهازه و اعتد له بعدته، حتى إذا زخر الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبه مدى عصوره بالآراء المحكمة و الوجوه المحيطة، وجد فيه المسلمون جوابا شافيا عن كل سؤال يخطر على الذهن، و حلا جامعا لكل إشكال يعرض فى المجتمع، و حكما عادلا فى كل قضية ترفع إلى القضاء، فاستغنوا بغزارته و إحاطته عن الاجتهاد فيه، و انصرفوا إلى اجتهاد من نوع آخر هو الاجتهاد فى اختيار الرأى المناسب، و ترجيح الحكم الموفق. جاء فى كتاب الولاة و القضاة للكندى أن قاضيا شافعى المذهب كان بمصر فى عصر الإمام الطحاوى و كان يتخير لأحكامه ما يرى أنه يحقق العدل من آراء الأئمة و لا يتقيد بمذهب من المذاهب، و كان مرضى الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه فى دينه و لا فى خلقه و لا فى حكمه، سأل هذا القاضى الإمام الطحاوى عن رأيه فى واقعة من الوقائع فقال الطحاوى: أ تسألنى عن رأيى أو عن رأى أبى حنيفة؟ قال القاضى: و لم هذا السؤال؟ قال الطحاوى ظننتك تحسبنى مقلدا فقال القاضى: لا يقلد إلا عصبى أو غبى. هذه الثروة الفقهية الضخمة لم يحجبها عن الناس إلا أسلوب التأليف القديم، و اليوم و قد تطورت المدينة و تغيرت العقلية ينبغى أن يطابق التعليم و الكتاب مقتضيات العصر. هذه هى المحنة الثالثة التى تعانيها اللغة العربية اليوم.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۵

و هى لا تختلف عن سابقتيها إلا فى أن موقف الأزهر منها يجب أن يكون إيجابيا: يقابل العمل بالعمل، و يرد الكيد بالكيد، و يقاوم الدعاية بالدعاية، و يقف بالمرصاد لكل من يسول له جهله أو هواه أن يبعث بلغة الإسلام، و يوهن رابطة العرب. و الأزهريون الذى حملوا أمانة اللّه، و بلغوا رسالة نبيه أكثر من عشرة قرون يستطيعون أن يدرءوا خطر هذه الإباحية عن اللغة و الدين متى صدقوا الجهاد

و ذكروا أنهم جند اللّه يرمى بهم العدو فى كل وقت و فى كل أرض و على أية صورة، فيعيشون للموت كالجنود، و يعملون للحياة كالقادة، و يعزفون عن الدنيا كالرسل، و اللّه سبحانه و تعالى قد ضمن للعربية بقاء البيان ببقاء القرآن و على أيدى أبناء الأزهر- المؤمنين برسالته- صدق اللّه وعده، إن اللّه لهو خير الصادقين؟

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۷

الأزهر من بعيد .. و من قريب

كتب محمد زكى عبد القادر فى يومياته فى الأخبار عام ۱۹۶۱ يقول:

الأزهر عزيز علىّ جدا، لا لأنه منارة الإسلام و المسلمين عبر قرون طويلة فحسب، و لكن لأنه اقترن بصباى، فقد كان عمى طالبا فى الأزهر و كنت تلميذا بالمدارس الثانوية أقيم معه و يرعى شئونى و أنا و هو مغتربان فى القاهرة لطلب العلم .. و كنت لهذا ألتمسه فى فناء الأزهر، و أراه يشهد الدروس، فأجلس معه أستمع فلا أفهم و لكننى أعجب لطول الدرس و طول الأناة و يشوقنى أن أرى الشيخ يلقى ما يلقى و يسأل من وقت إلى آخر:

ظاهر .. ظاهر .. فيسمع همهمة تقول: ظاهر ياسى الشيخ ..

و كنت أخشى الأزهر فى عبض الامسيات حين أكره وحدتى فى مسكنى، فيقول عمى: لا عليك .. هات كتبك و اجلس معنا ذاكر دروسك .. و كنت فى سن صغيرة أخشى فيها الوحدة، فأوثر أن أحمل كتبى، و آخذ مقعدى كما كان يفعل طلاب الأزهر حينئذ، جالسين على الحصر الممدودة، و من فوقهم قناديل بيضاء جميلة، ترسل نورا كليلا، و لكنه كاف لكى أرى و أقرأ من غير صوت و لكى يروا و يقرءوا بصوت،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۸

يجتمع مع الأصوات الأخرى، فإذا الأزهر كله خلية نحل لا تكف عن الهمهمة، بل ما يشبه الضجيج .. و كان كلاهما يحول بينى و بين أن يأخذنى النوم الذى كان يطاردنى إذا آثرت أن أبقى فى البيت.

و فرغت من دراستى الثانوية، و التحقت بكلية الحقوق، و عمى يرعانى، و صلتى بالأزهر لا تنقطع، أغشاه لكى أقرأ و أدرس، و أغشاه لكى أجلس إلى زملاء عمى من طلاب الأزهر، و أنصت أحيانا إلى ما يقرأون فلا أفهم شيئا أيضا على الرغم من أننى حينئذ كنت قد بلغت من الفهم و الدرس ما أفضى بى إلى الدراسة الجامعية ..

و مرت الأيام و تخرجت، و افترقت الحظوظ بينى و بين من عرفت من طلاب الأزهر، و لكن صورة الأزهر ظلت خيالا يلازمنى طوال حياتى، و قرأت ما قرأت و وعيت ما وعيت و أدركت من تاريخ الأزهر الكثير، و اقترنت القراءة عنه بالصورة التى كابدتها و عرفتها و ثبتت فى خيالى

و كنت أزوره بين الوقت و الآخر، صحيح أن الفترات بين زياراتى كانت متباعدة، و لكننى كنت أزوره لكى تظل صورة هذا المسجد العتيق العريق الأمين حية فى خاطرى و قد اقترنت فى حياتى بمطلع صباى، و قرأت تاريخه منعما متأملا، و قارنت بين مراحل تاريخه و المرحلة التى كان يعيش فيها، فوجدت الفرق الكبير بين الصورتين .. كان الأزهر فيما مضى و منذ إنشائه إلى تاريخه الوسيط منارة العلوم الدينية و الدنيوية، كان ينبوع المعرفة فى الطب و الفلك و الهندسة و الكيمياء و الجغرافيا إلى جانب المعرفة فى علوم الدين. كان يقدم للوطن و الإسلام خلاصة الرجال الذين رفعوا ذكره و رفعوا عنه العدوان .. كان المنارة التى تشع المعرفة بكل أنواعها فى العالم الإسلامى و العالم العربى. ثم شاءت ظروف الحكم و السياسة و قهر الشعب أن ترد الأزهر بعض الشىء عن المشاركة الفعلية فى حياة البلاد، فقصرته

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۷۹

علی دراسة الدین و فصلته أو کادت عن شئون الدنیا المتطورة من حوله.

و لیس هذا فی شیء من الدین و لا هو فی شیء من الإسلام، فالدین لا یفرق بین شئون الدین و الدنیا، و الإسلام منذ وجد منهج للحیاة، و مشارکة خالصة فی سعادة الإنسان فی الدنیا بحسبانه عضوا فی جماعة متطورة لا بد أن یأخذ حظه من العلم و الحضارة و التقدم المادی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۱

الأزهر الخالد

اشارة

تمهید: الأزهر هو أعرق الجامعات العلمیة فی العالم، فهو أطولها عمرا و أجلها أثرا فی تاریخ الفکر العربی و الإسلامی، بل فی تاریخ العلم کله.

و الأزهر طوال عصور التاریخ حارس التراث العربی و حامل مشعل الثقافة الدینیة، و الملاذ الذی تهوی إلیه أفئدة المسلمین من کل مکان، و الضوء الذی ینیر لهم الطریق و یبصرهم سواء السبیل.

و للأزهر مکانة کبری فی مصر و العالم الإسلامی جمیعه، و آراؤه فتاوی علمائه تقابل من کل مسلم فی العالم الاسلامی بمزید من التقدیر و الإجلال و الطاعة.

و لم تقم فی مصر جامعة علمیة بالمعنی الصحیح قبل الأزهر، الذی له تاریخ طویل و ذکریات مجیدة و آثار علمیة و دینیة عدیدة.

من تاریخ الأزهر:

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلی قائد الخلیفة الفاطمی المعز لدین اللّه بعد فتحه مصر بنحو عام، و قد شرع فی بنائه یوم السبت لست بقین من

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۲

جمادی الأولی سنة ۳۵۹ ه- ۹۷۰ م، و یذکر بعض المؤرخین أنه شرع فی بنائه فی یوم السبت الرابع من شهر رمضان فی العام نفسه. و قد کمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ۳۶۱ ه- ۲۲ یونیو سنة ۹۷۲ م، و کان الغرض من إنشائه أن یکون رمزا للسیادة الروحیة للدولة الفاطمیة- و منبرا للدعوة التی حملتها هذه الدولة الجدیدة إلی مصر.

و قد أطلق علی هذا المسجد اسم الأزهر نسبة إلی السیدة فاطمة الزهراء التی ینتسب إلیها الفاطمیون، أو لأنه کان یحیط به قصور فخمة تسمی بالقصور الزهراء، أو لأنه کان یظن أن هذا الجامع أکثر الجوامع فخامة و رواء، أو للتفاؤل بأنه سیکون أعظم المساجد ضیاء و نورا .. و قد احتفل بافتتاحه فی أول جمعة من رمضان عام ۳۶۱ ه.

و أصبح هذا الجامع مسجد الدولة الرسمی، و قد حرص وزیر المعز یعقوب بن کلس علی أن یقیم حفلة علمیة فی الأزهر، حیث کان یقرأ علی الناس فی مجلس خاص یوم الجمعة مصنفاته فی الفقه الفاطمی، کما کان یجتمع یوم الثلاثاء بالفقهاء و جماعة لمتکلمین و أهل الجدل، و حرص الخلیفة کذلک علی تکلیف کبار العلماء بإقامة حلقات علمیة فی أروقة الأزهر لتدریس الفقه الفاطمی، و کان یمنحهم مرتبات شهریة. و لهذا صار الأزهر جامعة علمیة، و ظهر ذلک جلیا حینما بدأت حلقاته تتحول إلی دراسة جامعیة علمیة مستقرة. و ذلک عام ۳۷۸ ه- ۹۸۸ م حینما استأذن ابن کلس الخلیفة العزیز باللّه فی أن یعین بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة و الدرس فی کل جمعة من بعد الصلاة حتی العصر، و کان عددهم ۳۷ فقیها.

و فی عام ۳۸۰ ه رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ... و بذلک صار الأزهر معهدا جامعیا للعلم و التعلیم و الدراسة. و من هذا التاریخ یبدأ الأزهر حیاته العلمیة الجامعیة الصحیحة.

و قد استمرت الحرکة العلمیة و الدینیة فی الأزهر قویة مزدهرة فی عهد

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۳

الفاطمیین الذین وقفوا علیه الوقوف و أحاطوه بالرعایة، و کان فی مقدمة الأساتذة المدرسین فی الأزهر بنو النعمان قضاة مصر.

و لما قامت الدولة الأیوبیة فی مصر عام ۵۶۷ ه. علی ید مؤسسها السلطان صلاح الدین الأیوبی، محا من مصر المذهب الفاطمی و أحل محله المذهب السنی، و غالی الأیوبیون فی القضاء علی کل أثر للشیعة و أفتوا بإبطال إقامة الجمعة فی الأزهر ..، فلبثت معطلة فیه نحو مائة عام، فقضی الأزهر هذه المدة فی رکود طویل، و قد ظلت حلقات الدراسة فیه علی الرغم من ذلک مستمرة دون أن تحظی هذه الحلقات فی ذلک العصر بکثیر من رعایة الدولة.

و فی عام ۶۶۵ ه أعید افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة فی عهد بیبرس الذی شجع العلم فیه هو و لأمراء و القواد، و وقفوا علیه الأوقاف الطائلة ...

و استمر الأزهر یؤدی واجبه الدینی و العلمی فی عهد المماليک و عهد الدولة العثمانیة و عهد النهضة المصریة الحدیثة.

و أول شیخ تولی مشیخة الأزهر کما یحدثنا التاریخ هو الشیخ الخرشی المالکی المتوفی عام ۱۱۰۱ ه و تولی بعده الکثیر من مشایخ الأزهر حتی بلغوا حتی الیوم ۴۱ شیخا آخرهم شیخ الأزهر الحالی الشیخ عبد الرحمن تاج.

و فی عهد محمد علی و أسرته انتقصت أوقاف الأزهر و حقوقه، و لکنه ظل یؤدی واجبه العلمی و الدینی بنشاط کبیر. و من الأزهر کان طلبة البعوث الذین بعث بهم محمد علی إلی أوروبا و عادوا إلی مصر ینشرون العلم و المعرفة و النهضة فی کل مکان، و کانت جل المدارس التی أنشأها محمد علی تأخذ طلبتها من طلبة الأزهر الشریف، و لما أنشئت دار العلوم عام ۱۸۷۱ م و مدرسة القضاء الشرعی عام ۱۹۰۷ م استمدتا طلبتهما من الأزهر. و کان مدرسو الدین و اللغة العربیة فی جمیع مدارس الدولة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۴

و معاهدها من خریجی الأزهر الشریف. و کذلک کان طلبة مدرسة المعلمین الأولیة و أساتذتها.

و قد قام لأزهر بنشاط کبیر، و أسهم بنصیب ضخم من الجهاد الوطنی فی جمیع المواقف القومیة الوطنیة فهو الذی قاوم الاحتلال الفرنسی لمصر و هو الذی أذکی لهیب الثورة العرابیة، و هو الذی غذی ثورة عام ۱۹۱۹، و له فی کل موقف وطنی جهاد مذکور مشکور.

و منذ آخر القرن التاسع عشر إلی عصرنا وضعت قوانین منظمة لشئون الأزهر. و من أشهر هذه القوانین قانون عام ۱۹۳۰ م بإصلاح الأزهر الشریف، و آخر هذه القوانین قانون عام ۱۹۳۶ م الذی یسیر الأزهر علیه الیوم فی نظامه الجامعی و العلمی، و فی تقسیمه إلی معاهد و کلیات .

فضل الأزهر علی العلوم و الآداب:

الأزهر بیت العلم العتیق و مثابة الثقافة الإسلامیة. حمل لواء المعرفة فی مصر و فی الشرق الإسلامی قرونا متصلة و حفظ التراث الإسلامی فی الدین و اللغة و العلوم و نشره علی الآفاق طیلة ألف سنة أو یزید. و قد تخرج فیه أفواج من العلماء خلال عصور التاریخ ممن انتشروا فی بقاع الأرض و حملوا معهم مشاعل المعرفة و الثقافة التی تزودوا بها فی الأزهر فأضاءوا الأرض علما و نورا و رشادا.

و لا یزال الأزهر حتی الیوم کعبة العلوم و الآداب و معقد آمال المسلمین فی مشارق الأرض و مغاربها.

و الأزهر هو الذی حفظ العلوم الإسلامیة و اللغة العربیة من الضیاع و الاندثار و هو الذی حفظ للأدب العربی، فی شتی بلاد العروبة،

رونقه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۵

و بهاءه. و قد تخرج فیه العدید من العلماء و الأدباء و الکتاب و الخطباء و الشعراء فی کل عصر و کل جیل.

أثر الأزهر فی التوجیه الدینی:

و الأزهر منذ أنشیء حتی الیوم هو الذی یتولی قیادة الحرکة الدینیة فی العالم الإسلامی، و آراء شیوخه فی الحجة القویة التی یقابلها المسلمون فی شتی بقاع الأرض بالطاعة و الامتثال و القبول. و قد خرج الأزهر الکثیر من رجال الدین منذ أنشیء إلی الیوم، و خریجوه هم الذین تولوا قیادة الحرکة الدینیة فی کل مکان من بلاد العالم الإسلامی.

و فی الأزهر هیئة کبار العلماء التی أنشئت بمقتضی قانون عام ۱۹۱۱ م. و فیه کذلک لجنة للفتوی عام ۱۹۳۷ م. و هاتان الهیئتان لهما أثر کبیر فی التوجیه الدینی فی العالم الاسلامی.

و من أعلام الأزهر و أئمته فی التوجیه الدینی الإمام محمد عبده (۱۲۶۶ ه- ۱۹۰۵ م) و له فضل کبیر فی الإصلاح الدینی و فی إصلاح الأزهر.

و من أعلامه کذلک محمد مصطفی المراغی، و مصطفی عبد الرازق و سواهما، ممن قادوا الحرکة الدینیة و وجهوها توجیها قویا فی العالم الاسلامی کافة.

و الأزهر بحق قائد الحرکة الدینیة فی العالم الإسلامی قاطبة.

مکانة الأزهر فی العالم الإسلامی:

و لقد ورث الأزهر الحدیث میراثا روحیا و ثقافیا ضخما جلیلا عن الأزهر القدیم، ورث عنه الرسالة الدینیة التی قام منذ أن أنشیء لحمل أمانتها، و التی أخذها بکلتا یدیه لیؤدیها إلی العالم شعلة مضیئة هادیة، و مثلا إنسانیا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۶

رفیعا، و مذهبا فکریا قادرا علی قیادة الحیاة و البشریة جمیعا إلی السلام و الإخاء و الأمن و الرفاهیة.

و ورث عنه الرسالة الثقافیة التی جاهد من أجلها أجیالا طوالا، و التی قامت علیها أروقته و محاریبه و قبابه و مآذنه الشم، و دأبت علی الکفاح فی سبیلها حلقاته الطاهرة، التی تجمع فیها شباب المسلمین- من شتی الأقطار و الشعوب- علی کلمة الحق و التقوی و المعرفة، استجابة لأمر اللّه، و تحقیقا لفکرة الإسلام، و سعیا وراء الحقیقة التی هی أکبر محرر للأمم، و الجماعات و الأفراد. من أغلال الجهل و الجمود و التأخر.

و عاشت حلقات الأزهر الجلیلة طویلا خلال هذه الأجیال، و هی نحمل عن العالم الإسلامی رسالة الإسلام الروحیة و الدینیة و الثقافیة، و تؤدیها ناصعة بیضاء کخیوط الفجر، مشرقة هادیة کضوء الشمس، و من هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الاسلامی فی القدیم، و کانت عن جدارة بمثابة مصنع یصنع الرجال و الأبطال، ممن قادوا الشعوب الإسلامیة إلی النهضة، و الحضارة و العزة، مما جعل للأزهر مکانة کبری فی العالم الإسلامی.

مواقف خالدة للأزهر:

و لا ننس أن الأزهر قد قاد فی القدیم ثورتین کبیرتین تعدان من أسبق الثورات الدستوریة العالمیة، قاد إحداهما عام ۱۲۰۰ ه- ینایر

۱۷۸۶ م الشیخ الدردیر، و قاد الأخری عام ۱۲۰۹ ه- ۱۷۹۵ م شیخ الأزهر فی ذلک الوقت الشیخ عبد اللّه الشرقاوی، و کسب الشعب المصری من الثورة الأولی مبدأ دستوریا جلیلا هو وجوب احترام الحاکم لإرادة المحکومین، و کسب من الثانیة مبدأ آخر هو أن الأمة مصدر السلطان، و کانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان، و وثیقة فریدة فی سبیل التحریر سبق بها شعب مصر غیره

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۷

من الشعوب، کما اعترف بذلک المؤرخون من العرب و الغرب.

و قد حمل علماء الأزهر عبء الجهاد لتحریر مصر من الاحتلال الفرنسی منذ دخل جیش نابلیون أرض الوطن فاتحا. و لا ننس کذلک أن الأزهر قام بثورة ثالثة فی صفر عام ۱۲۲۰ ه- ۱۸۰۵ م لانهاء النفوذ الترکی من مصر، و لکن دجالا سیاسیا بارعا یتدفق فی أعصابه الدم الترکی استطاع بدهائه أن یحول المعرکة إلی مغانم شخصیة له و لأسرته التی حکمت مصر نحو قرن و نصف من الزمان.

و کان قائد الثورة المصریة الرابعة کذلک أزهریا صمیما، هو الزعیم الوطنی القائد «أحمد عرابی» الذی قاد الثورة العرابیة للقضاء علی نفوذ المستعمرین من الأتراک و المستغلین من الإنجلیز. کما کان زعیم الثورة الشعبیة الخامسة أزهریا صمیما هو المرحوم سعد زغلول، الذی کان یعمل للقضاء علی الاستعمار الإنجلیزی و تحریر شعب مصر من أغلاله. و لا ننس کذلک أن قادة ثورة مصر الأحرار تتلمذوا علی شیخ أزهری ورع زاهد متصوف کان رائدا روحیا لهم هو الشیخ محمد الأودن من علماء الأزهر المعاصرین.

الأزهر و التجدید:

و لقد تطورت البیئة الثقافیة فی الأزهر فی العصر الحدیث: بتأثیر الحضارة الفکریة الغربیة، و بفضل لفیف من علمائه الأعلام الخالدین.

و من الحق أن الأزهر منذ بدأ القرن التاسع عشر کان یتطلع إلی ثقافة الغرب و حضارته فی شیء من الفتور و الکراهیة، إیمانا بقومیة المسلمین السیاسیة و الفکریة و الثقافیة، و لکنه لم یجحد فکرة السعی إلی النهضة، أو الإیمان بالتطور: فسافر بعض أبنائه فی بعثات حکومیة إلی باریس و لندن و سواهما من عواصم الغرب، و کان من أشهرهم رفاعة الطهطاوی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۸

و تطلع بعض علمائه فی أواخر القرن التاسع عشر إلی معرفة بعض اللغات الغربیة لدراسة أصول حضارة الغرب الحدیثة الفکریة و الثقافیة، و للرد علی ما یثیره بعض الغربیین حول الإسلام من شبهات، و کان فی مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده، الذی کان أکبر رائد أزهری للفکر المصری فی العصر الحدیث.

و لقد نهض شیوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبء إصلاح البیئة الثقافیة داخل الأزهر، و بعث روح التجدید و الحیاة فی حلقات الأزهر العلمیة، لتکون علی صلة بینابیع الفکر الحدیثة المتدفقة.

و فی الحق أن الأزهر المحافظ المتمسک بتقالیده و شعائره و نظمه و حیاته الثقافیة کان أرجح کفة من عوامل التجدید، و تیارات الجدید.

و منذ أکثر من ربع قرن من الزمان، أو بالتحدید فی مایو سنة ۱۹۲۸ تولی مشیخة الأزهر الشیخ محمد مصطفی المراغی و هو تلمیذ من تلامذة الإمام محمد عبده، و لکنه ما لبث أن استقال منها فی أکتوبر سنة ۱۹۲۹، و خلفه الشیخ محمد الأحمدی الظواهری، ثم عاد الشیخ المراغی إلی المشیخة فی ۲۶ أبریل سنة ۱۹۳۵، و ظل فیها إلی أن توفی فی ۲۲ أغسطس ۱۹۴۵.

و علی ید الشیخ الظواهری تحول الأزهر إلی جامعة علمیة لها کلیات ثلاث: هی الشریعة و اللغة و أصول الدین، و فیها أقسام للدراسات العلیا ذات نظام علمی جامعی، و لکن أثر ذلک لم یظهر إلا فی عهد الشیخ المراغی و علی یدیه و بتشجیعه و رعایته، فکان یشرف هو و معاونوه من شیوخ الکلیات الأزهریة علی نظم هذه الدراسات، و یشترک فی امتحاناتها و مناقشات رسائلها، و یرعی خریجی هذه الأقسام و یضعهم فی منازلهم العلمیة فی کلیات الأزهر. و بذلک صار الأزهر یخضع فی حیاته الثقافیة الجدیدة للنظم

الجامعیة الصحیحة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۸۹

هـذا عدا ما صـنع الشـیخ من تقدیر للکفایات العلمیة، و رعایة للبحث الثقافی الحر فی داخل الأزهر، فصـنع بذلک نهضة ثقافیة جدیرة بالتأمل و التقدیر.

الأزهر الخالد

الأزهر جامعة الإسـلام العریقة، و منارته الهادیة، و سـیظل النور متألقا منه إلی قیام الساعة. و من عجب أن تقوم فی مصر دعوة إلحادیة ترمی إلی إلغاء التعلیم الـدینی بحجـة توحید التعلیم، أوقل إلی إلغاء المعاهد الإبتدائیة و الثانویة الأزهریة، و التی تمثل ثلثی بناء الأزهر العالمی، و نحو ۸۰ فی المائة من طلبة الأزهر الشریف.

و نحن نسائـل هؤلاء الـداعین إلی توحیـد التعلیم: هل ألغت فرنسا أو انجلترا أو أمریکا التعلیم الـدینی فی بلادها؟ کلا ... و هل ألغت هـذه الشـعوب التعلیم الـدینی فی المسـتعمرات التی تحکمها؟ کلا ... و هل ألغت فرنسا المعاهـد الابتدائیـة و الثانویـة لجامعـة الزیتونة الدینیة فی تونس بحجة توحید التعلیم؟ کلا ...

إن هذا الموقف الذی یقفه طه حسین من الأزهر یدلنا علی سخف شدید و تفاهة واضحة. فطه حسین هو سفیر فرنسا الثقافی فی الشرق الأوسط، و هو الذی تعامل عام ۱۹۴۷ مع وکالة یهودیة و أصدر لها مجلة الکاتب المصـری، و حشد لها الأقلام لیکونوا جمیعا عمالا و أجراء لدی الوکالة الیهودیة فی مصر.

و فی الحق أن نقول: إن الأزهر لیس ملکا لمصـر وحدها، بل کذلک ملک للعالم الإسـلامی کله، و قد شارک العالم الاسلامی الأزهر فی الدفاع عن الأزهر و مقوماته، و أیدت الجماعات الإسـلامیة فی کل مکان الأزهر الشریف، و إن طه حسین الذی یثرثر فی الصحف و یقول فیما یقول: إن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۰

الأـزهر لاـ یتعلم کما یتعلم الناس، یفوته أو ینسـی أنه فی عام ۱۹۵۱ کـان و هو وزیر للمعـارف یصـرح فی وفود الأزهر بأن الأزهر هو المکان الأول الذی تحیا فیه علوم الدین و العربیة، و ینسی کذلک ما کتبه فی مناسبات عدیدة فی تمجید الأزهر و ثقافته.

و الـدکتور لطفی السـید لا یمکن أن یکون متعصـبا للأزهر، و له کلمـة فی التنویه بالأزهر و ثقافـة بمناسـبة ترؤسه لجنـة مناقشة رسائل العالمیة من درجة أستاذ عام ۱۹۴۴، و قد قال فی کلمته هذه: أحمد اللّه أن أصبح الأزهر الیوم فی مستوی علمی رفیع، و صرنا نتحدث فیه فی الفلسـفة القدیمـة، و یتحدث أصـحاب الرسائل العلمیة من خریجیه عن (الإله عند أرسـطو) و إنها لنهضة تبشـر بالخیر کل الخیر بإذن اللّه، و کلمته مسجلة فی الجزء الثانی من کتاب (المنتخبات) لعمید الجیل الدکتور لطفی السید.

و شـهادة الـدکتور منصور فهمی و أمین الخولی و سواهم للأـزهر، لاـ یمکن أن تحمـل علی أی لون من العصبیـة، و قـد کان هؤلاء و سواهم ممن أسهموا فی أعمال مناقشة رسائل خریجی أقسام العالمیة من درجة أستاذ فی الأزهر الشریف.

علی أن مناهج الأزهر الیوم متخمة بالعلوم الحدیثة فی شتی مراحل التعلیم فیه، و هذه العلوم من الکثرة إلی حد أن صرنا نشکو من أنها أصبحت تستأثر بوقت الطالب الأزهری، و تضعف مستواه فی العلوم الدینیة و العربیة.

و إنـا لنرجو أن تزداد الثقـة بالأـزهر یوما بعـد یوم، و ما ذلک علی اللّه بعزیز، و إنه لم یجن علی الأزهر إلا تـدخل السیاسة قـدیما فی شئونه، و نرجو للأزهر الیوم کل عزة و کرامة، و نهضة و تقدم، فی شتی جوانب نشاطه الروحی و الفکری و الثقافی.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۱

الدکتور طه حسین و الازهر

یری د. طه أن إغلاق ثلثی الأزهر إصلاح له .. و أن إبعاد ۹۰ فی المائة من طلاب الأزهر عن معهدهم الذی ینهلون منه الثقافة الإسلامیة الصحیحة یجب أن یکون هو الخطوة الثانیة التی تخطوها مصر فی عهد ثوارها. و الدکتور طه لم یدع فی یوم من الأیام إلی إلغاء جامعة من جامعاتنا اکتفاء بأخواتها، و هو الذی حارب إدماج أقسام اللغة العربیة فی آداب الجامعات الثلاث فی قسم واحد. و فی عهده فی وزارة المعارف کان یشجع إنشاء المدارس الأجنبیة و الخاصة و الحرة، و لم یزعم أن من مبادیء الإصلاح إدماج هذه المدارس أو الجامعات بعضها فی بعض، فکیف به یقف من الأزهر هذا الموقف العابث الذی لا یتصور طه نفسه خطره علی نفسه و علی مصر و علی العالم العربی و الإسلامی.

و لو کان الدکتور طه یحرص علی سمعة الفکر المصری المعاصر حقا لما لجأ إلی هذا المنطق السوفسطائی العجیب الذی یجعل به الحق باطلا و الباطل حقا، و یظن أن الناس قد صدقوا هذا المنطق المقلوب. و أنا أزعم أن الدکتور طه سوفسطائیا و إنما هو یحاول أن یلجأ إلی منطق السوفسطائیین لیقنع الناس برأیه لغرض فی نفسه. و أشهد أن فرنسا الاستعماریة لم تحاول فی یوم من الأیام أن تغلق الأقسام الابتدائیة و الثانویة من جامعة الزیتونة الدینیة فی تونس، بدعوی توحید التعلیم، أو باسم إصلاح الزیتونة، و التعلیم الابتدائی و الثانوی فی الأزهر- و هو الذی تجمع مناهجه بین ثقافات وزارة المعارف و علوم الدین و اللغة علی أوسع نطاق- لیس هو الذی تعمل الدولة علی تصفیته لأن الشعب نفسه، و الدولة نفسها، لا تری فیه إلا الخیر کل الخیر لمصر و للعالم الإسلامی کافة. و لو قدر الغی التعلیم الابتدائی و الثانوی من الأزهر لما استطاع مثل الدکتور طه أن یتعلم و أن یسمع به الناس.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۲

و الشعوب الإسلامیة کافة ترسل أبناءها إلی الأقسام الابتدائیة و الثانویة فی الأزهر، فماذا یرید الدکتور طه لأبناء هذه الشعوب الإسلامیة بعد إغلاق المعاهد الأزهریة الابتدائیة و الثانویة، أظنه سیحاول أن یشرع لهذه الشعوب، کما یحاول الیوم أن یشرع لمصر و لشعب مصر و لثورة مصر.

و فی البلاد الإسلامیة معاهد ابتدائیة و ثانویة علی غرار الأزهر، و بعضها تتبع الأزهر، فما ذا تصنع یا دکتور طه بهذه المعاهد بعد إغلاق مثیلاتها من الأزهر فی مصر؟.

و أنت تعلم أن مثل هذه المعاهد هی الوسیلة الوحیدة لتعلیم الثقافة الإسلامیة و العربیة فی بعض الشعوب المسلمة التی یحکمها الاستعمار.

و یعمل جاهدا علی أن یحطم فیها کل مقوماتها لتظل فریسة فی أنیابه إلی الآن.

و ما رأیک یا دکتور طه و أنت تدعو إلی تعلیم الشعب فی أن هذه الأقسام الابتدائیة و الثانویة هی التی کان یلجأ إلیها أبناء الشعب لیتعلموا و یتثقفوا، ثم هی الوسیلة الوحیدة للتعلیم لدی أغلبیة الریف الذین لا یؤمنون إلا بالأزهر و ثقافته.

و الدکتور طه لا یجهل أن هذا التعلیم الدینی قد قام تحقیقا لمشیئة أهل مصر الإسلامیة، و وقف علیه المسلمون فی مصر و غیرها أوقافا طائلة، و لا یزالون یمدونه بالعون و الرعایة فی مصر الإسلامیة و فی غیرها من الشعوب المسلمة، و أنه هو الذی تحققت فیه مجانیة التعلیم و دیمقراطیته و ظروف تکافؤ الفرص أمام الشباب الإسلامی لا الیوم فحسب، و لا الأمس فقط، بل طیلة ألف عام أو یزید.

و الدکتور طه یدعو إلی توحید التعلیم تحت رایة وزارة المعارف و جعل کلیات الأزهر معاهد للتخصص فی الثقافة الإسلامیة، و کیف یتخصص طالب فی شیء لم یمهد له؟ و من الذی یستطیع أن یفهم بعد التوجیهیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۳

أصول الفقه و علوم أصول الدین و فلسفة العربیة فی کتاب سیبویة و غیره، و فلسفة اللغة فی الخصائص و المخصص و غیرهما.

و الدكتور طه يقول: إنه يحب أن يشارك الأزهريون فى كل ميدان، فيكون منهم مهندسون و أطباء و سوى ذلك، و أنا أحب أن يشرح الدكتور للناس ذلك، فلقد أحب ألا يكون هناك تعليم ابتدائى أو ثانوى خاضع للأزهر، ثم فرض أن حامل التوجيهية سوف يدخل كليات الأزهر ليتخصص فى الدين و اللغة، فمتى يكون مهندسا أو طبيبا؟ أيكون ذلك و هو يحمل التوجيهية فقط، أم سوف يكون كذلك بعد تخرجه من الأزهر؟ أليس هذا هو عين سوفسطائية الدكتور طه، التى ينعتها بلقب التجديد و اسم المنطق.

و الدكتور طه، يعلم أن حامل التوجيهية لن يدخل الأزهر لأنه لا يستطيع أن يدرس بعد التوجيهية علوم الأزهر و ثقافته. أرح نفسك يا دكتور من هذا الالتواء و التعقيد و التكلف البغيض، ادع فى الناس إلى إغلاق الأزهر لا لذنب جناه الأزهر و لكن لأنه لم يستطع أن يؤمن بمنطقك بأفكارك. ثم لأن له تاريخا مضيئا، و منزلة كريمة فى العالم الإسلامى منذ عشرة قرون.

إى و اللّه عشرة قرون كاملة، حقق الأزهر فيها لمصر العزة و الكرامة و معانى القومية الصحيحة و رباها على الحرية، و تعشق الثورة و الإيمان بمصر، مصر الخالدة العزيزة و ظل فيها معقل القومية، و ملاذ الفكر الحر المتوثب المنطق إلى أهدافه النبيلة فى الحياة.

الأزهر فى القرن العشرين

من روح مصر، و من ضميرها الوطنى، و كفاحها القومى، انبثق فجر الحرية و الثورة و الكرامة و العزة و الاستقلال لمصر الخالدة، مصر التى تقهر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۴

الأحداث، و التى تسلم أبناؤها الثائرون أمانة الوطن المفدى، بعد أجيال طويلة ملؤها النضال فى سبيل الشعب: حريته و عزته و كرامته.

و فى هذا المجال نذكر الأزهر، الأزهر العريق فى التاريخ، فى المجد، فى الجهاد، و الذى عرفت له مصر أروع الأعمال، و سجلت الأيام له أمجد الصفحات فى تاريخنا القومى و الوطنى.

و عند ما نريد الحديث عن «رسالة الأزهر فى القرن العشرين» لا بد أن نشير إلى تاريخ الأزهر فى الكفاح الوطنى، لأنه جزء لا يتجزأ من تاريخه الثقافى و الدينى، و من رسالته التى حملها خلال العصور و الأجيال، بل من تاريخ بلادنا التى حملت رسالة الثقافة و الحضارة، و ألهمت الإنسانية أرفع معانى النهضة و التقدم و الحياة.

و فى هذه السبيل نذكر الشيخ الإمام الدردير رضوان اللّه عليه، و تذكر كفاحه من أجل مصر و شعبها الحر الأبى، ففى عام ۱۲۰۰ ه: ۱۷۸۶ م أعلن علماء الأزهر الشريف الثورة ضد الأمراء من المماليك، لإسرافهم فى فرض الضرائب، و نهب أموال الشعب، و كانت الثورة بقيادة الشيخ الدردير، الذى بادر فأعلن تصريحه الخالد المأثور: سنثور مع الشعب، و ننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا، و نموت شهداء أو ينصرنا اللّه عليهم».

و جاء الأمراء يعتذرون للإمام الزعيم، و لم يقبل الشيخ اعتذارهم حتى ألزمهم بميثاق وطنى مكتوب، أعلن فيه لأول مرة حقوق الإنسان قبل ميلاد الثورة الفرنسية بسنوات ثلاث، و نص فيه على حرية الشعب، و عدم جواز فرض ضرائب إلا بإرادته، و على أن الأمة مصدر السلطان.

و نذكر كذلك الشيخ الإمام عبد اللّه الشرقاوى، و جهاده من أجل مصر. ففى عام ۱۲۰۹ ه: ۱۷۹۵ م أعلن علماء الأزهر الشريف الثورة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۵

على المماليك، و أجمعوا على مقاومة أمرائهم بالقوة إلى أن يستجيبوا لمطالب الشعب، و كان قائد هذه الثورة هو الإمام الشيخ عبد اللّه الشرقاوى شيخ الأزهر أيام ذاك، و كان مجلس الثورة يعقد فى الأزهر، و أعضاؤه هم:

الشيخ الشرقاوى: و الشيخ البكرى، و الشيخ الأمير، و السيد عمر مكرم، و لم تنته الثورة إلا بعد اعتذار أمراء المماليك، و بعد أن أصدر أعضاء مجلس قيادة الثورة وثيقة وقعوا عليها و ألزموا الأمراء بالتوقيع كذلك عليها، و كانت إعلانا وطنيا جليلا لحقوق الشعب، حيث

تضمنت ما یلی:

۱- ألا تفرض ضریبة إلا إذا أقرها مندوبو الأمة.

۲- أن ینزل الحکام علی مقتضی أحکام المحاکم.

۳- ألا تمتد ید ذی سلطان إلی فرد من أفراد الأمة إلا بالحق و الشرع.

و عند ما دخلت الحملة الفرنسیة مصر نبعت ثورة القاهرة الأولی من الأزهر الشریف عام ۱۲۱۳ ه- ۱۷۹۸ م، و کان مجلس الثورة مکونا من کبار علماء الأزهر آنذاک؛ و رئیسه هو الشیخ السادات؛ و کان یعقد اجتماعاته فی الأزهر. و قد بطش نابلیون بالثوار الأحرار، و أغلق الأزهر، و أعدم ثلاثة عشر عالما من أبر علمائه بوطنهم و دینهم.

و کذلک قامت ثورة القاهرة الثانیة عام ۱۲۱۴ ه- ۱۸۰۰ م من قلب الأزهر، و کانت بزعامة الشیخ الأزهری و السید الوطنی عمر مکرم نقیب الأشراف فی مصر، و قد أخمدت هذه الثورة بقوة و عنف، و قبض علی زعمائها، و نکل بهم تنکیلا شدیدا.

و فی عام ۱۲۲۰ ه- ۱۸۰۵ م أعلن علماء الأزهر الثورة علی الوالی الترکی خورشید باشا»، و أجمعوا علی عزله، و کتبوا للخلیفة العثمانی بذلک؛ و قد کان عمر مکرم زعیم هذه الثورة، و لا ننسی کلمة خالدة له

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۶

یومذاک، عند ما ذکره أحد قواد الأتراک بالآیة الکریمة: «أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ»؛ فرد علیه عمر مکرم فی عزة و إباء: أولو الأمر هم العلماء و حماة الشریعة و السلطان العادل.

و لما ولی محمد علی حکم مصر استبد بالحکم، و تنکر للشعب، و بطش بالحریات، و أسرف فی فرض الضرائب، و خان العهد الذی عاهد علیه العلماء بأن یحکم بالعدل و الشریعة، فاجتمع فی الأزهر الشریف مجلس وطنی من العلماء، فی أواسط جمادی الأولی ۱۲۲۴ ه- أول یولیو ۱۸۰۹ م لمقاومة محمد علی حتی یخضع لمشیئة الشعب فی عدم فرض ضرائب جدیدة، و إلغاء الضرائب المستحدثة، و رفض السید عمر مکرم زعیم العلماء التوقیع علی میزانیة محمد علی السنویة، و قال کلمة خالدة مأثورة: «إن هذا الحاکم- یرید محمد علی- محتال، و إذا تمکن فسیصعب إزالته، فلنحاربه من الآن، و أسرع محمد علی فخلع السید عمر مکرم من نقابة الأشراف، و نفاه إلی دمیاط، و قد ألقی السید عمر مکرم تصریحا عقب إبلاغه بصنیع محمد علی معه، جاء فیه: «إنی راغب عن منصب النقابة، زاهد فیه، فلیس فیه إلا التعب. و أما النفی فهو غایة مطلوبی، حتی لا أکون مسئولا أمام اللّه عن ظلم یقع علی الشعب، و إنی لا أرید إلا أن أعیش فی بلدة لا تدین لحکم محمد علی». و ظل السید عمر مکرم منفیا فی دمیاط و طنطا حتی توفاه اللّه عام ۱۲۳۷ ه- ۱۸۲۲ م.

و لسنا ننسی الثورة العرابیة و زعیمها الأزهری المصری القائد: أحمد عرابی، و کیف وقف علماء الأزهر وراءه صفا موحدا، یدعون الشعب إلی الجهاد تحت رایته، و أصدروا فتوی شرعیة بمروق الخدیوی توفیق عن الدین لانحیازه إلی الجیش المحارب لبلاده. و أعلنوا فی المؤتمر الوطنی عزل توفیق، و وقف أوامره و تکلیف عرابی بالدفاع عن البلاد، و أن یبلغ المجلس الوطنی هذه القرارات إلی السلطان.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۷

و قد نکل الإنجلیز و توفیق بعد ذلک بعلماء الأزهر تنکیلا شدیدا.

و استمر شیوخه لا- یبالون بالحکام من أسرة محمد علی، و لهم فی ذلک مواقف مشهورة، حتی قامت الثورة المصریة عام ۱۹۱۹. فنبعت من قلب الأزهر، و اشتعلت شرارتها فی صحته، و انبثق من منبره و محرابه فجر الحریة لشعبنا المجید الذی نال ما تمناه بفضل کفاحه الطویل العتید.

و لا ننس موقف الشیوخ الثلاثة: عبد المجید سلیم و مأمون الشناوی و إبراهیم حمروش، من سیاسة القصر و عبثه بقوانین الأزهر و استقلاله و حریته، و کیف أصدروا بیانا مطبوعا موجها إلی العالم الإسلامی، ینددون فیه بفاروق و رئیس دیوانه و رئیس وزرائه، و

يسجلون عليهم فى صراحة تدخلهم فى شئون الأزهر و عبثهم بقوانينه. و للشيخ عبد المجيد سليم عند ما هدده رئيس الديوان بالخطر كلمة مأثورة خالدة: ما دمت أتردد بين بيتى و المسجد فلا خطر بإذن اللّه، و له كلمة أخرى ندد فيها بفاروق و عبثه و مجونه عند ما أقام فى كابرى لاهيا عابثا، قالها الشيخ و أعلنها و سارت مسير الأمثال، و هى: «تقتير هنا و إسراف هناك».

هذه قطرة من كفاح الأزهر و أدائه لرسالته، و للأمانة الملقاة على كواهل علمائه نحو الشعب. و هى تصور لنا فى وضوح روح الأزهر و جوهره و سر خلوده و بقائه شاهق الذرى على مر الأجيال، راسخا يرسل الضوء و النور و الهدى إلى كل مكان رسوخ الجبال الراسيات. و هل هناك أروع من أن يصدر شيخ معمم فتوى ببيع أمراء المماليك الأتراك ليصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين، لأن حكم الرق سار عليهم، و هم أرقاء لسادتهم من أبناء مصر، لأن السلطان اشتراهم من مال الدولة، و لا يزال حكم الرق مستصحبا عليهم. و كان من جملة هؤلاء الأمراء نائب السلطنة، و كلهم أصحاب حكم، و سلطان و نفوذ و جاه، و كان ذلك فى منتصف القرن السابع الهجرى، و بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بقليل، و كان هذا

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۸

الإمام هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضوان اللّه عليه.

و بعد فإن رسالة الأزهر فى القرن العشرين تشمل الرسالة الدينية الكبرى، و الرسالة الثقافية و الأدبية، و رسالته الوطنية و الاجتماعية.

فمن صميم رسالته الدينية:

۱- إنشاء المراكز الإسلامية فى دول أوروبا و أمريكا و الشرق الأقصى و أفريقيا لنشر رسالة الإسلام و تعاليمه الصحيحة.

۲- و تلخيص رسالة الإسلام فى مؤلفات حديثة، و نشرها بجميع اللغات العالمية.

۳- و محاربة المادية و المذاهب الهدامة الوافدة علينا من أوروبا و أمريكا و الدعوة إلى الروحية السامية المهذبة، و إذاعتها بين جميع الطبقات.

۴- و العمل على إنماء الأخوة الدينية و الروحية بين المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها، و نشر رسالة التقدم الروحى و الدينى فى البلاد الإسلامية.

۵- و إذاعة مبادىء الإسلام و أصوله الرفيعة الصالحة لقيادة الإنسانية بين مختلف الجماعات و الطبقات، و إحياء الشعور الدينى و تنمية روح التدين بين الأفراد و الشعوب.

و من صميم رسالة الأزهر الثقافية و الأدبية:

۱- نشر التراث القديم فى شتى العلوم الإسلامية نشرا علميا حديثا.

۲- و وضع مؤلفات حديثة فى جميع فروع الثقافة، و تناول مشكلاتنا العامة و الخاصة بالدراسة و البحث على ضوء الدين.

۳- و إقامة معاهد دينية فى جميع مدن مصر و العواصم العربية و الإسلامية لتعميم الثقافة الدينية الصحيحة.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۳۹۹

۴- و ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة دقيقة إلى شتى اللغات.

۵- و النظر إلى مناهج الأزهر و علومه و كتبه الدراسية نظرة جدية جديدة تتفق و حياتنا الفكرية و مطالبنا الروحية.

۶- و دعم التقاليد الجامعية الصحيحة فى الأزهر مما يتفق و تقاليده القديمة الموروثة، و تعزيز النظام العلمى الجامعى فيه، و إقرار نظام الدراسات العليا فيه على أسس جامعية رفيعة.

۷- و إنشاء أقسام جديدة فى كليات الأزهر لدراسة اللغات و الآداب الأوروبية الحديثة، و أهم المذاهب الروحية و الفكرية المعاصرة.

۸- و تنمية التعاون الثقافى بين الأزهر و مختلف المعاهد و الجامعات فى الشرق و الغرب.

۹- و كذلك نشر الثقافة العربية و الأدبية، و إخراج أمهات كتب اللغة و مصادر الأدب إخراجا علميا منظما.

۱۰- و تنظيم المواسم الثقافية و الأدبية لزيادة ثقافة الشباب، و الارتفاع بمستواهم الفكرى.

و من صميم رسالة الأزهر الوطنية و الاجتماعية.

۱- العمل على بعث الروح الثورى فى الشعب.

۲- و مشاركة الدولة فى التوجيه الاجتماعى و الوطنى فى صفوف الأمة.

۳- و المعاونة فى محو الأمية، و فى نشر الأمن، و إذاعة الوئام بين الناس، و فى خلق روح التضحية و القومية و الإيثار و العدل و حب تحمل المسئولية فى نفوس الشباب.

۴- و تخفيف الآلام عن المنكوبين و المحرومين و الأشقياء فى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۰

المجتمع، إلى غير ذلك من صميم رسالة الأزهر التى هى جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام ديننا الكريم.

و من المؤسف حقا أن تكون القوانين فى الأزهر رجعية عتيقة بالية إلى الحد الذى يحول بين الكثير من الشباب و التعليم الدينى، و أن تهمل أمور الشباب فيه إهمالا خطيرا فلا يلقون رعاية و لا توجيها خارج حجرات الدراسة. و لا يتمتعون برحلات علمية منظمة، و لا بنواد رياضية صغيرة أو كبيرة، و لا باتحاد منظم يرعى شئونهم إلى غير ذلك من شتى ألوان التقصير الذى نشكو منه و نطالب بتلافيه.

و يحضرنى هنا رأى قديم للمرحوم مصطفى صادق الرافعى، إذ قال:

إنه لا ضير على الأزهر أن تعاونه الشعوب و الحكومات الإسلامية بالمال و النفقة الواسعة؛ ليسير قدما نحو أداء رسالته كاملة غير منقوصة فى خدمة الشعوب العربية و الإسلامية، و إنه لا ضير عليه كذلك من منح ألقاب علمية للمفكرين المسلمين فى كل مكان، فإن فى ذلك زيادة لنفوذه الدينى و الروحى فى شتى أنحاء العالم الإسلامى.

و بعد فلقد اجتمعت كلمة مصر و الأزهريين على النهوض بهذا المعهد العتيق، و رفعه إلى الأمام بيد قوية و عقل فتى، و روح وثاب، و نحن لا ننسى موقف الثورة منا؛ و رعايتها للأزهر وسط المحن و الشدائد و الدعوات الإلحادية السافرة، فلقادة الثورة و أبطالها الشكر و التقدير على تصريحاتهم القوية النبيلة التى أعزوا بها من شأن الأزهر، و دافعوا فيها عن حضارة الإسلام و معهده العتيق.

و منذ اليوم سيساند الأزهر الثورة و تساند الثورة الأزهر لخلق مصر الناهضة الحرة الأبية، و لإعزاز الدين و الإسلام و الوطن.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۱

الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى

فقدت مصر و العالم الإسلامى فى مارس ۱۹۶۹ عالما من أجل علماء الأزهر .. هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى عضو جماعة كبار العلماء و رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، انتقل للرفيق الأعلى عن ۷۳ عاما .. قضاها فى سبيل نشر لواء العلم و الدين .. كان آخر من تولى منصب شيخ مذهب الحنابلة بالأزهر .. و آخر بحوثه التى أعدها بحثا من المقدس و بحثا عن الجهاد فى سبيل اللّه .. و آخر كتاب- ما زال تحت الطبع- هو كتاب الوحى و يقع فى ۳۰۰ صفحة و سيصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، و كان قد أتمه قبل وفاته بساعات.

تخرج الشيخ السبكى فى الأزهر الشريف عام ۱۹۲۵ و عين فور تخرجه مدرسا بمعهد الزقازيق الدينى، ثم نقل أستاذا بكلية الشريعة عام ۱۹۳۵.

و فى نفس العام عين عضوا بلجنة الفتوى حين كان الإمام الراحل الشيخ المراغى شيخا للأزهر و تولى رئاسة اللجنة منذ خمس سنوات .. و اختير مفتشا عاما للعلوم الدينية و العربية بالأزهر سنة ۱۹۴۷، و فى عام ۱۹۵۱ عاد إلى منصبه أستاذا بكلية الشريعة و ظل بها حتى أحيل للمعاش عام ۱۹۵۹، و قضى ۴۴ عاما فى خدمة العلم و الدين، و جند نفسه لتفسير الدين كما أنزله اللّه.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۲

اتسع نشاط لجنة الفتوی فی عهده و أصبحت تتلقی الفتاوی و ترد علیهم .. و کان للشیخ السبکی مکانة فی مقدمة العلماء الدارسین فی علوم الدین و اللغة .. و عین شیخا لمذهب الحنابلة بالأزهر و هو آخر من تولی هذا المنصب و فی عام ۱۹۵۴ عین مدیرا لمجلة الأزهر و عضوا فی جماعة نشر الثقافة بالأزهر.

و فی السنوات الأخیرة عین رئیسا للجنة إحیاء التراث الإسلامی و العربی و عضوا بلجنتی الخبراء و موسوعة عبد الناصر للفقه الإسلامی بالمجلس الأعلی للشئون الإسلامیة.

و قبیل وفاته بأیام راجع فیلما تلیفزیونیا عن الإسلام سجله تلیفزیون النمسا و أعد مادته العلمیة فضیلة الشیخ عبد الحکیم سرور مدیر الشئون العامة بالأزهر. و شاهد الشیخ السبکی- رحمه اللّه- الفیلم فی عرض خاص و أشاد بجودته، و سیترجم الفیلم إلی مختلف اللغات، و یعرض فی أنحاء العالم.

ترک سجلا حافلا من التراث الإسلامی .. فی مقدمته کتب نغمات القرآن، و ریاض القرآن، و فی ظلال الکعبة و الهجرة النبویة، کما ترک عددا کبیرا من المقالات فی منبر الإسلام و لواء الإسلام و الوعی الإسلامی و مجلة الأزهر و الشبان المسلمین، و العدید من الأحادیث المسجلة بالتلیفزیون و الإذاعة .. فی برامج نور علی نور، و رحاب الإیمان، و رأی الدین.

و أبناؤه هم المهندس حباب المعید بهندسة جامعة الأزهر و الدکتور عادل بالقصر العینی وهانی و وفاء بطب قصر العینی جامعة القاهرة.

لقد عاش الشیخ السبکی عالما و معلما و سیظل مثلا أعلی یذکره بنوه و تلامیذه و عارفو فضله- بالتقدیر و الوفاء- فی أرجاء العالم الإسلامی ..

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۳

ما ذا حدث؟

فی ۱۴ اغسطس عام ۱۸۵۹ .. ما ذا حدث؟: استنکر رجال الأزهر الأمر الصادر بالسماح بإقامة «الحانات» بالقاهرة و کتبوا عریضة ضمنوها استنکارهم و رفعوها إلی جناب الباب العالی .. و جاء بالعریضة أن عدد الحانات بالقاهرة بلغ ۱۲ حانة مما ینذر بالخطر الوبیل علی سمعة الدین.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۵

نشاط أزهری

عن نشاط الدعاة الأزهریین نشرت مجلة لیبیا الحدیثة فی عددها الصادر فی ۱/ ۴/ ۱۹۶۹ حوارا بینها و بین رئیس المرکز الإسلامی فی بریطانیا الشیخ محمد إبراهیم الجیوشی- الدکتور فیما بعد- جاء فیه:

بدأت معه الحدیث عن موضوع رسالة الدکتوراه التی یعد لها فی جامعة لندن .. موضوع شیق و جدید لم یطرقه أحد من قبل، هو البحث عن آثار مفکر إسلامی متصوف کان له أثر بعید فی الفکر الإسلامی و خاصة فی التصوف .. و له بذلک منهج انصرف به عن کل شیوخ التصوف .. فمن المعروف أن شیوخ الصوفیة یعتمدون فی نقل أفکارهم و آرائهم علی تلامیذهم و مریدیهم ثم ینقلها هؤلاء إلی أتباعهم و هکذا .. إلا أن الشیخ الحکیم الترمذی- موضوع البحث- لم یسلک هذا المسلک بل وضع أفکاره و آراءه فی کتب و رسائل بلغت أکثر من سنتین کتابا لا یزال معظمها مخطوطا و لم یطبع منها إلا حوالی أربعة کتب .. و شعرت بأن الشیخ محمد إبراهیم الجیوشی المدیر المساعد للمرکز الإسلامی بلندن سیغوص فی أعماق هذه الکتب و تلک الدراسات الصوفیة .. و أنا لا أزال أشعر بغمرة السعادة بعد أن أدیت صلاة العید فی المرکز الإسلامی بلندن الذی یتجمع فیه أکثر من عشرة آلاف مسلم و مسلمة فی

مثل هذه المناسبات فيمثلون أروع صورة لتجمع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۶

المسلمين على اختلاف أجناسهم و جنسياتهم .. تراهم من الهند و باكستان و أفغانستان و الملايو إلى آخر قطر عربی و كأنهم فی حج صغير ..

- قلت لفضيلة الشيخ الجيوشی ما هی قصة المركز الإسلامی بلندن ..

فكرت انجلترا خلال الحرب العالمية الثانية أن تقوم بعمل تربط به أواصر الصلة بينها و بين العالم الإسلامی فقامت بتقديم هذا المركز إلى الحكومة المصرية فی ذلك الوقت ليبنى عليه مسجد للمسلمين .. و فی نظير ذلك قدمت الحكومة المصرية للجالية البريطانية فی القاهرة قطعة أرض لتقام عليها كنيسة لهم .. بنيت الكنيسة عام ۱۹۴۵ و لم يبن المسجد حتى الآن .. اعترضت بلدية لندن على المئذنة فی بادیء الأمر ثم على شكل البناء بحجة أنه لا يتناسب مع الأبنية المجاورة بعد أن حذفنا من نموذج البناء الأول المئذنة و لا تزال القضية معلقة حتى الآن!.

- ما هو عدد المسلمين فی بريطانيا و مراكز تجمعهم و نشاطهم؟ ..

اعتقد أن عددهم يبلغ حوالی مليون أو أكثر منهم سبعون ألفا فی مدينة لندن و الباقی موزع فی كل أنحاء الجزر البريطانية و أغلب المسلمين من الهند و الباكستان حيث يشكلون ۹۵ بالمائة من الجالية الإسلامية و اليمنيون من أكثر المسلمين العرب و اذكر أنه كان يتزعمهم فی مدينة كارديف رجل متدين هو الشيخ عبد اللّه الحكيم و كان له نشاط دينی واسع حتى أنه أصدر صحيفة عربية و مطبعة عربية طبعت له العديد من المؤلفات ثم توقفت الجريدة عن الصدور بعد وفاة هذا الرجل الذی بنی مسجدا فی مدينة كارديف يسمى مسجد نور الإسلام.

- ما هو نشاط المركز الإسلامی هنا؟ ..

ينقسم نشاطنا إلى ثلاثة أقسام رئيسية.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۷

۱- قسم دينی

۲- قسم ثقافی

۳- قسم اجتماعی.

القسم الدينی- يتمثل فی إقامة الصلوات و خاصة صلاة الجمعة التی يحضرها حوالی خمسمائة رجل و تلقی الخطبة باللغتين العربية و الانجليزية و يبدو هذا النشاط ملحوظا فی شهر رمضان المبارك حيث تقام صلاة التراويح كل ليلة و إلى جانب ذلك الاحتفال بالمناسبات الرسمية كالعيد النبوی الشريف، و الهجرة و غزوة بدر و فتح مكة المكرمة و ليلة القدر و ليلة الاسراء.

الخ. و فی كل ذلك نحرص على ربط المسلمين ببعضهم و ربط هذه الأحداث بتاريخنا المعاصر .. و فی الأعياد تجمع الزكاة و توزع على المحتاجين إن وجدوا و لكن الذی اتبع فی العيد الماضی أن الجانب الأكبر منها صرف للمنظمات الفدائية و فكرنا أن نصرف الجانب الآخر لهذه المنظمات أيضا لأنه فی نظرنا أحق الوجوه إلا أن مجلس المركز الأعلى رأى أن يأخذ رأی مشيخة الأزهر فی هذا.

القسم الثقافی- يتلخص فی تعليم اللغة العربية لمن يرغب من المسلمين .. و عندنا فی المركز الإسلامی فصل لتدريس اللغة العربية مرتين كل أسبوع و الدراسة فيه مجانية للجميع و هناك فصل آخر لتعليم تلاوة القرآن الكريم تلاوة صحيحة .. بجانب هذا توجد محاضرات شهرية ينظمها المركز يوم السبت الأخير من كل شهر عن موضوع إسلامی يلقيه أحد المحاضرين ثم يتبعه مناسبة عامة .. و هناك نقطة مهمة هی أن كثيرا من الكنائس و المدارس و الكليات و النوادی و الجمعيات المختلفة فی بريطانيا تطلب منا محدثين يحدثونهم عن الإسلام فنبعث إليهم بمتحدثين يجيدون اللغة الإنجليزية و لهم اطلاع واسع بالثقافة الإسلامية و لم تكن هذه الظاهرة

موجودة من قبل بهذه الصورة التى تزداد يوما بعد يوم فالناس فى شوق لمعرفة حقيقة الإسلام. و هناك أيضا مجلة يصدرها المركز باللغة الإنجليزية مرة كل ثلاثة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۸

أشهر فيها أبحاث تتعلق بالفكر الإسلامى العربى ..

القسم الاجتماعى- و نشاطه واسع يشمل عقود الزواج و اعتناق الدين الإسلامى و مشاكل المسلمين و معظمها نابع من البيئة التى يعيشون فيها و التى تخالف بيئتهم الأصلية كالطعام و الشراب و معاملة الناس و تربية أطفالهم تربية إسلامية فى مجتمع اضطروا لأسباب مختلفة أن يعيشوا فيه .. و كثيرا ما تتصل بنا المستشفيات و تبلغنا بأن مريضا أو مريضة مسلمة ترفض أن تأكل أكلة معينة فنذهب إلى المستشفى و نوضح لهم ما ينبغى عدم أكله و الواقع أنهم يستجيبون لمثل هذه التعاليم .. كذلك فإننا نقوم بزيارة بعض السجناء المسلمين و نبين لإدارة السجن أوقات الصلاة و ما هو محرم على المسلم أكله أو ما شابه ذلك و يشكروننا على ذلك .. و بصورة عامة فإن هذا القسم بالإضافة إلى كل ذلك ينظم الصلة بيننا و بين الجاليات الإسلامية فى الجزر البريطانية ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۰۹

المرأة فى الأزهر

التحقت فاطمة الحلفاوية من بلدة «الكمايشة» مركز تلا منوفية قد التحقت بالأزهر فى سنة ۱۳۰۲ ه.

و قطعت فى معهد طنطا مراحل التعليم كلها- و لما حاولت الحصول على الشهادة «العالمية» أخفقت فى الامتحان أمام لجنة كان رئيسها المرحوم الشيخ دسوقى العربى «طه حسين حين أراد الحصول على العالمية».

و فى سنة ۱۳۰۴ ه انتسبت بمعهد طنطا السيدة «فاطمة الغنامية» و هى من مدينة طنطا، و فى نفس العام التحقت سيدة أخرى اسمها فاطمة «العوضية» من بلدة طمبول الكبرى مركز السنبلاوين و جاء ذلك كله فى سجلات الأزهر الشريف.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۱

عميد الأدب العربى فى الأزهر

اشارة

دخل الدكتور طه حسين الأزهر يوم الاثنين.؟ ۱۲ أكتوبر بعد غياب طال ۳۷ عاما دخل يتكلم اللغة الفرنسية و يقدم لشيخ الأزهر مستر رودلف سالات مدير الشئون الثقافية بهيئة اليونسكو. و يسترجع مع الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ذكريات الماضى القريب و البعيد.

و قبل أن يغادر طه حسين المعهد الذى تلقى فيه دروسه الأولى قال له شيخ الأزهر!.

- إن عليك حقا للأزهر .. إن خدمته واجبة عليك لقد وضع الأزهر أساس حياتك العلمية و حان الأوان لترد الدين.

لقد دام اللقاء ساعة جرى خلالها حديث فى الدين و العلم.

و الذكريات .. و لم يحضر هذا الحديث سوى صحفى واحد هو حنفى عاشور سكرتير عام التحرير بالجمهورية.

قال الدكتور طه حسين للأستاذ الأكبر: «إننى أحب زيارة الأحرار و الارتباط بهم و أقصد من الحرية، حرية الفكر و حرية المعرفة، الحرية الموصلة إلى السمو فى الهدف و النبل فى الغاية و التى تحقق آمال الناس جميعا فيما يهدفون إليه، أملا يبنى و لا يهدم، و يعلى و يرفع و لا يخفض.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۲

جئت فی صحبة المستر رادولف سالات ليقدم إليكم تحية هيئة اليونسكو جميعا مقدرين لكم جهودكم فی إثارة الوعی الدينی المنظم الـذی يجمع و لا يفرق، و إنه ليقـدر هو و الهيئـة أن الأزهر أقـدم جامعات العالم و هو مصـدر من مصادر الإشـعاع العالمی فهو جـدير بالتقدير و لذا رأی أنه من الواجب عليه أن يزور الأزهر جميعا ممثلا فی شخصكم».

و قال الأستاذ الأكبر للدكتور طه حسين

: إننا نضع يـدنا فی يدك و فی يد كل محب لإعلاء شأن العقل الإنسانی حتی نتمكن جميعا بيد واحدة، و تماسك واحد، أن نخوض غمار الحياة الحرة الرتيبة، و أنا أعتقد أن أول من يقدر الأزهر و يقدر جهاده إنما هو هيئة اليونسـكو و نعتقد أيضا أن توجيه العالم إلی الخير إنمـا هو إلی الأـزهر .. إلی كـل هيئـة تنشـد العلم و تسـعی إلی المعرفـة و من بينهـا هيئـة اليونسـكو، و ذلـك ممـا يركز الأمن و الاستقرار فی ربوع العالم و يمنع من وقوع مثل هذه المذابح الداميـة التی تقع دائما صراعا بين الحق و الباطل و بين الحريـة و الاستعباد و أنا أری أنه لا يصـح أن تقف الهيئات العالميـة علی حد البحث العلمی الجامد، و إنما يجب عليها أن تعمل دائما لتوطيد أركان الأمن و تركيز السـلام، فـإنه لا يجوز أن نسـتخدم النعم التی أنعم اللّه بها علينا من عقول مفكرة و آراء سديـدة و قوة فی الإدراك، لا يجوز أن نسـتغل هـذه أو نوجهها إلی الشـر و إلی إثـارة الخواطر و تحطيم القوی، و ذلـك كله إنما يكون عن طريق التعارف الـذی يبعث علی الحب و التآلف فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، و ما تناكر منها اختلف ...

ثم التفت الأستاذ الأكبر إلی الدكتور طه حسين و قال:

لعلكم تـذكرون يـا أخی الـدكتور أن الأـزهر خطـا خطوة واسـعة فی سبيـل التقريب بين المـذاهب جميعا، خطا هـذه الخطوة حتی فی التقريب بين أهل السـنة و الشـيعة، و كلية الشريعة الآن تدرس الفقه المقارن بين المذاهب الأربعة و بين غيرها من المذاهب الأخری، و أنا حريص علی أن يعرف

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۳

الطلاب و يدرك العلماء الأصول و يقدروا المراجع، و أنا شخصـيا أری ذلك .. أی ليس فی الدين ما يلزم بمذهب معين، فكل الأئمة صـح عنهم «إذا صح الحديث فهو مذهبی» و أنا حريص علی أن يكون مرجعنا الكتاب و السـنة نسـتقی منهما و نأخذ عنهما و ننهل من منهلهما العـذب، علی أن كل ما يخالف هـذا الأصل و يخالف الكتاب و السـنة نرده و لا نقبله، و أبو حنيفـة يا دكتور يقول: إن من لم يعرف من أين أتينا برأينا لا يصـح أن يقلدنا، و لقد سـمعنا فی أوقات كثيرة أن ابن تيمية ضال مضل و نفر المرجفون الناس من مذهبه و لكن تكشف لهم الأمر فعرفوا أنه هاد و مهد.

ثم تطرق الحديث إلی الذكريات .. فسأل الأستاذ الأكبر الدكتور طه حسين: أتذكر يا دكتور الموضوع الذی أسقطوك فيه فی الشهادة العالمية؟

فأجاب الدكتور طه: نعم، أنه المطلق و المقيد.

ثم سأله الأستاذ الأكبر: كم سنة قضيتها فی الأزهر؟ الأزهر فی ألف عام ؛ ج۳ ؛ ص۴۱۳

ل الدكتور طه: أنا دخلت الأزهر سنة ۱۹۰۲، و تركته سنة ۱۹۱۲، و بقيت فيه عشر سنوات، أنا أحب الأزهر و أؤمن بأنه المشعل القوی و القوی جدا الذی ينير للعالم الطريق المستقيم، و أحب فيه العلم و المعرفة و أكره التزمت، أنا أذكر يا فضيلة الشيخ يوم إن كنت طالبا و كـان معی ثلاثـة من الزملاء و كنت أحضـر النحو علی الشـيخ أبو النجـا و كنت حريصا علی النقاش العلمی و لكن ذلك الشـيخ لم

یعجبه ذلک و کأننی قد أفرطت فی النقاش فطردنا من الدرس و أقسم ألا یدرس و نحن فی الفصل فامتثلنا و ترکناه و رحنا نحضر علی الشیخ عبد المعطی الشرشیمی فی زاویة العمیان، و کان ما کان ..

ثم عاد الدکتور حسین بالذکریات إلی الماضی البعید فقال موجها حدیثه إلی الأستاذ الأکبر: أتذکر فضیلتکم یوم أن جلسنا سویا أنا و فضیلتکم و الأستاذ علی عبد الرازق و أخذنا نبحث فیما یجب علینا أن نقدمه لخدمة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۴

الشریعة الإسلامیة و للعقل البشری فاتفقنا یوم ذاک علی أن یکتب الأستاذ علی عبد الرازق فی العقیدة و تکتبون فی الشریعة و أکتب أنا فی تاریخ التشریع؟.

فرد الأستاذ الأکبر و قال: إنه لمن حسن الحظ أن تجیئوا الیوم و قد انتهت المطبعة من طبع کتابی فی العقیدة و الشریعة تحت عنوان «الإسلام عقیدة و شریعة».

فقال الدکتور طه حسین: و قد کتبت أنا أیضا فی قسم التاریخ کتابا باسم «مرآة الإسلام» و لا زلنا فی انتظار ما یکتبه الأستاذ علی عبد الرازق.

مضی من الوقت نصف ساعة و المسترسلات و الدکتور تقی و الأستاذ عبد الحکیم سرور و أنا نستمع فی سعادة إلی الحدیث الذی یدور بین الرجلین الفاضلین ثم قال المستر سالات- باللغة الفرنسیة طبعا- و قام بالترجمة الدکتور طه حسین .. قال للأستاذ: إننی لأستحیی أن أذکر النسبة بین عمر الیونسکو و عمر الأزهر المدید و بین عملها و عمل الأزهر المجید، و الیونسکو و إن کانت مؤلفة من جمیع دول العالم فإننی أعتقد أن قدرتها علی نشر السلام فی الأرض أقل بکثیر من الأزهر و لکننا نطمع فی الکثیر من الأزهر و خاصة فی عهدکم الذی یؤمن المصلحون برسالتکم فیه،

ثم قال الأستاذ الأکبر موجها کلامه للدکتور طه حسین: إن علیک حقا للأزهر و هذا الحق کذلک علی کل من تتلمذ فی الأزهر و أخذ من الأزهریین، و إذن فخدمة الأزهر- إن شاء اللّه- سیصل بمعونة اللّه و معونة لإخوانی المصلحین إلی جمع کلمة المسلمین و رجال الإنسانیة علی کلمة واحدة و هدف واحد.

قال الأستاذ الأکبر: إن الجمهوریة العربیة معنیة کل العنایة بأمر هذه البعوث و مظهر ذلک إقامة هذه المدینة التی تتکون من إحدی و أربعین عمارة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۵

ضمت خمسین جنسیة من مختلف الجنسیات الإسلامیة لیتفقهوا فی دینهم و یتعرفوا إلی نواحی الاجتماع و التعاون و الدیمقراطیة الصحیحة فی إسلامهم، و لینذروا قومهم إذا رجعوا إلیهم، و لیکونوا رسائل حیة لجمهوریتنا یربطون بیننا و بین إخواننا فی جمیع الدول و هؤلاء یعد لهم الآن منهاج دراسی یتفق و طبیعتهم و یحقق الرباط بیننا و بین دولهم و یساعدنا و یساعدهم علی تحقیق رسالة الإسلام، و لقد وفد إلی الأزهر فی هذه الآونة أحد المسلمین الأمریکان لیدرس فی الأزهر، و قد أمرت له بمنحة شهریة.

أدعو اللّه لهذا و لغیره أن یکون جهاده و تعلمه فی سبیل العلم .. فی سبیل الربط الحر المتین بین دول الأرض بما ینشر السلام و یحققه.

ثم استطرد الأستاذ الأکبر قائلا: إن مشیخة الأزهر تدعوک یا دکتور طه و المستر سالات و الدکتور تقی، تدعوکم من الآن لزیارة هذه المدینة المعدة علی أحدث النظم فی العالم ..

ثم سأل المستر سالات: لما ذا لا تترجمون کتب فضیلتکم إلی اللغات الأخری؟

فأجاب الأستاذ الأکبر: إننی أعدکم بترجمتها ..

فتدخل الدکتور طه حسین فی الحدیث و قال: إننی أتمنی لو ترجمت إلی الأسبانیة و اذکر بهذه المناسبة أننی عند ما کنت وزیرا

للمعارف أرسلت بعثة إلى اسبانيا فاشترك الأزهر بواحد و كنت أود أن لو انتفع به الأزهر و هو الآن أستاذا فى كلية دار العلوم.

و بعد ساعة .. انتهى حديث شيخ الأزهر و طه حسين و المستر سالات .. انتهى حديثهم عن حرية الفكر .. الحرية التى توصل إلى السمو فى الهدف و تحقق آمال الناس جميعا فيما يهدفون إليه .. الحرية التى تأبى توجيه العلم إلى الشر و تحطيم القوى .. الحرية التى تهدف إلى التعارف الحر على أساس العلم لا على أساس السياسة ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۶

و انصرف الضيوف الثلاثة .. و أحسست بأنهم خرجوا بشىء جديد عن الأزهر .. أقدم جامعات لعالم واحد المصادر الكبرى للإشعاع العالمى ..

كانوا يسيرون إلى الباب الخارجى و كأنهم يحاولون الخطو إلى الوراء ..

ليتحدثوا من جديد .. عن حرية الفكر .. و حرية المعرفة.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۷

محمد عبد المنعم خفاجى – أديبا–

–۱–

عالم يخطو إلى السبعين، فى صدره عزيمة الشباب، و على ظهره أعباء سنين طوال، قضاها مجاهدا مكافحا فى سبيل خدمة الثقافة و الأدب، و على تجاعيد وجهه تلوح سمات المحتد و عراقة الأصل و طيبة النفس و التصميم على مواصلة الكفاح فى رحلة شاقة إلى المجد، و الإعتماد على النفس دون محاولة للاستعانة بجاه أحد أو بنفوذه.

و من وراء ذلك كله مؤلفات ينوء بحملها جلد إنسان، و ذكر ذائع فى كل مكان من أرجاء العالم العربى و الإسلامى، و اعتزاز من كثير من المفكرين به و بأدبه.

و قد كتب عنه من المقالات ما لا يمكن حصره، و نشرت عنه دراسات عديدة من أهمها:

(۱) كتاب صورة من الفكر المعاصر تأليف الأستاذ فكرى أبو النصر.

(۲) كتاب من رواد الأدب المعاصر تأليف الأستاذ حليم مترى.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۸

(۳) الكتاب العربى.

و عنه كتبت تراجم فى كتب عديدة من أمثال: الأزهر فى ألف عام، و بنو خفاجة و تاريخهم السياسى و الأدبى، و نشر كثير من شعره فى كتاب «مع الشعراء المعاصرين» و فى ديوانه «أحلام الشباب».

–۲–

و يمكننا أن نتعرف إلى المذهب الأدبى عند أديبنا فى كتبه، مما يمكن تلخيصه فيما يلى:

۱– يؤمن أديبنا بضرورة الملكة الأدبية و الموهبة الذاتية كأساس لبناء الأديب من الجانب الفنى و الثقافى، و من ثم نجده يحيل كل الخصائص الذاتية التى تميز أديبا عن أديب إلى أثر هذه المواهب.

۲– و يرى أن الثقافة الأدبية الحديثة للأديب يجب– فوق تناولها لجميع الثقافات الممكنة– أن تتناول التعرف إلى جميع الثقافات الأدبية القديمة و الحديثة و المعاصرة عند جميع الشعوب، و من ثم يحرص على الاتصال بروائع الآداب الأوروبية المترجمة، و يرى

وجوب التعاون و الإخاء الأدبی بین الأدب العربی و هـذه الآداب. کما یری وجوب دراسـة الآداب الشـرقیة عامـة و العربیـة خاصة عند جمیع الشـعوب التی یتصل تاریخنا بتاریخها و حیاتنا بحیاتها و من أجل ذلک أسهم فی نشر کثیر من الآثار الأدبیة القدیمة و المعاصرة لأدباء من أبناء مصـر و البلاد العربیـة. و بحثه عن الشـعر السودانی المعاصـر الذی نشـره فی کتابه «قصـص من التاریخ» یعد بحثا جامعا أصیلا جدیدا.

۳- و أدیبنا یری أن الأدب لا بـد أن یخـدم هـدفا اجتماعیا أو قومیا أو إنسانیا، و إلا فقـد جزءا کبیرا من مقوماته، و من أجل ذلک نراه فی کتابته عن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۱۹

الأدب المعاصر یشید بروائع الآثار الواقعیة فی الأدب و الشعر (راجع مقدمة کتابه قصص من التاریخ).

۴- و هو مع ذلک یری أن الأدب المعاصـر تنقصه الملکـة و الـذوق البلاغی، کما أن الأدب القـدیم کان ینقصه الاتجاه و المـذهب و الرسالة، و من أجل ذلک فهو یبشر بأدب جدید تتجلی فیه خصائص الأدبین أکثر وضوحا عما هی علیه الآن.

و من صور آرائه فی الأدب الحدیث ما کتبه فی مقدمة کتابه «قصص من التاریخ» بعنوان (الأدب و الحیاة) قال:

«الأدب لم یعد الیوم ترفا و فنا خالصا، و تصاویر مزخرفة منمقة و بلاغة أدبیة محضة، و لم یعد یقصد للترفیه و التسـلیة و قطع الوقت، و لیس الأـدب مقصـورا علی إثـارة الشـهوات الجنسـیة کسـبا لجمهور القراء الفـارغین التـافهین، و لیس بخورا یحرق فی مواکب الطغـاة تمجیـدا و تسبیحا بحمـدهم، و لا دعایـة تنشـر لتضـلیل الرأی العام و إلهائه و کسـبه بجانب الدیمقراطیـة أو غیرها، فلم یعد لأمثال هذه الآـداب بیننا قیمـة، و لم یعـد القارىء المثقف یؤمن بمثل هـذا الأدب الأجوف، و لم تعـد أحکام النقـد وقفا علی طائفـة من الکتاب و النقاد المضـللین، الذین ساروا فی کل رکب، و مشوا تحت لواء کل موکب، و وقفوا حیاتهم علی الدعایة لسیاسة الغرب باسم الصداقة و الأحلاف و الدیمقراطیة فی الشرق العربی.

و نحن نبـدأ عهـدا أدبیا جدیـدا نحطم فیه هذه الأصـنام الزائفة، و هذه الأقلام الجوفاء، و هذه الأغراض التی تاجرت بحریتنا الفکریة و الأدبیة، و أخضعت الأدب لأهواء السیاسة و مشیئتها، و أثرت علی حساب الأدباء المساکین.

نحن نمقت هذه العصابات الأدبیة الضالة، التی قتلت النبوغ و حاربت

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۰

الفکر و ضاقت ذراعا بمواهب الشباب من الأدباء فقبرتها، و سخرت الأقلام للتسبیح بحمدها بین الناس.

أصـبح الأدب یـدعو إلی الحریة و الکرامة و الحیاة الطیبة للأفراد و الجماعات و الشـعوب، الحریة الفکریة و الاجتماعیة و الاقتصادیة و السیاسـیة، و الکرامة التی تدع الإنسان مؤمنا بأنه لم یخلق عبدا لإنسان، و إنما خلق إنسانا یشعر بکرامته الإنسانیة و قیمته فی المجتمع، و الحیـاة الطیبـة التی تتکافأ فیهـا الفرص، و تتساوی فیها المواهب، و یجـد فیها کل إنسان له عملا لائقا، و عیشا شـریفا، و مسـتوی ماديا مناسبا و عنایـة واحـدة من الحاکمین، و التی تنعدم فیها الفروق بین الناس، و تقل فیها المشـکلات أمام الفرد، فلا یضـطر إلی الانتحار لأـنه لاـ یجـد الخبز لنفسه و أولاده، و لا یعیش متسولا عالـة علی الناس و لا یقعـد به المرض أو الجهل عن أن یعیش و أن تحفظ علیه کرامته فی وطنه .. یجب أن یکون الأـدب الیوم صـدی الحیـاة المـدوی، و صوتهـا المجلجـل فی کـل سـمع، و لسانها المعبر عن آمال الإنسانیة و آلامها و أفراحها و أحزانها و سعادتها و شـقائها، و أن یعبر فی وضوح عن حیاتنا التی نحیاها: حیاة الفلاح فی حقله، و حیاة العامل فی مصـنعه، و حیاة الموظف فی وظیفته، و حیاة الفتاة التی نادینا بحریتها، و حطمنا الأغلال دونها، ثم لم نعمل شـیئا فی سبیلها، لتسـتطیع الاحتفـاظ بحریتها الطبیعیـة التی تحمیها لها الحیاة، فلم نساعـدها علی العمل الشـریف و لا علی الزواج المناسب، و علی حیاة الأسرة الهادئة، و ترکناها وحدها فی المیدان، تقضی حیاتها محرومة من الزوج السعید الصالح، و الأولاد الذین تتشوق فی لهفة إلیهم.

و الوضوح و البساطة و الجمال و الصدق هی الخصائص الأدبیة الأولی، و العناصـر الفنیة الأساسـیة لکل أدب جمیل بلیغ. و لکن خلود

هـذا الأـدب و ذيوعه يتوقف فوق ذلـك على مضـمونه و على أن يكون الأـدب إنسانى النزعـة، رفيع الهـدف و الغايـة، يعمل مساعـدا لنواميس الحياة على التقدم و النهضة و الازدهار».

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۱

-۳-

و العوامل الثقافية التى أثرت فى عقلية أديبنا، يمكن تلخيصها فيما يلى:

۱- العامل الأول: ثقافـة الأسـرة، و هى أسـرة تنتمى إلى أصول عربيـة قديمة بسط صاحبنا تاريخها فى كتاب خرج منه حتى الآن تسـعة أجزاء- و من هذه الأسرة أعلام قديمة و حديثة و معاصرة من الأدباء و العلماء و الشعراء و الكتاب، و هو كتاب «بنو خفاجة».

۲- العامل الثانى: ثقافـة فى الأزهر الـذى عاش فيه تلميـذا من سـنة ۱۹۲۷ إلى ۱۹۴۶ حيث تخرج من كليـة اللغة العربية يحمل شـهادة «العالميـة من درجـة أسـتاذ فى البلاغـة و الأدب، و تعادل الـدكتوراه حرف (أ) من الجامعات المصـرية- و تخول لحاملها التدريس فى كليـات الأـزهر و كليـات الجامعـات المصـرية، و كـانت الرسالـة التى قـدمها هى «ابن المعتز و تراثه فى الأدب و النقـد و البيان» و هى مطبوعة.

۳- العامل الثالث: مطالعاته الشخصية فى الأدب قديمه و حديثه و يقول لنا: إنه حتى تخرجه طالع ما لا يقل عن خمسة آلاف كتاب فى الأدب عدا الكتب الثقافية الأخرى.

۴- اتصاله الوثيق بالبيئات و المدارس و المذاهب الأدبية المعاصرة، و دراساته فى كلية اللغة لتلاميذه.

۵- الاستعداد الشخصى و الملكات الذاتية، التى تكون لصاحبها أفكارا ثقافية و أدبية خاصة متميزة.

۶- اتصاله المباشـر بالبيئات الثقافية الأجنبية و كان لعمله فى الليسـيه الفرنسية مدرسا بها أثر ما فى حياته، و كذلك اتصاله بالعديد من العناصر و البيئات الثقافية.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۲

-۴-

و مؤلفات الخفاجى تنقسم إلى عدة مجموعات:

۱- فالأولى طائفة من المؤلفات فى الدين، و من بينها: الإسلام دين الإنسانية الخالد، الإسلام و حقوق الإنسان، الإسلام رسالة الإصلاح و الحرية، مبادىء الإسلام الخالدة (بالاشتراك)، من ماضى الإسلام و حاضره (بالاشتراك)، الذكر الحكيم، مأثورات نبوية.

۲- و الثانية كتب فى التاريخ و من بينها: بنو خفاجة و تاريخهم السياسـى و الأدبى و هو فى تسـعة أجزاء، الأزهر فى ألف عام و هو فى ثلاثة أجزاء، قصة التصوف فى مصر، الصوفى المجدد.

۳- كتب فى النقـد و من بينها: مـذاهب الأدب، فصول فى النقـد، موقف النقاد من الشـعر الجاهلى، وحـدة القصـيدة فى الشـعر العربى، حكومة القاضى الجرجانى فى النقد الأدبى.

۴- كتب فى التاريخ الأدبى القديم و الحديث و المعاصر، و من بينها:

الحياة الأدبيـة فى العصـر الجاهلى، الحياة الأدبيـة بعد ظهور الإسـلام، الحياة الأدبية فى العصـر العباسـى، و الحياة الأدبية فى الأندلس و العصـر العباسـى الثانى، و الحياة الأدبيـة بعـد سـقوط بغـداد فى عصـر بنى أميـة، و الحياة الأدبية الأدب العربى بين الجاهلية و الإسـلام، الأدب العربى فى ظلال الأمويين و العباسيين، و هما (بالاشتراك)، و الأدب العربى و تاريخه و هو فى أربعة أجزاء (بالاشتراك).

و قصة الأدب فی مصر، فی خمسة أجزاء، قصة الأدب فی الأندلس فی خمسة أجزاء، قصة الأدب المعاصر فی أربعة أجزاء، قصة الأدب فی الحجاز بالاشتراک مع الأدیب الحجازی عبد اللّه عبد الجبار و سیقع فی عدة أجزاء، صور من الأدب الحدیث فی أربعة أجزاء.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۳

۵- کتب فی تاریخ أعلام الأدب العربی، و من بینها: ابن المعتز و أثره فی الأدب و النقد و البیان، رائد الشعر الحدیث فی جزءین، أعلام الأدب فی عصر بنی أمیة فی جزءین، أشعار الشعراء الستة الجاهلیین، أعلام الأدب العربی (بالاشتراک)، الشعراء الجاهلیون، مع الشعراء المعاصرین. أبو عثمان الجاحظ.

۶- کتب فی الأدب و من بینها: فصول فی الأدب، من بلاغة العرب و هما بالاشتراک، نداء الحیاة، التشبیه فی شعر ابن المعتز و ابن الرومی، و غیرها.

۷- کتب فی البلاغة العربیة و من بینها الإیضاح فی البلاغة فی ستة أجزاء و عبد القاهر و أثره فی البلاغة العربیة، و البلاغة العربیة.

۸- کتب فی اللغة العربیة و هی عدیدة.

۹- کتب قدیمة نشرها الخفاجی و حققها و هی عدیدة کذلک، و من بینها: البدیع لابن المعتز، فحولة الشعراء للأصمعی، قواعد الشعر لثعلب.

و رسائل ابن المعتز، إعجاز القرآن للباقلانی، فصیح ثعلب، مقامات الحریری بشرح الشریشی، و غیرها.

و للخفاجی مقدمات لکتب کثیر من الأدباء المعاصرین، و ممن کتبوا عنه: الدکتور أحمد زکی أبو شادی، و الناقد مصطفی السحرتی. روکس العزیزی. عبد اللّه زکریا الأنصاری. عبد اللّه عبد الجبار. محمد سعید العامودی. ودیع فلسطین. حسن جاد. حلیم متری. أحمد الزین صاحب مجلة العرقان بلبنان. الشیخ محمود النواوی. کامل أمین. محمد فوزی العنتیل. رضوان إبراهیم. إبراهیم الواعظ من أدباء العراق. عبد المسیح حداد. أحمد الشرباصی. کامل السوافیری. فکری أبو النصر. جمیلة العلایلی. أبو الوفا التفتازانی. أبو السعود الجهنی، و غیرهم.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۴

-۵-

و من شعر الخفاجی قصیدته «الشهداء»:

بطولتهم لکل فتی نشیدو ذکر فدائهم أبدا جدید

و مجد جهادهم فی الدهر باقیضن به علی الدهر الخلود

شباب للعلا ثاروا غضاباتناندیهم و قد ثاروا الجدود

مشیئة مصر أن تحیوا کرامافذودوا عن حقوق الشرق ذودوا

حیاة العز أو موت زؤامو لا یجدی التردد و القعود

دعاهم للعلا داع فهبواجنود فی نضالهم أسود

فما یلهیهم فی الروع وعدو لا یثنی عزائمهم وعید

أباة و الأبی یعیش حراکأن مضاءه القدر العید

یثور علی الحدید فلا حدیدو یزأر فی القیود فلا قیود

و ینهض للعظائم فی جلالو یفعل ما یرید کما یرید

لمصر حیاتهم کانت فداءو شعب تلک غایته یسود

هم الشهداء قد ضحوا کرامافکل بین وادیه شهید

و یوم فدائهم للمجد ذکریو یوم جهادهم للشرق عید

هم الکرماء قد بروا و جادواو یحیی ذکرهم بر وجود

قبورهم تفوح شذا و عطراو تجفوها الأزاهر و الورود

و فی البیداء تخشع فی جلالو یخشع من جلالتها الوجود

کسی الشهداء تلک البید مجداتشید بذکره أرض و بید

و لیس لما بنی الشهداء مثلو لیس لتضحیاتهم ندید

و یهتف باسمهم شعب أبیتکاد الأرض إذ غضبوا تمید

عزیز أمسه الماضی کریمطریف مجده الباقی تلید

-۶-

و یقول الشاعر المصری کامل أمین، من قصیدة له وجهها إلی الخفاجی:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۵ یا أخا الخیر «یا خفاجة» و الخیر شباب الندی و روح الحیاةکل أرض نما بها البر روح ألبسته الحیاة ثوب النبات

قد عهدناک یا أخی تعبر الناس فتسعی بهم کسعی الفراتتبعث الیأس القنوط من الآمال کبعث الحیاة بعد الممات

یا أخی أین یوم کنت ألاقیک و کلی مجرح من کفاحیلم أجد فی الحیاة لما تمزقت سواک أمرا یداوی جراحی

کنت أجتاز زحمة الناس کالبید خوت لم تفض بغیر الصیاحضحلة البر و التعاون تجتر الشحاح الندی بها من شحاح

کم أرتنی الخطوب من صور الناس زیوفا قد فتحت عینیارب خدن طننته ملء کفی نفض الخطب من یدیه یدیا

کان کالشوک لا نبات و لا ظل و إن کان کالنبات ندیافإذا فزت من تجارب دنیاک بحر کسبت بالحر دنیا

یا أخی کیف مد سحرک فی اللیل فمد الصباح بین بیانکریشة الساحر الصناع بکفیک و سحر البیان تحت لسانک

و خیال الحدیث یجذب کاللحن فماذا عزفته فی کمانکالکمان الذی استحال یراعا هز داود فیه من ألحانک

-۷-

و فی قریة صغیرة قدیمة من أعمال مرکز المنصورة، تسمی «تلبانة»، ولد الخفاجی فی ۲۲ یولیو عام ۱۹۱۵ بین أحضان الطبیعة الجمیلة فی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۶

الریف، و بین الفلاحین المکدودین المرهقین الذین یعیشون فیه عیشة تجمع إلی البساطة سذاجة التفکیر، و إجهاد العیش، و شظف الحیاة.

و فی إبان الحرب العالمیة الکبری، و ما تلاها من أحداث الثورة الوطنیة المصریة عام ۱۹۱۵ ولد و نشأ الخفاجی .. تنطبع فی ذهنه صور من کفاح الحیاة و الإنسانیة و من جهاد مصر فی سبیل حریتها و آمالها، هذا الجهاد الذی ظل أمدا طویلا شغل المصریین کافة، و موضع تفکیرهم، و ألهم المقعد الناصب لهم فی حیاتهم المعاصرة.

و لم يترك الخفاجي القرية إلا في أثناء دراسته، و ظل وفيا لها و لأهلها الأبرياء البسطاء طول حياته.

و هذا الميلاد و ما صاحبه و تلاه من أحداث في حياة الخفاجي يصوره في قصيدة ساحرة له عنوانها «يوم الميلاد» جاء فيها:

يوم ميلادي حمده صيغ لي اسماو ارتدت في سناه روحي جسما

و رأيت الوجود طفلا صغيرايستطيب الدنيا رضاعاه و نوما

و يحب الحياة مهدا وثيراو أبا صاغه الحنان و أما

و نشيدا و أغنيات عذاباتملأ الغرفة لصغيرة نغما

و مناغاة إخوتي لي في المهدو قبلات تشبع المهد لثما

و السماء الزرقاء تسحر عينيفأحصي النجوم نجما فنجما

و أرى كل ما أشاهد حلماو أرى صادق الحقيقة و هما

و منها:

ما أنا؟ صورة لجد وجدو كتاب عنهم ينبيء علما

أنا مرآة صورت كل ما طافبوهم الحياة وهما و حلما

أنا أغنية تلحنها البيئةرمزا على الحياة و وسما

أنا قيثارة العصور و لحنربما بالحياة زادك فهما

الأزهر في ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۷ و نشيد فم الخلود يغنيهأمانا على الزمان و سلما

بين نجد و في العراق و مصرعاش قومي يأبون ذلا و ضيما

ملكوا الملك شيدوا العرش ساسواالناس بالعدل و الشجاعة حزما

أنصت التاريخ القديم إليهمو لهم طالما أشار و أومى

فزعت بغداد و أتراك بغدادلقوم لم يقبلوا قط ظلما

ثم أضحى المجد التليد حطاماو الجلال القديم أصبح وهما

و عيون التاريخ تهزأ بالدهرالوفي الذي تحول خصما

بين أرض الريف الجميلة نشئتو شمت الحياة صحوا وغيما

و حملت الأعباء طفلا صغيراو حسمت الأمور بالحزم حسما

و بنيت المستقبل الضخم صرحاو دعمت البناء وحدي دعما

و منها:

يا لذكرى الميلاد عودي و عودييفالرجاء البعيد بالوصل هما

املأي العيش بهجة و سروراطالما ذقته شجونا و هما

أنطقي الدهر، أسمعي الدهري لحنيو الليالي فطالما كن صما

أنا أحيا على الرجاء و أسعىلأنال المنى كفاحا و رغما

أنا ما أبتغي يجل عن الوصفو جل ما أرتجي أن يسمى

أنا أحيي التاريخ مجدا و جاهاو أعيد الأيام يوما فيوما

إن الخفاجی لم یکن وحدة فی الحیاة، إن تاریخ قومه یمتد إلی أکثر من ألف و خمسمائة عام.

فهو من سلالة عربیة عریقة، أرخ لها فی کتابه «بنو خفاجة و تاریخهم السیاسی و الأدبی»، و الخفاجیون قبیلة عربیة حجازیة کبیرة نشأت فی العصر الجاهلی و زاد نفوذها، و هم من العقلیین العامریین القیسیین، و قد تعددت

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۸

فروع القبیلة بعد الإسلام و هاجرت سلالات منها إلی الشام و مصر و العراق و المغرب و الأندلس، و منهم أعلام خالدون فی کل مکان، و لا ننسی الشاعر الأموی توبة الخفاجی العربی الحجازی، و الأمیر ابن سنان الخفاجی الحلبی المتوفی عام ۴۶۶ ه، و الشهاب الخفاجی المصری المتوفی عام ۱۰۶۹ ه، و ابن خفاجة الأندلسی الشاعر المشهور، و غیرهم.

و من الخفاجیین أسر حاکمة فی حلب فی القرن الخامس الهجری، و فی العراق فی القرن الرابع إلی السابع الهجری، و کانت ولایاتهم فی الناصریة بقرب الکوفة و کان یتولاها منهم بعد أمیر، و کانوا فی شبه استقلال داخلی عن الخلافة العباسیة.

إن هذا الماضی العریق یحمله الخفاجی فی قلبه و دمه و أعصابه و یقف مزودا منه بإیمان راسخ، و عبقریة حادة، و قوة ضخمة تعاونه علی کفاحه فی الحیاة.

و حفظ الخفاجی القرآن الکریم و تعلم مبادیء و أطرافا من الثقافة الأولی فی مکتب القریة أو المدرسة الأولی التی کان یتعلم فیها الشباب فی ریف مصر إلی عهد قریب.

و فی عام ۱۹۲۷ رحل إلی مدینة الزقازیق یتلقی ثقافته الإبتدائیة و الثانویة فی معهدها الکبیر، الذی تخرج منه عام ۱۹۳۶، و بین هذین التاریخین قصة کفاح طویل لیس هنا فی هذا الکتاب مجال تسجیلها، إنما موضعه فی کتاب مفصل آخر.

و من أهم ما ظهر علی الخفاجی فی هذه الفترة الاتجاه الوطنی الذی دفعه إلی الکفاح فی سبیل وطنه فی الأزمات السیاسیة التی مرت بمصر منذ عام ۱۹۳۴، و کان رئیس اتحاد طلبة أبناء الشرقیة فی مدینة الزقازیق، و کان هذا الاتحاد قوة کبیرة سیاسیة فی هذه الفترة، و الخفاجی و أصدقاء له هم الذین کونوه، و کانت مؤتمراته الوطنیة تنشر فی الصفحة الأولی فی جریدة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۲۹

الجهاد المصریة، و فی شتی الصحف فی هذه الفترة.

و من أهم ما یلاحظه الخفاجی علی الثقافة المصریة فی هذه الفترة انعدام التوجیه و ضعف تربیة الملکات، و إهمال شئون الطالب النفسیة و العقلیة إهمالا کبیرا. و قد جاهد الخفاجی فی أزمة الأزهر عام ۱۹۳۵ مع زملائه جهادا طویلا.

و التحق الخفاجی بعد مرحلة الثانوی بکلیة اللغة العربیة بالقاهرة و هی إحدی کلیات الأزهر الشریف و بدأ دراسته فیها فی أول أکتوبر عام ۱۹۳۶، و فی الیوم الثانی من أکتوبر من هذا العام توفی والده، و بعد ذلک بعشرین عاما أی فی یوم الخمیس ۲۷ جمادی الثانیة ۱۳۷۵ ه- ۹ فبرایر ۱۹۵۶ توفیت والدته.

و فی خلال هذه الفترة اشترک الخفاجی فی الحرکة الوطنیة؛ و تابع دراسته و عمل أحیانا فی الصحافة فی جریدة السیاسة و الدستور، و فی صحف أخری، و کتب المقالات و البحوث و الدراسات فی شتی الصحف و المجلات.

و کان قیام الحرب العالمیة الثانیة فی هذه الفترة عام ۱۹۳۹ أهم حدث عالمی تأثر به الشباب العربی أیما تأثر، بل تأثر به شباب العالم قاطبة.

و فی هذه الفترة تأثر بآراء عالمین، و مفکرین کبیرین من رجال الفکر و الثقافة و الإصلاح، هما الأستاذ الأکبر الشیخ إبراهیم حمروش شیخ الأزهر فیما بعد، و الأستاذ الکبیر الشیخ محمد عرفة عضو جماعة العلماء بالأزهر.

و کان الأستاذ الأکبر الشیخ حمروش عمید کلیة اللغة آنذاک و کان بعقله الواسع و أفق تفکیره البعید و ثقافته العلمیة العریقة أرفع مثال لطلاب کلیته، یستمدون منه القدوة و یحتذون حذوه فی الفهم و التفکیر.

و کان الأستاذ الکبیر محمد عرفة أستاذا للخفاجی فی الفلسفة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۰

و البلاغة، و من ثم تأثر بآرائه التجدیدیة العلمیة تأثرا خاصا.

و تخرج الخفاجی فی یولیو عام ۱۹۴۰ من کلیة اللغة یحمل شهادته العالیة.

و التحق بأقسام الدراسات العلیا فی کلیة اللغة العربیة فی أکتوبر عام ۱۹۴۰ فی قسم البلاغة و الأدب، فعکف فی خلال الأحداث العالمیة التی صاحبت الحرب العظمی، و فی أحداث مصر القومیة التی امتدت من هذا التاریخ، و فی خلال أزمات الأزهر التی کانت نتیجة للصراع بین الحکومة و القصر و التی کان الأستاذ الأکبر الشیخ محمد مصطفی المراغی مظهرا لکثیر من صور الحرب الخفیة فی هذه المعرکة، فی هذه الظروف عکف الخفاجی علی دراساته العلیا إلی أن تخرج عام ۱۹۴۵ یحمل شهادة النجاح فی الامتحان التمهیدی لشهادة العالمیة من درجة أستاذ.

ثم قدم رسالته الجامعیة «ابن المعتز و تراثه فی الأدب و النقد البیان» و نوقش فیها فی أکتوبر عام ۱۹۴۶، و نال بها بتفوق شهادة العالمیة من درجة أستاذ فی الأدب و البلاغة من کلیة اللغة العربیة و هی أرقی شهادات الأزهر الجامعیة و تعادل الدکتوراه الممتازة حرف (أ).

و من الجدیر بالذکر أن الخفاجی قدم للکلیة مع رسالته المخطوطة ثلاثة کتب له مطبوعة عن ابن المعتز فی جوانب تخدم موضوع رسالته و هذه أول مرة یقدم فیها باحث رسالة علمیة مخطوطة و معها ثلاثة کتب تخدم رسالته و فی موضوعها.

و کان هذا الجهد الأدبی موضع تنویه الأدباء و العلماء و الصحف فی حینه.

و لا ننسی أن نقول: إن الخفاجی أمضی مع عمله الضخم هذا سنوات طوالا یشغل وظیفة أستاذا فی اللیسیه فرانسیه فرع شبرا.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۱

و قد ترک بعد حصوله علی شهادة العالمیة من درجة أستاذ وظیفته فی اللیسیه لیتولی أستاذیة البلاغة فی معهد أسیوط الکبیر الذی عمل فیه من نوفمبر عام ۱۹۴۶ حتی أکتوبر عام ۱۹۴۷، ثم فی معهد الزقازیق الذی کان طالبا فیه من قبل، و الذی عمل فیه من عام ۱۹۴۷ إلی عام ۱۹۴۸.

و انتقل الخفاجی فی ۱۷ أغسطس عام ۱۹۴۸ إلی کلیة اللغة العربیة مدرسا للأدب و النقد و البلاغة فیها، و هو الیوم أستاذ فیها.

و من الطریف أن نذکر أن الخفاجی متزوج من عام ۱۹۴۸ و له ولد هو ماجد خفاجی، و توفیت له بنت کان اسمها «وفاء خفاجی».

و هو عضو فی شتی الهیئات العلمیة و الأدبیة فی مصر و العالم.

و له العدید من المؤلفات. و هو من أکبر دعاة التجدید و الإصلاح و الوحدة العربیة، و من أکبر الثائرین علی النظم السیاسیة الجائرة السائدة فی کثیر من شعوب العالم العربی المتخلفة عن رکب الحیاة و الحضارة و عن مبادیء الإسلام الکریمة.

-۹-

و من صور مقالات الخفاجی کلمة کتبها بعنوان «أیام المجد»:

أیام عشتها و کأنی عشت بها الدهر کله، فقد جمعت المجد من أطرافه، و اهتزت خلالها النفس هزة الفرح و الإعجاب.

أیام و یا لها من أیام، لقد حسدت علیها نفسی، و حسدت الجیل الذی أعیش به، و حسدت وطنی مصر لأن تاریخه احتواها، و لأن العالم کله قد اهتز إعجابا به و بها.

أیام و یا لها من أیام، فلو قدمت الیوم لما کان قد بقی لی من أمنیة فی الحیاة أتمناها لی و لوطنی المجید.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۲

فأولاها: أیام الثورة الوطنیة عام ۱۹۱۹ فی مصر، و قد شاهدتها فی قریتی الخضراء طفلا صغیرا. و شاهدت المظاهرات الوطنیة التی کان

یقوم بها أهالی القریة و أنا بینهم فی شوارع قریتی الصغیرة و حاراتها. یهتفون للوطن بالحریة و الاستقلال، و للانجلیز بالدمار و الهلاک، و یطالبون بحریة الوطن العزیز: مصر وطن الأحرار و المجد و التاریخ، و کم کان یسعدنی و أنا طفل صغیر أن أخرج مع جموع الفلاحین نحمل الهراوات و العصی و نستقبل بها السیارات الوافدة علی طریق القریة، فإذا کان فیها أجانب استوقفناهم و طالبنا منهم أن ینزلوا معنا نحن الثائرین، و یهتفوا معنا بحریة مصر و استقلالها و سقوط انجلترا و الاستعمار.

و ثانیتها: أیام ثورة مصر الکبری فی معرکة القنال، حیث قامت المعرکة فی أرض القتال بین قوات البولیس المصری و جیوش الاحتلال، و ضرب المصریون فیها أروع الأمثال و أمجد صفحات البطولة التی دونها التاریخ، و عرفها الزمن و قد انتقم الانجلیز لهذه الثورة الوطنیة الجلیلة الخالدة بأیدی الخوتة المصریین فی ذلک الحین، و علی رأسهم صاحب العرش فاروق بن فؤاد، فأحرقوا القاهرة و کتبوا الحریات، و أعلنوا الأحکام العرفیة، و أقالوا الوزارة الدستوریة القائمة آنذاک و صبوا علی البلاد سوط عذاب، و مع ذلک فقد صمدت مصر فی وجه الأحداث صمود الجبال و الأبطال.

و ثالثها: أیام الثورة المصریة القومیة الکبری، ثورة التحرر و التحریر فی ۲۳ یولیو ۱۹۵۲، حیث استیقظت فی صباح هذا الیوم الجمیل، فشاهدت جیش الوطن قد احتل مرافق القاهرة: و أقام حکما جدیدا فی البلاد، قضی علی الخونة و الفساد و الإقطاع و سماسرة الحکم، و أخذ یصنع البلاد، و یکون فیها جیشا قویا، یحمی حریة الوطن و استقلاله.

و رابعتها: أیام معارک الوطن الکبری فی أواخر أکتوبر ۱۹۵۶، و أوائل

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۳

نوفمبر من هذا العام، حیث تآمرت انجلترا و فرنسا و معهما عدوتنا إسرائیل التی یحرکها الإستعمار کما یشاء، و غزوا بقواتهم منطقة سینا، ثم انهالت الطائرات و القنابل تدمر مدن مصر و منشآتها وفق ما یشاء الأعداء، و صمدت مصر و المصریون صمود الأبطال.

و قامت المعرکة فی بور سعید، هذه المعرکة الخالدة التی کتب فیها المصریون أروع الصفحات طول عصور تاریخهم المجید، و التی سار فیها القتال من شارع إلی شارع، و من منزل إلی منزل، و وقف جیش مصر و شعبها فی بور سعید یصدون العدوان، و یقامون جنود الامبراطورتین العجوزتین و معهم جنود إسرائیل من مجرمی الحرب، و من الهابطین من الجو، و الصاعدین من البحر. و تتبع الوطن المصری أنباء القتال أولا بأول؛ و ساعة بساعة، و وقفوا حول المذیاع یسمعون وصف المعرکة.

و ینصتون لأنبائها، یزدهیهم الفخر و الکبریاء و المجد و العظمة لبطولة جیشهم النادرة، و عظمة الشعب المصری الکامنة المتوارثة خلال الأحقاب و الأجیال، و کأن مجرمی الحرب إیدن و موله أرادا أن ینتقمان من مصر لتأمیمها قناة السویس فی ۲۶ یولیو ۱۹۵۶ فرصدوا لها الأساطیل الجیوش و الطائرات.

و لکن مجرم الحرب إیدن، و مجرم الحرب موله، و معهما تابعهما بن غوریون هزموا و انتصرت مصر فی معرکة بور سعید و قاوم المصریون فی أرض المعرکة و ثبتوا ثبات الجبال، و احتمی إیدن و موله بقرار هیئة الأمم المتحدة الذی نص علی وجوب وقف القتال فی الساعة الثانیة صباح الأربعاء ۷ نوفمبر عام ۱۹۵۶.

و هل أنسی الأسبوع الأول للحرب، و کانت غارات طائرات الأعداء مستمرة علی القاهرة کل دقیقة، حیث لا یجد أحد متنفسا یأخذ فیه لحظة هادئة متمتعا بنعمة الأمن و التفکیر و التحرر من الخوف، و کنا فی القاهرة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۴

نطفیء الأنوار منذ دخول اللیل، و تتقطع الطرق، و تتوالی صفارات الانذار کل دقیقة، و نسمع أزیز المدافع و أصوات القنابل فی کل مکان، و کانت طائرات العدو تتهاوی کأنها الورق أمام مدافع مصر و بسالة أبنائها. لم نکن نجد دقیقة واحدة نخلو فیها إلی أنفسنا للتفکیر أو التأمل أو القراءة أو الاستمتاع بالطعام، و کانت المعسکرات تنتظم شباب مصر و شیوخها من المتطوعین للدفاع عن وطنهم الأکبر، و کنا نتساءل بأی حق یبیح مجرما الحرب إیدن و موله لأنفسهما حق غزو الشعوب التی خلقها اللّه حرة طلیقة من کل قید، و

فشل إيدن و فشل موليه و معهما بن غوريون، نعم فشلوا فى تحطيم الروح المعنوية فى شعب مصر أو فى تحطيم المقاومة الشعبية فى وطنى مصر. و انسحب المعتدون من بور سعيد مكرهين فى الرابع و العشرين من ديسمبر عام ۱۹۵۶.

أيام كلها مجد و ذكريات خالدة، كتبت فيها مصر صفحات رائعة من المجد، و المجد لمصر و لشعبها الحر الأبى، و للعرب الأحرار الميامين.

-۱۰-

و من صور نثر الخفاجى هذه القطعة و هى بعنوان «يا وطنى».

يا وطنى الخالد: لك المجد و لك أمجد صفحات التاريخ.

يا وطنى، يا مصر يا أم الحضارة. و مهد المدنية، و معلمة الشعوب، لك العزة و الثناء، و لك الحرية و الفداء، و لك العظمة و الكبرياء.

يا وطنى: لقد كتبت اليوم أروع أعمال البطولة فى دفاعك المجيد عن بور سعيد، مما شهد به العالم، و سجلته الأحداث، لقد قاتل شعبك المجيد قتال الأبطال من شارع إلى شارع و من منزل إلى منزل، فعلمت

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۵

البرابرة الغزاة أن أرض مصر حرام على المستعمرين، و أنها أمنع من العقاب، ما دام شباب مصر و شيوخها حريصين على أن يفتدوها بالمهج و الأرواح.

يا وطنى: لقد وقفت خلال عصور التاريخ ضد الغزاة الفاتحين مقاتلا باسلا، و محاربا صلبا، فطردت الهكسوس و الفرس و اليونان و الرومان من أرضك، و طردت الصليبيين و التتار من ثراك الطاهر، و أقمت بسواعد أبنائك حضارات مشرقة، و امبراطوريات مصرية ضخمة انحنى لها التاريخ، و هتف بذكرها الزمان.

يا وطنى: بيد أحمد و رمسيس، و بيد عمرو بن العاص و صلاح الدين، و بيبرس و برقوق، و عرابى و جمال: رفعت أعرق لواء، و أمجد راية، و أرفع شعار للحرية و المجد و العظمة و الجلال و القوة.

يا وطنى: إن الامبراطورية المصرية فى عهد عمرو بن العاص و خلفائه، ثم عهد المعز و ذريته، ثم فى عهد صلاح الدين الأيوبى و سلالته، ثم فى عهد المماليك، ثم فى القرن التاسع عشر: كانت من أعظم الأعمال فى التاريخ، و كانت رمزا و عزة و منارة للإسلام و المسلمين، و كهفا تأوى إليه الحضارة و الثقافة الإسلامية.

يا وطنى الخالد: لقد وقف الإنجليز فى القرنين التاسع عشر و العشرين لنهضتك و حريتك و مجدك بالمرصاد، فقضوا على الأسطول المصرى فى نافارين، و قضوا على الجيش المصرى و حرموه ثمرة انتصاراته الحربية العظيمة فى عهد محمد على، و نهبوا امبراطورية مصر بسياسة الخداع و التضليل، ثم صفوا بقاياها فى عهد إسماعيل، ثم ورثوها فى عهد توفيق بعد الاحتلال، و لكنهم و شرفك و كفاح أبنائك و نضال شعبك الحر

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۶

الأبى لن يتمكنوا من هزيمة مصر سياسيا و لا حربيا فى عهد الأحرار.

بمجدك و تاريخك، و بأبطالك و أبنائك، و بثورة شعبك الأبى، و بثراك الطاهر، سنقاوم الغزاة، و سننتصر على الغزاة، و النصر لنا بفضل اللّه، و بسواعد شعبنا العريق.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۷

لو أن للدين رجالا

اشارة

الإسلام هو المنهج الذی وضعه اللّه لهدایة البشر کی یصلوا بالسیر علیه إلی شرف الدنیا و کرامة الآخرة.

و قد استهدف هذا المنهج أعلی الأهداف و أسمی الغایات .. فمن هذه الأهداف ۱- تحریر النفس ۲- تنمیة الذات ۳- تکوین أمة ۴- تحقیق السلام.

تحریر النفس:

من الأهداف الأولی للإسلام تقویة الصلة باللّه عن طریق الإیمان و الصلاة و الذکر و الشکر و الدعاء و العبادة و الطاعة. و متی قویت الصلة باللّه تحررت النفس من معوقات التقدم نحو الخیر و الحق و الکمال و الجمال .. و یتمثل هذا التحرر فیما یلی:

۱- التحرر من الخضوع للطغاة و المستبدین.

۲- و التحرر من الخوف و القلق و الاضطراب.

۳- و التحرر من القیم الزائفة، قیمة الجاه و المال و النسب.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۸

۴- و التحرر من الهوی و الشهوة و المتاع الزائل.

۵- و التحرر من الجهالة و الضلالة و فی هذا یقول الرسول صلی اللّه علیه و سلم:

«احفظ اللّه یحفظک .. احفظ اللّه تجده أمامک .. إذا سألت فاسأل اللّه، و إذا استعنت فاستعن باللّه، و اعلم أن الأمة لو اجتمعوا علی أن ینفعوک لم ینفعوک إلا بشیء قد کتبه اللّه لک، و لو اجتمعوا علی أن یضروک لم یضروک إلا بشیء قد کتبه اللّه علیک».

تنمیة الذات:

و الإسلام یعطی الأهمیة القصوی لتنمیة الذات و تکوین الشخصیة فهی حجر الزاویة فی بناء المجتمع القوی الرشید.

و تنمیة الذات ثمرة التربیة العقلیة و تقویة الإرادة و تزکیة النفس.

(أ) فالتربیة العقلیة قوامها الاستزادة من العلم و الحکمة و التطلع إلی المعرفة و الثقافة و التفکیر فی ملکوت السموات و الأرض و السیاحة فی دنیا اللّه الفسیحة.

۳و غایة هذه التربیة:

اشارة

تعمیق جذور الإیمان و ترسیخها حتی یصل الإنسان إلی درجة الیقین عن طریق الحجة و البرهان.

الکشف عن سنن اللّه فی الکون کی یستخدمها فی ترقیة حیاته.

فتح المیادین أمام العقل کی یکشف و یخترع و یبدع و یصل إلی الکمال المنشود.

(ب) و تقویة الإرادة بتعویدها الصبر و الثبات و احتمال المشاق و اقتحام الصعاب رغبة فی الوصول إلی معالی الأمور و تطلعا إلی تحقیق جلائل الأعمال.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۳۹

و فی الحدیث الصحیح یقول الرسول صلی اللّه علیه و سلم: «إن اللّه یحب معالی الأمور و أشرافها و یکره سفسافها».

إذا غامرت فی شرف مرومفلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فی أمر حقیرکطعم الموت فی أمر عظیم

(ج) و تزکیة النفس تتم بتخلیصها من الهوی و کبت الشهوات الدنیئة و تصفیتها من الریاء و النفاق و الأثرة و الأنانیة و الحقد و الحسد و غرس العواطف الکریمة و المشاعر النبیلة.

و یحتاج الإنسان کی یصل إلی هذا المستوی الرفیع إلی ما یلی.

۱- الأمل و العمل .. یقول الرسول صلی اللّه علیه و سلم: «لیس الإیمان بالتمنی و لکن ما وقر فی القلب و صدقه العمل، و أن قوما غرتهم الأمانی حتی خرجوا من الدنیا و لا حسنة لهم و قالوا نحن نحسن الظن باللّه و کذبوا، لو احسنوا الظن لأحسنوا العمل».

۲- الیقظة و الحرص علی الإصلاح و التقدم و الترقی .. یقول الرسول صلی اللّه علیه و سلم: «احرص علی ما ینفعک و استعن باللّه و لا تعجز، و إذا أصابک شیء فلا تقل لو أنی فعلت. کذا کان کذا و کذا، و لکن قل قدر اللّه و ما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشیطان».

۳- مجاهدة النفس و تحدی المغریات و المثیرات و الوقوف منها کالطود الشامخ أمام العواصف الهوج قال تعالی: فَأَمَّا مَنْ طَغی وَ آثَرَ الْحَیاةَ الدُّنْیا فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوی وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِیَ الْمَأْوی.

و متی تزکت النفس کان الإنسان جدیرا بوصف الإنسانیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۰

تکوین الأمة:

و الإسلام یحرص علی إیجاد کیان قوی و أمة قادرة تستطیع إحقاق الحق و إبطال الباطل و تأدیب الطغاة و تطهیر الأرض من الشر و الظلم و الفساد، و من أجل ذلک دعا إلی کل ما من شأنه أن یجمع القلب إلی القلب و یضم الصف إلی الصف حتی یکونوا کما وصفوا فی الحدیث «کالبنیان المرصوص یشد بعضه بعضا» و «کالجسد الواحد إذا اشتکی منه عضو تداعی له سائر الجسد بالحمی و السهر».

فدعا إلی التآخی و الاتحاد و إلی التعاون و التضامن و إلی المودة و المحبة إلی العطف و الرحمة و إلی التضحیة و الإیثار و إلی التواصی بالحق و التواصی بالصبر و إلی الحریة و المساواة و إلی کفالة المحتاج و رعایة المعوز. «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ».

تحقیق السلام:

و الإسلام یعرف أن الناس و أن اتفقوا فی بعض النواحی فإن هناک عوامل تفسدهم و تجعل الفرق بینهم بعیدا والبون شاسعا، فالتربیة الفاسدة و التقلید الأعمی و التعصب الذمیم و الجهل الممقوت، کل ذلک یمنع کثیرا من الناس من الخضوع للحق و السیر وفق منهج الصواب. قال تعالی:

وَ لا یَزالُونَ مُخْتَلِفِینَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ.

و الإسلام و هو یقرر هذه السنة الاجتماعیة یجعل السلام هو العلاقة بین المسلمین و غیرهم من المخالفین ما لم یقع ظلم أو اعتداء.

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه و یده، و المؤمن من أمنه الناس علی دمائهم و أموالهم».

و السلام إنما یتحقق بإقامة العدل و إعطاء کل ذی حق حقه و المحافظة علی النفس و العرض و المال و الجدیة و الکرامة بالنسبة لکل

قرار بغض النظر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۱

عن دینه و لونه و جنسه و لغته و مرکزه الاجتماعی.

فالإنسان أهل للتکریم من حیث کونه إنسانا. قال تعالی: وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلًا.

مرت جنازة رجل من الکافرین علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فقام لها، فقالوا:

یا رسول اللّه إنها کافر، فقال: «أو لیست نفسا؟».

و هکذا یعمل الإسلام علی تحریر النفس و تربیة الفرد و تکوین الأمة و تحقیق السلام لیأخذ البشر طریقه إلی التقدم الصحیح و الکمال المنشود.

قد جاءکم من اللّه نور و کتاب مبین یهدی به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام و یخرجهم من الظلمات إلی النور بإذنه و یهدیهم إلی صراط مستقیم.

و ما أصدق ما قیل: یا له من دین لو أن له رجالا.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۳

الشیخ محمود شلتوت

توفی رحمه اللّه فی ۱۰ دیسمبر ۱۹۶۳ ففقدت مصر عظیما من عظمائها و عالما تفقه فی مختلف نواحی الحیاة الدینیة و الاجتماعیة کان بصیرا بالأحکام الشرعیة الملائمة لحاجات الناس و مقتضیات العصر و مفسرا الم بکتاب اللّه و سنن الکون و عالما اجتماعیا یعرف أمراض المجتمع و وسائل علاجها.

فی عام ۱۹۲۸ بدأ الشیخ شلتوت ینشر مقالاته فی الصحف محاربا الروتین و داعیا إلی إصلاح الأزهر و تطویره حتی عام ۱۹۳۱ حین تعارضت أراؤه الإصلاحیة مع المشرفین علی سیاسة الأزهر فی ذلک الوقت حتی انتهی الأمر إلی فصله و بعد الفصل. لم یهدأ أو ییأس بل تابع نقده و نشر أفکاره و اشتغل بالمحاماة و البحوث العلمیة خلال أربع سنوات حتی أعید إلی الأزهر وکیلا لکلیة الشریعة ثم مفتشا بالمعاهد الدینیة.

و منذ تولی الشیخ شلتوت أمر الأزهر أعاد النظر فی تنظیم المناهج و أدخل الدراسات القانونیة فی کلیة الشریعة لتتم المقارنة بین دراسة الفقه الإسلامی و القوانین المعاصرة و أدخل فقه الشیعة مما کان له أکبر الأثر فی التقریب بین جماعات المسلمین فی أنحاء العالم.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۴

و تقدیرا للشیخ شلتوت منحته جامعة شیلی الدکتوراه الفخریة عام ۱۹۵۸ .. کما منحته جامعة جاکارتا الدکتوراه الفخریة عام ۱۹۶۰.

و کان المسلمون فی یوغوسلافیا و الیابان و الجزائر و روسیا و ألمانیا و إیطالیا قد وجهوا إلیه الدعوة لزیارة المسلمین فیها و تفقد أحوالهم.

و لقد أجمع العلماء و أهل الرأی أن التوفیق قد حالف الأزهر عند ما ولی أمره الشیخ شلتوت فوجد فیه مفکرا و عالما من الیقظة الفکریة و الدرایة العلمیة ما یمکنه من القیام بدوره.

قبل أن تصعد روحه إلی بارئها بدقائق .. جلس یتحدث إلی زواره عن الإسراء و المعراج ثم توقف قلیلا و تبین للحاضرین أنه یعانی أزمة طارئة و حاول الأطباء انقاذه و سارعوا بأنابیب الأوکسجین لیساعدوه علی التنفس و لکن روحه کانت قد صعدت إلی بارئها.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۵

أعلام معاصرون

الشیخ محمد محیی الدین عبد الحمید رائد مدرسة التحقیق العلمی

بمثل الشیخ محمد محیی الدین عبد الحمید جیلا کاملا من الکفاح العلمی الکبیر، حتی لیعد رائدا عظیما لمدرسة التحقیق العلمی، سار علی ضوئه المحققون، و شراح کتب التراث الإسلامی العربی.

و قد تتلمذ الشیخ محمد محیی الدین عبد الحمید علی جیل الرواد الإسلامیین الکبار، الذین ازدانت بهم الحیاة المصریة فی أوائل القرن العشرین، و کانوا دعامة النهضة العربیة و الأدبیة فی العالم العربی کافة.

و قد تخرج الشیخ محمد محیی الدین من الأزهر الشریف عام ۱۳۴۷ ه الموافق ۱۹۲۵ م یحمل شهادة العالمیة أعلی شهاداته العلمیة آنذاک، و کان نجاحه بل تفوقه یومئذ مثار الدهشة، فقد جاء الأول علی أقرانه من فحول العلماء.

و شغل فی هذه الحقبة الطویلة الکثیر من المناصب العلمیة الرفیعة:

أستاذا بالأزهر، فأستاذا بکلیة اللغة العربیة، فمفتشا عاما بالمعاهد الدینیة، فوکیلا لکلیة اللغة، فأستاذا بکلیة أصول الدین، فرئیسا لمفتشی العلوم الدینیة و العربیة بالأزهر، فعمیدا لکلیة اللغة العربیة، فعضوا بالمجمع اللغوی، و عضوا بلجنة الفتوی بالأزهر، و عضوا فی الجلس الأعلی للشئون

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۶

الإسلامیة، و فی کثیر من الهیئات العلمیة، و لا ننسی أنه اختیر عام ۱۹۴۰ للسفر للسودان؛ لیشارک فی تأسیس مدرسة الحقوق العلیا فی الخرطوم، و قد قام حینذاک بمهمته خیر قیام، و کان مضرب المثل فی علو المنزلة و سمو المکانة بین السودانیین و المصریین علی السواء.

و مثل الأزهر فی کثیر من المؤتمرات الثقافیة و اللغویة و الأدبیة، و وجه الثقافة فیه الوجهة الرفیعة العمیقة، التی أثرت فی بناء الجیل الحاضر تأثیرا کبیرا.

و یمثل الشیخ محمد محیی الدین عبد الحمید أفکارا لغویة، لها منهجها و دقتها و عمقها، فهو یری ضرورة تربیة الحس اللغوی، لینتهی بصاحبه إلی الذوق الأدبی، و یبدأ بالکلمة لینتهی إلی الأسلوب فالأدب نفسه، و دور الکلمة فی الأدب دور کبیر، و أثرها فی بناء العمل الأدبی ضخم و جلیل.

و الشیخ محمد محیی الدین یقف دائما فی مجال الریادة:

فهو أول من فکر فی تألیف کتب دینیة مزدانة بالمناسب للأطفال، فألف خمسة أجزاء: اثنین للبنین، و اثنین للبنات، و کتابا مشترکا، و قد ذاعت هذه الکتب آنذاک، حتی کان المرحوم الدکتور عبد الوهاب عزام یذکر أنه شاهد لها ترجمات بالفارسیة و بالترکیة.

و هو من أول من عنی بکتب التراث و تحقیقها تحقیقا علمیا دقیقا، مما یتجلی لنا فیما حقق من أمهات کتب التراث فی الأدب و النقد و البلاغة و اللغة و النحو و الصرف، و لذلک یعد بحق شیخ العلماء المحققین.

و هو أشهر شارح و مفسر لکتب القدماء فی مختلف فنون العلم، و قد سهل بذلک علی الجیل المعاصر قراءة هذه المصادر، و الإفادة منها و الاغتراف من بحرها .. و قد اختارت مؤسسة (بریل) فی هولندا نشر شرحه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۴۷

علی: (شرح ابن عقیل) بالحروف البارزة لیقرأه المکفوفون، و نحن نشکر لها هذا العمل العلمی و الإنسانی معا.

و إذا عدنا إلى الأعمال العلمية لهذا العالم الجليل من أعلامنا المعاصرين نجدها تنقسم ثلاثة أقسام.

القسم الأول: دراسات أدبية و لغوية و إسلامية ألفها، و كانت مثلا لرصانة العلماء، و عمق البحث، و دقة التأليف، و منها:

١- دراسة كبيرة له عن المتنبى و نقد شعره، نشرها فى مجلة الأزهر تباعا، و تعد من أهم المراجع عن أبى الطيب و شعره.

٢- دراسة عن الفكر الإسلامى عند الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق، و قد نشرت فى مجلة (الكتاب) التى كانت تصدر عن (دار المعارف) عدد: نوفمبر ١٩۴۵ م.

٣- تصريف الأفعال: و هو كتاب مشهور لم يؤلف مثله حقا، و يعد مكملا لمنهج القدماء فى دراسة الأفعال، و طبع عدة طبعات، و كان مرجعا علميا للأساتذة و الطلبة فى كليات اللغة و دار العلوم و الآداب.

۴- أحكام المواريث فى الشريعة الإسلامية- المعاملات الشرعية- الأحوال الشخصية- أصول الفقه. و هى كتب أربعة مشهورة، كانت تدرس فى كليات الحقوق و أصول الدين، و فى مدرسة الحقوق العليا فى الخرطوم، و طبعت عدة طبعات.

القسم الثانى: كتب من أمهات التراث فى مختلف العلوم، حققها عالمنا الجليل تحقيقا علميا دقيقا، عنى فيها عناية فائقة بتقويم النص، و ضبط مشكله، و شرح غريبه، و منها:

سيرة ابن هشام- الموازنة للآمدى- يتيمة الدهر للثعالبى- العمدة لابن رشيق- نفح الطيب للمقرى- وفيات الأعيان لابن خلكان- زهر الآداب

للحصرى- فوات الوفيات لابن شاكر- معاهد التنصيص للعباسى- مروج الذهب للمسعودى- مقالات الإسلاميين للأشعرى، و غير ذلك مما يضيق المجال عن حصره، و مما تلقاه قراء العربية فى كل مكان بالتقدير و الإعجاب، إذ رأوا فيه طاقة علمية فريدة، و اتخذوا منه عمدة المصادر لجميع طلاب الجامعات فى العالم الإسلامى العربى.

القسم الثالث: كتب من التراث شرحها شرحا وافيا، و ذلل صعوباتها للباحثين، و أضاف إليها الكثير من الدراسات .. و منها أهم كتب الثقافة العربية: كشرحه للأجرومية الذى خرج بعنوان: (التحفة السنية)، و ظل إلى اليوم يدرس فى جميع أنحاء العالم العربى و الإسلامى، و طبع أكثر من خمس و عشرين طبعة. و كشرحه للأزهرية و شرحه على: (شرح قطر الندى لابن هشام) الذى طبعه ثلاث عشرة طبعة. و كشرحه على: (شرح شذور الذهب) لابن هشام. و شرحه على: (شرح ابن عقيل) فى أربعة أجزاء كبار، و طبع خمس عشرة طبعة. و شرحه على: (أوضح المسالك) لابن هشام، و يقع فى أربعة جزءين ضخام، و طبع نحو عشر طبعات. و شرحه على: (المفصل) للزمخشرى، و هو من أصول اللغة العربية. و شرحه على: (شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك) و يقع فى أربعة أجزاء كبيرة، و هو يطبع الآن للمرة الثالثة.

و شرحه على كتاب: (الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين و الكوفيين) فى جزأين كبيرين، و يدرسه المستشرق الفرنسى بلاشير لطلابه بالسوربون، مؤثرا لهذه الطبعة على الطبعة الأوروبية.

و كشرحه على: (متن التلخيص فى البلاغة) و طبع عدة طبعات.

و قد تتلمذت على عالمنا الجليل أجيال عديدة من الشباب، و فى مقدمتهم أساتذة و عمداء كثير من الكليات الدينية و اللغوية و الأدبية فى مصر و السودان و العالم العربى، و منهم جمهرة من كبار رجالات الدولة فى العالم

العربى .. و ما أكثر تلاميذه فى الشرق و الغرب، و جميع المستشرقين فى العالم يولون بحوثه و تحقيقاته عناية فائقة، و اهتماما كبيرا.

و قد توفى- رحمه اللّه- فى شهر المحرم سنة ١٣٩٣ ه الموافق مارس ١٩٧٣ عن نيف و سبعين عاما .. أجزل اللّه له الثواب كفاء ما قدم لدينه و لغة كتابه الحكيم و لتراث العربية و آدابها من جهود خالدة على مرور الأيام.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۱

الشیخ عبد السمیع شبانة

أحد علماء الأزهر الذین شارکوا فی تحقیق رسالته و النهوض بطلابه، تخرج علی یدیه الآف العلماء من أبناء العالم الإسلامی.

کان- رحمه اللّه- یعطی جهده کله لخدمة العلم و العلماء. کان بیته منتدی یجتمع فیه طلاب العلم من کل جنس لینهلوا من فیض علمه الغزیر .. یستوضحونه ما أبهم علیهم و ینتفعون بما یدور فی مجلسه من مسائل علمیة سواء ما یتصل منها بالعلوم الدینیة أو العربیة ..

فلم یکن- رحمه اللّه- یقف عند حدود تخصصه فی النحو أو الصرف بل جاوز ذلک إلی العلوم الشرعیة فکان حجة فیها یأتی إلیه الناس یستفتونه فی أنور دینهم فیرشدهم إلی الحق و الهدی .. کان فقیها فی علم المواریث و قد صدرت له الآف الفتاوی التی کانت تستند علیها المجالس العرفیة فی حل المنازعات بین الأسر و الأفراد.

ولد رحمه اللّه فی ۱۲ ینایر سنة ۱۹۰۳ فی بلدة فرسیس من محافظة الشرقیة .. و بعد أن أتم حفظ القرآن الکریم، ألحقه والده بالأزهر الشریف و المساجد المحیطة به حتی حصل علی الشهادة العالمیة و نال إجازة التخصص القدیم التی تعادل درجة الدکتوراه سنة ۱۹۳۲.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۲

بدأ دوره فی الدعوة إلی اللّه و تبصیر الناس بأمور دینهم بعد أن عین أستاذا فی معهد الزقازیق فکان یتنقل بین قری محافظة الشرقیة و مدنها یخطب فی الناس و یبین لهم الحق من الباطل فلم یکن یمضی أسبوع من غیر أن یشترک فی ندوة دینیة أو یلقی عظاته التی کان یقبل الناس علیها.

و فی الوقت نفسه کان أحرص ما یکون علی أهل بلدته فکان یعقد لهم مجالس العلم و یساعد أبناءهم فی دراستهم حتی عرفت قریته (فرسیس) بأنها بلد العلم حیث کان أبناؤها یعرفون مسائل الدین و کل ما یتصل بالعبادات و المعاملات بسبب تعلیم الشیخ لهم .. و کان یتخرج من الأزهر منها فی کل عام أکثر من ثلاثین عالما و هی القریة الصغیرة التی لا یتجاوز تعدادها فی هذا الوقت ألفی نسمة ..

و اختارته مشیخة الأزهر للتدریس فی کلیة اللغة العربیة سنة ۱۹۳۹ لمکانته العلمیة.

ألف الکتب الکثیرة فی النحو و الصرف و قد أعید طبعها مرات کثیرة و أسهم فی تطویر کلیة اللغة العربیة و أحدث تغییرا شاملا فی دراسة النحو و الصرف بها مما کان له أثره النافع علی المتخرجین منها.

و بقی رحمه اللّه مشرفا علی قسم اللغویات بکلیة اللغة العربیة رافضا کل المناصب التی یتهافت علیها الجمیه، حتی توفی رحمه اللّه فی ۲۱ مایو سنة ۱۹۶۸ .. ففقد العالم الإسلامی بموته عالما ورعا ..

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۳

الشیخ محمد الطنطاوی

منذ خمسة عشر عاما أخرج الشیخ محمد الطنطاوی المدرس بکلیة اللغة العربیة کتابه المشهور «نشأة النحو»، الذی کان له أثره فی نفسی و عقلی بل عند علماء العربیة و ثقاتها جمیعا. و أشهد أنی فرحت بالکتاب فرحا کبیرا ظهر فیما کتبته عن الکتاب من نقد آنذاک، و لست أدری رأی النقاد فیما کتبته، و لکنه کان وجهة نظری یفی هذا السفر النفیس حقه، و مما جاء فی هذه الکلمة:

«لمنزلة النحو من الدین و العربیة، و من التراث الإسلامی العظیم، و من لغة الشرق و لسانه، و لتجدید النشاط العلمی فی مدارس النحو

الحدیثة، و لأداء واجب کبیر لعلماء العربیة الراحلین و شیوخها السالفین الأمجاد، و حرصا علی خدمة اللغة و طلابها .. لهذا کله ألف الأستاذ الجلیل محمد الطنطاوی رسالته: نشأة النحو فجأت سفرا جلیلا و أثرا خطیرا فی الناحیة التاریخیة لعلم قواعد العربیة.

و مما یجعل لهذا السفر الحافل مکانة عظیمة بین کتب العربیة و مؤلفاتها أنه الحلقة المفقودة لکتب طبقات النحاة التی ألف فیها العلماء من قرون، و أنه أثر فرید فی بابه و نوعه، فلم یظهر فی مدارس النحو الحدیثة فی مصر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۴

و الشرق العربی کتاب قبله فی النواحی التاریخیة لمدارس العربیة و رجالها و مؤلفاتها فی القدیم و الحدیث ..

و قد کتب الأستاذ فصول کتابه بلغة جمعت بین بلاغة الآداء و جمال الأسلوب و جزالة التراکیب، و النقد التحلیلی التاریخی لأطوار علم العربیة و مذاهبه و مدارسه و رجالاته، و فی الکتاب فصول عظیمة الأهمیة فی أسباب تدوین القواعد العربیة، و عن الرجل الذی ذهب بشرف وضعها و تدوینها، و عن نشأة النحو و أطواره فی مراحله المختلفة، و عن حیاة شیخ العربیة الأول أبی الأسود الدؤلی، و عن مدرسة النحو الأولی بالبصرة، و رجالها، و مدرسة الکوفة التی نشأت بعد ذلک و رجالها، و یبین المؤلف نزعات مذهبی النحو بالبصرة و الکوفة، و المناظرات التی قامت بین رجالهما، و یحلل أسباب الخلاف بین مدرسة البصرة و الکوفة، و البواعث التی دعت إلی نسوء کل مدرسة و استقلالها، و العناصر التی بنیت علیها، و الاتجاهات التی اتجهت إلیها و المسائل العلمیة التی اختلفت فیها، و آثار هذا الخلاف العلمی، و یعقد الموازنات بینهما .. ثم یتکلم عن مدارس النحو التی قامت ببغداد و فارس و مصر و الشام و الأندلس، و منهج کل مدرسة و علمائها و آثارها .. کل هذا فی أسلوب قوی دقیق و بحث علمی عمیق.

و الکتاب و هو یعرض علینا النحو من أول نشأته إلی العصر الحدیث یمتاز عن کتب الطبقات القدیمة بسعة البحث و کثرة التفصیل، و دراسة مدارس النحو القدیمة دراسة مستفیضة، و یمتاز عن کتب المستشرقین بنفوذ مؤلفه إلی أعماق العربیة و أسرارها و وقوفه علی أطوارها».

و لم یکن کتاب «نشأة النحو» هو الصلة الفکریة بیننا و بین الشیخ، و لکنه کثیرا ما جلسنا فی دروسه و محاضراته فی کلیة اللغة معجبین نتلقف طرائفه، و یسحرنا بشمائله و تواضعه و علمه، بل کان لی کذلک حظ التلمذة علیه منذ أکثر من ربع قرن، و کان یدرس لنا علوم البلاغة فی الفرقة الثالثة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۵

من القسم الابتدائی، و کان له کتاب ألفه فی هذا المجال، و سماه «نفحة الریحان فی علم البیان»، و کان الکتاب یحوی مباحث کثیرة دقیقة، و لکنه لم ینح فیه هذا المنحی التجدیدی الممتع الذی لمسناه فیما بعد فی «نشأة النحو».

و للشیخ الطنطاوی عدا ذلک کتابه «تصریف الأسماء»، الذی أشهد أنه یجب دراسته فی أقسام الدراسات العلیا لا فی الفصول الدراسیة فی الکلیة نفسها .. و له کذلک مقالات کان ینشرها فی مجلة «رسالة الإسلام» التی تصدرها دار التقریب، و التی لا یطلع علیها أحد، و ما کان أجدره أن ینشر هذه المقالات فی کتاب لیتسنی للناس أن یقفوا علی علم الرجل و سعة إطلاعه ..

أما حیاة الشیخ فبسیطة بساطة نفسه و أخلاقه، و لکنها حیاة کبیرة بمغزاها و أثرها ..

ولد الشیخ فی ۷ سبتمبر ۱۸۹۵ ببلدة أکوة الحضة مرکز تلا منوفیة من أسرة متدینة محافظة تعیش فی الریف عیشة الهدوء و الاستقامة، و مهد له والده السبیل إلی التعلیم الدینی، فأدخله مکتب القریة لحفظ القرآن الکریم، و حفظ کتاب اللّه، و أخذ یتلقی تجویده علی ید فقیه من فقهاء القریة، ثم بعث به والده إلی الجامع الأحمدی فی طنطا عام ۱۳۲۷ ه ۱۹۰۹ فی أول عهده بالنظام، فانتسب إلی الشعبة الأولی علی مذهب الإمام مالک، و استمر فی التعلیم یحوطه التوفیق حتی نال الابتدائیة عام ۱۳۳۱ ه- ۱۹۱۳ م، ثم تزوج إتباعا لسنة الریف فی الحرص علی الزواج المبکر، و استمر یوالی کفاحه العلمی حتی کان فی طلیعة الناجحین فی الشهادة الثانویة عام ۱۳۳۵ ه- ۱۹۱۷. و فی القسم العالی بسنواته الأربع دأب فی التحصیل، وجد فی الإطلاع. و ثابر علی الدراسة حتی فاز فی النهایة بنیل شهادة

العالمیة النظامیة عام ۱۳۴۲، ۱۹۲۳ م. ثم أنشیء قسم التخصص

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۶

و افتتح فی ینایر ۱۹۲۴، فتقدم إلیه و التحق بشعبة «النحو و الصرف و الوضع» و اجتاز مراحله الثلاث بتفوق، و فی السنة الأخیرة حازت رسالته فی الإعلال تقدیر أساتذته و لجنة الامتحان کذلک.

و لما عقد الشیخ المراغی عام ۱۹۲۸ لسابقة بین خریجی التخصص للتعیین فی وظائف التدریس بالأزهر و معاهده کان حظ الشیخ فیها حظا طیبا، فعین مدرسا فی معهد الزقازیق الدینی فی الیوم السابع و العشرین من ربیع الثانی عام ۱۳۴۷ ه، ۱۱ أکتوبر ۱۹۲۸، و بعد قلیل توفی والده یوم الثلاثاء ۱۹ رجب ۱۲۴۷ ه- ۲۱ دیسمبر ۱۹۲۸، و لکنه مات و هو قریر العین بابنه الشیخ المدرس فی الأزهر الشریف، و مکث أربع سنوات فی معهد الزقازیق کان فیها محل تقدیر شیوخ المعهد و أساتذته و طلابه و مفتشی الأزهر الشریف، و من ثم انتقل منها إلی کلیة اللغة العربیة عام ۱۹۳۳ مدرسا، و ظل فیها إلی أن توفاه اللّه إلی رحمته عام ۱۹۵۵.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۷

الشیخ عبد الجلیل عیسی

من جدید، و بعد مرور خمسة و سبعین عاما، علی وفاة الإمام محمد عبده، طیب اللّه ثراه؛ تنتفض هذه المدرسة العجیبة، مدرسة الإمام محمد عبده عن رائد من أعلامها، یتلقی من یدی الرئیس محمد أنور السادات، فی عید الثقافة، جائزة الدولة التقدیریة، إکبارا و تقدیرا من الدولة لعلمه، و لما أسداه فکره إلی جیلنا المعاصر من آثار جلیلة.

إن تفسیره الشیخ عبد الجلیل عیسی للقرآن الکریم یسیر علی منهج الأستاذ الإمام، من موضوعیة و نفاذ بصیرة، و عقلیة أصیلة تزن کل شیء، و تحکم فی عمق علی الآثار و المرویات و المأثورات.

و کتابه «اجتهاد الرسول» یحمل طابع الإمام العقلی فی کتابه المشهور «رسالة التوحید»، فهو قبس من جذوة الفکر العلمی، التی أنار بها الإمام محمد عبده الطریق لجیله، و للأجیال التی خلفته.

و الشیخ عبد الجلیل عیسی هذا الأزهری النابغة، عاش حیاته نضالا و رأیا و عملا، من أجل أن یکون للعالم صوت فی مجتمعه، و عمل دائب فی خدمة وطنه، و جهاد متصل من أجل کلمة الحق تقال فی کل وقت و کل مکان ..

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۸

و انتماؤه العربی و الإسلامی عزز فی نفسه الشعور بأصالة تراثنا، و بعظمة الماضی و جلاله، و یمجد الأزهر العلمی العریق؛ و کانت هذه الانتماءات کلها هی مکونات شخصیته.

و فی ظل ما یقرب من قرن کامل عاشه و یعیشه عالمنا الجلیل، کانت الأحداث الکبری فی تاریخ وطننا، التی شارک فیها الشیخ بقلمه و روحه و نضاله.

توفی رحمه اللّه عام ۱۹۸۱.

کان أحد علماء الأزهر الذین وقفوا علی أسرار الشریعة الإسلامیة، و ملکوا ناصیة اللغة العربیة و البیان فی العصر الحدیث- عرفته شیخا لمعهد شبین الکوم الدینی الذی أنشیء فی عهد الإمام المراغی- رحمه اللّه- و قد اختاره أول شیخ له، لأنه کان موضع ثقته، و أحد تلامیذه المقربین إلیه و کان للشیخ عبد الجلیل فی قلوبنا مکانة کبیرة من التقدیر و الاحترام و الحب و الاعزاز، لأنه وضع نصب عینیه النهوض بهذا المعهد الدینی، و لأنه کان له مزید من الهیبة و السطوة، و لحرصه الشدید علی مصلحتنا، و ظهورنا بمظهر الطالب الأزهری المثالی الذی یحرص علی عزته و کرامته، و فی سبیل ذلک کان لا یسمح لأحد بدخول المعهد إلا إذا کان یلبس الزی الأزهری کاملا، و إذا نمی إلیه أن أحدنا لا یظهر فی الخارج بصورة سلوکیة مشرفة، قام بفصله من المعهد مدة و لا یسمح له بالحضور

إلا بعد تعهد من ولی أمره بضمان سلوکه و استقامته، و ذلک بعد أن یتحری الأمر، و قد انعکس علینا هذا جدا و استقامة، و تفوقا فی العلم و اخلاق.

و الشیخ عبد الجلیل من الرعیل الأزهری الأول الذی اشترک فی المظاهرات و قاد مع زعماء الأزهر ثورة ۱۹۱۹ ضد الانجلیز و کان یحدثنا بذلک فخورا، لینقل إلینا شرارة الوطنیة- و کان معروفا عنه أنه أشد تلامیذ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۵۹

المراغی إخلاصا، حیث ترسم خطاه فی میادین إصلاح الأزهر و تطویره تطویرا یساید سمة العصر العلمیة، مع الاحتفاظ بعناصر التراث الأصیل للأزهر و کان للشیخ قلم موهوب فی کتابة الموضوعات المتعددة ..

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۱

الشیخ سعاد جلال

توفی رحمه اللّه فی یونیو عام ۱۹۸۳، و کان علما من أعلام الشریعة الإسلامیة و أستاذا جلیلا فی کلیة الشریعة الإسلامیة.

قال عنه زمیله الدکتور الشیخ عبد الجلیل شلبی:

عرفت «الشیخ محمد سعاد جلال» منذ أکثر من نصف قرن عرفته أول ما جئت إلی القاهرة طالبا فی کلیة اللغة العربیة سنة ۱۹۳۷، و کان هو فی السنة الثالثة فی کلیة الشریعة و کانت الکلیتان فی مبنی واحد، فتعارفنا بلحظة، و تآلفنا فی لحظة، ثم مضت الأیام تزید مودتنا قوة، و تکسو تآلفنا إخاء و إعزازا.

و التحق الشیخ سعاد عقب تخرجه بتخصص المادة، لیدرس الفقه الإسلامی و أصوله، و کان هذا التخصص یستغرق نحو سبعة أعوام، و کان طلابه یختلفون فی درجاتهم العقلیة و یتباینون فیما یحصلون من علمه تباینا واسعا، فقد کان الأزهر حدیث عهد بالدراسات العلیا، و کانت دراسته تقوم علی درس الکتاب لا علی درس الموضوع، و قلیلون من أبناء هذا القسم بنوا أنفسهم بأنفسهم و کما کان یقول المرحوم أحمد أمین: إن من ینبغ من أبناء الأزهر لم ینبغ بمنهجه و توجیهه و لکن نبغ علی الرغم من منهجه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۲

و توجیهه، و کان الشیخ سعاد من هؤلاء.

و عدا الناحیة العلمیة، أو لعله بسببها، کان نزوعا إلی الخیر و نفع الناس بما لدیه، و کانت موهبته الخطابیة مما یساعده علی بث علمه و إذاعة أفکاره و هی أیضا مما هیأ نمو مدرسته و کثرة تلامیذه، کان و هو لا یزال فی هذا التخصص یخطب یوم الجمعة فی مسجد الخازندار بشبرا و ذهب وزیر الأوقاف یومئذ لیصلی فی هذا المسجد، و ربما جذبه إلیه اسم الشیخ سعاد، فأعجبه حدیثه فقرر له علاوة استثنائیة تقدیرا لکفائته و علمه، و بعد أن أنهی الشیخ دراسته کان یخطب ثانیا فی مسجد المحکمة بمصر الجدیدة ثم المسجد قاهر التتار فمسجد عمر مکرم بالقاهرة و کان یتطوع بإلقاء الدروس الدینیة فیها، فکان له بها مدرسة ثانیة، بعد مدرسته فی کلیة الشریعة.

و کان من لباقته فی دروسه أنه یوازن بین قانون الشریعة و القوانین الوضعیة، و یوازن بین مجتمعاتنا و المجتمع الإسلامی فی حذق و حسن تصویر، و هو مع هذا یتحاشی الاحتکاک بتیارات السیاسة، و لکن کانت تلمیحاته أبلغ من تصریحات الآخرین، و کان تلامیذه فی کلیة الشریعة یحبون درسه و یقدرون تفکیره، و هم الآن فی شتی المعاهد و المدارس داخل القطر و خارجه یشعرون بدینهم له.

ثم انضم إلی هاتین المدرستین حدیثه «قرآن و سنة»، و به أضاف إلی تلامیذه تلامیذ لا یعرفهم و لم یروه، و لکنهم أحبوه علی البعد، و عرفوه من غیر أن یلقوه.

و مات الشیخ سعاد جلال، فشیعت جنازته فی غیر حشد، ففی ذمة اللّه و ذمة التاریخ.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۳

الدکتور أحمد الشرباصی

اشارة

من مواليد بلدة البجلات مركز دكرنس، مديرية الدقهلية، و تاريخ ميلاده ۱۷ نوفمبر سنة ۱۹۱۸. تخرج من كلية اللغة العربية سنة ۱۹۴۳، و كان ترتيبه «الأول» بين المتخرجين كما كان «الأول» بين زملائه فی سنوات الدراسة بالكلية.

نال شهادة العالمية و التخصص فی التدريس سنة ۱۹۴۵، و كان ترتيبه «الأول» بين الحاصلين على هذه الشهادة.

كانت هذه أول مرة يجمع فيها متخرج بين «الأولية» فی الشهادة العالية و «الأولية» فی التخصص.

اشتغل مدرسا فی وزارة المعارف مدة، ثم نقل مدرسا فی معهد الزقازيق، فمعهد القاهرة فمعهد سوهاج، فمعهد القاهرة. و اختير أمينا للجنة الفتوى بالأزهر.

ألف ما يزيد على العشرين كتابا فی مباحث الدين و التاريخ و الأدب و الاجتماع، و من هذه الكتب: حركة الكشف، محاولة، بين صديقين، سيرة السيدة زينب. واجب الشاب العربی، المحفوظات الأزهرية، لمحات عن أبی بكر، محاضرات الثلاثاء، صلوات على الشاطیء، أمين

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۴

الأمة أبو عبيدة، عائد من الباكستان، مذكرات واعظ أسير، النيل فی ضوء القرآن من أجل فلسطين، فی رحاب الصوفية، غربة الإسلام، أيام الكويت، القصاص فی الإسلام، فی عالم المكفوفين، الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز.

أذاع سلسلة أحاديث فی الراديو عن الدين و صلته بالحياة، كان يقصد فيها دائما إلى تزكية المجتمع بالمبادیء الدينية الفعالة فی إصلاح الحياة و الأحياء. و من هذه الأحاديث سلسلة «الإسلام و الشباب» و سلسلة «آداب المجتمع فی الإسلام» و سلسلة «الإسلام و منهج الاستقامة» و سلسلة «آدب السنة فی بناء الأسرة».

اشترك ببحوثه و مناقشاته و آرائه فی مؤتمرات كثيرة، مثل: مؤتمر الشعوب الإسلامية بالباكستان، و مؤتمر العلماء بالباكستان، و المؤتمر الإسلامی بالقدس، و مؤتمر الخريجين العرب بالقدس، و المؤتمر الرياضی بالقاهرة. و نظم عدة مؤتمرات إسلامية و اجتماعية و قومية فی دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين.

نال دبلوم الدراسات اللغوية و الأدبية من معهد الدراسات العربية العليا سنة ۱۹۵۵، و كان ترتيبه «الأول». و كان مجموع درجاته أكبر من أی مجموع فی جميع شعب المعهد المذكور.

يعرف اللغة الانجليزية، و تقدم أكثر من مرة قبل قيام الثورة فی مصر لبعثة خارجية علمية، و حيل بينه و بين ذلك بسبب خطبه و مقالاته التی كان يقاوم فيها الفساد الماضی و الطغيان البائد.

دعا منذ عشرين عاما إلى إدخال نظام الكشافة فی الأزهر، و ألف فی ذلك كتابا، و خطب و كتب عن ذلك مرارا، كما دعا حينئذ و بعد ذلك إلى نشر التربية الرياضية فی الأزهر و المعاهد.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۵

ألقى سلسلة من المحاضرات فی عدة مواسم دراسية على مبعوثی البلاد العربية إلى «المركز النموذجی لتوجيه المكفوفين بالزيتون»، و هؤلاء المبعوثون يأتون للتخصص فی شئون المكفوفين و توجيههم، و ألف كتابه «فی عالم المكفوفين» الذی نال جائزة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية سنة ۱۹۵۶.

رحل رحلات علمیة و اجتماعیة و إسلامیة إلی: فلسطین و الأردن، و لبنان، و سوریا، و الکویت، و الباکستان، و الیونان، و ترکیا، و له بحوث و دراسات عن هذه البلاد، و تکررت رحلاته إلی أکثر هذه البلاد.

کان مبعوثا علمیا للأزهر الشریف فی الکویت عام ۱۹۵۲- ۱۹۵۳.

و ألف کتابا عن الکویت و شئونها المختلفة فی قرابة خمسمائة صفحة.

اختیر لألقاء محاضرات عن الشریعة الإسلامیة علی طلبة معهد الخدمة الاجتماعیة فی مستوی جامعی منذ أول سنة ۱۹۵۷ الدراسیة.

قام بمهمة الرائد العام لجمعیات الشبان المسلمین منذ عهد بعید، و کان ینظم محاضرات: «أحادیث الاثنین» و محاضرات «مواسم التفسیر»، کما یشارک بمحاضراته و کلماته فی أعمال الشبان المسلمین المختلفة، و ینشر بحوثا فی مجلتها منذ سنوات، و له محاضرات فی جمعیات کثیرة إسلامیة و اجتماعیة و قومیة و ریاضیة، و هو عضو فی کثیر من هذه الجمعیات.

أسندت إلیه أمانة الفتوی فی الأزهر الشریف بالإضافة إلی عمله فی التدریس بالأزهر.

دعاه رئیس الجمهوریة أکثر من مرة للخطابة فی الأزهر الشریف فی مناسبات تاریخیة مشهورة، مثل یوم معرکة القتال، و یوم الوحدة بین مصر و سوریا، و یوم الجمعة الأخیرة من رمضان و یوم عید الفطر، و غیرها.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۶

کلفته ریاسة الجمهوریة عن طریق الاتحاد القومی برحلة إلی سوریة قبیل إعلان الاستفتاء علی الوحدة بین مصر و سوریة فی مطلع سنة ۱۹۵۸، و ألقی هناک عشرات الخطب و المحاضرات فی مختلف المدن السوریة حثا علی الوحدة و تعریفا بالعروبة و الإسلام.

دعاه الرئیس شکری القوتلی إلی إلقاء خطبة تاریخیة فی المسجد الأموی بدمشق یوم الاستفتاء علی الوحدة. و قد أذیعت هذه الخطبة بالرادیو، ثم نشرت و نوهت بها الصحف کثیرا.

اختارته وزارة الشئون الاجتماعیة و العمل سنة ۱۹۵۵ عضوا فی اللجنة التی وضعت مناهج الدراسة لقسم الدراسات الاجتماعیة لطلبة الکلیات الأزهریة.

منذ سنة ۱۹۴۰ و هو یقوم بالخطابة الدینیة المصطبغة بالصبغة الاجتماعیة، و قد تنقل بین مسجد المنیرة، و مسجد الشامیة، و الجامع الأزهر، و مسجد الرفاعی، و غیره من المساجد.

ألف جملة مسرحیات إسلامیة و تاریخیة، مثل أکثرها علی مسارح:

جمعیة الشبان المسلمین، و دار الأوبرا، و حدیقة الأزبکیة، و الغرفة التجاریة، و غیرها.

اشترک فی موضوع فیلم «خالد بن الولید» بوضع المعلومات التاریخیة و الحوار و شارک فی السیناریو.

کتب و خطب کثیرا فی الدعوة إلی التقریب بین الدین و الفن و شعاره هو: إذا تدین رجل الفن و تفنن رجل الدین التقیا فی منتصف الطریق لخدمة العقیدة الإسلامیة السلیمة و الفن القویم».

اختارته إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة فی اکتوبر سنة ۱۹۵۸ لیکون رائدا لبعثة الضباط الأندونیسیة المرکونة من قادة التربیة الروحیة التی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۷

قدمت لدراسة الشئون الإسلامیة و الروحیة و الأخلاقیة للانتفاع بها فی تعبئة الروح المعنویة بالجیش الأندونیسی.

و کانت له صلاته المستمرة بالقضایا العامة للبلاد العربیة و الإسلامیة.

کتب کثیرا فی إصلاح الأزهر لأداء رسالته الکبری فی مصر و العالم الإسلامی.

و کانت کتاباته و محاضراته- فوق اتجاهها الاسلامی و العربی- و قد حصل علی الدکتوراه فی الأدب و النقد من کلیة اللغة العربیة عام ۱۹۶۷ تتّسم دائما بالنزعة الإنسانیة.

توفى إلى رحمة اللّه عام ۱۹۸۰.

كتب إلىّ عام ۱۹۵۸ من دمشق يقول:

أخى البحاثة الدءوب الأستاذ الجليل محمد عبد المنعم خفاجى:

سلام اللّه عليك و رحمته و بركاته. أكتب لك هذه الرسالة من دمشق الفيحاء بعد أن قضيت أسبوعا فى هذا الشطر الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة، و قد جلنا فى أنحاء هذا الإقليم الكريم فزرنا طرطوس و قدموس و اللاذقية و حلب و حماة و معرة النعمان (بلد أبى العلاء) و حمص و غيرها، و ألقيت فى كل بلدة من هذه البلاد أكثر من خطب عن الوحدة و العروبة و الإسلام و مقومات هذه الأمة المؤمنة، و قد سعدنا فى اليوم التالى لوصولنا بمقابلة الرجل العظيم الرئيس شكرى القوتلى، و خطبت أمامه، و أهديت إليه نسخة من كتابى «الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز» لأنه كان مصرى المولد و تولى الخلافة فى الشام و جمع فى خلافته بين مصر و سوريا و غيرهما من بلاد العروبة و الإسلام.

و قد تفضل الرجل المجاهد فتقبل الهدية و علق عليها بأنها أحسن هدية يتلقاها لأنها تذكرة بالزهد و الورع و العدالة ... ثم رد على خطبتى بخطبة

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۸

جليلة قيدنا خلاصتها، و كان ذلك كله فى القصر الجمهورى السورى. و قد طلب منى أثناء خطبته أن ألقى خطبة الجمعة يوم الاستفتاء ۲۱ فبراير ۱۹۵۸ فى المسجد الأموى الجليل لكى تذاع بالمذياع و ليسمعها ألوف المصلين بالمسجد، و قد استحببت لذلك، و جعلت خطبتى دائرة حول معانى الوحدة و ثمرات الاتحاد، و قد ذكرت فيها أيضا عمر بن عبد العزيز و ضربت بعض الأمثلة من حياته، و كان لها و الحمد للّه أثر طيب حميد كما ذكر لى الناس هنا و هناك.

دمشق الآن يا أخى فى بحر لجى من الفرح و السرور و البهجة ..

المظاهرات فى كل مكان، الهتاف يملأ الآذان .. الرجال و النساء، الشيوخ و الشباب، الطلاب و الطالبات .. الجميع يصفقون و يهتفون ..

إنك لا تستطيع أن تفرق مبلغ هذا الشعور الجارف الفياض إلا إذا رأيته بعينيك ...

إننا الآن بين أشقائنا و أحبائنا، و فى بلادنا ... البلد واحد، و القائد واحد، و الوجهة واحدة ... نصر اللّه كلمة الأمة، و أعز بها شأن الحق و العدل، و ثبتها فى طريق اليقين و الإيمان ...

تحياتى لك و لأهلك و لكل أحبائك، و إلى لقاء قريب، و سلام اللّه عليك و رحمته.

دمشق فى ۲۲/ ۲/ ۱۹۵۸

أحمد الشرباصى

و كتب عنه صديقه محمد رجب البيومى يقول:

أصدر للأستاذ أحمد الشرباصى كتابه القيم: «فى عالم الملفوفين» ...

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۶۹

و الكتاب كما يراه كثير من الناقدين مجهودا علميا إنسانيا، فلا غرابة إذا أخذ نصيبه من ثناء المنصفين!! ... و يقول زميله د. رجب البيومى عنه:

رجعت بذاكرتى إلى الوراء، أيام كنت طالبا بالنسة الأولى بمعهد دمياط الدينى، و قد سبقنى فى التخرج فيه زميلى أحمد الشرباصى، تاركا خلفه ثناء مستطابا، تفيض به ألسنة المدرسين فى المعهد، و آراء الأدباء، خارج الدراسة، من أندية السمر، و نزهات الراحة، و

دهشت كثيرا حين علمت أن الطالب المتخرج فى المعهد الابتدائى قد أصدر كتابا أدبيا فى موضوع توجيهى تحت عنوان: «حركة الكشف»، و لم يكن الكتاب مقالات متناثرة فى موضوعات متفرقة، تزدحم بها الأساليب الإنشائية و الخيالات البعيدة. كما نلاحظ دائما فى إنتاج الشداة من الناشئين، و الطامحين من المراهقين؛ و لكنه كان كتابا هادفا يسعى إلى غرض، و يدور حول فكرة، فاجتمعت له الأصالة و الجدة مع التوجيه الدافع، و الحرص الغيور، ..

و قد انتقل الإعجاب بهذا الكتاب إلى الدوائر الأدبية فى القاهرة، فأفردت له مجلة الرسالة (عدد ۱۰ يناير سنة ۱۹۳۸) صفحة خاصة تحدث فيها الأستاذ محمد سعيد العريان عن الكتاب و صاحبه، فقال فيما قال:

«ها هو ذا أزهرى فتى يضرب المثل لإخوانه الأزهريين فى الفتوة الرحيمة، التى تعمل للإنسانية ... يا له من فتى متمرد؛ لا ... لا تسموه متمردا، إنه يعرف ما عليه من تبعات الرجولة فى غد، فأعد للغد عدته، فلا عليه إن كان هو وحده الفتى الكشاف من الأزهر الكبير و روافده .. إنى لفخور به»!! ...

و أخذنا حينئذ نطالع مقالات أسبوعية يفاجئنا بها الشرباصى فى مجلات مختلفة، و كان عجيبا أن تصدر «السياسة الاسبوعية» (فى ۹ يوليو

سنة ۱۹۳۹) عددا خاصا عن ذكرى الإمام محمد عبده، يتحدث به منصور فهمى و جاد المولى و أمين الخولى و محرم و الجارم و غيرهم من أدباء الصف الأول، ثم يكون للفتى الناشىء بهذا العدد مقالان اثنان لا مقال واحد (ص ۱۸، و ص ۳۰).

شىء رائع حقا، و نشاط حميد مشكور دفع بالأستاذ فليكس فارس- و هو يومئذ فى طليعة كتاب الرسالة الشيوخ- أن يسجل تقديره فى تقريظ مشجع يقول فيه (الرسالة، عدد ۶ فبراير سنة ۱۹۳۹):

«إن المؤلف يذهب فى محاولته ذهاب من رسخت عقيدته متعالية عن تردد المحاولين، و إن العبقرية العربية تنتبه فى هذا الجيل الذى سيقدم ليحل محلنا على الذروة نحن النازلين منها إلى الأغوار. لقد ولدت اقلامنا أقلاما خيرا منها».

و ثناء فواح كهذا الثناء تعبق به مجلة الرسالة الارستقراطية جدير بالتقدير و الاعتبار ...

مضت الأيام و الشرباصى لا ينى عن رسالته الأدبية، بل يزاحم الأدباء إنتاجا و تأليفا على طراءة العمر و لدونة اليفاع، و كان لا بد لهذا النشاط المتوثب أن يخرج للناس كتابا ثالثا تحت عنوان: «بين صديقين»؛ و كان لا بد لجمهرة المنصفين من الأدباء أن يسابقوا إلى تكريمه و تشجيعه، فهيأت جمعية الشبان المسلمين ساحتها مساء الأربعاء ۲۸ نوفمبر سنة ۱۹۴۰ م لحفلة تكريمية ساهرة خطب بها كبار الأساتذة و نوابغ الأدباء، و قد أظهر الوفاء دلائله الصادقة فى نفوس كريمة تحتفل بالنشاط الدائب، و تبارك الجهد الموصول؛ و أنت تدرك كفاح الكاتب الناشىء حين تسمع زميله الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف يتحدث عنه، فيقول :

«لقد كنت أتلقى بريد الرسالة فأجد الشرباصى فى اليوم الواحد كاتبا فى (المكشوف) اللبنانية و (الحديث) الحلبية و (التفيض) العراقية و (المجلة) الدمشقية»!! ... و هذه الحقيقة الماثلة تنطق بنشاط حافل، تمده الموهبة، و ينمية الإطلاع!! ..

و قد آثرت أن أستشهد بالنصوص ليعلم هذا المبتسم عن ريبة و اتهام أننى لا أبارك وحدى جهود أديب طامح، فإذا كان لا بد من الابتسام فليوجه إلى جميع من يستمعون القول فيحبون أحسنه، و يهتفون بقائله: مرحى مرحى فقد سلكت الطريق!! ...

و إذا كان لنا أن نحكم على إنتاج الكاتب، فإننا نلاحظ أنه من مبدأ أمره قد احتفل بالأدب العربى دراسة و تحليلا، فقرأ و حفظ و ناقش، و أعد نفسه ليكون أستاذا فى الأدب العربى وحده، فهو غاية يهدف إليها، و لم يدر أن الأيام ستجعل هذه الغاية وسيلة إلى هدف أسمى و مطلب أحب، تلك هى الدعاية للإسلام و نصرة الحق الصريح! ..

لقد أكب الشرباصى على دراسة الأدب فى مختلف عصوره، فأفاد إفادة غزيرة، و لا زالت أبحاثه الأدبية ترتفع إلى قمة عالية. و قد

قرأت له سلسلة عن «الخطابة فى الأندلس» بمجلة الأزهر، فشاهدت من أصالة الرأى و براعة الاستنتاج و طرافة النقاش ما أعجب و أمتع؛ بل أذكر أن أحد أساتذة العراق المرموقين قد كتب مؤلفا تحت عنوان: «بعث الشعر الجاهلى» فانبرى الشرباصى لنقضه فى مجلة المقتطف، و أبدى من غزارة المادة و قوة العارضة ما جعل الدكتور المؤلف فى حرج و ضيق، و لو تفرغ أحمد للأدب وحده لرأينا مجهودا حافلا تنشرح به الصدور!! ...

و لكن الأستاذ يتعرض فى نقده الأدبى إلى مأزق ضيق يكابد منه تبريحا أى تبريح! ... فهو يحرص على التشجيع و التنويه، و تدفعه المجاملة أحيانا إلى إهمال حقوق النقد الصريح، و كثيرا ما تقرأ له بحثا أدبيا عن

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۲

كتاب معاصر أو شاعر صاحب، فلا ترضى عمّا يشيع فيه من تنويه و تقدير ... فإذا اضطر الكاتب إلى النقد ساقه فى ثوب حريرى ناعم ...

و قد تخلو إليه فيحدثك عن بعض المآخذ التى رآها و لكنه تحامل على نفسه فأغفلها؛ و تلك حال تذكرنى بشاعر العربية الابتداعى خليل مطران، فقد كانت له فى الشعر رسالة ناهضة مجددة، و لكن قيود المجتمع و قوانين المجاملة قد دفعته- فى ضيق منه- إلى النظم السطحى فى حفلات الأعراس و مواقف التأبين، و الخلق السمح يجد حرجا شديدا فى مغاضبة الناس، فتكون المأزمة الضائعة للإنتاج الأدبى و صاحبه المسكين.

لقد قرأت فى كتاب «أيام الكويت» بحوثا أدبية عن شعراء مقلدين لم يتصلوا بالنهضة الفكرية الحديثة؛ و الأستاذ المؤلف ينظر إليهم بعين الرضا الكليلة عن العيب؛ فكنت أقول فى نفسى: أرضى الناقد عن فطمهم التقليدى فهتف بأصحابه مع الهاتفين، أم أنه احتقر الموازين الجديدة للشعر الحديث؟! ...

و لم يطل التساؤل، فقد قرأت للأستاذ بحثا استعراضيا عن كتاب «الشعر بعد شوقى» للدكتور محمد مندور، فوجدت الكاتب يتفق معى فى الاتجاه!! .. و ينحى باللائحة على ذوى الهمود من الجامدين، و إذ ذاك تصورت الحرب النفسية التى قاساها الشرباصى ليوائم بين الرأى الصريح و الخلق السمح الحليم!! ...

على أن أحمد فى مجاملته للزملاء لا يتهاون قيد شعرة مع كبار الأساتذة من الأدباء، و قد تعرض لغضب صاحب مجلة أدبية لامعة، حين نشر نقدا أدبيا لبعض آرائه بمجلة الثقافة سنة ۱۹۴۰ م، كما أغضب الأستاذ أحمد أمين حين انحاز مجاهرة إلى تأييد غريمه الدكتور زكى مبارك فى هجومه على صاحب الجناية الأدبية! ...

و مع مناصرته لزكى مبارك فقد وقف الشرباصى الطالب الشاب موقف

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۳

الناصح المرشد من دكتور نابغة نقاد، إذ يقول له على صفحات الرسالة (عدد ۱۶ اكتوبر سنة ۱۹۳۹ م):

«أى صديقى الدكتور، قد انتهى لغو الصيف، و جاء جد الشتاء، فلا تكسل و لا تنم، على أنى أرجو أن تتحاشى ما يسبق إليه قلمك من عبارات تنال من شخصية الأستاذ أحمد أمين و تجرح شعوره» فأى توجيه ذاك؟! ...

و قد كان التحاق الشرباصى بكلية اللغة العربية بالقاهرة نقطة تحول كبير فى إنتاجه و اتجاهه، و كان المظنون به أن يتوسع فى الدراسة الأدبية وحدها، و لكنه وجد بالقاهرة مجالا للنشاط الإسلامى عن طريق المحاضرة و المناظرة و الخطابة، فانفرجت دائرة كفاحه إلى حيث تتسع و تمتد، و رصد نفسه إلى خدمة الفكرة الإسلامية بالقلم و اللسان!!.

و صاحب اللسان البليغ لا- يرى فى أسلوبه الخطابى ضرورة لقيود المقال المركز، و من هنا سرت عدوى اللسان إلى القلم فى كتابة الشرباصى، فقد تجد بها تفصيلا و إطنابا لا يرضيان صاحب المنطق المحدد؛ و لكن الشرباصى يتعمد الإثارة الانفعالية فى نفوس القراء، إذ يهمه أن يجتذبهم إلى فكرته مستعملا شتى ضروب التأثير، من منطق عقلى، أو مهيج عاطفى، أو حافز وجدانى؛ و إذا قرن

القارىء شخصية الداعية بشخصية الكاتب فى بعض مؤلفات الشرباصى فقد أراح و استراح!! ...

اقرأ مثلا- كتب الرجل: ١- النيل فى ضوء القرآن. ٢- واجب الشاب العربى. ٣- أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح. ۴- صلوات على الشاطىء ... فستجد المنطق العقلى سابحا فى أمواج التأثير الوجدانى، و لهذه الطريقة حسناتها فى استنهاض الهمم و حفز البواعث، و إن كانت لا تسلم من نقد يؤكدة عقل منهجى محدود ..

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۴

لقد أصدر الكاتب مؤلفا صغيرا عن السيدة زينب، كما أصدرت السيدة بنت الشاطىء مؤلفا عنها، و صاحبة السيرة رضى اللّه عنها ذات مجال محدود لا يسمح بكتاب خاص، فماذا صنع الكاتبان؟! ..

لقد لجأت الدكتورة الجامعية إلى الأساطير و الأخيلة تنسج فيها خيوط البحث التاريخى، و لم أعجب بهذا المنهج، فنقدته نقدا صريحا بالسنة العشرين من مجلة الرسالة سنة ١٩٥٢ م. أما الشرباصى فقد هدف إلى العاطفة الدينية يستثيرها استثارا حبيبا، و قد عالج مشاكل دينية و اجتماعية تتصل بالموالد و الأذكار و الصلوات، فجاء بحثه نميرا مستطابا ينعش الروح المؤمنة، و يرضى الوجدان الصافى، و لكنه لا يخرج عن مجال التأثير الخطابى إلى مجال التأمل و الاستنباط؛ و فائدة القارىء فى المجال الأول محتومة مفروضة، فقد زاد إيمانا، و رسخ عقيدة، وصفا نبعا و أخلاقا، و ذلك ثراء أى ثراء.

هذا و قد فرغ الكاتب إلى البحث العلمى الدينى فى بعض مؤلفاته القوية مثل: «القصاص فى الإسلام»، و «محاضرات الثلاثاء». و لن يضيره فى شىء أن يعرض بحوثه الدقيقة النافعة فى ثوب رائق واضح، فالحقيقة العلمية لا ينتقص معدنها أسلوب مشرق و استطراد نافع، و إنما يضيرها أن يتشعب بها القول فى متاهة لا تحد، و هذان الكتابان من النفاسة جوهرا، و الوضوح أسلوبا، و التحديد منطقا، فى مستوى رفيع، و إذا اكتمل للمؤلف كل ذلك فقد نجح و أفاد ...

يقول فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف فى معرض الحديث عن «محاضرات الثلاثاء» فى «منبر الشرق» عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢:

«من عادتى ألا أكتب عن كتاب إلا بعد أن أقرأ أكثر مباحثه على الأقل، فإن استمالنى لمتابعة القراءة فيه بغزارة مادته، و طلاوة عبارته، و جودة معانيه مضيت فيه إلى نهايته ... و قد أهدانى فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۵

كتابه: «محاضرات الثلاثاء» و أنا أعلم أنه رجل موهوب، ازدان علمه بتقواه، و أسلوبه بالأدب الرفيع، و قلمه بالسلاسة و الرواء، فعكفت على قراءته كعادتى فوجدت فيه طلبتى» الخ ...

و إذن فقد أصبح الاتجاه الإسلامى للداعية الأديب محور الحديث فى الخطابة، و مجال القلم فى التأليف ... و قد سافر بحافز من هذا الاتجاه إلى ممالك الإسلامية كثيرة، و صادف محنا و عقابا جمة، و لكنه لم يترك تجاربه تهرب من الذاكرة هروبا لا رجعة منه، بل أفرد لها كتبا خاصة من إنتاجه مثل: «أيام الكويت» و «عائد من الباكستان» و «مذكرات واعظ أسير» ...

و قد سلك فى كتابته مسلكا يلتزمه الكثيرون، فهو يدون الحوادث اليومية مجزأة متصلة، تتماوج فى سلسلة متعاقبة، يوما وراء يوم، و أذكر أنى كتبت إليه فى رسالة خاصة نقدا لهذه الطريقة، إذ أرى أن الأوفق أن تمتزج هذه اليوميات، لتتداخل فى أبوبا عامة، تتخذ لها عناوين دالة موحية ...

و كنت أعتقد أن هذا المنهج لا يختلف فيه اثنان، و لكنى وجدت من كبار الأدباء من يعدل إلى طريقة الأستاذ الشرباصى مندا بما أشرت إليه، فقد كتب الدكتور محمد عوض محمد بالرسالة (العدد السابع من السنة الأولى) ينقد كتاب: «جولة فى ربوع أفريقية» للرحالة محمد ثابت، فيفضل أن يكتب المؤلف مذكرات يومية أثناء السياحة، يصف فيها حركاته و سكناته، و ما مر به من الحوادث و كل شىء رآه، و بديهى أن ذلك لا يتضح بجلاء فى الأبواب الكلية كما أريد، و لكل وجهة هو موليها ...

و قد لاحظت أن أفكار الكاتب فی نشأته الأولی لم تتبدل فی شبابه المكتمل، بل أكسبها الزمن عراقة و أصالة دون أن يميل بها إلی استئصال و إبادة. و لتوضيح ذلك: قرأت للشرباصی علی سبيل المثال- ثلاثة فصول

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۶

مختلفة عن الأستاذ الإمام محمد عبده، و قد كتبت فی فترات مختلفة، تبتدیء من سنة ۱۹۳۸ و تنتهی سنة ۱۹۵۶ م، فلاحظت أن الروح التی تغمر مقال «محاولة» هی نفسها التی تترقرق فی مقال «محاضرات الثلاثاء»، و هی نفسها أيضا تتوهج ببزوغ فی مقال أخير نشر بالعام الماضی فی مجلة الأزهر سنة ۱۳۷۵ ه .. و لا عجب إذا أكثر الشرباصی من الحديث عن الإمام المصلح، فهو مثل يحتذيه من ناحية، و عالم أزهری كبير له رحمة الماسة من ناحية ثانية!! ...

لقد أصبح توفيق الشرباصی فی محاضراته المتتالية حديث الكثيرين، فكيف إذا ضمت إليه مؤلفاته التی تتقاطر متتابعة دون انقطاع، و قد يجمع المؤلف الواحد منها ضروبا فی القول تتباعد مصادر و مراجع، و تتحد هدفا و غاية؛ و تلك حقيقة سجلها الأستاذ محمود تيمور حين قال عن كتاب «فی عالم المكفوفين» بالرابطة الإسلامية، عدد ۱۶ أبريل سنة ۱۹۵۶ م:

«و أكبر ظنی أيها الصديق أنك ستشق بكتابك هذا علی من يريدون إلحاقه بفن من فنون التأليف، فإنهم يحارون فيه ... إن ألحقوه بالعلم فهو ذاك، لما حوی من دراسة و تحقيق، و إن وصلوه بالتاريخ فله منه نصيب موفور، و إن درجوه بالاجتماع فما ظلمون، و إن عدوه كتابا فی الأخلاق فليس هو منها ببعيد».

هذه شهادة منصفة، و هی بعد تحقيق لنبوءة الأستاذ أحمد شفيع السيد- الأستاذ بكلية اللغة العربية- حين سجل إعجابه- من أمد بعيد- بتلميذه الطالب أحمد الشرباصی، فقال عنه من قصيدة عامرة تنطق بسماحة الأستاذ و تقدير التلميذ:

قبس من الإصلاح لاح بصيصه‌سيزيده كر المدی إشعالا

و إذا رأيت الفجر يبسم ضوؤه‌فارقب لأنوار الضحی إقبالا

البحر ما ذا كان؟ كان جداولاو البدر ماذا كان؟ كان هلالا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۷

الدكتور الخفاجی- محمد عبد المنعم خفاجی- عالما-

اشارة

فی قرية صغيرة قديمة من أعمال مركز المنصورة، تسمی «تلبانة»، ولد الخفاجی فی ۲۲ يوليو عام ۱۹۱۵ بين أحضان الطبيعة الجميلة فی الريف، و بين الفلاحين المكدودين المرهقين الذين يعيشون فيه عيشة تجمع إلی البساطة سذاجة التفكير، و اجهاد العيش، و شظف الحياة.

و فی أبان الحرب العالمية الكبری، و ما تلاها من أحداث الثورة الوطنية المصرية عام ۱۹۱۵ ولد و نشأ الخفاجی .. تنطبع فی ذهنه صور من كفاح الحياة و الإنسانية و من جهاد مصر فی سبيل حريتها و آمالها، هذا الجهاد الذی ظل أمدا طويلا شغل المصريين كافة، و موضع تفكيرهم، و ألهم المقعد الناصب لهم فی حياتهم المعاصرة.

و لم يترك الخفاجی القرية إلا فی أثناء دراسته، و ظل وفيا لها و لأهلها الأبرياء البسطاء طول حياته.

و هذا الميلاد و ما صاحبه و تلاه من أحداث فی حياة الخفاجی يصوره فی قصيدة ساحرة له عنوانها «يوم الميلاد».

و الخفاجی لم يكن وحدة فی الحياة، إن تاريخ قومه يمتد إلی أكثر من ألف و خمسمائة عام.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۸

فهو من سلالة عربية عريقة، ارخ لها فی کتابه «بنو خفاجة و تاریخهم السیاسی و الأدبی»، و الخفاجیون قبیلة عربیة حجازیة کبیرة نشأت فی العصر الجاهلی و زاد نفوذها و هم من العقیلیین العامریین القیمیین، و قد تعددت فروع القبیلة بعد الإسلام و هاجرت سلالات منها إلی الشام و مصر و العراق و المغرب و الأندلس، و منهم أعلام خالدون فی کل مکان، و لا ننسی الشاعر الأموی توبة الخفاجی للعربی الحجازی، و الأمیر ابن سنان الخفاجی الحلبی المتوفی عام ۴۶۶ ه، و الشهاب الخفاجی المصری المتوفی عام ۱۰۶۹ ه، و ابن خفاجة الأندلسی المشبور، و غیرهم.

و من الخفاجیین أسر حاکمة فی حلب فی القرن الخامس الهجری، و فی العراق فی القرن الرابع إلی السابع الهجری، و کانت ولایاتهم فی الناصریة بقرب الکوفة و کان یتولاها منهم بعد أمیر، و کانوا فی شبه استقلال داخلی عن الخلافة العباسیة.

إن هذا الماضی العریق یحمله الخفاجی فی قلبه و دمه و أعصابه و یقف مزودا منه بإیمان راسخ، و عبقریة حادة و قوة ضخمة تعاوند علی کفاحه فی الحیة.

و حفظ الخفاجی القرآن الکریم و تعلم مبادیء و أطرافا من الثقافة الأولی فی مکتب القریة أو المدرسة الأولی التی کان یتعلم فیها الشباب فی ریف مصر إلی عهد قریب.

و فی عام ۱۹۲۷ رحل إلی مدینة الزقازیق یتلقی ثقافته الابتدائیة و الثانویة فی معهدها الکبیر، الذی تخرج منه عام ۱۹۳۶، و بین هذین التاریخین قصة کفاح طویل.

و من أهم ما ظهر علی الخفاجی فی هذه الفترة الاتجاه الوطنی الذی دفعه إلی الکفاح فی سبیل وطنه فی الأزمات السیاسیة التی مرت بمصر منذ عام ۱۹۳۴، و کان رئیس اتحاد طلبة أبناء الشرقیة فی مدینة الزقازیق، و کان

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۷۹

هذا الاتحاد قوة کبیرة سیاسیة فی هذه الفترة، و الخفاجی و أصدقاء له هم الذین کونوه، و کانت مؤتمراته الوطنیة تنشر فی الصفحة الأولی فی جریدة الجهاد المصریة، و فی شتی الصحف فی هذه الفترة.

و من أهم ما یلاحظه الخفاجی علی الثقافة المصریة فی هذه الفترة انعدام التوجیه و ضعف تربیة الملکات، و إهمال شئون الطالب النفسیة و العقلیة إهمالا کبیرا. و قد جاهد الخفاجی فی أزمة الأزهر عام ۱۹۳۵ مع زملائه جهادا طویلا.

التحق الخفاجی بعد مرحلة الثانوی بکلیة اللغة العربیة بالقاهرة و هی إحدی کلیات الأزهر الشریف و بدأ دراسته فیها فی أول اکتوبر عام ۱۹۳۶، و فی الیوم الثانی من أکتوبر من هذا العام توفی والده، و بعد ذلک بعشرین عاما أی فی یوم الخمیس ۲۷ جمادی الثانیة ۱۳۷۵ ه- ۹ فبرایر ۱۹۵۶ توفیت والدته و تخریج الخفاجی من کلیة اللغة عام ۱۹۴۰، حیث کان فی طلیعة المتفوقین فی جمیع مراحل الدراسة فیها.

و فی خلال هذه الفترة اشترک الخفاجی فی الحرکة الوطنیة، و تابع دراسته، و عمل أحیانا فی الصحافة فی جریدة السیاسة و فی صحف أخری، و کتب المقالات و البحوث و الدراسات فی شتی الصحف و المجلات.

و کان قیام الحرب العالمیة الثانیة فی هذه الفترة عام ۱۹۳۹ أهم حدث عالمی تأثر به الشباب العربی أیما تأثر، بل تأثر به شباب العالم قاطبة.

و کان الخفاجی المتنقل بین القریة و العاصمة صورة للشباب المصری المکافح فی سبیل وطنه و فی سبیل قومیة بلاده و فی سبیل الثقافة التی حمل لواءها بقوة.

و فی هذه الفترة تأثر بآراء عالمین مفکرین کبیرین فی الفکر و الثقافة و الإصلاح، هما الأستاذ الأکبر الشیخ إبراهیم حمروش شیخ الأزهر فیما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۰

بعد، و الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة عضو جماعة العلماء بالأزهر. كما كان للإمام محمد عبده صداه العميق فی نفسه.

و كان الأستاذ الأكبر الشيخ حمروش عبيد كلية اللغة آنذاك و كان بعقله الواسع و أفق تفكيره البعيد و ثقافته العلمية العريقة أرفع مثال لطلاب كليته، يستمدون منه القدوة، و يحتذون حذوه فی الفهم و التفكير.

و كان الأستاذ الكبير محمد عرفة أستاذا للخفاجی فی الفلسفة و البالغة، و من ثم بآرائه التجديدية العلمية تأشرا خاصا.

و تخرج الخفاجی فی يوليو عام ۱۹۴۰ من كلية اللغة يحمل شهادته العالية.

و التحق الخفاجی بأقسام الدراسات العليا فی كلية اللغة العربية فی أكتوبر عام ۱۹۴۰ فی قسم البلاغة و الأدب، فعكف فی خلال الأحداث العالمية التی صاحبت الحرب العظمی، و فی خلال أحداث مصر القومية التی امتدت من هذا التاريخ، و فی خلال أزمات الأزهر التی كانت نتيجة للصراع بين الحكومة و القصر، و التی كان الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفی المراغی مظهرا لكثير من صور الحرب الخفية فی هذه المعركة، فی هذه الظروف عكف الخفاجی علی دراساته العليا، إلی أن تخرج عام ۱۹۴۴ يحمل شهادة النجاح فی الامتحان التمهيدی لشهادة العالمية من درجة أستاذ.

ثم قدم رسالته الجامعية «ابن المعتز و تراثه فی الأدب و النقد و البيان» و نوقش فيها فی أكتوبر عام ۱۹۴۶، و نال بها بتفوق شهادة العالمية من درجة أستاذ فی الأدب و البلاغة من كلية اللغة العربية و هی أرقی شهادات الأزهر الجامعية و تعادل الدكتوراه الممتازة حرف (أ).

و من الجدير بالذكر أن الخفاجی قدم للكلية مع رسالته المخطوطة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۱

ثلاثة كتب له مطبوعة عن ابن المعتز فی جوانب تخدم موضوع رسالته و هذه أول مرة يقدم فيها باحث رسالة علمية مخطوطة و معها ثلاثة كتب تخدم رسالته و فی موضوعها.

و كان هذا الجهد الأدبی موضع تنويه الأدباء و العلماء و الصحف فی حينه.

و لا ننسی أن نقول: أن الخفاجی أمضی مع عمله الضخم هذا سنوات طوالا يشغل وظيفة أستاذ فی الليسيه فرانسيه فرع شبرا.

و قد ترك بعد حصوله علی شهادة العالمية من درجة أستاذ وظيفته فی الليسيه ليتولی أستاذية البلاغة فی معهد أسيوط الكبير الذی عمل فيه من نوفمبر عام ۱۹۴۶ حتی أكتوبر عام ۱۹۴۷، ثم فی معهد الزقازيق الذی كان طالبا فيه من قبل، و الذی عمل فيه من عام ۱۹۴۷ إلی عام ۱۹۴۸.

و انتقل الخفاجی فی ۱۷ أغسطس عام ۱۹۴۸ إلی كلية اللغة العربية مدرسا للأدب و النقد و البلاغة فيها، و لا يزال حتی اليوم يتولی هذا المنصب فيها.

و من الطريف أن نذكر أن الخفاجی متزوج من عام ۱۹۴۸ و له ولد هو ماجد خفاجی، و توفيت له بنت كان اسمها «وفاء خفاجی».

و هو كذلك رئيس رابطة الأدب الحديث فی القاهرة، و عضو فی شتی الهيئات العلمية و الأدبية فی مصر و العالم. و قد اختير عضوا فی اتحاد أبناء الدقهلية و هو من أكبر دعاة التجديد و الإصلاح و التعاون و القومية العربية.

و لا أنسی أن أنوه بكفاح الخفاجی فی سبيل إصلاح الأزهر، منذ التحاقه بقسم الدراسات العليا حتی اليوم.

و فی هذا السبيل ناضل كل شيوخ الأزهر، و طالبهم بالإصلاح و التجديد و البناء.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۲

و أنوه كذلك بكفاحه فی سبيل الأدب الذی أنفق عليه كل ما يملك من مال.

ثم بكفاحه من أجل وطنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتی اليوم.

و كفاحه من أجل الثقافة قد لا يصل إليه كفاح آخر.

عمل فی کلیـة اللغة العربیة بالقاهرة مدرسا فأسـتاذا مساعدا فأسـتاذ فرئیس قسم الأدب و النقد. ثم اختیر عمیدا لکلیة اللغة بأسـیوط، ثم عاد إلی القاهرة أستاذا متفرغا یدرس لطلابه فی الدراسات العلیا علوم الأدب و النقد.

و العوامل الثقافیة التی أثرت فی عقلیة أدیبنا یمکن تلخیصها فیما یلی:

۱- العامل الأول: ثقافـة الأسـرة و هی أسـرة تنتمی إلی أصول عربیـة قدیمة بسط صاحبها تاریخها فی کتاب خرج منه حتی الآن تسـعة أجزاء- و من هـذه الأسـرة أعلام قدیمـة و حدیثة و معاصـرة من الأدباء و العلماء و الشـعراء و الکتاب، و قد بسط صاحبنا تاریخهم فی کتابه «بنو خفاجة».

۲- العامـل الثانی: ثقافته فی الأزهر الـذی عاش فیه تلمیـذا من سـنة ۱۹۲۷ إلی ۱۹۴۶ حیث تخرج من کلیـة اللغة العربیة یحمل شـهادة «العالمیـة من درجـة أسـتاذ فی البلاغـة و الأدب» و تعادل الـدکتوراه حرف (أ) من الجامعات المصـریة- و تخول لحاملها التدریس فی کلیات الأزهر و کلیات الجامعات المصریة، و کانت الرسالة التی قدمها هی کما قدمنا «ابن المعتز و تراثه فی الأدب و النقد و البیان» و هی مطبوعة.

۳- العامل الثالث: مطالعاته الشخصـیة فی الأدب قدیمـة و حدیثـة، و یقول لنا: إنه حتی تخرجه طالع ما لا یقل عن خمسة آلاف کتاب فی الأدب عدا الکتب الثقافیة الأخری.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۳

۴- اتصاله الوثیق بالبیئات و المدارس و المذاهب الأدبیة المعاصرة، و دراساته فی کلیة اللغة لتلامیذه.

۵- الاستعداد الشخصی و الملکات الذاتیة، التی تکون لصاحبها أفکارا ثقافیة و أدبیة خاصة متمیزة.

۶- اتصاله المباشـر بالبیئات الثقافیة و الأجنبیة التی کان لعمله فی اللیسیه الفرنسیة مدرسا أثر ما فی حیاته، و کذلک اتصاله بالعدید من العناصر و البیئات الثقافیة.

یؤمن أدیبنا الخفاجی بضـرورة الملکـة الأدبیة و الموهبة الذاتیة کأساس لبناء الأدیب من الجانب الفنی و الثقافی، و من ثم نجده یحیل کل الخصائص الذاتیة التی تمیز أدیبا عن أدیب إلی أثر هذه المواهب.

و یری أن الثقافـة الأدبیـة الحدیثـة للأدب یجب- فوق تناولها لجمیع الثقافات الممکنـة- أن تتناول التعرف إلی جمیع الثقافات الأدبیة القدیمـة و الحدیثـة و المعاصـرة عنـد جمیع الشـعوب، و من ثم یحرص علی الاتصال بروائع الآداب الأوروبیة المترجمة و یری وجوب التعاون و الإخاء الأدبی بین الأدب العربی و هـذه الآداب، کما یری وجوب دراسـة الآداب الشـرقیة عامـة و العربیـة خاصـة عنـد جمیع الشعوب التی یتصل تاریخنا بتاریخها و حیاتنا بحیاتها.

و یری أن الأدب لا بد أن یخدم هدفا اجتماعیا أو قومیا أو انسانیا و إلا فقد جزءا کبیرا من مقوماته و من أجل ذلک نراه فی کتابته عن الأدب المعاصر یشید بروائع الآثار الواقعیة فی الأدب و الشعر (راجع مقدمة قصص من التاریخ).

و هو مع ذلک یری أن الأدب المعاصـر تنقصه الملکة و الذوق البلاغی کما أن الأدب القدیم کان ینقصه الاتجاه و المذهب و الرسالة و من أجل ذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۴

فهو یبشر بأدب جدید تتجلی فیه خصائص الأدبین أکثر وضوحا عما هی علیه الآن.

و یقول عنه الدکتور أحمد زکی أبو شادی رائد مدرسة أبو للو:

الخفاجی ظاهرة فذة شائقة فی الوراثة و الإطلاع و الاسـتقراء و الإنتاج فهو سبط الأدیب الکبیر الشیخ نافع الخفاجی و هو من أسرة بنی خفاجـة التی تنتمی إلی أصول عربیة «قدیمة»، و منها الأمراء الخفاجیون فی إقلیم الکوفة و الأمراء الخفاجیون بحلب، و منهم الأمیر ابن

سنان الخفاجی الحلبی، و من أشهر النابغین فی مصر من الخفاجیین الشهاب الخفاجی المصری. و هذا الرجل یحمل أعلی شهادات الأزهر العلمیة و هی «شهادة الأستاذیة فی الأدب و البلاغة» التی تعادل (الدکتوراه) من الجامعات السامقة کالسوربون مثلاه و الذی أخرج حتی الآن نحو ستین کتابا فی فنون الأدب. و من العسیر أن یختار المرء کتابا من کتبه للعرض فی مجال الحدیث عن الأدب العربی، نظرا لکثرتها و تنوعها متناولة جمیع فروع الأدب. و الأستاذ خفاجی لیس لغویا و لا أدیبا فحسب، بل هو شاعر أیضا، شأنه فی ذلک شأن الدکتور طه حسین، و ذلک- إلی جانب ثقافته الواسعة التی تلتهم کل معرفة میسورة- کان طابع کتابته شعریا جمیلا مع الحرص علی الدقة العلمیة فی الوقت ذاته. و لذلک نالت تصانیفه احتراما عاما فی جمیع الأوساط الأدبیة ببلاد الغرب و فی دوائر الاستشراق .

و یقول عنه الأستاذ روکس العزیزی:

«الأستاذ الخفاجی واحد من هؤلاء الأفذاذ الذین وقفوا علی ماضی الأدب العربی وقوف فهم و تعمق و دراسة و رافقوا جدیده فکانوا من خیرة مجددیه، لأن فکرته فی التجدید فکرة نیرة حاذقة. لذا جاءت أحکامه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۵

محکمة تتمیز بالالمعیة فهو یجمع بین دقة العالم، صفاء ذهن الباحث، و قدرة الکاتب المجید و روح الشاعر المرهفة الحساسة، و یضاف إلی هذا أنه أستاذ فی معهد کان و ما زال أمینا علی تراث هذه الأمة الأدبی و الفکری.

و قال الناقد مصطفی السحرتی فی الخفاجی :

أصدق تعریف بالخفاجی أنه هادیء ثائر معا، حریص علی الإصلاح و الجهر برأیه حتی فی أدق الظروف و المناسبات و له فی ذلک مواقف عدیدة فی الأزهر و فی خارج الأزهر علی السواء.

و هو رائد فی الأدب و الشعر و النقد و التاریخ و التصوف کما هو رائد فی علوم الدین .

و قال عنه الدکتور سعاد جلال الأستاذ بجامعة الأزهر:

الخفاجی عرفته المجامع العلمیة و الأدبیة باحثا مدققا مبرزا، فیه الکثیر من تواضع العلماء، و تبریز الباحثین و المفکرین، مما یصوره أدبه و إنتاجه و تآلیفه، التی هی آثار أدبیة یعتز بها أدبنا المعاصر، و التی ستبقی خالدة علی الأیام.

و قال الدکتور عبد المنعم النمر فیه:

إننی أطالب مجلس الفنون و الآداب بإعادة طبع موسوعات الدکتور الخفاجی کی یعم النفع بها و أطالب النفع بها و أطالب إدارة الأزهر بإخلائه من العمل لیضاعف الإنتاج و بهذا نکون قد کرمنا الرجل حقا و وضعناه فی مکانه.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۶

و قال عنه الأدیب الحجازی الکبیر الأستاذ عبد الله الجبار:

إن الأدب العربی لیفخر بنتاج الخفاجی الأدبی و العلمی المتصل المستمر علی مرور الأیام.

و قال الأدیب الحجازی الکبیر أحمد عبد الغفور عطار :

الخفاجی أحد أعلام العلماء الذین خرجهم الأزهر، و یفخر بهم، و هو أعجوبة من الأعاجیب. فهو قد ألف و صنف العدید من الکتب و کتب مئات الفصول و الرسائل. و لئن کنا ندهش عند ما تقرأ أن الکندی و ابن سینا و السیوطی و غیرهم من أقطاب العلماء الذین ألفوا کتبا و رسائل تسد بالمئات فإن هذا الدهش سیزول عند ما نجد عالما معاصرا مشغولا بالتدریس و الأندیة و الجمعیات الأدبیة و العلمیة و مشغولا بکثیر من أعمال هذه الحضارة و هذا المجتمع المضطرب یستطیع- مع کل مشاغله- أن یخرج لنا العدید من المؤلفات. بینها من الکتب ما یتجاوز عدد صفحاته الآلاف .. إنه أدیب متمکن، و شاعر مبدع، و عالم کبیر.

و قال فیه الشاعر الکبیر محمود غنیم:

هتفوا بذکر أغر نابهعمرو بن یجر فی نیابه

إن لم یکنه فی حقیقته فبینهما مشابه

لا فی ملامح وجههبل فی توفره و دابه

حبیت فیه طالباللعلم أمعن فی طلابه

بل کاتبا فی الأفق حلاق غیر و إن عن شهابه

أن ینسب سفر إلیه تاه فخرا بامتسابه

فندفق الأسلوب نحسبه غیرا فی أنسابه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۷ فی لفه قلم لعاب النحل قصر عن لعابه

أسفاره منهلةکالغیث تهطل من سحابه

أناره نست علیه و جردته من نقابه

کالطیب فی الاخفاق ینفخ ریحه رغم احتجابه

السیف سیف مصلباأو مستکا فی قرابه

و قال فیه الشاعر الکبیر الدکتور حسن جاد:

حیو الأدیب الذکیاو العالم الألمعیا

رب الیراع المجلسیرسائلا و دویا

و من یهز .. خطیباو یستثر الندیا

فما یمل دءوباو لا یکل مضیا

فقل لمن کرموهرمتم مراما عصیا

حوی الفنون جمیعافلیس ینقص شیئا

و شق کل طریقمن ذا یصد الأتیا؟

و طبق الشرق ذکراو شهوة و دویا

حتی شای کل میتو بذ من کان حیا

و لم یدع للسیوطیفی الکتب ذکرا بقیا

أخا الصبا و صدیقیأفدیک خلا وفیا

مؤلفاتک شتیو ما برحت فتیا

الدین جلیت فیه کتابه القدسیا

و کم خدمت احتساباحدیثه النبویا

و کم سهرت لتحیی تاریخنا العربیا

تکسو البیان جدیدامن الثیات بهیا

و انهض إلی المجد و اصعدإلی مدار الثریا

و اللّه حسبک حصنامکافئا و ولیا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۸

و قال فیه الشاعر کامل أمین:

یا أخا الخیر، یا خفاجهٔ، و الخیر شباب الندی و روح الحیاهٔ کل أرض نما بها البر روح ألبسته الحیاهٔ ثوب النبات، قد عهدناک یا أخی تعبر الناس فتسعی بهم کسعی الفرات تبعث البائس القنوط من الآمال کبعث الحیاهٔ بعد الممات.

یا أخی کیف مد سحرک فی اللیل فمد الصباح بین بیانک ریشهٔ الساحر الصناع بکفیک و سحر البیان تحت لسانک و خیال الحدیث یجذب کاللحن فإذا عزفته فی کمانک الکمان الذی استحال یراعا عز داود فیه من ألحانک.

و قالت فیه الشاعرهٔ جلیلهٔ رضا:

إنه کالفجر فی سناه الولید ذائم الخلق، دائم التجدید و هو الحق و الفضیلهٔ و الصدق و نور الإیمان و التوحید و هو العلم و البلاغهٔ و الفصحی و رمز الإجلال و التمجید و هو کالطفل فی سماحته الحلوهٔ فی قلبه الشفیف الودود و هو کالوحش إن غزا الکتب استأسد و انقض فوقها کالأسود و هو فی مجلس التشاحن و البغض کوجه السماء بعد الرعود بسمهٔ کالندی و وجه صبوح و اتضاع فی عزهٔ و صمود فإذا هم بالحدیث فأطراق العذاری و حکمهٔ ابن الرشید قلم عاشق و طرس عشیق و بیان یفی بکل الوعود هکذا بذرع الوجود خفاجی بین بحث و فکرهٔ و جهود فهو فخر الکتاب فی عصرنا الحاضر رمز البقاء و التخلید و أبو المجد و العلا للخفاجیین من قبل و من قدیم الجدود.

و قال الشاعر محمود الماحی فیه:

إنی أکرم همهٔ لم یؤتهابشر بعصر قد نسی کتابه

و لسان مقتدر علیم بسارع‌مستصغر رغم الشقاء عذابه

فی هذه الدنیا التی من هولهاسئم الأدیب و عودها الخلابهٔ

یجری وراء سرابها و سرابهایجری بلا أمل یرید سرابه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۸۹ یا أیها القلم السخی بعلمه‌درر الحجا و قلائد منسابه

لا جف منک و مدادک الغالی و لافارقت قلبا مبدیا إعجابه

و قال عنه الشاعر أحمد أبو المجد عیسی:

هذا الذی هام بالأسفار یکتبهاحبات عقد بدیع جد مؤتلق

لک الأنامل کم صاغت لنا أدبابه شغلنا عن الأجیال و الحدق

لک الطرائف من علم و من أدب‌سارت مسیر ضیاء الشمس فی الأفق
و أنت للجیل أستاذ تعلمه‌بما یحلیک من علم و من خلق
و نلت بالعلم جاها أنت کاسبه‌و لم تتله بتزییف و لا ملق
و کم رفعت أدیبا کان فی ظلم‌کأنما عاش تحت الأرض فی نفق
و نحن حولک إن کنا ذوی أدب‌فالطیر تهفو لفیض الجدول الغدق
و الصادح العبقری اللحن یسعده‌أن یستجیب إلی بستانه العبق
یکفیک أنک فی الأقطار جامعةتزود الفکر بالأضواء و الالق

و قال عنه الشاعر إبراهیم شعراوی:

خفاجی، هاتف ینساب طهرابأعماقی و یسکب فی نشوه
فاهتف و النداء یهز نفسی‌خفاجی لفظة کالشهد حلوه
أبی یا فرس الآداب إنی‌لأبصر فیک میدانا و صهوه
إذا ما سأرجع الناس یومإلی العلیا بتصمیم و قوه
لکنت کشعلة بین الدیاجی‌تسیر أمام هذا الجمع خطوه
الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۱

أبو الجامعات فی الشرق و الغرب قلعة حضاریة فی تاریخ مصر الإسلامیة

هذا البناء الشامخ، و المسجد العریق القائم فی نهایة شارع الأزهر بالقاهرة، و المجاور لمیدان الحسین، و الذی رفع قبابه جوهر الصقلی، قائد جیش فتح مصر فی عهد المعز الفاطمی- هو جامعة الجامعات، و معهد العلم فی عاصمة مصر قاهرة المعز الخالدة، و هو حقا قلعة حضاریة فی تاریخ مصر الإسلامیة طوال ألف عام أو یزید .. إنه الأزهر أبو الجامعات فی الشرق و العرب.

و شیخ معاهد العلم فی مختلف أرجاء العالم. و إذا کان مسجد القرویین قد أنشیء فی فاس عام ۲۴۵ ه ۸۵۹ م، فإنه لم یتحول إلی جامعة إلا فی زمن متأخر جدا، بینما صار الجامع الأزهر جامعة إسلامیة بعد إنشائه بسنوات، و صار مقصد الطلاب و الأساتذة من أنحاء الدنیا، و قام برسالة ثقافیة کبیرة طیلة ألف عام، مما لم یحدث فی تاریخ أیة جامعة من الجامعات فی الشرق و لا فی الغرب.

و کان إنشاء الأزهر و قیام الحلقات العلمیة الجامعیة فیه بعد إنشائه مباشرة و حتی الیوم، معجزة المعجزات فی تاریخ الثقافة الإسلامیة .. و الأزهر هو أبو الجامعات الدینیة، فی عالم الإسلام، و هو الذی
الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۲

یمدها بالتوجیه و الخبرة، و بالخطط العلمیة المدروسة، و بالمناهج و الأساتذة، و علی نمطه قامت مختلف الجامعات الاسلامیة الحدیثة فی أنحاء العالم الاسلامی، و صار هو الصورة المشرقة لکل الجامعات و هو الذی یلخص تاریخ الحضارة الإسلامیة کلها طوال ألف عام ..

إنه روح هذه الحضارة، و المعبر عنها و المترجم لثقافاتها. و هو موئل العربیة و ملاذها الأمین. منذ قیامه إلی الیوم و قد سمی الأزهر لأنه کان محاطا بقصور زاهرة فی رأی، أو لأنه کان أکبر الجوامع علی الاطلاق رواء و جلالا و فخامة فی رأی، أو لأنه ینتسب إلی الفاطمیة و إلی فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی رأی آخر، أو للتفاؤل بما سیکون له من المکانة و الجلال و الازدهار العلمی فی تاریخ الثقافة الاسلامیة.

و قد شرع المعز الفاطمی منذ تولی الحکم فی دولة الفاطمیین فی المغرب فی بناء دولة واسعة، و امبراطوریة ضخمة لآل البیت فی وسط العالم الإسلامی، و من ثم امتد بصره إلی مصر، و شرع فی التمهید لفتحها، و نشط الدعاة الفاطمیون فی الدعوة لآل البیت فی أنحاء مصر کلها، ثم عین قائده جوهرا قائدا لجیش الفتح، فخرج من القیروان بجیش ضخم فی ۱۴ من ربیع الأول عام ۳۵۷ ه فبرایر ۹۶۹ م، فاستولی علی الأسکندریة، ثم واصل زحفه إلی الجیزة، فدخلها فی ۱۱، من شعبان عام ۳۵۸ ه- یولیو ۹۶۹ م، و فی الیوم التالی دخل جوهر الفسطاط عاصمة مصر الإسلامیة الأولی آنذاک.

و مکث جوهر فی شمالی الفسطاط ثمانیة أیام استراحت فیها جنوده بعد عبورهم النیل من الجیزة إلی الفسطاط و أخذ جوهر فی وضع أساس عاصمة جدیدة لمصر الفاطمیة، فوضع أساسها فی یوم الثلاثاء ۱۷ من شعبان ۳۵۸ ه ۷ یولیو ۹۶۹ م کما ورد فی خطط المقریزی (ج ۲ ص ۲۰۴)، و وضع أساس القصر الفاطمی الکبیر- الشرقی فی الیوم التالی لیکون مقر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۳

الخلیفة الفاطمی المعز لدین اللّه.

و فی یوم السبت ۲۴ من جمادی الأولی عام ۳۵۹ ه- ۱۲ من أبریل ۹۷۰ م شرع القائد جوهر فی بناء الجامع الأزهر إلی جانب القصر الکبیر- الخطط ج ۳ ص ۳۷۳- و ظل البناء عامین (۹۷۰- ۹۷۲ م)، و تم البناء و أقیمت الصلاة فیه لأول مرة فی السابع من رمضان عام ۳۶۱ ه- ۲۲ من یونیو عام ۹۷۲ م و لم یلبث ان صار هذا المسجد هو المسجد الرسمی لدولة الفاطمیین، و بعد تسعة أشهر من افتتاحه أخذ الناس یتلقون فیه عقائد المذهب الفاطمی.

و کانوا یجتمعون کل یوم جمعة فیما بین صلاة الظهر و صلاة العصر، و علی رأسهم الوزیر أبو یعقوب قاضی الخندق (خطط المقریزی ج- ۵ ص ۴۹) و منذ عهد الخلیفة العزیز بالله الفاطمی بنیت الأروقة حول الأزهر، و صارت جزءا منه، و فرشت بما یلزم من الفرش، و صارت مساکن یقیم بها الطلاب، و فی مقدمتهم الطلاب الوافدون علی الأزهر من أنحاء العالم الإسلامی و من شتی مدن مصر الفاطمیة.

و کان نظام الحلقات الذی کان متبعا فی تلک الحقبة من الزمن هو النظام الوحید للدراسة فی الجامع الأزهر، و هو أساس الحیاة العلمیة و الثقافیة فی مصر. و کان لکل مذهب من المذاهب الأربعة عمود معین من عمد الجامع لا یجلس فیه إلا أهل هذا المذهب، و کان شیخ المذهب حریصا علی أن تکون حلقته العلمیة بجوار هذا العمود، و کان من عادته فی أثناء إلقاء الدروس أن یجلس علی الأرض بجوار العمود مستقبلا القبلة، ثم صار أخیرا یجلس علی کرسی من الخشب أو الجرید، و صارت تلک الکراسی من أخص امتیازات کبار العلماء فیه، و من ذلک أخذت الجامعات نظام الأساتذة ذوی الکراسی، و کان الطلبة یجلسون حول أستاذهم علی هیئة حلقة و لکل طالب مکان فی الحلقة لا یتعداه. و کان فی الحلقة طالب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۴

من أنبه طلابها یکلفه الأستاذ بإعادة درسه علی زملائه و بقراءة الموضوع العلمی للدرس فی مختلف مصادره، و سمی هذا الطالب معیدا، و عن الأزهر أخذت الجامعات نظام المعیدین أیضا. و کانت طریقة التعلیم إذ ذاک هی أن یبدأ الشیخ درسه بالبسملة و الحمد للّه و الصلاة علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، ثم یلخص موضوع درسه، ثم یقرأ النصوص التی کتبت حوله فی مختلف المصادر، و یقوم الطلاب بسؤال أستاذهم فی کل ما غمض علیهم، و یستمر الحوار و المناقشة و الأسئلة و الإجابة عنها طول الدرس بین الأستاذ و طلبته!

و لا ننسی أنه بعد انتهاء الدولة الفاطمیة، و تولی صلاح الدین الأیوبی حکم مصر عام ۵۶۷ ه. أفتاه قاضیه صدر الدین بن عبد الملک بن درباس الشافعی بامتناع اقامة خطبتین فی بلد واحد کما هو مذهب الإمام الشافعی، فأبطل صلاح الدین الخطبة و التدریس فی الجامع الأزهر، و أقر الخطبة فی الجامع الحاکمی بحجة أنه أوسع، ثم أعیدت إلی الأزهر الدراسة، و کان أول ما درس به من مذاهب

أهل السنة مذهب الإمام الشافعی رضی اللّه عنه، ثم درست المذاهب الأخری علی التتابع، فلما تولی الملک الظاهر بیبرس حکم مصر عام ۶۵۸ ه لم یلبث أن أعاد الخطبة الی الجامع الأزهر عام ۶۶۵ ه- ۱۲۶۶- ۱۲۶۷ م.

و زاد بیبرس فی بناء الجامع و شجع العلم و التعلیم فیه، و أقام الأمیر عز الدین أیدمر الحلی احتفالا رسمیا عظیما فی الجامع الأزهر، ابتهاجا بعودة الخطبة إلیه، کما أقام احتفالا عظیما آخر فی داره حضرهما رجال الدولة و قادتها، و کان هذا الأمیر یجاور الأزهر بسکناه، و تبرع له الکثیر من ماله الخاص، و جمع له الکثیر من التبرعات من الدولة و من الأمراء، و أخذ فی ترمیم مبانیه، و فی عمارته.

و لقی الأزهر من عنایة الشعب الشیء الکثیر فعاد الی حلقاته العلمیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۵

الازدهار و الجلال، و بخاصة بعد أن دمر المغول فی غزواتهم کل معاهد العلم فی العالم الاسلامی، و بعد أن قضی الاسبانیون علی المدارس الإسلامیة فی الأندلس، و لم یبق فی العالم الإسلامی علی رسالة العلم و الثقافة و بناء الحضارة غیر الأزهر الشریف.

و لما فتح سلیم الأول العثمانی مصر، أخذ یظهر التودد إلی العلماء، و الرعایة للأزهر، و یکثر من زیارته و الصلاة فیه، و أمر بتلاوة القرآن به، و تصدق علی فقراء طلابه.

و فی عام ۱۰۰۴ ه- ۱۵۹۵ م جدد الأزهر و إلی مصر العثمانی الشریف محمد باشا فی عهد السلطان العثمانی محمد الثالث، و رتب لطلبته الفقراء طعاما یجهز لهم کل یوم، فکان ذلک حافزا کبیرا علی زیادة الاقبال علیه.

و لم یکن للأزهر قانون معین، حتی عام، ۱۲۸۸ ه- ۱۸۷۲ م، ففی هذا العام، و فی عهد شیخه الشیخ محمد العباسی وضع قانون للتدریس فی الأزهر صدر به مرسوم خدیوی بتاریخ ۲۲ من ذی القعدة عام ۱۲۸۷ ه- ۳ فبرایر ۱۸۷۲ م- نص فیه علی ما یلی:

۱- أن یکون الحصول علی شهادة العالمیة بامتحان یجری علی ید لجنة من العلماء یختارهم شیخ الجامع.

۲- أن یقسم العلماء إلی درجات ثلاث: أولی و ثانیة و ثالثة.

۳- أن تکون العلوم التی یمتحن فیها الطلاب هی: الفقه- الأصول- التوحید- الحدیث- التفسیر- النحو- الصرف- البلاغة- المنطق.

و لم یکن یسمح بدخول الامتحان إلا لستة من الطلاب، فإذا ازداد العدد یرجح منهم من امتاز بالشهرة أو بکبر السن.

و فی عام ۱۳۱۲ ه- ۱۸۹۵ م فی عهد الخدیو عباس الثانی وضع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۶

قانون جدید للأزهر، ألف بمقتضاه مجلس لإدارة الأزهر من أکابر شیوخه الممثلین للمذاهب الأربعة، و من ممثل للحکومة.

و لا ننسی أن أقدم أساتذة الأزهر کان هو القاضی أبو الحسن علی بن النعمان (- ۳۷۴ ه) فهو أول أستاذ ألقی درسا فی الأزهر- ثم تلاه أخوه القاضی محمد بن النعمان (- ۳۸۹ ه- ۹۹۹ م)- ثم ابنه الحسین بن النعمان قاضی الحاکم بأمر اللّه الفاطمی.

و من أساتذته أبو عبد اللّه القضاعی الفقیه و المؤرخ (- ۴۵۴ ه- ۱۰۶۲ م) و کان هو سفیر المستنصر باللّه الفاطمی إلی قیصرة القسطنطینیة «تیودورا» لعقد صلح بین مصر و الامبراطوریة الرومانیة الشرقیة، و من کتبه «المختار فی ذکر الخطط و الآثار».

و من الأساتذة کذلک الأمیر المختار عز الملک محمد المشهور بالمسبحی (- ۴۲۰ ه- ۱۰۲۹ م) و هو من أقطاب العلماء و مشهوریهم و له کتاب بعنوان «أخبار مصر و فضائلها».

و منهم کذلک الشاطبی (۵۳۸- ۵۹۰ ه- ۱۱۹۴ م) إمام القراءات فی عصره.

و ممن قام بالتدریس فی الأزهر المؤرخ عبد اللطیف البغدادی (- ۶۲۹ ه)، و قد قدم علی مصر عام ۵۸۹ ه- ۱۱۹۳ م، و تولی التدریس بالأزهر أعواما عدة، فی مواد الکلام و البیان و المنطق، کما ألقی بعض دروسه الطبیة فی حلقات خاصة.

و کذلک الشاعر الشیخ الصوفی الکبیر شرف الدین عمر بن الفارض (- ۶۳۲ ه- ۱۲۳۴ م)، و ابن خلکان شمس الدین (- ۶۸۰ ه-

۱۲۸۱ م) الذی وفد علی القاهرة عام ۶۳۷ ه- ۱۲۳۹ م.

و کذلک ابن هشام أمام العربیة فی مصر (- ۶۴۶ ه)، و شیخ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۷

المؤرخین ابن خلدون (- ۸۰۸ ه- ۱۴۰۶ ه). و لما قدم ابن بطوطة إلی مصر عام ۷۲۶ ه- ۱۳۲۵ م زار الأزهر، و تعرف بعلمائه و ذکر بعضهم، و منهم: قوام الدین الکرمانی- شرف الدین الزواوی المالکی- شمس الدین الأصبهانی (راجع الرحلة لابن بطوطة ص ۲۵).

و کذلک ممن درسوا فی الأزهر ابن حبان الغرناطی العالم اللغوی المشهور، حیث کان یلقی دروسه فیه.

و کذلک المؤرخ المشهور تقی الدین المقریزی.

و منذ أواخر القرن الثامن قلما نجد شیخا مشهورا أو أستاذا کبیرا، لم یأخذ مجلسه فی الأزهر، و بحسبنا أن ابن خلدون شیخ المؤرخین اتخذ حلقة علمیة له فیه، و کان تدریسه فی الأزهر و جلوسه فی حلقاته العلمیة، حدثا علمیا کبیرا.

و ممن درسوا فیه کذلک: تلمیذ ابن خلدون المؤرخ المشهور العلامة المغربی محمد تقی الدین الفاسی (- ۸۴۲ ه).

و من شیوخه کذلک: الإمام شهاب الدین بن عبد الحق السنباطی (- ۹۵۰ ه- ۱۵۴۳ م)، و الشیخ الخرشی المالکی شیخ الجامع الأزهر (- ۱۱۰۱ ه- ۱۶۸۹ م)، و الشیخ إبراهیم بن محمد البرماوی (- ۱۱۰۶ ه- ۱۶۹۵ م) و کان من شیوخ الأزهر الشریف، و الشیخ حسن بن علی الجبرتی (- ۱۱۱۶ ه- ۱۷۰۴ م) و هو جد المؤرخ الشیخ عبد الرحمن الجبرتی.

و منهم کذلک العلامة المغربی شهاب الدین المقری (- ۱۰۴۱ ه- ۱۶۳۳ م) و قد وفد علی مصر عام ۱۰۲۷ ه- ۱۶۱۸ م و منذ ذلک التاریخ لازم التدریس فی الجامع الأزهر، و أقبل علی حلقته العلمیة الأساتذة و الطلاب.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۸

و منهم کذلک الشیخ الإمام الصوفی عبد الغنی النابلسی الذی زار مصر عام ۱۱۰۵ ه، و الذی تصدر حلقة علمیة من حلقاته، و کذلک مرتضی الزبیدی الیمنی صاحب شرح القاموس، و کان من کبار العلماء فی الحدیث و اللغة و الأدب، و کتابه «تاج العروس من جواهر القاموس» مشهور، و قد ترجم له تلمیذه الجبرتی فی تاریخه (۲ ص ۲۰۸- ۲۲۰ عجائب الآثار للجبرتی).

و من أعلام شیوخه و مدرسیه الإمام محمد عبده (- ۱۹۰۵ م) مفتی مصر، و مصلح الأزهر، و منشیء مکتبته، و واضع أهم قوانینه. و کان یلقی دروسه فی التفسیر فیه فی الرواق العباسی.

و ممن تخرجوا فیه أو درسوا فیه طائفة کبیرة من أعلام نهضة مصر، و منهم الزعیم أحمد عرابی، و سعد زغلول، و عبد اللّه فکری باشا (- ۱۸۸۹ م)، و المنفلوطی (- ۱۹۲۴ م)، و الشیخ محمد شاکر (- ۱۹۳۹ م)، و الشیخ عبد العزیز البشری (- ۱۹۴۳ م)، و الشیخ أحمد الزین، و د. زکی مبارک (- ۱۹۵۲)، و طه حسین، و أحمد حسن الزیات، و غیرهم.

و من أعلام المتخرجین فیه کذلک: الشیخ عبد الهادی نجا الأبیاری (- ۱۸۸۸ م)- و الشیخ حسین المرصفی (- ۱۸۸۹ م)، و الشیخ حمزة فتح اللّه (- ۱۹۱۸ م)، و الشیخ سید المرصفی (- ۱۹۳۱)، و غیرهم.

و قد تولی مشیخة الجامع الأزهر منذ العصر العثمانی إلی الیوم ثمانیة و أربعون شیخا، أولهم الشیخ محمد بن عبد اللّه الخرشی المالکی المتوفی فی ۱۷ من ذی الحجة عام ۱۱۰۱ ه.

و منهم: الشیخ البرماوی (- ۱۱۰۶ ه) و النشرتی (- ۱۱۲۰ ه)،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۴۹۹

و الشیخ عبد اللّه الشبراوی أمام الصوفیة فی عصره (۱۰۹۲- ۱۱۷۱ ه) و منهم الشیخ عبد اللّه الشرقاوی الشافعی (۱۱۵۰- ۱۲۲۷ ه: ۱۷۳۷- ۱۸۱۲ م) و الشیخ حسن العطار (- ۱۲۵۰ ه)، و الشیخ مصطفی العروسی، و الشیخ محمد العباسی المهدی، و الشیخ محمد الإنبابی، و الشیخ حسونة النواوی، و الشیخ عبد الرحمن النواوی، و الشیخ سلیم البشری المتوفی فی ۱۷ من أکتوبر عام ۱۹۱۷ م، و

الشیخ أبو الفضل الجیزاوی ثم الشیخ المراغی، و الشیخ الأحمدی الظواهری، و الشیخ المراغی للمرة الثانیة حتی توفی عام ۱۹۴۵، ثم الشیخ مصطفی عبد الرازق (- ۱۹۴۸)، فالشیخ مأمون الشناوی، فالشیخ إبراهیم حمروش، فالشیخ عبد المجید سلیم، فالشیخ محمد الخضر حسین، فالشیخ عبد الرحمن تاج، فالشیخ محمود شلتوت، فالشیخ حسن مأمون، فالشیخ محمد الفحام، فالشیخ عبد الحلیم محمود، فالشیخ محمد عبد الرحمن بیصار شیخه الذی تولی مشیخة الأزهر.

و لا ننسی ثورات الأزهر الوطنیة، ثورة الشیخ الدردیر التی وضعت أول میثاق لحقوق الإنسان، و ثورة الشیخ عبد اللّه الشرقاوی التی ألزمت الحکام المالیک بالعدالة فی معاملة الشعب، ثم ثورة عرابی، و ثورة عام ۱۹۱۹، و هما اللتان أیدهما الأزهر و شارک فیهما مشارکة فعالة .. و لا ننسی کذلک ثورة القاهرة الأولی و الثانیة التی قام بها الأزهر من أجل تحریر مصر من الاحتلال الفرنسی.

و بعد، فهذا هو الأزهر، و هذا هو تاریخه الحافل، فی بناء الثقافة و الفکر و الحضارة فی مصر الإسلامیة، بل فی العالم الإسلامی کافة.

و لا یزال الأزهر یتصدر حتی الیوم الجامعات الإسلامیة فی العالم الإسلامی.

و سوف تحتفل مصر الخالدة بالعید الألفی للأزهر بعد شهور قلیلة،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۰

لتقدم باسمها و باسم العالم الإسلامی لهذه الجامعة العریقة کل عرفان بالفضل، و تقدیر للصنیع، علی ما قام به طوال ألف عام من بناء للفکر و للوطن و للإنسان.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۱

ترجمة القرآن الکریم

اقترح شیخ الأزهر الشیخ محمد مصطفی المراغی ترجمة معانی القرآن الکریم إلی اللغات العالمیة و تقدم بها مشیخة الأزهر بمساعدة وزارة المعارف و أن یقرر مجلس الوزراء المصری الاعتماد اللازم لذلک المشروع الجلیل.

و ذلک فی خطاب بعث به الشیخ المراغی إلی رئیس مجلس الوزراء فی مصر. الأزهر فی ألف عام ؛ ج۳ ؛ ص۵۰۱

قد ناقش المشروع کثیر من الناس، و کتب الشیخ محمد سلیمان القاضی الشرعی کتابا بعنوان «حدث الأحداث فی الإسلام الإقدام علی ترجمة القرآن»، و أخرج محمد مصطفی الشاطر کتابه «الرد علی مشروع ترجمة القرآن الکریم».

فأصدرت جماعة کبار العلماء فی الأزهر الشریف فتوی بإجازة ترجمة معانی القرآن الکریم، وقع علیها الأعضاء، و هم:

- محمود الدیناری شیخ معهد طنطا.
- عبد المجید اللبان شیخ کلیة أصول الدین.
- إبراهیم حمروش شیخ کلیة اللغة.
- محمد مأمون الشناوی شیخ کلیة الشریعة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۲

- عبد المجید سلیم مفتی مصر.
- محمد عبد اللطیف الفحام وکیل الأزهر.
- دسوقی عبد اللّه العربی.
- یوسف الدجوی.
- محمد سبیع الذهبی شیخ الحنابلة.
- أحمد الدلبشانی.

- عبد المعطی الشرشیمی.

- عبد الرحمن قراعة.

- أحمد نصر.

- محمد الشافعی الظواهری.

و بعد ذلک أصدر مجلس الوزراء قرارا بالموافقة علی ترجمة معانی القرآن الکریم ترجمة رسمیة فی جلسته المنعقدة فی ۱۶ أبریل ۱۹۳۶.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۳

الشیخ المراغی

هو الشیخ محمد مصطفی المراغی، ولد فی مراغة أحد مراکز سوهاج فی مارس ۱۸۸۱، بدا رحلته التعلیمیة بحفظ القرآن الکریم، ثم ذهب إلی طهطا لمواصلة العلم و اتجه بعدها إلی الأزهر الشریف و حصل منه علی العالمیة فی عام ۱۹۰۴، اشتغل فی مستهل حیاته الوظیفیة بالسودان، و قد عین قاضیا فی دنقلة فی نفس السنة التی تخرج فیها من الأزهر ثم عین قاضیا لمدیریة الخرطوم فی دیسمبر ۱۹۰۶ و رقی بعدها لیشغل وظیفة قاضی القضاة فی دیسمبر ۱۹۰۸ و هو أکبر منصب قضائی فی السودان کله، نظم خلاله القضاء الشرعی بالقطر الشقیق. ثم نقل إلی مصر فی سبتمبر ۱۹۱۹، و ظل یرقی المناصب القضائیة إلی أن عین رئیسا لمحکمة مصر الشرعیة العلیا فی عام ۱۹۲۳ مما أتاح له أن ینهض بقانون الأحوال الشخصیة بعد أن برم الناس به، و استطاع أن یأخذ من التشریع الإسلامی من غیر تقید بمذهب، و لمس الناس أثر إصلاحاته الکبری.

ثم حاول القیام بأخطر مهمة فی تاریخ الأزهر و ذلک عن طریق تطویره و إصلاحه و مسایرته لروح العصر إذ عین شیخا للجامع الأزهر فی مایو ۱۹۸۲. بدأ عمله بنهج طیب مفاده أن یحفظ للخریج مکانته. إذ أرادت وزارة الأوقاف منذ عام مضی (أی فی عام ۱۹۲۷) إنشاء مدرسة الوعظ

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۴

و الإرشاد، لأنها ظنت أن علماء الأزهر غیر قادرین علی تأدیة هذه المهمة.

و کان لهذه المدرسة مخصصات فی میزانیة ۱۹۲۸. فتدخل الشیخ متعللا بأنه فی الإمکان الاستغناء عن تلک المدرسة بعد إصلاح الأزهر، و کان بالفعل قد سار شوطا فی هذا المجال. فکتب مذکرته الإصلاحیة الشهیرة- و التی تعتبر بحق دستور الإصلاح فی الأزهر الحدیث- ضمنها آراءه و أفکاره و خلاصة تجاربه، و أهم ما جاء فیها تقسیم القسم العالی بالأزهر إلی کلیات ثلاث: کلیة أصول الدین و الشریعة و اللغة العربیة و إنشاء قسم للدراسات العلیا یسمی تخصص المادة، ثم بعض المواد فی کیفیة ادارة الأزهر.

و انقسم الأزهر أمام تلک الآراء إلی قسمین: مؤید و معارض، وقف الملک فؤاد بجانب الفریق المعارض، للخلاف الناشیء بینه و بین المراغی فی بعض مواد القانون فقدم استقالته من مشیخة الأزهر، و بالرغم من قصر المدة التی قضاها و هی لا تتعدی أربعة عشر شهرا، إلا أنها کانت فترة حافلة بآثارها و نتائجها. فقد کان لآرائه وقع کبیر فی نفوس کل من العلماء و طلبة الأزهر، یدل علی ذلک أن قام الأزهریون عن بکرة أبیهم شیوخا و طلابا فی مظاهرة من العنف و الشدة و من ورائهم الأمة جمعاء، و لیس لهم من مطلب سوی عودة الشیخ إلی الأزهر لیواصل المسیرة الإصلاحیة، فرضخ المسئولون و علی رأسهم الملک لمطلب الشعب و عاد الشیخ إلی الأزهر.

فسکنت نفوس الأزهریین و أرادوا التعبیر عن ولائهم له و السرور بعودته فأقاموا لتلک المناسبة حفلا لتکریمه بأرض المعرض الزراعی احتشد فیه أکثر من ثلاثین ألف رجل من جمیع فئات الشعب، و حضره بعض الأمراء و رجال الفکر و السیاسة فی العالم.

و قد صدرت الصحف صباح الحفل تشید بنظامه و مما ألقی فیه من خطب و قصائد و تهنیء الشیخ و تغبطه علی مقامه فی الأزهر و

فی الأمة حتی

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۵

لقد قال بعض رجال الصحافة: لم یشهد العالم لا فی أوروبا و لا فی مصر حفلا اجتمع له من أسباب الروعة و النجاح مثلما اجتمع لذلک الحفل العظیم.

عاد الشیخ إلی الأزهر مرة ثانیة لیواصل ما بدأه من إصلاح و کان الإصلاح فی نظره یقوم علی رکنین: تخریج العالم الکفء الذی یصلح لتأدیة رسالة الأزهر و هی نشر الدین فی مصر و غیرها و الثانی کفالة المستقبل لخریجی الأزهر لیحتفظوا بکرامتهم و یؤدوا رسالتهم. و لتحقیق الرکن الأول أضاف إلی العلوم التی کانت تدرس فی الأزهر علوما رآها ضروریة، کما أضاف إلیها بعض اللغات الأجنبیة، و لتحقیق الرکن الثانی، بین فی القانون حقوق الخریجین فی کل کلیة من وظائف الدولة. و أخذ الشیخ یواصل خطواته فی إصلاح الأزهر فأوفد بعثات أزهریة إلی أوروبا، و أنشأ قسم الوعظ و الإرشاد و وضع مشروع مبانی المدینة الأزهریة التی تجمع کلیاته و معاهده و مکتبته العامة و مساکن للطلبة، و أنشأ لجنة الفتوی بالأزهر فأصبحت منارة للمسلمین من سائر أنحاء العالم الإسلامی فی شئونهم الدینیة. و قد أحیا فی عهد مشیخته الثانیة سنة علمیة دینیة قدیمة و ذلک بالقاء کبار العلماء دروسا للملوک و الأمراء، فأخذ یلقی علی الملک فاروق و کبار رجال الدولة و جمهرة من الشعب دروسا فی تفسیر القرآن الکریم فی عصور و أمسیات کل جمعة من رمضان مدة عشر سنوات بأسلوب مبتکر فی التفسیر آثار إعجاب العالم الإسلامی کله.

أما عن مواقفه السیاسیة و الوطنیة فهی أکثر من أن تحصی، و إن کان لا بد لنا من أن نعدد جانبا منها، فعلینا أن نسرد التالی: حدث بعد تخرجه فی الأزهر أن عین قاضیا للسودان ثم غضب علیه الانجلیز، فعاد إلی مصر و عین مفتشا فی المساجد، و بعد ذلک عرض علیه الانجلیز مرة أخری منصب قاضی قضاة السودان، و بذلک یقفز مرتبة من ۶ جنیهات إلی ۴۵ جنیها فقال: إنه یوافق علی ذلک بشرط أن یعین بمرسوم مصری- دیکریتو-

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۶

فاستدعاه اللورد کتشنر العمید البریطانی فی ذلک الحین و قال له: کیف تشترط هذا و نحن نرفع مرتبک إلی أکثر من سبعة أضعاف مرتبک الحالی؟

فقال فضیلته: «لن أقبل التعیین إلا- إذا عینت بمرسوم مصری فسن بذلک سنة أجبرت علیها بریطانیا، بأن صار تعیین قاضی قضاة السودان بموجب مرسوم ملکی مصری.

و کان للشیخ أثناء عمله بالسودان موقف مشرف تجاه ثورة الشعب المصری عام ۱۹۱۹، فقد روی ضباط الجیش المصری الموجودون بالسودان روایات کثیرة عن وطنیته آنذاک. حیث قاد الثورة المصریة فی السودان بخطبه الثوریة الفوارة و ظل الشیخ و هو بالسودان یرقب أحداث الثورة المصریة و تطورها و یوجه المصریین وجهة الخیر، و کان قطبهم الذی یدورون حوله. و کان یجمع من المصریین و السودانیین، التبرعات المالیة للإنفاق منها علی بعض نواحی الثورة کاسعاف الجرحی و مواساة أسر المنکوبین، مما جعل وجوده فی السودان خطرا مستفحلا علی النفوذ الانجلیزی به، فتخلصوا من الشیخ و سافر إلی مصر.

و من أشهر مواقفه السیاسیة ما کان منها أثناء نشوب الحرب العالمیة الثانیة فقد هاله و روعه ما أحدثته غارات دول المحور علی مدن مصر من دمار و خراب و تقتیل و تشرید للأنفس البریئة، فخطب فی مسجد الرفاعی خطبة بلیغة أعلن موقف مصر منها و أنها لا مصلحة لها فیها فی الاشتراک فی الحرب و لا ناقة لها فیها و لا جمل. و لقد أحدثت تلک الخطبة ضجة هائلة و قامت لها الحکومة المصریة و قعدت و اهتزت لها الحکومة الإنجلیزیة بعنف. و طلبت إلی الحکومة المصریة بیان موقفها من هذه الفکرة و اتصل به رئیس الوزراء و خاطبه فی لهجة یفوح منها رائحة التهدید فثارت ثائرته و قال له:

مثلک یهدد شیخ الأزهر و شیخ الأزهر أقوی بمرکزه و نفوذه بین المسلمین من رئیس الحکومة؟ و لو شئت لصعدت منبر الحسین و

أثرت علیک الرأی العام و لو فعلت لوجدت مکانک علی الفور بین عامة الشعب.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۷

هذه لمحة سریعة عن بعض مواقفه الوطنیة، و مجمل القول کان الرجل طرازا فریدا من نوعه اعتمد علی حب الشعب له، فبادله الشعب حبا بحب، و لذلک بکته مصر و العالم الإسلامی عند وفاته فی ۲۲ أغسطس سنة ۱۹۴۵ إذ خرجت مئات الآلاف لتودیع رجلها الذی کانت تحس به .

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۰۹

شیخ جامعة الأزهر الحالی الدکتور محمد السعدی عوض فرهود

اشارة

علم من أعلام الأزهر المعاصرین، و شیخ جلیل من کبار شیوخه.

ولد بمدینة الزرقا بمحافظة دمیاط فی أول ینایر سنة ۱۹۲۳ و حصل علی الابتدائیة الأزهریة من معهد دمیاط سنة ۱۹۳۹ و علی الثانویة من معهد الزقازیق الأزهری سنة ۱۹۴۴ و تخرج فی کلیة اللغة العربیة سنة ۱۹۴۸ و حصل علی دبلوم معهد التربیة العالی للمعلمین سنة ۱۹۵۰ و دبلوم الدراسات العلیا للمعلمین سنة ۱۹۵۴ و دورة الصحافة المدرسیة سنة ۱۹۵۶، و دبلوم معهد الدراسات العربیة العالیة فی الدراسات الأدبیة و اللغویة سنة ۱۹۵۶ م، و الماجستیر بتقدیر ممتاز فی الدراسات الأدبیة سنة ۱۹۵۸ و الدکتوراه فی الأدب العربی الحدیث سنة ۱۹۶۷ بمرتبة الشرف الأولی.

بدأ وظیفته مدرسا بمدرسة سوهاج الثانویة سنة ۱۹۵۰ ثم اختیر للتدریس بالمدارس النموذجیة سنة ۱۹۵۴ و هو أول مدرس للغة العربیة بالمدرسة الثانویة النموذجیة للمتفوقین سنتی ۱۹۵۶، ۱۹۵۷.

شغل عدة وظائف أخری منذ سنة ۱۹۵۷ منها:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۰

عضو فنی و باحث بإدارة البحوث الفنیة و المشروعات بوزارة التربیة و التعلیم (۱۹۵۷).

عضو فنی و وکیل إدارة قسم آسیا بالسکرتاریة الفنیة للجنة العلیا للعلاقات الثقافیة الخارجیة بوزارة التعلیم العالی (۱۹۵۹).

مدیر مساعد المرکز الثقافی العربی بالرباط بالمملکة المغربیة (۱۹۶۰).

مدیر إدارة الخطة بوزارة العلاقات الثقافیة الخارجیة (۱۹۶۴).

مستشار بوزارة الإرشاد القومی (۱۹۶۶).

عضو مکتب وزیر الدولة لشئون الأزهر (۱۹۶۶).

انضم إلی هیئة التدریس فی قسم الأدب و النقد بکلیة اللغة العربیة بالقاهرة سنة ۱۹۶۸، ثم رقی أستاذا للأدب و النقد فی التاسع من مارس سنة ۱۹۷۷ م.

اختیر وکیلا لکلیة اللغة العربیة بأسیوط سنة ۱۹۷۳، و وکیلا فعمیدا لکلیة اللغة العربیة بالمنصورة سنة ۱۹۷۶ حیث شارک فی إنشائهما و وضع أسس العمل بالکلیات الإقلیمیة الناهضة بجامعة الأزهر.

انتدب فی سبتمبر سنة ۱۹۷۹ وکیلا لجامعة الأزهر للدراسات العلیا و البحوث و فی أغسطس سنة ۱۹۸۰ عین نائبا لرئیس الجامعة لشئون الدراسة و التعلیم و الطلاب.

عین وکیلا للأزهر- بدرجة وزیر- فی ۱۶/ ۲/ ۱۹۸۱. و هو أول وکیل للأزهر یعین بهذه الدرجة.

عین رئیسا لجامعة الأزهر فی أول سبتمبر ۱۹۸۳.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۱

نشاطه:

* عضو المجلس الأعلی للجامعات بمصر.

* عضو مجمع البحوث الإسلامیة.

* عضو مجلس أکادیمیة البحث العلمی و التکنولوجیا.

* عضو المجلس الأعلی للشئون الإسلامیة.

* عضو نائب رئیس رابطة الجامعات الإسلامیة.

* عضو المجلس القومی للتعلیم و البحث العلمی.

* عضو المجلس القومی للثقافة و الآداب و الفنون.

* عضو مجلس اتحاد الإذاعة و التلفزیون بمصر.

رئیس اللجنة الدینیة باتحاد الإذاعة و التلفزیون.

* رئیس مجلس إدارة مرکز صالح عبد اللّه کامل للدراسات و البحوث الاقتصادیة بجامعة الأزهر.

* رئیس مجلس إدارة المرکز الدولی الإسلامی للبحوث السکانیة بجامعة الأزهر.

* أشرف علی أکثر من ۶۰ رسالة ماجستیر و دکتوراه، و ناقش أکثر من مائة و خمسین رسالة جامعیة فی الدراسات الأدبیة و الدینیة و التربویة.

- أستاذ غیر متفرغ بکلیة اللغة العربیة بالمنصورة للإشراف علی الدراسات العلیا بها منذ تعیینه وکیلا للأزهر.

* مقرر اللجنة العلمیة الدائمة للترقیة إلی وظائف الأساتذة بجامعة الأزهر.

- بدأ منذ أول ینایر سنة ۱۹۸۳ تفسیر القرآن الکریم فی برنامج یومی بإذاعة القرآن الکریم من القاهرة تحت عنوان (علی هامش التلاوة) و البرنامج مستمر.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۲

مؤلفاته:

اشارة

- له عدة مؤلفات فی الدراسات الاسلامیة و الأدبیة منها:

- فی البیان القرآنی

: ۱- تفسیر سورة الرعد، ۲- و تفسیر سورة إبراهیم.

- فی الحدیث النبوی: ۱- التعریف بالحدیث الشرف. ۲- و فی رحاب الهدی النبوی، ۳- و الهدیة السعدیة شرح الأربعین النبویة.

- فی الدراسات الأدبیة

: ۱- ابن زیدون و شعره، ۲- و الوصف فی شعر المتنبی، ۳- و الاتجاهات الفنیة فی شعر عبد الرحمن شکری، ۴- و التیار الفکری فی شعر شکری، ۵- و التیار الاجتماعی فی شعر شکری، ۶- و الندیم الأدیب، ۷- و النبع الصافی، ۸- و الکوثر العذب.

- فی الدراسات النقدیة

: ۱- اتجاهات النقد الأدبی العربی، ۲- و قضایا النقد الأدبی، ۳- و المذاهب النقدیة بین النظریة و التطبیق، ۴- و نصوص نقدیة لأعلام النقاد العرب.

- فی الدراسات البلاغیة

: ۱- أسرار البلاغة فی التشبیه و التمثیل، ۲- و مبحث التقدیم فی دلائل الإعجاز، ۳- و العبارة و تألیفها بین کتابی نقد النشر و البرهان.

- فی الدراسات اللغویة

: ۱- فن القریض، ۲- و من أدب الکاتب.

و أتم تفسیرا کاملا للقرآن الکریم فی عدة أجزاء کبیرة.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۳

الإمام نافع الخفاجی الکبیر ۱۲۵۰ ه- ۱۸۳۴ م- ۱۳۳۰ ه- ۱۹۱۲ م

اشارة

إمام کبیر، و عالم جلیل، و أدیب نابغة، و فقیه مجتهد، عنه مصادر واسعة تحدثنا عنه فی إفاضة وسعة و دقة تحقیق و تحلیل.

ترجم لنفسه فی صدر معلقته الخفاجیة ترجمة طویلة مستفیضة سننقل عنها فی إیجاز و اختصار، قال: «نافع الخفاجی بن الجوهری بن سلیمان بن حسن بن مصطفی بن أحمد الخفاجی التلبانی من بنی خفاجة و أمی من أولاد الحسن بن علی بن أبی طالب، و جدتی أم والدی من بنی شاکر و لهم اتصال فی شرف الحسب.

«و کان مولدی فی حدود سنة ۱۲۵۰ ه، «و کنت بعد سن التمییز فی مغرس طیب النبت عزیز، فی حجر والدی، ممتعا بذخائر طریفی و تالدی، مربی بغذاء النعم فی الظاهر و الباطن، فی النعیم المقیم بأرفع المساکن، و مقام والدی الجوهری غنی عن المدح، و الورق بأوکارها لا تعلم الصدح».

«و حفظت القرآن و لی دون اثنتی عشرة سنة، ثم حفظت المتون کمتن أبی شجاع و منهج الفقه و ألفیة ابن مالک و الأجرومیة و الرجبیة و الجزریة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۴

و الجوهرة و السنوسیة و متن السلم و تحفة المیهی و متن السمرقندیة و متن الزبد لابن رسلان و غیرها».

فلما درجت من عشی ترکت تلک النعم المتکاثرة و رحلت فی طلب العلم إلی القاهرة» .. «کان وصولی الأزهر أواخر سنة ۱۲۷۱ ه ثم فی أول سنة ۱۲۷۲ حضرت ابن قاسم و الکفراوی، و فی سنة ۱۲۷۳ حضرت البرماوی و الکفراوی أیضا، و فی هذه السنة زلزلت الأرض و البلاد زلزلة عظیمة هدمت منها بعض البیوت و المآذن بمصر، و فی سنة ۱۲۷۴ حضرت شرح الخطیب ثانیا و شرح الأزهریة

و حاشیته و شرح القطر. و فی هذه السنة توفی أخی محمد الغندور، و فی سنة ۱۲۷۷ حضرت التحریر و شرح القطر ثانیا و شرح الشذور».

«حضرت علی سیبویه زمانه و علامة عصره و أوانه شیخ الإسلام و تاج العلماء الأعلام شیخنا إبراهیم الباجوری طیب اللّه ثراه و جعل الفردوس مأواه، فحضرت دروسه فی المنهج و التحریر و کتب الحدیث و التفسیر، و هو الإمام الذی اقتدت به علماء الأمصار، و تنزهت من فضائله فی حدائق ذات بهجة و أنوار».

و قرأت علی من رقی فی معارج الفنون مولانا الشیخ إبراهیم السقا شرح الجامع الصغیر و شیئا من کتب التفسیر، و قرأت الفقه و شیئا من الحدیث علی الشیخ محمد الأشمونی، و قرأت علی شیخنا الخضری شرح المنهج و التحریر و النحو و البیان، و نافست فی الجد و الطلب جمیع الإخوان، و قرأت علی الشیخ مصطفی البدری شیئا من الفقه و النحو و غیرهما، و قرأت علی الشیخ الرهابینی شیئا من المنطق و النحو و البیان، و کتب لی بخطه أجازة (موجودة لدی صورتها الخطیة)، و هی «تبارک اسم ربک ذی الجلال و الإکرام، المحی مآثر الأعیان، بنشر ثنائهم المخلد فی صحائف الأیام، و الصلاة و السلام علی أفضل الرسل الکرام، و علی آله

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۵

و صحبه ما طرز البرق برود الغمام أما بعد فقد سألنی الأخ فی اللّه تعالی الشیخ العالم العلامة نافع بن الجوهری بن سلیمان الخفاجی التلبانی أن أجیزه بجمیع مرویاتی من فقه و حدیث و تفسیر و نحو و منطق و بیان و بدیع و عروض من معقول و منقول و إفتاء و تدریس و کل ما أخذته عن مشایخی الأجلة، لکونه و سمنی بسمة العلم و لست من أهله:

إذا کان الزمان زمان سوءفیوم صالح فیه غنیمة

فعلمت لیاقته لذلک فقلت: أجزته بجمیع مروایاتی من مشایخی الأخیار، و ما لهم من التآلیف و الآثار، و أوصیه بتقوی اللّه و الوقوف علی حدود شریعة رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و أن یتحری فی القول و العمل، و أن لا ینسانی من صالح دعواته، صانه اللّه و حماه، و قلد جید مجده بفرائد حلاه» ..

و تاریخ هذه الإجازة جمادی الآخرة سنة ۱۲۸۳ ه.

و نظرت فی کتب المذهبین: مذهب الشافعی و النعمان، مؤسسا علی الأصلین من مشایخ العصر، متنزها فی حدائق السحر، و شحا لآدابی بحلل النظم و النثر».

و من أجل من أخذت علیه شیخنا الرافعی، قرأت علیه شرح الشفا و قطعة من البخاری فأجازنی بذلک» «و ممن قرأت علیه الشیخ علی الملبط، حضرت علیه طرفا من العلوم و شیئا من حدیث الرسول فأمدنی بدعاء لا شک أنه علی أکف القبول محمول، و منهم الشیخ النجریدی کان ینوه باسمی و یفتح جریدته برسمی. و منهم شافعی زمانه و علامة أوانه الشیخ نور الدین المنوفی، حضرت دروسه الفقهیة».

«و حمدت فی طلب العلم السری، و نبهت عیون حظی من سنة الکری؛ و قلت: دار بدار، و العمر فرصة فالبدار. و کل ما تهواه حسن: و لیس لما قرت به العین ثمن، ففارقت من فارقت غیر مذمم. و یممت من یممت خیر میمم و أخذت الفقه و النحو و التوحید و الفرائض و البیان و المنطق

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۶

و التفسیر و الحدیث عن جماعة من الشیوخ، و قد فتح اللّه علی فی علوم الفقه و الفرائض و التوحید و التفسیر و الحدیث و النحو و المنطق و البیان و اللغة و العروض و الإنشاء و الطب و الحساب، و الحروف و الأوقاف و التاریخ ...

و دون هذه: أصول الفقه و التصریف و الاشتقاق و الجدل و الوضع، و دونها:

القراءات و لم آخذها من شیخ: و لضیق یدی عن شراء ما أحتاج إلیه من الکتب کنت أطالع کل ما أمکننی مطالعته».

ثم أذكر جملة أسماء الكتب التى قرأها على العلماء أو طالعها أو حفظها و كانت كثيرة جدا تفوق على الألف كما يقول هو فى مقامته، و نلاحظ أن من الكتب التى قرأها فى فن العربية و الأدب و ما يتصل به هذه الكتب:

الوسيلة الأدبية للمرصفى، حلبة الكميت؛ أساس البلاغة للزمخشرى، أدب الكاتب لابن قتيبة، صحاح الجوهرى، فقه اللغة، المزهر، المثل السائر، شفاء الغليل، الشفا فى بديع الاكتفا للنواجى، تاريخ ابن خلدون؛ ابن خلكان، الخطط للمقريزى، حسن المحاضرة للسيوطى، نفح الطيب، الأغانى، الكامل لابن الأثير، الغناء فى دمشق الفيحاء، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، آثار البلاد للقزوينى، الخصائص للسيوطى، المسامرات لابن عربى، فاكهة الخلفاء، فوات الوفيات، الخزانة، مقاماتالحريرى و شرح الشريشى عليها، طراز المجالس للشهاب الخفاجى، الكشكول، الموازنة للآمدى، قلائد العقيان، يحانة الألباب للشهاب الخفاجى، حديقة الأفراح، رسائل الخوارزمى و البديع، حياة الحيوان للدميرى، ثمرات الأوراق، شرح رسالة ابن زيدون، ديوان الصبابة، المستطرف، الإنشاء للعطار، إنشاء مرعى، ربيع الأبرار، شرح ديوان ابن الفارضى، شرح لامية العجم، شرح ديوان امرىء القيس، سوى الدواوين الكثيرة التى قرأها، و ذلك كله مما يوقفنا عليسر ثقافته الأدبية.

ثم قال: «و مصنفاتى فى هذا الوقت تبلغ الخمسين و لم يكن لى

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۷

شغل بالليل و النهار سوى المطالعة:

ولدى الآن صورة خطية للأجازة العلمية التى كتبها له الشيخ الباجورى ..

بدأها بالحمد و الصلاة على الرسول فى إفاضة، ثم أفاض فى فضل العلم ... إلى أن قال:

«و إن ممن قدم علينا بمدينة القاهرة، التى هى بالمحاسن ظاهرة، و بأكابر العلماء زاهرة، و بمدارس العلوم عامرة، و روضتها بأنفاس أكابر العلماء عاطرة، و أشعة شموس علومهم بها باهرة، لا سيما الجامع الأزهر و المسجد الأنور، الذى فيه العلوم تقرر، و بساط العرفان ينشر، فهو بذلك عن كل المساجد متفرد، و بتلك الخصيصة مشهور لمن إليه يرد. تجنى من رياض دروسه ثمار العلوم، و تنبت- كما ينبت البقل- بأرضه الفهوم، فمحله فى الفضل غير منكور. و مهارة علمائه فى الفنون أمره مشهور:

العالم الفاضل الماهر الكامل، الألمعى اللوذعى، صاحب الأفهام الدقيقة، و المعانى الدقيقة. نافع الخفاجى التلبانى، و قد أخذ المذكور عن علمائه و مشاهير فضلائه؛ و تفيأ فى ظلال معارفهم، و اقتطف أزهار لطائفهم، و تعطر بعبير أنفاسهم، و استضاء بمشكاة نبراسهم، حتى حصل من علمهم الجم، و غاص على تلك اللآلىء فى ذلك اليم، و جد و اجتهد، و حرر و قيد، فربحت تجارته و حسنت شارته و عظمت فائدته، و جلت عائدته، و امتلأ و طابه، و شرف بالانتماء إلى العلم انتسابه، و لما حن حنين الفحل إلى وطنه، و أراد الرجوع إلى وطنه؛ زودته بالدعوات الصالحات، و كسوته حلل الكرامة بتسطير الإجازات، رجاء الانتظام مع هؤلاء العداء، فقلت: أجزت المذكور بكل ما تجوز لى به الرواية، و ما تلقيت عن أشياخى- ضاعف اللّه أجورهم- رواية و دراية، و بما لى من تأليف و تصنيف».

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۸

و تحمل هذه الإجازة هذا الامضاء: «الفقير إبراهيم الباجورى- خادم العلم.

و مع هذه الوثيقة صورة أخرى لرجاء أساتذته: الشيخ الملط و الشيخ البدرى و الشيخ على محمد المرفوع إلى شيخ الجامع الأزهر لإعطاء «ولده الفقير خفاجى بن الجوهرى خفاجى من أهالى ناحية تلبانة بولاية الدقهلية تذكرة أسوة بأمثاله بإكرامه و عدم المعارضة له بطريق ما و إجازته بكل ما أفتى و ما فعل، و العهدة علينا فى ذلك».

و يلى ذلك إجازة شيخ الأزهر له و منها: «انتظم المذكور فى سلك العلماء و أخذ عن الشيوخ الموجودين فى هذا العصر بعضا من العلوم؛ و دأب فى التحصيل فمنح دقائق الفهوم، فأجازه أشياخه بما أخذ عنهم تلقاه منهم، و لما أراد الرجوع إلى وطنه التمس إجازته بما تجوز له روايته و تنسب له عن أشياخه درايته، فسارعت لسؤاله، و بادرت لتحقيق آماله، فأجزته بما تجوز لى روايته من منقول و

معقول و ما تنصرف إليه همم أرباب العقول، و عليه العمل بتقوى اللّه و أن لا ينسانى من دعواته الخ».

و عاد الفتى الشاب العالم من القاهرة يحمل معه إجازته العلمية و استقر أخيرا فى قريته.

لا نعلم فى أى تاريخ عاد من مصر إلى تلبانة و لكنه على كل حال عاش فى البلدة ضجرا ملولا كارها لجوها و للحياة فيها، يقول فى مقامته:

فرجعت إلى بلدى فلم أجد بها أحد يحسن قراءة الفاتحة، و صرت فيهم غريب الفضل منفردا كبيت حسان فى ديوان سحنون، و ما زلت معتكفا فى حرم المطالعة من كتاب قديم إلى كتاب جديد، حتى جذبتنى حاجة الحياة إلى مخالطة الجهال الأغمار.

و أخذ يطالع و يدرس و يؤلف و ينظم الشعر، و يتصل برجال إقليم

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۱۹

الدقهلية، و كان صوفيا و خليفة السيد أحمد البدوى كما فى وثيقة مخطوطة عام ۱۲۸۲ ه، و فيها يذكر مشايخه فى الطريقة أولهم عمر الصاوى المالكى الحفناوى.

و صار بعد قليل كبير العلماء فى هذا الإقليم و إمام الإفتاء فيه، و العلم المشار إليه بالبنان، و قصده الناس من كل جهة و حدب، و عاش مبجلا بين الناس فى وسط بلده و أسرته.

تزوج أربع زوجات و خلف ذرية كبيرة صالحة، و كان ينفق فى حياته بسخاء على أسرته الكبيرة الضخمة.

و أخيرا و بعد جهاد طويل و عمر حافل بجلائل الأمور و عظائم الأعمال توفى عام ۱۹۱۲ الموافق سنة ۱۳۳۰ ه عن ثمانين عاما.

مؤلفاته:

اطلعت على فهرس لمكتبة هذا العالم الكبير المغفور له الشيخ نافع خفاجى بخطه فوجدته قد وضع الكتب فى مجموعات كل مجموعة بحسب الفن الذى ألفت فيه، فعلم الفقه و علم الحديث و علم التفسير، و علم التاريخ الخ، و كتب فى كل مجموعة ما له من مؤلفات فى هذا الباب، و قد جمعت ما ذكره من مؤلفاته و وضعت لها أرقاما مسلسلة و هى:

۱- الطب لنافع الخفاجى.

۲- رسالة الكيمياء لنافع.

۳- الألغاز لنافع و هو موضوع فى «مجموعة الحكم و مجموعة العلم و الأمثال و الألغاز و المسائل».

۴- مناسك الحج لنافع.

۵- مسامرات نافع.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۰

۶- شرح كنز الطالبين فى التوحيد لنافع الخفاجى.

۷- العقد الفريد فى علم التوحيد لنافع الخفاجى.

۸- ديوان نافع الجوهرى فى الخطب و المواعظ.

۹- مجموعة خطب نافع مرتبة على حروف المعجم «و هى خطب دينية».

۱۰- تحفة الأذكار لنافع الجوهرى «فى مجموعة الفضائل و الأوراد».

۱۱- فضائل رمضان فى آية القيام لنافع الخفاجى.

۱۲- فضل رمضان و فضل العيد لنافع الخفاجى.

۱۳- أوراد نافع.

۱۴- إعراب لا سیما.

۱۵- الزهر الفائح «فی مجموعة التصوف و المواعظ».

۱۶- عنوان المجاوبة لنافع الخفاجی «کتاب إنشاء».

۱۷- إنشاء نافع خفاجی المجموع من الصحف.

۱۸- إنشاء نافع فی المدائح و غیرها.

۱۹- الهجاء لجامعة نافع الخفاجی.

۲۰- المرائی لجامعة نافع الخفاجی. فی مجموعة.

۲۱- الاعراضات لجامعة نافع الخفاجی، الأدب.

۲۲- الإفادات لجامعة نافع الخفاجی، و الإنشاء.

۲۳- الأرجوزة المفحمة فی المکاتبة و المخاصمة.

۲۴- تمرین القراء و دعاء الختم لنافع الخفاجی فی مجموعة علوم القرآن.

۲۵- السیرة النبویة لنافع الخفاجی.

۲۶- الفلسفة لنافع الخفاجی.

۲۷- الجغرافیا لنافع.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۱

۲۸- کتاب الأمثال و الحکم المنظومة لنافع.

۲۹- الکواکب الدریة فی المسائل الفقهیة لنافع الخفاجی.

و معظم هذه الکتب فقد مع مکتبته الکبیرة التی فقد الکثیر منها بعد وفاته فی حریق نکبت به البلدة. و الباقی منها لا یزال غیر معروف لی إلی هذا الوقت، و توجد بقایا منها فی مکتبة ابنه الأستاذ الکبیر المرحوم الشیخ عبد اللطیف نافع خفاجی و لم أطلع علیها للآن.

أما الکتب الموجودة لدی من مؤلفاته فهی:

۱- رسالة تنویر الأذهان فی علم البیان تألیف نافع الخفاجی بن الجوهری ابن سلیمان التلبانی الشافعی و هی دراسة واسعة للتشبیه و المجاز و الاستعارة و الکنایة، و ستتهیأ فی المستقبل القریب أسباب طبعها إن شاء اللّه.

۲- مطالع الأفکار و تنویر الأبصار فی علم المنطق لمؤلفه نافع الخفاجی التلبانی.

۳- السر المکتوم و الدر المنظوم فی علوم المنطوق و المفهوم و هو کتاب فی شرح جمیع أنواع العلوم من فقه و أصول الدین و توحید و تفسیر و تجوید و قراءات و علم روایة الحدیث و علم درایة الحدیث و أصول الفقه الخ.

و الکتاب لیس کاملا- کله و من محتویاته أرجوزة فی النکاح علی مذهب أبی حنیفة و قد طبعها بعد فی کتاب مستقل و سماها: «نصیحة الإخوان».

و هذا الکتاب فذ فی نوعه فقد کتب فی أسلوب مقامة أدبیة، و کتابة العلوم بأسلوب أدبی یشرحها و یضیء جوانبها و یجعلها قریبة إلی العقل حبیبة إلی النفس مما لم یکن مألوفا قبل هذا الکتاب.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۲

و یقول فی مقدمته: لما رأیت العلوم فی ید الامتهان، و میدانها قد عطل من الرهان، و بواترها قد صدئت فی أغمادها، و شعلها قد خمدت برمادها، عن لی أن أجمع هذه المقامة تحفة لکل أدیب. و جعلتها ذکری حبیب، و هی و إن کانت جزءا صغیرا و شیئا یسیرا،

إلا أنه یری علی ما رواه تحت بردیه، و یروی ظمأ کل وارد علیه، قطف من أزاهیر الفنون کل مشموم بهی، و جمع من ثمار العلوم کل مطعوم شهی، و تحلی بفرائد العلوم الأدبیة، و تجلی بنفائس الفنون الشرعیة و العقلیة، مع التحیل بأجمل حیلة علی جمع فرائد الفوائد الجلیلة فی الأوراق القلیلة، بشیء یحسن فیه جمع المتفرقات و إن کانت غیر متناسبات، و تتألف به العلوم الشاردات و إن کانت متنافرات غیر متوافقات .. و قد افتتحته بالعلوم الشرعیة؛ و ثنیته بالفنون العددیة، و ثلثته بالعلوم العربیة ثم الفنون العقلیة حتی فاقت علی السبعین».

و الجزء الموجود عندی یحتوی علی ثلاثة عشر فنا من الفنون الشرعیة، و سأوالی البحث عن باقی هذا الأثر الثمین، و لعلی أجده بفضل اللّه.

۴- کتاب «جواهر الکلم فی منظوم الأمثال و الحکم» من جمع و تألیف نافع الخفاجی التلبانی»، و هو کتاب ضخم جدا و یقول فیه فی مقدمته:

«قد جمعت فی هذا الکتاب فصولا جامعة لحکم منظومة و نوادر مأثورة معلومة صدرت من کلام من تقدم من العلماء و الخطباء و سلف من البلغاء و الحکماء ممن أشرقت بأسمائهم صفحات الزمان و طلعت من أقمار سماء الإحسان، فأخذت بمجامع الأفکار و عمرت بها مشاهد التذکار، فصارت أنسا للسمار و نزعة للأسماع و الأبصار و قد أثبت منها فی هذا الکتاب مارق وراق و شحنت به الصحائف و الأوراق من حکم مرفوعة و أمثال موضوعة»،

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۳

ثم یتحدث فی هذه المقدمة عن الشعر و مکانته و أثره، و حکمة رسول اللّه و بلاغتها ما روی منها، ثم یسرد بعد هذه المقدمة الطویلة ما روی من رائع الشعر فی الحکمة و المثل عن کثیر من الشعراء مرتبا لها علی حروف المعجم فی عدد ضخم من الصفحات، و ألم فیه ببعض من شعره هو، و الکتاب ذخیرة أدبیة ثمینة و سنشرع فی طبعه بإذن اللّه فی أقرب فرصة ممکنة.

۵- المقامة الخفاجیة (أو التلبانیة) المسماة بمروج الذهب و ریاض الأدب لمؤلفها نافع الخفاجی التلبانی و هو مقامة ساحرة الأسلوب رائعة الدیباجة ذکر فیها المناظرة التی کانت بینه و بین بعض الفقهاء أمام قاضی مرکز السمبلاوین الشرعی، و صدرها بإهداء لهذا القاضی و کان صدیقا حمیما له ثم ترجم لنفسه فیها ترجمة وافیة ثم ذکر المناظرة فی بسط و مزید تطویل و کیف انتصر علی منافسیه جمیعا و تجلت للناس کافة سعة ثقافته و قوة عقلیته و قد ألفت بعد وفاة والده سنة ۱۲۹۴ و لا ندری السنة التی ألفت فیها بالتحدید و یقول فی أولها فیما یقول:

«قد کنت و أدهم الشبیبة طرب العنان، و ورقها أخضر مائس الأفنان، أتجر فی بضاعة الأدب، فوردت سهل بحره الصافی و طالعت منه هامی العروض و القوافی، و کنت مغرما بصید الشوارد، و قید الأوابد، و استنبات الفضائل، و استنساخ أقوال الأمائل. ثم اتفق لی أن أشار إلی و أومأ لدی صدر المدرسین و مفید الطالبین مولانا الشیخ محمد سیف الدین قاضی مرکز السنبلاوین، أن أشنف سمعه الثاقب، بحلیة أدب من الغرائب، و کان کثیرا ما یجاملنی بحسن المجاملة، و یعاملنی بلطف المؤانسة، فالتمس منی کتابا فی الأدب یعذب وردا و منهلا، قاصدا بذلک تنویه ذکری، فأجبته مطیعا، ثم اتفق لی فی هذا الأوان أن سألنی من أمره مطاع لدی أن أملی جمیع ما جری لی بالمحکمة الشرعیة الکبری من المناظرات و ما حصل لدی من المحاورات، فتلقیت أمره بالامتثال، و سلکت فیها طریقا لم تسلک قبلی لوارد، و بسطت فیها نمطا لم ینسجه ناسج، و لا نحا نحوه قاصد، و رسمتها

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۴

مقامة تعرب بحسن معانیها عن لطائف المعانی، و تفصح عن عذوبة السجع بما یفوق رنات المثانی، قد احتوت علی جد القول و هزله، و رقیق اللفظ و جزله و ملح الآداب و نوادره، إلی ما وشحتها به من الآیات و محاسن الکنایات، و رصفته فیها من الأمثال اللغویة و اللطائف الأدبیة و الأهاجی النحویة و الفتاوی اللغویة و الرسائل المبتکرة و الخطب المحبرة، فهی حقیقة أن تکتب بسواد للعیون، و أن

تشترى بنفائس الأرواح لا بنقد العيون» إلى آخر ما يقول. و هذا الوصف لهذه المقامة أقل فى الواقع مما تستحقه من إعجاب و تقدير، و من ميزاتها:

أولا: تحتوى على تاريخ للأسرة حتى عصر مؤلفها.

ثانيا: تحتوى على تاريخ لحياة هذا الرجل العظيم الذى ألفها.

ثالثا: و هى بأسلوبها الأدبى الممتاز مثل فى البلاغة و البيان.

رابعا: ثم هى بهذا الأسلوب الساحر تبسط قواعد العلوم الشرعية و اللغوية و الأدبية و تعرض كل ما عرضت له منها عرضا يقبله الذوق و ترتاح له النفس و تهش له المشاعر و الوجدانات.

خامسا: احتواؤها على كثير من شعر المؤلف الخالد.

۶- المقامة السعفانية لمؤلفها نافع الجوهرى الخفاجى و هى أقل بكثير جدا من حجم المقامة السابقة، و كلها هزل ممتع، و فكاهة بارعة، يقول فى أولها:

«حدثنا عجلان، عن أبى عطوان، عن أبى عيسى الهتان، عن ناظر الوسنان، عن أبى سعفان، عن أبى عيسى جوهرى الزمان، عن راح الروح و الريحان، عن أبى ثعلبة بن ثعلبان، قال مررت يوما على بلدة و ريقة، خضراه نضرة أنيقة، يقال لها تلبانة عدى بن مضر، و إذا بها أربعة من الشبان، قد تحلى بألفاظهم فم الزمان، و تجلى بوجوهم ناظر الإنسان،

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۵

و هم قيام على منابر الافتخار، بين من بها من الأقمار، فقلت لبعض من حضر: ما الخبر؟ فقال: إن بعض أصحاب المكاتب الأهلية، قد حضرت، و إن نواطق الألسنة التلبانية قد نظرت لما نضرت، و اتفقت على عقد مجلس حافل، لاختيار من هو بآذان المسجد الجامع أحق و كافل، و ها هى ذى أكابر المؤذنين قد صعدت المنابر، ليبدى كل إنسان حجته للناظر.

۷- رسالة فى التحليل و طلاق الثلاث و الحرام و غير ذلك تأليف نافع الخفاجى التلبانى و تقع فى أكثر من خمسمائة صفحة.

۸- تهييج الأشواق فى حكم الخلع و الطلاق تأليف نافع بن الجوهرى الخفاجى التلبانى. و هو غير كامل، و الذى لدى منه أكثر من مائة صفحة.

۹- خطبة عبد الفطر لنافع الخفاجى و هى خطبة كبيرة.

۱۰- مواعظ شعرية مجموعة و مرتبة على حروف المعجم جمع نافع الخفاجى.

۱۱- قصة الإسراء و المعراج لنافع الخفاجى.

۱۲- قصة الإسراء المولد النبوى لنافع الخفاجى.

و هذه هى كل الكتب الموجودة عندى من مؤلفاته و يضاف إليها:

۱۳- ديوان شعر نافع خفاجى و موجود لدى جزء كبير منه بعضه مجموع فى كراسة و البعض الآخر فى مسودات كثيرة.

۱۴- كما يضاف إليها فتاواه الكثيرة الهائلة العدد ولدى العائلة كثير من الأوراق القديمة التى كتبت فيها هذه الفتاوى و هى فى حاجة إلى الجمع و لكن ربما لا يتسنى ذلك و ستضيع هذه الفتاوى الثمينة كما ضاع الكثير من كتبه، فيكون مجموع الكتب المفقودة و الموجودة ثلاثة و أربعين كتابا، و فى اعتقادى أن مؤلفاته لا تقل عن السبعين و هى ثروة علمية ضخمة تضع

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۶

صاحبها فى الرعيل الأول من جلة العلماء الخالدين.

و قد وصلنى بعد ذلك مخطوطات أخرى من تأليفه.

جملة مؤلفات الخفاجى المخطوطة الموجودة فى مكتبتى:

۱- رسالة تنویر الأذهان فی علم البیان.

۲- مطالع الأفکار و تنویر الأبصار فی علم المنطق.

۳- السر المکتوم و الدر المنظوم فی علوم المنطوق و المفهوم.

۴- جواهر الکلم فی منظوم الأمثال و الحکم.

۵- المقامة الخفاجیة أو التلبانیة المسماة بمروج الذهب و ریاض الأدب.

۶- المقامة السعفانیة.

۷- رسالة فی التحلیل و طلاق الثلاث و الحرام.

۸- تهییج الأشواق فی حکم الخلع و الطلاق.

۹- خطبة عید الفطر، و خطبة عید النحر.

۱۰- مواعظ شعریة.

۱۱- قصة الإسراء و المعراج.

۱۲- قصة المولد النبوی.

۱۳- أجزاء من دیوان نافع الخفاجی الشعری، و منها: الأجزاء ۱ و ۲ و ۶ و ۹ و ۱۰ و ۱۵.

۱۴- بعض فتاویه.

۱۵- رسالة فی علم المنطق.

۱۶- رسالة الإعجاز فی شیء من المسائل و الألغاز. الجزء الأول و الثانی و الثالث.

۱۷- مجموع المراثی الجزء الأول و الثانی و الثالث.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۷

۱۸- دیوان خطب نافع الخفاجی.

۱۹- مجموع فی المیراث.

۲۰- الدر الثمین بشرح کنز الطالبین.

۲۱- عنوان المکاتبة.

۲۲- جزء صغیر من کتاب فی العروض.

کتب مفقودة لنافع الخفاجی:

فضائل شهر رمضان لنافع

سیرة الأنبیاء لنافع

ألغاز التاریخ لنافع

مسائل التوحید لنافع

السیرة النبویة

قواعد الحدیث لنافع

مناسک الحج لنافع

الزهور الندیة فی الدروس النحویة

الإنشاء لنافع

خواص الحیوان و النبات لنافع

الجزء ۳ و ۴ و ۵ من أشعار نافع

أشعار نافع

الغزل لنافع

جواهر الکلم فی الحکم لنافع

رسالة الطلاق لنافع

مسائل المیراث لنافع

رسالة صوم یوم الشک لنافع

الحکم المبرم فی الفقه و مختصر الحکم

الکواکب الدریة فی المسائل الفقهیة لنافع

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۸

نفحات العطر فی زکاة الفطر

الفواکه الجنیة فی القواعد النحویة لنافع فی النحو

مجموع العلوم لنافع

المسائل اللغویة لنافع

ألغاز القراءات لنافع

التحفة البهیة فی القواعد النحویة

رسالة فی البیان لنافع

العقد الفرید لنافع

الرمل لنافع

لوامع الاشراق فی الأوفاق لنافع

إغاثة الملهوف فی علم الحروف لنافع

کشف الأحوال فی ترتیب الأعمال لنافع

البدر النورانی فی الطب الجسمانی لنافع

الدرة المنتجة فی الأدعیة المجربة لنافع

إغاثة اللهفان فی تسخیر الجان لنافع

کفایة المهمات إلی قضاء الحاجات لنافع

الفیض الربانی فی علم الروحانی لنافع

الکیمیاء لنافع

لوامع الإشراق فی جلب الأرزاق لنافع

رسالة فی المیقات لنافع

فضائل رمضان لنافع

شرح الستین بخط أحمد نافع

السر المکتوم فی علم النجوم

کنز الطالبین و معدن الراغبین فی علمی الفقه و التوحید.

تحفة الأدعیة و الأذکار

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۲۹

التاریخ لنافع

حکم و أمثال بخط نافع

المفاکهات لنافع

الحکایات لنافع

الجغرافیا لنافع

المسامرات لنافع

الإفادات لنافع

الإعراضات لنافع

الفتاوی لنافع

عنوان المکاتبة لنافع

قواعد الحدیث لنافع

رسالة البسملة لنافع

الهجاء لنافع

و أما مکتبة العلامة نافع الخفاجی فقد کانت مکتبة حافلة عامرة بالمخطوطات النفیسة، و کانت تبلغ ۱۰۶۹۸ کتابا و لکن أغلبها فقد فی حریقین متتالیین فی القریة و الباقی بدد و لم یحافظ علیه، و کانت فی حوزة خالی المرحوم العلامة الشیخ عبد اللطیف نافع الخفاجی.

شعره: نجد شعر هذا العالم الکبیر فی ثلاثة مصادر:

الأول: فی ثنایا مؤلفاته الأدبیة و العلمیة.

الثانی: فی أوراق کثیرة مهملة کانت محفوظة فی مکتبته.

الثالث: فی کراسة خاصة جمعها الفقید الخالد من شعره بیده.

و شعره قسمان:

(أ) الشعر العلمی و نری الکثیر منه فی مقامته «السر المکتوم و الدر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۰

المنظوم» فی علوم المنطوق و المفهوم» و من هذا الشعر أرجوزته المطبوعة «نصیحة الإخوان فی أحکام النکاح علی مذهب النعمان».

(ب) الشعر الأدبی الوجدانی و هو کثیر.

صور من شعره

قال: من قصیدة طویلة مذکورة فی صدر المقامة الخفاجیة:

مالی و للأیام ویح صروفهاأبدا تلاحظنی بعین عناد

وا حسرتا نال الزمان مرادهمنی و لم أظفر بنیل مرادی

لا مسعد یرجی و لا متوجعنشکو إلیه حرارة الأکباد

سل مخبرات الشعر عنی هل رأتفی قدح نار الفهم مثل زنادی

لم تبق حلبة منطق إلا و قدسبقت سوابقها إلیک جیادی

للّه در خفاجة أبرزتهامن خدر فکرک فی حلی الإنشاد

حظ من النظم البدیع أفادنیحظ الکرام و خطة الأمجاد

و قال:

خلیلی فی تلبان هل أنتما لیاعلی العهد أم غدا العهد بالیا

و هل ذرفت یوم النوی مقلتاکماعلی کما أمسی و أصبح باکیا

و هل أنا مذکور بخیر لدیکماإذا ما جری ذکر من کان نائیا

و دون الذی رام العواذل صبوةرمت بی فی شعب الغرام المرامیا

و قلب إذا ما البرق أومض موهناقدحت به زندا من الشوق واریا

خلیلی إنی یوم طارقة النویشقیت بمن لو شاء أنعم بالیا

و لا تیأسا أن یجمع اللّه بیناکأحسن ما کنا علیه تصافیا

أعد اللیالی لیلة بعد لیلةو قد عشت دهرا لا أعد اللیالیا

خلیلی لا و اللّه لا أملک الذیقضی اللّه فی لیلی و لا ما قضی لیا

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۱ و ما لهم لا أحسن اللّه حالهممن الحظ فی تصریم لیلی حبالیا

و بعد فشعر نافع الخفاجی کثیر جید رائع و هو فی الصف الأول من شعراء عصره، و إنما لم تسر شاعریته و لا فضله لأنه آثر الحیاة فی هذه القریة النائیة بعیدا عن القاهرة الصاخبة، و لو أقام فی العاصمة لکان العلم المفرد فی عصره فی کل ناحیة من نواحی حیاته العظیمة.

و بعد فهذا هو نافع الخفاجی فی شبابه و طموحه، فی دراسته الطویلة المستقصیة، و فی تآلیفه الجیدة الممتعة، و فی أدبه الساحر و شعره الرائع.

و قد رثاه ابنه العالم الکبیر نافع الخفاجی بمرثیة طویلة جدا قال منها:

لو دام عیش بدنیا لما ذهبتمنها مصابیح جود قد جلت ظلما

أو کان شهم بها یبقی لما حزنتلفقد شهم تناهی جوده وسما

المحسن العارف البحر الذی اغترفتمنه العفاة و عادت لا تخاف ظما

من کان فی ذروة الإحسان ذا شرفو کم حوی من کمال و احتوی کرما

و کان رکنا له یهدی المقال إذاما الأمر من مشکلات الدهر قد عظما

و مجلس الحکم منه فوقه هتفتهواتف البین إذ سر الندی هدما

ما للزمان أراع المجد أجمعهو بدل الدمع من تلک العیون دما

ما للزمان نراعی حسن معهدهو ما رعی قط فی أحسابنا ذمما

استل من غمده بالقهر سیف علاماضی الغرارین مرهوبا إذا انتقما

هو اللبیب الذی طابت مآثره کالروض حیاه نوء المزن منسجما

و ذو عزة لو بأیدی الناس مقودهاما زال فیه کریم النفس و اهتضما

مضی و أبقی لنا الذکر الجمیل علی أیدی الزمان کتابا طاهرا رقما

ولی شریفا عفیف النفس طاهرهامهذب الخلق من عیب الوری سلما

یا ویح تلبانة من بعد ما وخدتبه المنون تقل الفضل و الکرما

لو کنت شاهده و النعش یحملهرأیت رضوی علی أیدی الرجال سما

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۲ من للسیاسة فینا بعد ما خسفتبدور رأی تنیر الظلم و الظلما

من للألی شیدوا من عزمه نعماو استوطنوا من علاه الصدر و القمما

إلی آخر هذه المرثیة الخالدة الطویلة البلیغة .

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۳

نافع الخفاجی حفید العلامة نافع الخفاجی الکبیر

اشارة

هو العالم الشاعر الأدیب نافع بن محمد بن نافع الخفاجی بن سلیمان الخفاجی حفید العالم الکبیر الشیخ نافع الخفاجی الذی مرت ترجمته، و ابن خالی الشیخ محمد بن نافع الخفاجی من أعیان الأسرة و أظهر شخصیاتها، والدته آمنة طربای من أقاربنا أسرة الطرباهیة.

ولد فی یوم الجمعة ۲ شوال سنة ۱۳۲۲، الموافق ۹ دیسمبر سنة ۱۶۰۴.

ثم تعلم الکتابة و حفظ القرآن الکریم و عکف علی قراءة سیر الأبطال کأبی زید الهلال و عنترة و غیرها فنشأ بطبعه شاعرا ناضج ملکات القریض.

و ذهب إلی المعهد الأحمدی بطنا سنة ۱۹۱۹ لیتعلم فیه و أخذ منه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۴

الابتدائیة عام ۱۹۳۲، ثم کان قد أنشیء فی ذلک الحین معهد الزقازیق فالتحق به و استمر فی دراسته إلی أن أصیب بمرض عصبی عضال کان یحول بینه و بین المشی وحده فأخذ یعالج نفسه منه و لکن العلاج لم یجد شیئا، اللهم إلا فی تأخیر زحف المرض علی صحته، ثم أخذ الثانویة من الخارج من معهد الزقازیق عام سنة ۱۹۲۸ الموافق سنة ۱۳۴۶ ه ثم التحق بالقسم العالی بالأزهر و نال منه شهادة العالمیة فی یونیو سنة ۱۹۳۲ الموافق سنة ۱۳۵۱ ه.

و عاد العالم بعد ذلک فأقام بالقریة یطالع فی أسفار الأدب و ینظم القریض و یعالج نفسه من مرضه العضال، ثم تزوج فی سبتمبر سنة ۱۹۳۹ و وافاه أجله المحتوم فی ۱۳ أغسطس سنة ۱۹۴۰- الثلاثاء ۹ رجب سنة ۱۳۵۹ ه، فعلیه رحمة اللّه و رضوانه.

شاعریته:

إذا ترکنا الجانب العلمی لشخصیة المغفور له الخالد نافع الخفاجی، وجدنا أهم مظهر فی شخصیته هو الشاعریة الفذة الناضجة القویة الأسباب الوطیدة الملکات.

نماها فی نفسه أثر الوراثة عن جده نافع الخفاجی الکبیر، و قراءته و هو صغیر لهذه القصص الحماسیة الکبیرة کسیرة أبو زید و عنترة، ثم عکوفه علی کتب الأدب و مصادره الأولی و دواوین فحول الشعراء، نظم الشعر طفلا و کانت کل حیاته مظهرا لهذه الشاعریة

الناضجة. كان مرضه يحول بينه و بين كل شيء إلا الشعر، رسم فيه صورة لحياته التى كان يحياها، و عواطفه التى كانت تجيش بها نفسه، عبراته التى كان يسكبها على آماله المحطمة، و صحته المكدودة. و سنتحدث عن شعره فى تفصيل بعد قليل.

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۵

شخصيته:

كان الفقيد المغفور له قوى الملكات، ناضج العقلية، واسع الثقافة، لا يغلب على رأى، و لا تتلعثم فى لسانه حجة، و كان قوى الحجاج شديد الجدل، كما كان جذاب الشخصية، وديع النفس، بعيد التفكير، معتدا بنفسه و رأيه، يأبى أن تهأن كرامته، و يقف فى سبيل ذلك مواقف العناد و اللجاج.

و كانت حياته كلها آلاما و أحزانا، بكى لمرضه، و بكى لآماله الذاوية، و بكى لجسده المحطم، و يئس من الحياة، و أخذت أشباح الموت ترتسم فى ذهنه و أمام بصره، حتى هدت قوته و حطمت كيان صحته، و خر صريعا بيد الأمل.

شعره:

جمعت معه شعره الضخم كله فى ديوان، ثم عرض عليه ناظر المدرسة تلبانة الإلزامية- و كان اسمه الشيخ عبد الباسط- أن يأخذ ديوانه لطبعه فأعطاه له، و ظل لديه أكثر من ثلاث سنين، ثم مات الفقيد، فأنكره و ادعى أنه فقد من المطبعة التى سلمه إليها.

و على أية حال ففقدان هذا الديوان الثمين لم يحل بينى و بين جمع كثير من أصول قصائده الشعرية، مما نشرته فى كتابى «بنو خفاجة» ..

و من شعره قوله يهنىء ابن عمه محمود عصر خفاجى بالليسانس:

أهلا و سهلا طالع ميمون‌فليهنأ التشريع و القانون

فخر لمدرسة الحقوق و عزة‌و فخارها بنجاحه مقرون

أوتيت سؤلك و العدالة ترتجى‌قسا بشخصك للحقوق يبين

يا عبقريا للطروس يساره‌ترجى و للأقلام منه يمين

فخر لأصل أنت بعض فروعه‌دنياك وافت و اطمأن الدين

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۶ شيدت مجدا فى ذرا الأهرام لم‌يدركه رمسيس و لا أخناتون

لسواهم الأهرام و الذكرى لهم‌لكن جهدك بالخلود قمين

سر فى سبيل المجد فالتاريخ فى‌صفحاته لك موضع مرهون

إن رمت تهنئة فإنى عاجزمن ذا أهنىء لا أكاد أبين

أأهنىء الليسانس أن فازت به‌أم رب حق حقه مكنون

و من شعره كذلك هذه القصيدة:

إلى اللّه شكواى لا للبشرفمنه له المبتدأ و الخبر

هو المرسل الضر و هو الذى‌بقدرته أن يميط الضرر

و ما الناس؟ و الناس كل له‌لهيب شكاة تذيب الحجر

و ما بلغ الناس ما أملوامن الدهر و الدهر جم الغير

يموت الفتى دون آماله‌و كم أمل فى ثنايا الحفر

و ما الأدباء و ما الأغنیاءو کل له أمل ینتظر

و لکن أولئک قد صرحواوعی سواهم لهم قد ستر

و فرقهما أن آمال ذاعظام و آمال ذا تحتقر

فذاک یری الشمس من تحتهو ذا لا یجاوز سطح النهر

و لیس مصابی سوی أننیفقدت السعادة حتی الأثر

مصابی شبابی و عهد الصباو قد کان لی باسما فاکفهر

شباب یضیع کزهر الربیعهوی حین یبسم غض الزهر

کأن المحلق أصاب الهلالو لم یکتمل لیلة اثنی عشر

و قد کان مستقبلی زاهرافجف و لم یؤت بعض الثمر

و ما بی سوی مرض فی الفقارتغلغل فی الجسم حتی انفطر

فأفقدنی کل مستمتعمن السیر فالجسم إن قام جر

مناطق مخی منهوکةمن الداء و النطق قد خور

سألت الطبیب فلم یغننیوعی و قد نال منه الحصر

و قال (انکسیک) موروثةو قد ینقل الداء ممن غبر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۷ فقلت العلاج فقال الدواءإلی الآن عند القضا و القدر

فلو شاء ربک تم الشفاءو عند المشیئة لیس خطر

فیا رب لم یبق لی ملجأسوی لطف رحمتک المدخر

سئمت المحاقن و الکهرباءو مر الدواء و وخز الأبر

و عفت التجارب و الفحص فیدمی و نخاعی وقاع النظر

و ها وقف الداء عن سیرهففی کل یوم عن الأمس ظهر

و من شعره قصیدته فی شکوی الزمان، و ها هی ذی:

أواه من عثرات الحظ أواهو الحظ ما شاءه قد شاءه اللّه

لا الحزن یجدی و لا حظی یساعفنیو لا الزمان رفیق فی سجایاه

أرزاء شتی إذا ما خلت أصغرهامضی أری ضعفه یحتل مأواه

تتری دراکا کطیر طاب موردهافزاد وارده شوقا لمرعاه

یلج صرف اللیالی فی معاکستیکأنما أنا وحدی کل أعداه

خطوب دهری لا تتفک تذکرنیبعطفها ذکر مجنون لیلاه

فالحزن و السهل فی سیری سواسیةو اللیل و البوم فی الظلماء أشباه

کلما قلت لما استحکمت فرجتأری قشیب شقاء کنت أنساه

إن غاب عنی شقاء جاء مصطحباإخوانه لیقیموا فی رعایاه

ما حیلتی و هی الدنیا و سلطتهاأی امری نال منها ما تمناه

نصیب کل امریء فی عکس همتهو رفع کفة وزن خفض أخراه

و رب ذی عزمة تنبو مضاربهو طائش السهم أصمی الحظ مرماه

و نابه النفس سوء الحظ أخمدهو خامل القدر حسن الحظ رقاه

و کم حریص له من علمه صفهٔو کم کسول له من جهله جاه

هی المقادیر لا سعی و لا کسلو کل ذی قدر لا بد یلقاه

انظر إلی قطع الشطرنج إذ نحتتماذا أتی الشاه حتی إنه شاه

کم بیدق مات لم یذنب و صاحبهسما مسوقا و لم یعمل لمرقاه

کذلک الکون لم تعلم عواقبهو لیس یعلم ساع غب مسعاه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۸ الدهر علمنی الشکوی فقمت بهاطوعا و کرها و خیر العلم أفشاه

أشکو الزمان و فی الشکوی رفاهیهٔو ما علاج شقی غیر شکواه

تنفس الصعد تفریج ذی حرجو الضیق یفتح من ذی ضیقهٔ فاه

القدر منفجر لو لا تبخرهو القلب منفطر لو لا شکاواه

فالقلب من حطب و البؤس من لهبو فی الشکاهٔ لنار الهم أمواه

الهم یثقل و الشکوی تخففهفقد تری سامعا یؤتیک جدواه

إن لم أجد صاحبا فالیل یؤنسنیٰنجومه و دیاجیه و إصغاه

و رب سامع شکوی شامت فرحو ذی ملال یرینی غیر نجواه

و لا أری مخلصا فی الضیق یسعدنیو لا غنی لی عمن لست أهواه

طبائع الناس شر لا یفارقهمو الخیر کسب لبان الفکر غذاه

لو نالنی الشر منهم کنت عاذرهمو إن أتی الخیر قلت للطرف هیاه

إن یجهلوا خاصموا أو یعلموا نقدواو یبطنون بلؤم ضد ما فاهوا

فالکل للکل أعداء و عنصرهمبه أنانیهٔ فی بدء مبناه

مهما أحبوا فحب الذات رائدهمو عبرهٔ الحب برهان بمغزاه

و هکذا الناس عباد لأنفسهم کل یری الغیر عبدا و هو مولاه

لو لا حوائجهم ما ألهوا أحداأدنی الأنام من الإلحاد أغناه

هم و الوحوش سواء لا یمیزهمإلا عقول و تقدیم و أفواه

مع التمدین و القانون أنفسهمشتی و کل له فی العیش أهواه

کل له غرض تحفیه طینتهو لو دری خلد ما فیه جافاه

الخیر یخدع فی معسول منطقهو الشر یکمن فی داجی حنایاه

لو شف صدر جمیل عن دخائلهلشوهت نفسه ما فی محیاه

لو أخطأ الشر إنسانا و لم یرهفسله و حیا فما جبریل إلا هو

و ما أبریء نفسی إننی بشرالنفس تأمره و الروح تنهاه

صدری لضدین من جیشین معترضما یرض هذا فهذا لیس یرضاه

لکن نفسی صفت من طول ما رزقتحتی رأت کل ما یسطاع مرآه

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۳۹ و ما رأیت کمثل الصبر عاقبهٔفالمر أوله و الحلو عقباه

لسوف أصبر حتی لا أعی أملاو لیق لی أملی و لیرحم اللّه

کلمة أخیرة:

و بعد فهذا بعض من نتاج شاعریة هذا العالم الفذ و الشاعر المبدع، و إنتاجه الشعری کله سحر و روعة و إبداع، و فیه عاطفة و قوة إلهام و حسن تصویر و عمق فکرة، و هو بین الأدب العربی أدب خالد سائر، و سیجیء الیوم الذی ینشر فیه دیوان الشاعر کاملا لیضعه شعره فی مکانته الخلیق بها بین شعراء العربیة الخالدین.

لقد نقلت من شعره بعضا مما یصور لنا جوانب حیاته و نواحی شخصیته، و مما یرسم لنا صورة واضحة عن شاعریته و فنه الأدبی.

و أکتفی بهذا علی أن أعود فی المستقبل القریب للکتابة عن هذا الشاعر الفذ فی کتاب مستقل بعد أن ننشر علی جمهور العربیة ما بقی لدینا من شعره و محاسن قریضه.

و لقد کان الفقید زمیل الشاعر البلیغ الأستاذ محمد الأسمر فی الدراسة، و اطلعت علی عدة خطابات أرسلها الأستاذ الأسمر له توضح ما کان بینهما من صداقة و زمالة .

فرحمه اللّه و خلد ذکره، و لقاه فی الآخرة من الثواب و حسن الجزاء ما هو أهل له، و فی الدنیا من الذکر و الخلود ما هو به جدیر.

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۴۰

و هذه هی نص کلمة الرثاء التی ألقیتها علی قبره یوم وفاته.

عقد الخطب اللسان، وعیّ لهول المصاب البیان، و ارتاع لهذا الرزء الفادح الجنان، و أی رزء هو!!

لقد انطفأ المصباح الهادی، و خبا النبراس المنیر، و ذهب بالرجل أجله، و لقد کان یسیر به أمله، إلی ضیق القبر، و فسحة الأجر و النعیم.

ذهبنا به فی ربیع الحیاة إلی أرض حافلة بالعبر و العبرات، آهلة بالعظات و الذکریات، فأودعناه فی حمی آمن، یستبشر به المتقون، و ییأس فیه من رحمة اللّه القانطون، ثم عدنا بالدموع و الذکری، فاجتمعنا فی هذا الجمع نحیی ذکری الفقید، و بأی شیء نحیی ذکراه؟

لقد کان شاعرا و أدیبا و شاعرا، فحری بنا أن نستمد من ذکراه العظة البالغة، و خلیق بنا أن نذکره لعلمه و أدبه إن لم نذکره لحسبه و نسبه.

لقد عاش الفقید مجاهدا فشقی بعذاب الجهاد فی حیاته، جاهد أول شبابه فی سبیل آماله الواسعة، و أمانیه الکبیرة، ثم جاهد بعد ذلک آلام الحیاة التی لاحقته و حالفته و سارت به إلی أجله المحتوم، فما أروعه جهادا و ما أعظمه مجاهدا، و ما أسعده بأجر الجهاد.

لقد کان الفقید یستمد علمه و أدبه من عقلیة واسعة، و ذهن ثاقب، أکثر مما کان یستمده من اطلاع واسع، و دراسة مضینة، و کان ینظم الشعر بملکة صناع، و روح مبدعة، و یعرضه فی أسلوب جمیل و دیباجة مشرقة، ظلت تلازم أدبه. حتی وهنت صحته، و وهی أمله، فدبت إلیها روح الضعف، کما دبت فی نفسه روح الیأس و القنوط، و علی حین غفلة سکت الشاعر البلیغ، و ذهب العالم العبقری إلی عالم الأبدیة، و دنیا الخلود.

فسلام علیه یوم ولد و یوم یموت و یوم یبعث حیا.

و هذه قصیدة من غر قصائده نثبتها هنا، قال:

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۴۱ ذهبت و من رام المعالی یذهبو أبت و لم أظفر بما أتطلب

سعیت إلی العلیاء غایة طاقتیو رحت إلی أفلاکها أتوثب

سبحت علی بحر المجرة ماخراعبابا من الآمال أطفو و أرسب

رصدت السهی حینا فأبصرت طالعیجمیلا و لکن فیه سر محجب

فیا طالعی باللّه هل من هناءةتألق لی أم أن برقک خلب

و هل مطمئن أنت أم أنت خائف‌تفر من النحس البغیض و تهرب

و هل لی إلی النعمی سبیل موصل‌و هل لی من البؤسی مناص و مهرب

أتسعدنی الآمال بعد مطالهاو یدنو من الآمال ما أترقب

إزاء شقائی مطعم الصاب کالجنی‌و نور نهاری من مشاکیه غیهب

و لو لم أصادف سوء حظی و شؤمه‌لعشت سعیدا لم یضق بی مذهب

یسمونه حظا وجدا و طالعاو أما المسمی فالقضاء المغیب

مقادیر شتی و المقدر واحدمشیئته کالسیف بل هی أثقب

له المثل الأعلی و فی کل ذرةمن الکون سر بالتأله یعرب

هنالک شیء کل فکر یمسه‌و یلمسه الوحشی و المتهذب

هو اللّه سماه الطبیعی قوةو طبعا و فی علم الأثیر تربب

و من شأنه فینا الظهور بفیضه‌و آثاره و الشأن فینا التعجب

أ أجهل روحی ثم أعلم ربهاضلال غریب و التشبث أغرب

سننظر وجه اللّه فی الخلد ظاهراکما هو یجلوه الجلال فنطرب

نراه بإحساس بدیع مخصص‌یطیب خیالا و التحقق أطیب

هنالک یبدو کل حسن مذمماو کل ارتیاح غیر ذلک متعب

عن المثل و الأضداد جل جلاله‌و راجی سوی التوفیق منه مخیب

و ما الکون إلا ذرة فوق ذرةسماء و أفلاک و أرض و کوکب

فکل بکل فی نظام مدبرجماد وحی کل شیء مرتب

بدائع إحکام و إتقان صانع‌فسبحانک اللهم أنت المحجب

تمنیت موتا لیس فیه جهنم‌و إلا فعیشا لست فیه أعذب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۴۲ و کیف حیاة المرء ناء بعبثه‌و جمر الأسی فی صدره یتلهب

و کیف حیاة المرء عی طبیبه‌و أعضله الداء العقام العصوصب

برمت بآمالی و عفت تجلدی‌و مل جلیسی ما أقول و أکتب

و لو نلت من عین العنایة نظرةفما مر بی عذب و ما بعد أعذب

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۴۳

الأزهر فی صور

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۰

الدکتور محمد السعدی فرهود رئیس جامعة الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۱

المؤلف

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۲

المؤلف فی مناقشة رسالة دکتوراه فی رحاب جامعة الأزهر الشریف للطالب السعودی الدکتور عثمان صالح الصوینع (المؤلف علی

یمین الصورة)

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۳

مناقشة رسالة دکتوراه فی کلیة اللغة العربیة- جامعة الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۴

الدکتور علی علی صبح، عمید کلیة اللغة العربیة بالقاهرة، جامعة الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۵

مناقشة رسالة دکتوراه فی کلیة اللغة العربیة- جامعة الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۶

مناقشة رسالة ماجستیر فی کلیة اللغة العربیة- جامعة الأزهر

مناقشة رسالة ماجستیر فی کلیة اللغة العربیة- جامعة الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۷

رسم تاریخی للباب الغربی للأزهر الشریف کما أنشأه عبد الرحمن کتخدا (۱۱۶۷ ه)

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۵۹

حلقات الدرس بالأزهر الشریف

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۰

القاهرة الفاطمیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۲

طالبات یستذکرن دروسهن

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۳

فی مطعم المدینة الجامعیة

الأزهر فی ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۵

الفهرس

الباب السابع: حول الأزهر و رسالته ۵

الباب الثامن: آراء للأزهر فی مشکلاتنا الفکریة ۷۳

الباب التاسع: ألوان ثقافیة فی حیاة الأزهر العلمیة ۱۰۷

الباب العاشر: شخصیات أزهریة معاصرة ۱۶۱

الباب الحادی عشر: من تاریخ الأزهر

الأزهر جامعا و جامعة ۲۰۵

الجامع الأزهر ۲۱۵

بین الأزهر و جامعة القرویین ۲۳۱

بین الزیتونة و الأزهر ۲۴۱

الباب الثانی عشر: شخصیات و مواقف

إبن السبكى ۲۷۱

الشيخ محمد الحنفى شيخ الأزهر ۲۷۷

أزهريون خالدون ۲۸۵

الأزهرى الشيخ سليمان الجوسقى ۲۹۱

رفاعة رافع الطهطاوى ۲۹۹

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۶

صورة عن الإمام الشيخ محمد عبده ۳۰۵

الشيخ مصطفى عبد الرازق ۳۱۷

أزهرى يرد على إسماعيل باشا ۳۲۱

مفتى قبرص ۳۲۵

مسيرة الألف عام ۳۲۷

حوار بين العلماء و الوالى ۳۳۱

الأزهر .. أكسفورد الشرق ۳۳۵

الأزهر .. و أثره فى الحياة الإسلامية ۳۴۵

قرارات المؤتمر البحوث الإسلامية ۳۵۱

قصة الأزهرى الجامعى بعد عشرين عاما ۳۵۵

الأزهر .. حصن العربية ۳۵۹

الأزهر .. من بعيد و من قريب ۳۷۷

الأزهر الخالد ۳۸۱

الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى ۴۰۱

نشاط ازهرى ۴۰۹

المرأة فى الأزهر ۴۰۹

عميد الأدب العربى فى الأزهر ۴۱۱

محمد عبد المنعم خفاجى أديبا ۴۱۷

لو أن للدين رجالا ۴۳۷

الشيخ محمد شلتوت ۴۴۳

أعلام معاصرون الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد

رائد مدرسة التحقيق العلمى ۴۴۵

الشيخ عبد السميع شبانة ۴۵۱

الشيخ محمد الطنطاوى ۴۵۳

الشيخ عبد الجليل عيسى ۴۵۷

الشيخ سعاد جلال ۴۶۱

الأزهر فى ألف عام، ج۳، ص: ۵۶۷

الدكتور أحمد الشرباصى ۴۶۳
الدكتور الخفاجى- محمد عبد المنعم خفاجى عالما ۴۷۷
الأزهر .. أبو الجامعات فى الشرق و الغرب
قلعة حضارية فى تاريخ مصر الإسلامية ۴۹۱
ترجمة القرآن الكريم ۵۰۱
الشيخ المراغى ۵۰۳
شيخ جامعة الأزهر الحالى
الدكتور محمد السعودى عوض فرهود ۵۰۹
الإمام نافع الخفاجى الكبير ۵۱۳
نافع الخفاجى، حفيد العلامة نافع الخفاجى الكبير ۵۳۳
الأزهر فى صور ۵۴۳

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...
– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.
– من الأنشطة الواسعة للمركز:
الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنـّها لا تـُوافِی الحجمَ المتزايد و المتـّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثـّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التـّمكـّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹